المجلس الأعلى للثقافة

حافظ إبراهيم

الأعمال النثرية

تقديم : أحمد درويش

طبعة خاصة بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة
بالذكرى الخامسة والسبعين لرحيل حافظ وشوقى (١٩٣٢ : ٢٠٠٧)

٢٠٠٧

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

حافظ إبراهيم ، محمد حافظ بن إبراهيم ١٨٧١-١٩٣٢ ،
حافظ إبراهيم : الأعمال النثرية
- القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧
٥٠٤ ص ، ٢٤ سم
طبعة خاصة بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة بالذكرى الخامسة والسبعين لرحيل حافظ وشوقى ١٩٣٢-٢٠٠٧
١ - النثر العربى - مصر
(أ) العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٣٩٥٩
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-437-529-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084 E.Mail: asfour@onebox.com

المحتويات

- مدخل لقراءة نثر حافظ ، أحمد درويش 5

* ليالى سطيح 17

* البؤساء 257

* سؤال وجواب 447

مدخل لقراءة نثر حافظ

أحمد درويش

يمكن القول بصفة عامة ، إن نثر حافظ إبراهيم ، على قلّته النسبية ، لقى من عناية مؤرخى الأدب والنقاد والمشتغلين بالحياة الأدبية ، أضعاف ما لقيه نثر أحمد شوقى على كثرته النسبية ، أيضاً - حيث خلف شوقى سبعة أعمال نثرية روائية أو مسرحية أو تأملية . على حين لم يزد موروث حافظ عن عمل قصصى هو ليالى سطيح ، وعمل معرّب هو البؤساء ، إذا استثنينا كتاب موجز الاقتصاد الذى ظهر على غلاف ترجمته إلى العربية اسم حافظ إبراهيم إلى جانب اسم خليل مطران ، الذى ينسب إليه فى الحقيقة جهد العمل جله . إن لم يكن كله ، وعمل تربوى آخر ترجمه عن الفرنسية أيضاً .

ويكفى للتدليل على مدى العناية بنثر حافظ أن نجد بين المهتمين به أسماء مثل المنفلوطى ومحمود تيمور والمازنى ومحمد مندور وعبد الرحمن صدقى وعمر الدسوقى ، وعبد المحسن طه بدر ، وأحمد هيكل ، وشكرى عياد وغيرهم من كبار الأدباء والنقاد فى القرن العشرين .

ويبدو أن درجة التعاطف مع معرّب "البؤساء" قد وازنت بين كفتى الإهمال والعرفان لإبداع حافظ شاعراً وناثراً فى حياته أو بعد رحيله ، وقد لاحظ العقاد وهو يحتفى بذكرى حافظ ، مع من احتفوا به فى الذكرى الخامسة والعشرين لرحيله سنة ١٩٥٧ ، هذه الملاحظة الدقيقة عندما قال : "شاعر المحافل (حافظ) قد ظلمته المحافل حقبة من الدهر فى حياته ، وبعد مماته ، وحق له زمنا أن يشكو البؤس فى ثراه . كما شكاه غاديا رائحا فى دنياه ، ولكن قسمته بعد الموت ، لم تلبث أن طابقت قسمته فى إبان الحياة ، لقد كان مجده فى حياته أقوى من بؤسه ، وكانت قدرته على انتزاع الإنصاف فى زمنه أكبر من قدرة الزمن على اختلاسه ، وكذلك كانت ذكراه بعد حين" .

ويتفق الدارسون على أن التراث النثرى لحافظ ينحصر فى "ليالى سطيح" وتعريب رواية "البؤساء" أو أجزاء منها ملخصة ، ويتفقون أيضًا على تنحية عمل ثالث معرّب ، هو "الموجز فى علم الاقتصاد" لأستاذ الاقتصاد الفرنسى بول لروا بوايو . الذى طلبت نظارة المعارف العمومية آنذاك ، ترجمته من الشاعر خليل مطران - وكان أحد أقطاب الثقافة الفرنسية فى عصره فعرّبه فى خمسة أجزاء كبيرة ، تبلغ نحو ألف صفحة ، وأشرك معه حافظ إبراهيم الذى كان عمق معرفته باللغة الفرنسية موضع تساؤل ، وبخاصة إذا اتصل الأمر بكتاب ضخم متخصص فى الاقتصاد ؛ ومن ناحية ثانية فقد كان لخليل مطران أسلوبه النثرى الجميل المتمرس بالعمل الصحفى ، من خلال رئاسته لتحرير صحف ومجلات مثل: "الأهرام" و "الجوائب" و "المجلة المصرية" وكتاباته النثرية مشهورة فى عصره ، ومن الصعب فى مثل هذه الحالة أن نتصور دورًا أسلوبيًا بارزًا لحافظ فى صياغة الترجمة . ويبقى دوره كامنا فى التعاون والحوار ، وهذا ما دفع بكل من تعرض لنثر حافظ إلى عدم الوقوف عند "الموجز فى علم الاقتصاد" .

* * *

تظل "ليالى سطيح" عملاً ينتمى إلى فترة المخاض القصصى فى الأدب العربى الحديث ، وتظل رغم كل شيء ، عملاً قصصيًا ذا ملامح مميزة تتماس مع أعمال سابقة عليه ، ويمهد لأعمال لاحقة له ، ويحاول أن يضرب بجذوره فى زيه الفنى القصص العربى مع محاولة مواءمتها مع روح العصر ، وأن يشف كذلك عن أحاسيس الكاتب ونبض العصر ، مما يجعل العمل أحيانًا يشارف السيرة الذاتية أو شرائح منها .

ظهرت ليالى سطيح عام ١٩٠٦ ، بعد أعوام قليلة من نشر المويلحى لحديث عيسى بن هشام فصولاً متفرقة فى جريدة مصباح الشرق (١٨٩٨ - ١٩٠٠) وقبل عام من نشرها فى كتاب سنة ١٩٠٧ ، ولا شك فى تأثر حافظ بصفة عامة بفكرة المويلحى ، التى حاول خلالها أن يكتب مقامة قصصية حديثة ، يستحضر خلالها شخصية الراوى

الشهير عيسى بن هشام راوى مقامات بديع الزمان الهمذانى التى يختبئ خلفها المؤلف نفسه، ويستنهض بطلاً للحكاية يخرج له من حى المقابر فى القاهرة فى أثناء تجواله فيها ، ويكتشف أنه أحد باشوات عصر محمد على وقد خرج من مقبرته بعد عقود من رحيله ليتحول معه الراوى فى المدينة ، على طريقة أهل الكهف الذين بعثوا من مرقدهم فلاحظوا تغير الحياة عما كانوا يألفون ، والباشا فى تجواله يلتقى بالمشكلات ، ويثير التساؤلات، ويستغرق فى التأملات، قبل أن يحمله الراوى فى رحلة مقبرة إلى باريس ، تذكر برحلات رفاعة الطهطاوى فى تخليص الإبريز وعلى مبارك فى علم الدين فى فترة سابقة من نفس القرن .

وحافظ ينطلق من نفس الفكرة ولكنه يوغل فى الزمن ، فيعمل بطله سطيح بن ربيعة كاهن بنى نؤيب فى الجاهلية والذى عاش على مشارف الإسلام ، واشتهر بالنبوءة وصحة الرأى ، ويجعل منطلقه المكانى من المنطقة الواقعة بين شاطئ النيل وسفوح الأهرامات ، حين يحلو للراوى (أحد أبناء وادى النيل) أن يلتقى ببطله فيسمع منه ولا يراه فى هدوء الليل . واختيار الليل إطاراً زمنيًا للحكاية ، يجعل "ليالى سطيح" تقترب فى هذه النقطة خطوة أكثر فى استلهام روح التراث الحكائى العربى ، بالقياس إلى الأعمال التى سبقتها فى فترة مخاض القصص العربى الحديث ، ومن بين هذه الأعمال "حديث عيسى بن هشام" الذى انقسمت الحكاية فيه إلى "فصول" وكتاب "علم الدين" لعلى مبارك الذى انقسمت أجزاؤه إلى "مسامرات" بلغت مائة وخمساً وعشرين مسامرة ، أما "ليالى سطيح" فقد أعادت إحياء الإطار الزمانى للحكاية الذى يرتبط بالليلة ويتخذها إطاراً لحكاية كاملة أو لشريحة منها فى سبع ليال . كما هو الشأن فى "ألف ليلة وليلة" التى تمثل أشهر نماذج هذا اللون الحكائى ، ويتابعها فيه أعمال قصصية أخرى فى التراث ، من أشهرها كتاب "الإمتاع والمؤانسة" لأبى حيان التوحيدى ، الذى توزع مادته على "أربعين" ليلة ، كما توزعت مقامات الهمذانى فى عصره على أربعمائة مقامة ، وأحاديث ابن دريد على أربعين حديثًا ، دون أن تعنى الأرقام فى كل الحالات دقة الدلالة الحرفية ، وإنما تعكس كثرة العدد المشار إليه . والليلة فى "ليالى سطيح" تشكل جريمة حكائية متكاملة ولا تقف عند نقطة مشوقة ينتظر

المتلقى استكمالها فى الليلة التالية كما كان الشأن فى ألف ليلة ، ومن هنا فإن الليالى المتوالية كانت بحاجة إلى عناصر ربط قصصية ، وقد حرص حافظ إبراهيم على أن يرسم شبكة من العناصر الخارجية التى تتكرر كل ليلة لكى تخلع على الليالى شكلا متماسكا ، وتمثل هذه العناصر فيما يلى :

١ - ثبات نقطة الانطلاق الزمانية والمكانية للتأهب للقاء سطيح - فهو دائمًا ينطلق ليلاً بالقرب من النيل بينه وبين الأهرام ويكون وحيداً .

٢ - اللقاء قبل بداية الموعد فيما يبدو أنه مصادفة مقصودة - برجل - لديه مشكلة محيرة ، يستمع إليها الراوى ، ويصطحبه معه إلى سطيح لسماع الرأى فيها .

٣ - تجلى سطيح على الراوى وصاحبه ، دون أن يرياه ، وسماعه للمشكلة وتعليقه عليها بعبارات مسجوعة غالبًا .

٤ - انصراف الراوى على موعد بلقاء الغد ، والتقاطه فى أثناء عودته أحاديث عابرة ، بين اثنين أو أكثر ، تثار من خلالها مشكلة اجتماعية معاصرة ، يحرص الراوى على تدوينها .

٥ - حرصه عند عودته إلى بيته على قراءة جزء من لزوميات أبى العلاء المعرى وإشارته إلى ذلك ، فى تعليقه على أحداث اليوم التالى .

ويستمر ظهور هذه العناصر باطراد على امتداد نصف الكتاب الأول ولكن بدءًا من نصف الكتاب الثانى يختل فجأة هذا النظام حين يعود الراوى إلى بيته فى نهاية لقائه مع سطيح - فلا يسترق السمع فى أثناء العودة لحديث جانبى كما كان يحدث من قبل ، ولا يقرأ فى أثناء ساعات الأرق فى لزوميات أبى العلاء وعندما يذهب إلى موعده فى الغد لا يقع بصره على حىّ يستصحبه ، وعندما يبلغ مكان اللقاء، ظهر له كما يقول : "إنسان لم أدر أخرج من الأرض أم هبط من السماء ، فتبينته فإذا هو غلام مراهق يتمنى الناظر بمشهده ، كأنه صورة من نفس من ينظر إليه ... فما هو أن رآنى حتى

أقبل عليّ بوجهه وخاطبنى .. وقال بعد أن حيانى : إن ولى الله يأذن لك أن تنطلق إلى هذه الحاضرة ، وأنا ولده فكن منى بمنزلة العبد الصالح من ابن عمران . فقد أذن لى أن أبرح الليلة الغار - ومد لى فى أجل الرجوع حتى يلوح النهار" .

ومنذ هذه اللحظة سوف يختفى سطيح ، ويحل محله ابنه الذى يرافق الراوى فى جولة فى الشوارع والأسواق والمراقص ، دون أن يعود الراوى إلى نسقه الحكائى القديم ، مما يخلع على البنية الخارجية لليالى لونا من التسيب وضعف التماسك الذى كانت قد اكتسبته فى نصف الحكاية الأول .

من خلال هذه اللقاءات الليلية ، يشف الراوى "أحد أبناء النيل" بسهولة عن أنه هو حافظ إبراهيم من خلال سيرته الذاتية وألوان البؤس الذى طارده ، وتجربته المريرة فى السودان ، ومن خلال الاستشهاد يستعرض حافظ كثيراً ، أو صياغة مقطوعات نثرية خلال الحوار أو الوصف ، لا تخفى قرابتها من كثير من النصوص الشعرية المنشورة فى ديوانه . ونحن إذن لسنا مع نمط من الأحداث التخيلية ، ولكننا مع قناع شفاف يسمح لحافظ نفسه أن يكون أكثر جرأة فى التعبير عن مواقف وآراء يصعب عليه صياغتها فى شعره الذى يحمل توقيعه الصريح ، فى حين أن نثره ينسب إلى "أحد أبناء النيل" .

وفى هذا الإطار يمكن أن نفهم الحوار الذى دار بين الراوى وصاحبه والبطل حول مكانة أحمد شوقى وما إذا كان يستحق المنزلة التى احتلها من خلال جودة شعره ، أو من خلال عوامل أخرى مساندة له .

ومن الطريف أن نجد حافظ - رغم الإحساس بقدر غير قليل من الغيرة تجاه شوقى - يقترح فى أثناء الحوار منحه لقب "شاعر النيل" حين يقول على لسان سليم : "أغرقت أنت فى القدح وبالغ صاحبك فى المدح فخرجت بشاعر النيل عن أفق الحسنات ، وكاد يسمو به صاحبك إلى سماء المعجزات ، ولو أنصفنا لأنزلتماه فى برجه ، وأركبتماه فوق سرجه" . ومن المعروف أن لقب "شاعر النيل" آل فى نهاية المطاف إلى

حافظ نفسه ، وهو فى موضع آخر يطلق عليه على لسان سطيح لقب "شاعر الشرق" حين يقول :

" فلو أنك جئت بأطبع خلق الله على الشعر ... وكلفته أن لا ينظم ما عاش فى غير المدح ... لما جاء بأبدع مما يجىء به اليوم شاعر الشرق فاعلم بأنه حقيق بالرئاسة عليكم" .

ومن خلال هذه الأقنعة الشفافة تنغمس "ليالى سطيح" فى مشاكل العصر وشخصياته وتقنع بالحد الأدنى من التخيل القصصى ، فإذا بنا فى الواقع أمام مقالات مقامية ، حول أحوال مصر ومشاكلها الثقافية والاجتماعية والسياسية فى مطلع القرن العشرين ، مثل الحديث عن إهمال أهل مصر للنيل وعدم العناية به بعد أن كان معبودهم القديم: "سبحانك اللهم ، هذه زمزم على ملوحتها قد عزت بجوار بيتك القديم، فتهادى بملئها القصاد وحملوها إلى أقصى البلاد ، وحرص أهلها على عينها حرص المرء على عينه ، وهذا النيل على عذوبته قد ذل بجوار قوم أهانوه ، ولو كان عند غيرهم لعبدوه" ولعل حافظًا من خلال الحديث عن النيل الذى استهل به لياليه ، ومن خلال استعارته لشاطئ النيل منطلقًا مكانيًا لحكاياته ، وحرصه على أن يستعير للراوى لقب "ابن وادى النيل" لعله من خلال هذا كله كان يستحق أن يحمل لقب "ناثر النيل" قبل أن تمنحه الأمة لقب "شاعر النيل" الذى اقترح هو نفسه كما أسلفنا أن يمنح لأحمد شوقى ومن المعروف أن حافظًا ولد فى عوامة على النيل وعاش فيها سنوات طفولته مع أبيه مهندس الرى ، وعندما أتيح له أن يرحل عن مصر قليلاً ، كانت رحلته صعوداً فى النيل إلى السودان جنوبًا ثم كانت إشارات حافظ القريبة من الإفصاح عن كبار مفكرى عصره مثل قاسم أمين ودعوته إلى تحرير المرأة التى كان يناصرها حافظ شعراً ونثراً ، وإشارته المتكررة إلى الإمام محمد عبده ودعوته التى أحيت النفوس وربطها بجذورها عند الأفغانى ، وبنتائجها فى إحياء "علم الأدب" . ولا يمكن إغفال تأثير محمد عبده البالغ فى حياته وأدبه عامة ، وفى نثره خاصة ، حيث تتكرر الإشارات مرات عديدة إليه فى "الليالى" ويتم إهداء "البؤساء" إليه وتظل أياديه وراء

تشجيع حافظ على ترجمتها ، وربما على مساعدته فى فهم مغاليق النص الفرنسى أمامه انطلاقًا من طول الألفة عند الإمام وقلة الخبرة عند المترجم .

وإلى جانب ذلك تظهر مشكلة جاليات الشوام في مصر . ومهارتهم فى الثقافة وفنونها - ومزاحمتهم للمصريين فى شئون التجارة والوظائف الحكومية ، ومشكلة انتشار الصحافة التجارية غير المحترفة وتسلل نقد المجاملة وصناعة الشهرة لمن لا يستحقون على صفحاتها . وهناك ملاحظات ثقافية ذات دلالات جريئة كتلك الخاصة بضرر ازدواجية اللغة فى الحياة والثقافة عندنا فى مقابل توحدها فى الغرب ، وأثر ذلك على المستوى الثقافى، فيقول : انظر نظرة فى تاريخ دول المغرب وأمعن قليلاً فى البحث عن أسرار مجدها ، تجد سر ارتقائها فى تضافر كتابها على بث روح التأثير فى نفوس العامة بما يزخرفون معهم من الأحاديث وقد ساعدهم على ذلك أن الناس هناك يكتبون باللسان الذى به يتكلمون فتتسرب إلى نفوسهم معانى الشاعر وتمتزج بأرواحهم روح الكاتب ، وإن كانوا لا يشعرون ، وأصل البلاء (عند أدبائنا) الذى استعصى معه الداء ، أن لهم لسانين قد تناكرا حتى تنافرا ، اختصوا أولهما بالكلام وجعلوا الثانى من نصيب الأقلام ، فمنع اعوجاج هذا من استقامة ذاك ، ووقع حاملهما فى سوء الخلط والارتباك" .

ومع أن لغة حافظ التطبيقية شعراً ونثرًا ، لم تكن تسير فى سبيل تضييق هذه الفجوة ، فإن مجرد طرح الدعوة فى هذه الفترة المبكرة كان يدل على وجود نزعة عارمة فى التجديد عند حافظ ، حتى وإن كانت بعض وسائل تحقيقها غائمة فى عينيه .

وتحتل تجربة حافظ الذاتية مكانًا هامًا فى الليالى ، وبخاصة تجربته فى السودان حين كان يعمل ضابطًا مصريًا تحت قيادة إنجليزية ، ويلمس عن قرب روح الازدراء ووسائل التفرقة التى يبذلها الإنجليز بين المصريين والسودانيين ولقد امتد رصده لهذه التجربة بعد نهايتها الأليمة بمحاكمته وطرده من الجيش وعودته إلى مصر ورصده لفظائع الإنجليز ، وبخاصة حادثة دنشواى التى أثرت فى حافظ تأثيرًا قويًا بدأ فى شعره وفى نثره فى "ليالى سطيح" وفى اقتباسه بعض المقالات التى نشرتها الصحافة

فى هذه الحادثة ، لكى يجعلها جزءاً من تجربته القصصية ، مخترقاً بذلك الحاجز الوهمى الأخير . بين التخيل القصصى والواقع المرئى بمشاكله وقضاياه . ولقد سجل حافظ فى ليالى سطيح هدفه من تطويع النثر الأدبى للتعبير عن المشاكل الواقعية الحية المعاصرة ، أكثر من تسجيله تحويل رموز هذا الواقع إلى عناصر قصصية أو نمطية على النحو الذى صنعته الرواية العربية فى العقود التالية . والجزء الذى حقق حافظ النجاح فيه ليس هيناً ولا قليل الأثر فى تطوير النثر الأدبى الحديث بعامة والنثر القصصى بخاصة .

* * *

وإذا كان حافظ قد حرص على تطويع النثر لمشاكل الحياة المعاصرة فى ليالى سطيح فإنه حرص وبنفس الدرجة على إثبات قدرة هذا النثر على الاستيعاب والتعبير عن أدق المعانى النفسية ، والحالات الإنسانية ، التى اشتهرت بها روائع فى الآداب العالمية ، وفى هذا الإطار اختار رائعة فكتور هيجو **Les Miserables** ، لكى يعربها تحت عنوان "البؤساء" بعد أن كان شوقى قد سماها "الأشقياء" عندما أشار إليها إشارة عابرة فى مقدمة ديوانه سنة ١٨٩٨ . قبل إصدار حافظ للجزء الأول من تعريبه بعد ذلك بسنوات قليلة . وإهدائه إلى شيخه محمد عبده . الذى سعد بالعمل وأطراه ، قبل أن يرحل سنة ١٩٠٥ رغم مواصلة حافظ بعد نحو ثمانية عشر عاماً مشروعه فى تعريب البؤساء بإصدار الجزء الثانى من تعريبه ، ولا شك أن مصطلح "البؤساء" صار أخف وقعاً ، وأكثر شيوعاً ودقة من مصطلح "الأشقياء" .

ولا شك أيضاً أن عمل حافظ لم يكن ترجمة حرفية لرواية فكتور هيجو (١٨٠٢-١٨٨٥) والتى صدرت فى باريس سنة ١٨٦٢ فى عشرة أجزاء ، وصدرت باللغة العربية فى ترجمات لاحقة فى خمسة أجزاء مثل ترجمة منير البعلبكى وترجمة أنطون رزق الله ، وتزيد صفحات كل من الترجمتين عن ألفى صفحة من القطع المتوسط فى حين لا يكاد يتجاوز تعريب حافظ للجزأين معاً مائتى صفحة .

ونحن إذن مع تعريب لا مع ترجمة ، وهو ما حرص حافظ على إثباته على صفحة الغلاف ، والإشارة إلى صنعته فى إهداء الكتاب إلى الإمام محمد عبده حين قال : "وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار".

كما حرص حافظ فى الفصل القصير الذى أطلق عليه "كلمة فى التعريب" أن ينبه إلى عدة حقائق ، أولها أنه أول من سبق إلى تعريب شىء من مؤلفات فيكتور هيجو : "ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شىء من مؤلفات ذلك الحكيم . وهم أحوج الناس إلى معرفة أسرار الحياة والانتفاع بمثل ذلك الفكر" . وثانيها أنه بدأ هذه التجربة فى تعريب البؤساء ليحاول أن يرويها على نهج آخر فى الترجمة كان قد شاع فى عصره وأطلق عليها مصطلح "الترجمة التجارية" التى قطعت الرحم - فى رأيه - بين حاضر الترجمة العربية الركيك وماضيها العريق : "وحاولت أن أصل بها تلك الرحم التى قطعتها يد الترجمة التجارية - بيننا وبين أولئك الرجال الذين تجردوا لتعريب أساطير الأولين - فوفوها قسطها من الإتقان ، وألبسوها من البهجة لباساً ترضاه اللغة ويرضاه أبناؤها" وهو يشير من بين هذه التعريبات العريقة التى نسج على منوالها إلى تعريب عبد الله بن المقفع لكليلة ودمنة ، فى لغة فتية نضرة - أصبحت بها العربية غادة شرقية ، فحولها مترجمو عصره إلى "غادة على فراش موتها تندب جذرا قد ابتذلته الأقلام ، وسترا قد هتكته الأوهام ، وقد فتحوا لها فى بطون هذه الكتب قبوراً ، وخاطوا لها من تلك الصحف أكفاناً .

حافظ إذن ينظر إلى تجربة التعريب باعتبارها إنعاشاً للغة وتجديداً لها وهو شديد الإعجاب بفكتور هيجو لأنه نجح فى تجديد لغته رغم ضراوة المعارضة أمامه : "أى رجل كان صاحب كتاب البؤساء ، وأى غيث سقاه ، وجو حواه ، حتى أدخل فى لغته من الكلمات ما يخطئه العد ، ووقف فى وجوه المعارضين فيها ... حتى انقلبوا عنه خاسرين ، أوليس رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين ، بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد ؟".

تلك إذن كانت بعض دوافع حافظ إبراهيم إلى تعريب نص "يتصرف فيه بعض التصرف ويختصر فيه بعض الاختصار" ، ولكنه ينطلق منه إلى تجربة "إبداع" فى النص العربى ، من خلال التجويد والمراجعة ، والعودة للقديم المهجور أحيانًا ، واللجوء إلى الهوامش التفسيرية أحيانًا أخرى ، وهذا يفسر معنى أنه كما يقول "سلخ اثنى عشر هلالا فى تعريب هذه الصفحات " مشيراً إلى صفحات الجزء الأول التى طبعت فى مائة وعشرين صفحة من القطع الصغير ، وقد كان حافظ شديد الاعتزاز بنصه العربى ، وكان كما يقول أنطون الجميل يحفظ كثيراً من صفحاته عن ظهر قلب ، ويعتز بها أكثر مما يعتز ببعض قصائده .

وإذا كان حافظ قد حاول أن يفلت باللغة العربية من ركاكة الترجمة التجارية ، فقد وقع هو فى كثير من الأحايين فى فخ الكلمات الغريبة المهجورة والتى كان من الميسور أن يجد مكانها كلمات صحيحة وسهلة مثل تلك التى فسر بها هو نفسه كلماته الغريبة فى ذيل صفحاته فهو يفسر "الشقة" بالسفر الطويل و"البادن" بذى البدن السمين ، و"احتقب" بحمل ، وترسّم مواقع أقدامه باقتفى أثره ، ثم يعود لنفس المعنى فيعبر عنه بكلمة غريبة أخرى هى "قاف أثره" لكى يقول فى الهامش ، إنها بمعنى اقتفى وإذا أراد أن يعبر عن أن المسافر أدركه الفجر قال "حتى إذا أفجر وعاد إلى نفسه ...." وإذا أراد أن يعبر عن أن المرأة صارت حبلى . لجأ إلى كتابة قديمة فقال : "وغادرها وهى جفن سلاح" أو لجأ إلى كتابة أخرى مماثلة فى التعبير عن الندم عندما تقول : "باتت تحز الودج أسفا على حالتها" أو "أصبحت ترى الأرض أضيق من كفة الحابل ، لكى يفسر فى الهامش أن كفة الحابل تعنى حبالة الصائد وتكثر الهوامش فى ذيل صفحات الكتاب ، التى تؤكد على أن التعريب عند حافظ قد تحول إلى فرصة لإبداع نص نثرى فخم – فى رأى حافظ – لا يقل بلاغة وعراقة عن النص الشعرى ، وإلى استدعاء كل محفوظاته ، واستشارة شيوخ عصره أحيانًا كما حدث عندما كتب عبارة "أولى لك" فحرص على أن يسجل فى أسفل الصفحة أن معناها "نجوت وما كدت تنجو" ويضيف "هكذا شرحها لنا المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطى وهو من أمضغ العرب للشيح والقيصوم ، أو أن يعود إلى تراث الشعر القديم عندما يستخدم كلمة "اقتطاف"

فيثبت أن اقتطف مثل قطف وقد أنكرها بعضهم حتى وجدناها فى شعر الأعشى فى الجاهلية وفى شعر جرير فى الإسلام ، أو أن يعترف أحيانًا بأن حرصه على حسن صياغة العبارة قد دعاه إلى أن يضيف كلمات من عنده حين يقول : "وفى هذه الصفحة وحدها قد أضفنا كلمات من عندنا دعانا إليها حسن المقابلة فى المعانى واطراد القول" .

تجربة حافظ إذن فى تعريب البؤساء تنتمى إلى عائلة التعريب التى خرجت منها أعمال مصطفى لطفى المنفلوطى وهو يعيد تقديم أعمال شهيرة مثل بول وفرجينى لبرناردين دى سان بيير ، وماجدولين لألفونس كار وسيرانو دى برجراك لأدموند روستان ، وفى سبيل التاج لفرانسوا كوبيه ، وغيرها من الأعمال التى حرصت على رونق اللغة التى يقدم من خلالها التعريب ، ومراعاة تأثيرها على جمهور القراء ، أكثر من حرصها على "الأمانة الحرفية" فى نقل النص ، ولعلها من خلال هذا تكون قد حققت مفهوم "الخيانة الجميلة" التى كان يتحدث عنها الإيطاليون فى الترجمة، عندما يقولون : "إن الترجمة مثل المرأة ، يصعب أن تكون جميلة ووفية معًا" ولقد قدم حافظ من خلال تعريب البؤساء لتاريخ التعريب والنثر العربى ، تجربة تستحق كثيراً من الدراسة والتأمل .

ويضاف إلى هذين العملين ، عمل تربوى ، قام حافظ خلاله بترجمة مجموعة من مبادئ التربية جمعها وزير المعارف آنذاك من اللغة الفرنسية ، وأراد أن تكون موجهة إلى الناشئة ، فترجمها حافظ فى لغة حرص على أن تكون ميسرة موجهة إلى جيل الناشئة ، فكان اختيار مسئول اللغة فى ذاته ، والإسهام فى حركة التعريب ، إضافة منه إلى حركة الإبداع النثرى . وقد حرصنا على إضافة نص هذه المحاولة إلى أعماله النثرية فى الصورة التى نشرها بها الأستاذ عبد التواب يوسف .

ليالى سطيح

مع

دراسة تاريخية تحليلية

للعصر والكاتب والكتاب

بقلم

عبد الرحمن صدقى

المحتويات

أولاً – المقدمة

تصدير 21
سيرة المؤلف وسيرة الحوادث التاريخية 23
ميلاده فى أعالى الصعيد ونشأته فى القاهرة 25
حافظ ومشاهدة الثورة العرابية فى القاهرة 29
حافظ وأصداء الثورة المهدية فى السودان 31
فى طنطا : حافظ وتكوينه الأدبى 53
الوطن فى خطر ، الشاعر والحياة العسكرية 61
حافظ فى الحملة المصرية الإنجليزية فى السودان 67
فى وادى حلفا 73
حافظ وكتشنر 77
رسالة استغاثة من السودان إلى الشيخ الإمام محمد عبده 81
السكة الحديدية والقطار هما الشغل الشاغل للسردار 85
الشاعر الطريد على ساحل البحر الأحمر بين سواكن وطوكر 89
كتشنر فى الطريق إلى الخرطوم 99
فظائع الإنجليز فى السودان : الفرق الإنجليزية تستعمل رصاص دم دم ... 103
سقوط عاصمة المهدى وانتقام كتشنر لمواطنه غوردون 107

الاستعمار الإنجليزى فى خطر : الفتنة المصرية السودانية فى الخرطوم 113
حافظ ينقل الثورة إلى القاهرة : ليالى سطيح والإنجليز 129
من هو سطيح ؟ أهو شخصية تاريخية أم أسطورية ؟ 137
ليالى سطيح وقيمتها فى الأدب والسياسة 145
ليالى سطيح فى صورتها الفنية 157
الخـاتمة 168

ثانياً – نص الكتاب

ليـالى سطيح 169
الليلة الأولى 173
الليلة الثـانيـة 174
الليلة الثـالثـة 179
الليلة الرابعـة 183
الليلة الخامسة 189
الليلة السادسة 202
الليلة السابعة والأخيرة 214
السياسة الضعيفة العنيفة 233

تصـــدير

إنها ليالٍ غابرة من ليالى مصر الساحرة، على شاطئ النيل بين الجزيرة والأهرام، فى خلوة ساكنة حالمة فى أحضان النيل ، أحياها ليلة بعد ليلة طوال مدة أسبوع ، ذلك الراوى الأديب والشاعر المطبوع حافظ إبراهيم ، وأسماها «ليالى سطيح» .

ولكن هذه الليالى السبع الساحرة – على طيب مجالسها مع الإخوان – كانت بأحلام الكابوس الجاثم معذبة مضطربة ، بما كان يساور صاحبها المؤرّق من ذكريات عابرة لا تزال تعاوده كل حين ، وكأنها حزّ السكين فى الوتين . إنها ذكريات الواقع الفاجع الذى مر به فى الماضى القريب ، فى ذلك العهد البغيض ، عهد الاحتلال البريطانى .

وإذا نحن قررنا منذ البداية ، أن هذا الذى ذكرنا فحواه هو مادة الرواية ، فقد أعذرنا إذا نحن ابتدأنا الحديث فى هذه المقدمة ، بفصل عن «سيرة المؤلف وسيرة الحوادث» مع شىء من التفصيل والإفاضة ، فقد كانت حوادث عصره مادة نثره وشعره معًا . لسوف نطيل الحديث فى ذلك الفصل خاصة عن تدخل الإنجليز فى شئون مصر ، وعلى الأخص فى الخطوب التى أدت إلى فقدان السودان ، وفى الحروب التى انتهت باسترجاعه بالاسم دون الفعل فى ذلك الأوان ، إذ ليس لنا عن تسويد تلك الصفحات مندوحة . فقد عاش حافظ فى ذلك الجو الخانق منذ دخوله فى أواخر عام ١٨٨٨ المدرسة الحربية حيث كان توجيه برامجها من اختصاص المعلم الإنجليزى «المستر براين» ، وتصريف إدارتها ، فى يد القومندان الإنجليزى «هوليات Huleatt» ، بناء على الأوامر والتعليمات التى أصدرها سردار الجيش المصرى وهو إنجليزى منذ الاحتلال الإنجليزى ، وكان ذلك السردار هو الجنرال «السير فرنسيس جرنفيل Francis Grenfell»

الذى أعقب السردار الأول «الجنرال إفلين وود Evelyn Wood» فى ١٥ أبريل سنة ١٨٨٥ . ولما انتقل حافظ إلى وزارة الداخلية ملاحظ بوليس ثم معاون بوليس ، كان حكمدار البوليس إنجليزياً ، خلفاً لسلفه الأول منذ الاحتلال الإنجليزى «ڤالنتين باكر Valentine Baker» . ولما أعيد حافظ إلى الحربية لإلحاقه بالحملة المصرية على السودان ، كان قائد الحملة إنجليزياً وهو السردار العنيد الجبار «كتشنر Kitehener» ، الذى يكتفى الراوى عن ذكر اسمه فى «ليالى سطيح» بتعديد وصفه :

«قائد الجيشين ، ورافع العلمين ، الحاكم بالإرادتين ، ووكيل الدولتين ، فاتح أم درمان ، وحاكم السودان ، وصاحب جزيرة أسوان ، رافع إرم ذات العماد ، وقريع فرعون ذى الأوتاد ، وأصل أعصاب الفيافى والقفار ، بأعصاب المدائن والأمصار ، ساكن القصر ونابش القبر ، ناسف القبة وسالب الجبة ، والجاعل قبته مربطاً للجياد ، ومسجده ملعباً لحمر الأجناد ، الناقل تلك الكنوز والدفائن إلى تلك المصارف والخزائن . المغربى الذى يستشف أحشاء الخبايا بسحر السياسة ، وطلسم الفراسة ، ويفك ما عليها من الأرصاد بدماء أبناء البلاد ، بعد تبخيرها ببخور التمويه تحت ملاءة الترفع والتنزيه ، ذلكم اللورد الكريم» .

وهذا الذى أخذ به حافظ نفسه فى كلامه عن الإنجليز وغير الإنجليز فى «ليالى سطيح» لم يكن من الحذر والتَّقِيَّة بل لحب الإلغاز والتعمية بإضرابه عن تسمية الأشخاص بأسمائهم ، اكتفاء بذكر أوصافهم ، ثم مبالغته بعض الأحيان فى تجريد تلك الأوصاف حتى ليأبى إذا كان الشخص الْمومَى إليه صاحبَ كتاب أن يذكر اسم الكتاب. وهذا كله كى لا ينكشف الستار عن أشخاصه ومسمياته ؛ إلا بعد طول النظر وتسريح الخيال ، وكد الذهن وإعمال الخاطر .

ولعل القارئ ، وخاصة إذا كان القارئ من الشباب الناشئ ، يحمد لنا أو على الأقل لا ينكر منا أن نتقدم فى هذه المقدمة إليه، فنضع بين يديه ، ما من شأنه أن يتيح له المتعة خالصة من غير مشقة ، من طريق البيان عن أحداث العصر ، التى صاحبت مؤلفنا فى حداثة العمر ، وصارت المادة الباطنة الظاهرة التى أوحت له ما أبدعه من شعر ونثر .

سـيرة المؤلـف
وسـيرة الحوادث التاريخية

كان مولد حافظ إبراهيم فى عصر «المحنة الكبرى» فى تاريخ مصر الحديث، وكانت المحنة من جرّاء تطلّع الدول الأجنبية إلى هذه البلاد، على أثر البدء فى مشروع قناة السويس (١٨٥٩ - ١٨٦٩) التى تعتبر وقتئذ أهم طرق المواصلات بين الشرق والغرب، ومن ثمة أهميتها التجارية فى المجال الاقتصاد المالى، وأهميتها الحربية فى المجال السياسى الاستعمارى.

المحنة الكبرى

وقعت المحنة الكبرى على أثر ثورة عرابى وضباط الجيش المصريين على الخديوى توفيق. وكانت بدايتها فى بداية عام ١٨٨١ للدفاع عن العنصر المصرى فى الجيش، لما كان غالبًا فيه من إيثار الضباط الأتراك والشراكسة دون المصريين بالمراتب الكبرى، بحيث كان أقصى ما يبلغه الضابط المصرى رتبة «البكباشى» يقف عندها ولا يتعداها؛ كما كانت الثورة للمطالبة بتأليف مجلس النواب للنظر فى مصالح الأمة. يضاف إلى ذلك ما كان يؤخذ عن الخديوى توفيق من موقفه السلبى واستخذائه أمام التدخل الأجنبى، ولعل موقفه هذا من تأثير ما شهده فى الثامن من أغسطس سنة ١٨٧٩، وبقى أثره فى نفسه، من سلطان إنكلترة وفرنسا، وما كان لهما من الكلمة المسموعة فى استصدار مرسوم الباب العالى بعزل أبيه إسماعيل. بيد أنه لم يمض عن ذلك التاريخ إلا القليل حتى تكرر هذا التدخل فى عهد توفيق، وكان هذه المرة على صورة سافرة مسلحة، فقد أرسلت كل من إنجلترا وفرنسا ثلاث سفن حربية، بحجة

ظاهرها المحافظة على أرواح الأجانب وباطنها الإرهاب وما وراءه من الاستفزاز وسوء النية . وقد ظهر سوء نوايا الإنجليز حين انفردت السفن الإنجليزية بضرب الإسكندرية منذ الصباح الباكر فى ١١ من يولية سنة ١٨٨٢ . وقد استمرت فى الضرب حتى انسحبت الحامية المصرية من المدينة ، فنزل جنود المعتدلين إليها ، وقد حاول عرابى الزحف عليها لإجلائهم عنها فأخفق .

وانعزل الخديوى وحكومته بالإسكندرية وضواحيها ، وقطع عرابى المواصلات بينها وداخل القطر . وقبيل منتصف أغسطس جاءت من السويس حملة إنجليزية يبلغ عددها ١٤٠٠٠ من المشاة و ٢٤٠٠ من الفرسان و ١٣٠٠ من المدفعية و ٥٤٠ من المهندسين و ٩٠٠٠ من الهنود ، فتولى قيادتها السير «جارنت ولسلى Garnet Wolseley» ثم أقلتها السفن فى قناة السويس إلى الإسماعيلية . وقبل أن يتم عرابى استحكاماته أنزلت هذه القوة بجيشه هزيمة خاطفة فى فجر اليوم الثالث عشر من سبتمبر ، فأنعمت عليه حكومته بلقب «لورد القاهرة» ومنذ ذلك التاريخ بدأت مأساة الاحتلال الإنجليزى وهى المأساة التى دامت أكثر من سبعين عاماً .

هنا نقف أمام هذه المأساة الكبرى متسائلين : هل وعاها وقتئذ مع أهل زمانه حافظ إبراهيم ؟ إن حافظ توفى إلى رحمة الله فى الحادى والعشرين من يولية سنة ١٩٣٢ ، وهو يائس اليأس كله من بلده ، لا يدور بخلده ما حققه الحكم الحاضر من جلاء المحتلين الإنجليز[١] حتى ظل يردد طوال عمره :

وأكبر ظنى أن يوم جلائهم ويوم نشور الخلق مقترنان

فهل ترى شاعرنا الذى لم يُكتب له أن يرى من المأساة نهايتها ، كان فى حداثته الأولى فى سن تسمح له بأن يعى بدايتها ؟

هذا السؤال يقتضى التدقيق فى تحديد ميلاد حافظ إبراهيم على وجه التحقيق .

---

(١) تم توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا فى ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وفى ١٨ من يونية سنة ١٩٥٦ خرج إلى غير رجعة آخر جندى إنجليزى من البلاد .

ميلاده فى أعالى الصعيد ونشأته فى القاهرة

اتفق المؤرخون لسيرة شاعر النيل حافظ إبراهيم على أنه ولد فى ٤ من فبراير سنة ١٨٧٢ ، ومنهم من يغفل الشهر واليوم ويكتفى بذكر السنة ، كأنه من السنة وحدها على يقين .

ونحن نستأذن فى مناقشة تاريخ هذا الميلاد، وفى مأمولنا أن نكون على السداد ، وما ندّعى بعد ذلك أننا أتينا بالعجب العجاب .

الواقع أن تاريخ مولد حافظ غير معروف ، سواء فى ذلك اليوم والشهر والسنة . ولقد أنكر الشاعر معرفة تاريخ ميلاده ، حين شرعت دار الكتب عام ١٩١١ فى اتخاذ الإجراءات نحو تعيينه فى إحدى وظائفها ، بناء على أمر وزير المعارف ، الأديب أحمد حشمت الذى كان يعطف على شاعر النيل ويريد إكرامه ، بتوفير الاستقرار له فى عمل يدر عليه الرزق المكفول . وأمام تجاهل الشاعر معرفة تاريخ مولده ، تقرر عرضه كما هو المتبع فى مثل هذه الأحوال على «القومسيون» الطبى فى ٤ من فبراير سنة ١٩١١ ، فقدر القومسيون سنه فى ذلك اليوم تسعاً وثلاثين سنة ، وعلى هذا التقدير كان حساب مولده فى ٤ من فبراير سنة ١٨٧٢ .

ولما كان حافظ قد كتب بخطه فيما يتعلق بمسقط رأسه ، أنه ولد فى ديروط ، فقد كتب بعض المحققين ، ومنهم الأستاذ أحمد أمين ، وهم الذين وكّل إليهم بعد وفاته جمع شعره والتقديم له ، يسألون دار المحفوظات «الدفترخانة» عن تاريخ ميلاد حافظ فى ديروط فأجابت «دفترخانة» ديروط بأنها بحثت من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٨٠ فلم تعثر عليه فى دفاترها .

ولما كان طالبًا التسنين عند التعيين ، حريصًا على تقدير سن له أصغر من سنه ، لكي يتأخر موعد تقاعده ، ويطول بقاؤه في الوظيفة ؛ فهل لا يحتمل أن يكون شاعرنا حافظ إبراهيم ، قد عمد إلى تجاهل سنه عند سنوح الوظيفة – كغيره في ذلك الحين – طمعًا في تسنين «القومسيون» الطبي ، الذي يميل بطبيعته إلى التيسير على الناس ، وما بالك بالتيسير على شاعر كبير ، من المعلوم أنه موضع رعاية الجميع من الوزير إلى سواد الجماهير ؟ هذا التيسير فيما نعتقد هو الذي جعل «القومسيون» الطبي يقدر مولد حافظ في سنة ١٨٧٢ مع أن حافظ قد يكون – كما هو المرجح في حسابنا – مولودًا قبل سنة ١٨٧٠ ، بدليل عدم العثور على اسمه في سجلات ديروط من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٨٠ .

ولما كانت القاعدة ، في البحث في سجلات المواليد ، عن تاريخ من التواريخ غير المحققة ، هي أن يمتد هذا البحث عدة سنوات قبل ذلك التاريخ ، ومثلها بعده ، فإننا نتساءل : لماذا كان البحث في سجلات ديروط سنتين قبل التاريخ ، وثماني سنوات بعده على خلاف القاعدة ؟

أكانت هذه المسألة متعمدة ، أم أن الدفاتر قبل عام ١٨٧٠ مفقودة ؟

أيًا كان السبب ، فإن الذي يخلص لنا من مراجعة هذه الملابسات جميعًا ، هو أن حافظ ولد قبل التاريخ الذي قدّره «القومسيون» الطبي وتعنى به عام ١٨٧٢ ، كذلك قبل التاريخ الذي رجع إليه الباحث في سجلات المواليد في ديروط وهو ١٨٧٠ . ومن ثمة يكون التاريخ الصحيح لميلاده في حسابنا هو عام ١٨٦٩ على وجه التحديد . ويترتب على هذا زيادة ثلاث سنوات على سنّه المزعومة، يحسن بنا أن نستدركها ويستدركها معنا المؤرخون .

وأما ما عدا ذلك مما كتبه شاعرنا حافظ إبراهيم بخطه عن نفسه ، فإننا نعتمده كل الاعتماد ونتلقاه بالتسليم ، ومن ذلك ما يتعلق بمسقط رأسه وأسرته .

وفيما يلي خلاصة ما وقفنا عليه :

ولد شاعر النيل حافظ إبراهيم فى بيت من تلك البيوت العائمة على صفحة النيل المعروفة بالذهبيات ، وهى الذهبية التى كان يسكنها أبواه ، وكانت راسيةً على الشاطئ بالقرب من قناطر ديروط حيث كان أبوه من المهندسين المشرفين على القناطر ، واسم هذا الأب «إبراهيم فهمى» ، وهو مصرى صميم . أما أمه «الست هانم كريمة أحمد البرصه لى» ، فإنه يستدل من اسم أبيها أنها من أسـرة تركية الأصـل متمصرة ، قيل إنها كانت تسكن حى المغـربلين بالقـاهرة ، وكانت تعـرف بأسرة الصـروان ، أى القيم على الصرة ، لأن رئيس الأسرة كان أمين الصرة فى الحج .

وقد عرف شاعرنا محمد حافظ إبراهيم اليتم وهو فى الرابعة من عمره ، إذ عاجلت المنية والده ، فترك الأم وولدها وحيدين يعانيان الفجيعة فى ألم مقيم دفين . وسرعان ما انتقلت الأرملة إلى القاهرة ، ونزلت مع ولدها على أخيها «محمد أفندى نيازى» مهندس التنظيم . وكان محمد أفندى نيازى يسكن فى حى القلعة ، فتولى أمر ابن أخته وقام على تربيته ، فأدخله كالمعتاد مكتبًا من الكتاتيب فى القلعة لتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، ثم تدرج به منها إلى الدراسة الابتدائية فالثانوية . وفى هذا العهد - عهد التلمذة - كان حافظ مولعًا بقراءة الأدب الشعبى ، فكان على حد قوله فى حديث متأخر له مع محرر الهلال يحفظ قصة «عنترة بن شداد» عن ظهر قلب كما كان مغرمًا بكتاب «ألف ليلة وليلة» ، وكانت المدارس التى اختلف إليها حافظ هى القروية ثم تحول منها إلى مدرسة المبتديان ثم المدرسة الخديوية التى لم يطل بها مُقامه ، لنزوحه مع خاله عن القاهرة إلى طنطا .

ولما كان ما نشره عنه صديقه فى طنطا الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار قد أرّخ لنا ما كان من لقائه - وهو طالب فى المعهد الأحمدى - للشاعر الفتى حافظ إبراهيم فى أبريل سنة ١٨٨٨ ، فلا تحسبنا مخطئين إذا اعتبرنا أن نشأته فى القاهرة قد امتدت حتى عام ١٨٨٧ .

حافظ ومشاهد الثورة العرابية فى القاهرة

هذه التواريخ فى حياة حافظ ، تبيح لنا تقرير ما كان للخطوب التى صاحبته فى القاهرة بحكم شهوده لها - أو على الأقل سماعه بها وعيشه فى جوها - من الأثر فى خلق هذه الروح التى يلفحنا أوارها ويلدغنا شرارها وتكوينا نارها فى «ليالى سطيح» .

ومهما يكن من قبول ما قدمناه من الأسانيد أو الإصرار على رفضها ؛ فإن محمد حافظ إبراهيم كان عام ١٨٨٢ فى العاشرة من عمره على الأقل بحساب تسنين القومسيون الطبى ، وعلى الأصح فى الثالثة عشرة بحسابنا ، فهو على الحالتين - مع اختلاف فى درجة الوعى ونوعه - قد شهد فى الأزقة والشوارع التى تجاور مسكنه، ما كان سائدًا فى القاهرة من الهَرْج والاضطراب والقلق عند العامة كبارهم وصغارهم ، وما كان من ضجيجهم بالدعاء والتكبير فى انتظار ما تأتى به الأخبار عن الوقعة الفاصلة فى التل الكبير ، وكيف انقلب الخبر غمًا وشؤمًا حين فوجئ أهل القاهرة بالإنجليز - بعد انتصارهم على جيش عرابى وقواته ومعظمها من غير النظامية فى التل الكبير - يدخلون القاهرة عليهم فى الخامس عشر من سبتمبر من طريق العباسية ومنها إلى القلعة . ولم تمض عشرة أيام ، حتى شهد أهل القاهرة وصول الخديوى توفيق من الإسكندرية إلى محطة القاهرة ، وركوبه منها إلى عابدين ، وقد ركب فى مركبته ابن صاحبة الجلالة ملكة إنجلترا - وكان من قواد الحملة - «والجنرال ولسلى» قائد جيش الاحتلال ، والقنصل الإنجليزى العام . وقد اصطفت الجنود الإنجليزية حمر الوجوه على جانبى الطريق ، حتى إذا بلغ الموكب السراى

الخديوية عُزف النشيد الإنجليزى كما عُزف النشيد المصرى ، فكان ذلك إعلاناً بالوضع الجديد :

هذا المشهد الذى شهده الفتى محمد حافظ إبراهيم ، أو قرأ خبره أو على الأقل سمع به ، وهو فى سن العاشرة أو على الأصح فى الثالثة عشرة ، قد ترك لا محالة أعمق الأثر فى حسه ونفسه وخياله . فلا عجب أن عاش محمد حافظ إبراهيم منذ ذلك اليوم وهو يكره الإنجليز ؛ يكرههم ويرهبهم معاً .

حافظ وأصداء الثورة المهدية فى السودان

(أ) الهزائم المصرية تحت القيادة البريطانية

كان الإنجليز – بعد ما شهدناه من ضربهم الإسكندرية بالقنابل ، وزحف حملتهم بقيادة «ولسلى» على عاصمة الديار المصرية ، وفرضهم الاحتلال الإنجليزى بدعوى أنه إجراء وقتى لإقرار النظام وتوطيد العرش الخديوى – قد أوعزوا للخديوى فأصدر الأمر فى ١٧ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ بحل الجيش المصرى لثورته ، وتولوا بأنفسهم تأليف جيش آخر لا يتجاوز عدده ستة آلاف جندى ، وعليه قائد إنجليزى هو «السردار إڤلين وود» يعاونه ٢٦ ضابطًا إنجليزيًا منهم «كتشنر» و«ونجت Wingate» اللذان كان لهما بعد ذلك شأن فى مصر وخطوبٌ مع شاعرنا حافظ إبراهيم بقى أثرها فى نثره وشعره، وكذلك تولى أمر الشرطة – مع اختصاصها بالأمور الداخلية وبالأهلين – إنجليزى آخر هو «ڤالنتين باكر» بمساعدة الكثيرين من الضباط وضباط الصف البريطانيين . كما كانت على مصر منذ عهد إسماعيل رقابة مالية ثنائية من إنجلترا وفرنسا ، لكثرة ما استدانه منهما الخديوى ، وقد انفرد بهذه الرقابة فى ٥ من فبراير ١٨٨٣ المراقب الإنجليزى «أوكلاند كرلڤين Aucland Colvin» الذى صار مستشارًا ماليًا له الحق فى حضور جلسات مجلس النظار . وفى ١١ من سبتمبر وصل إلى مصر «السير إڤلين بارنج Evelyn Baring» الذى كان قبل ذلك «الكابتن بارنج» مندوب إنجلترا فى صندوق الدين ، فعاد هذه المرة بديلاً عن سلفه القنصل العام البريطانى بعد أن زيد على لقبه «معتمد حكومة صاحب الجلالة البريطانى» فإذا المعتمد البريطانى الجديد

(المعروف بعدها باللورد كرومر) فى وضعه الجديد أعظم سلطانًا وأنفذ أمرًا فى الحكومات المصرية وعلى أمير البلاد . وفى أيام هذا العميد الجديد جرى ما جرى فى السودان من توالى الهزائم المصرية تحت القيادة البريطانية ، على حد قول شاعرنا حافظ إبراهيم «صاحب ليالى سطيح» يودعه يوم استقالته بعد أربعة وعشرين عامًا :

وَوَافَيْتَ والقُطْرانِ فى ظلِّ رايةٍ   فما زلتَ بالسودانِ حتى تمرَّدا
فطاحَ ، كما طاحت «مصوَّعُ» بعده   وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى

ونعود بعد هذا التمهيد الضرورى ، إلى حيث وقفنا فى حديثنا عن الفتى محمد حافظ إبراهيم ، بعد ما روعه فى صباه ما شهده من دخول جيش الاحتلال البريطانى .

الهزيمة الكبرى تحت قيادة هيكس باشا

مضت الأيام إثر الأيام على الفتى محمد حافظ إبراهيم وهو يحاول أن ينسى هول ما رآه ، من مشهد اقتحام الإنجليز بلده وانتهاكهم حماه ، وإذا به لا يكاد ينقضى بعض العام ، حتى تترامى إليه مع سائر أبناء مصر أصداء تتطاير فى كل مكان عن أنباء وزراجيف واردة من السودان ، تروى قصصًا عن انتصارات متتابعة على يد نبى أتى بعد الأوان فى آخر الزمان ، يدعو للثورة على فساد الحكم التركى وما رآه من التدخل الإنجليزى ، وها هو ذا قد أنجح دعوته ووطد سلطته فى كردفان ، وجعل من «الأبيِّض» عاصمة دولته . فلما أراد حاكم السودان المصرى أن يتصرف فى الأمر بحكمته ويتولاه بهمته ، تدخل الإنجليز بما لهم من السيطرة على مصر بحكم الاحتلال العسكرى ، واستيلائهم باسمه على شئونها العليا من سياسة مالية وقضائية وإدارية فضلاً عن الشئون الحربية . وقد كان من جراء هذا التدخل ، تنحية حاكم السودان ، والقائد العام لجيشها ، وتعيين أركان حربه الذى يعد مرءوسهما من حيث الظاهر النظرى ،

وهو الضابط الإنجليزى «هيكس باشا Hickes» قائداً عاماً[1] على الحملة المصرية المجهزة لاسترداد الأبيّض، وتأديب ذلك الدعىّ المتنبئ الذى يزعم أنه «المهدى المنتظر» . فخرج القائد الجديد الإنجليزى على رأس القوة الكبيرة التى جمعها من المصريين وعدتهم عشرة آلاف ، معظمهم من غير المدربين ، وكان وصولها إلى السويس بين ١٢ و ٢٤ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ ثم أبحرت بهم المراكب فى البحر الأحمر إلى ميناء سواكن ، ومنها براً إلى الخرطوم حيث أقامت فى ضم شتاتها وإعداد معداتها مدة كانت كافية لبلوغ خبرها إلى مسامع عدوها فى عاصمته كردفان . فلما قامت الحملة من الخرطوم فى سبتمبر سنة ١٨٨٣ ، توغل بها قائدها فى صحراء كردفان ، والحر شديد والماء غير متوافر . ولم تلبث الحملة أن ضلت وسط الأدغال وظل الجند ثلاثة أيام ولياليها يلتمسون الماء فلا يجدونه ، وهو على مسافة غير بعيدة منهم . وأخيراً فى الخامس من نوفمبر سنة ١٨٨٣ وهم على مسيرة يومين من الأبيّض ، خرج عليهم من الأدغال كمين من رجال المهدى يبلغون نحو الأربعين ألف مقاتل ، وأحاطوا بالحملة المصرية ، وأثخنو فيها ، وأفنوها حتى لم يبق حيًا من هذا الجيش الضخم الذى بلغ عدده خمسة عشر ألف مقاتل إلا ثلاثمائة ، وحتى هؤلاء لم ينج منهم غير الأقلين ، ممن تمكنوا من الفرار والأسر هاربين . ولقد كان قائد الحملة «هيكس باشا» من الهالكين بسيوف الفرسان من قبيلة البقارة بقيادة الأمير الدرويش محمد الشريف الذى طعنه الطعنة الأخيرة القاضية .

وفى القاهرة روى أفراد ممن نجوا من هذه المقتلة كيف كان هولها ، وكيف كان إخوانهم من فزع المباغتة ، وما أحدثته بينهم من الهَرْج والاضطراب وهم على ما كانوا عليه من الإعياء والعطش ، يطلقون النار بعضهم على البعض وهم لا يشعرون .

---

(١) كان قد صدر الإذن لأركان الحرب «هيكس باشا» بالزحف على المهدى فى كردفان ، فرد بأنه لا يتحمل مسئولية الحملة حتى تكون له القيادة العامة عليها ، فلما أبطأت الحكومة المصرية فى إجابته إلى طلبه ، هدد بالاستقالة ، فأذعنت الحكومة وجعلته القائد العام على الحملة بعد تنحية رؤسائه المصريين .

وقد ظل أهل القاهرة يتناقلون حديث هذه المقتلة حتى عم البلاد خبرها ، وكان من شأن تناقلها المزايدة فى تهويل فظائعها ، لو أنه كان فيها موضع لمزيد .

وما نحسب حافظًا – وهو وقتئذ شاب يافع يبلغ فى تقديرنا الرابعة عشرة من عمره ، إلا قد سمع أطرافًا من هذا الحديث الذى كان على كل لسان ، حديث هذه المقتلة الذريعة الفظيعة التى نزلت بالحملة المصرية من سوء تدبير قائدها الإنجليزى ، فى عهد الاحتلال الإنجليزى .

فماذا كان رد الفعل لهذا كله عند حافظ إبراهيم ؟

لا نزاع فى أن شعور حافظ حيال هذه الهزيمة – أو على الأصح – المذبحة التى أودت بالألوف من المصريين على يد الثائرين السودانيين ، هو بعينه شعور جميع المصريين طوال مدة الثورة المهدية . لقد كان المصريون أجمعون يألمون لما وقع بإخوانهم ألمًا لا مزيد عليه ، ولكن العجيب فى الأمر أن هذا الألم كانت تشوبه مسحة من الشماتة والسخرية بالقادة الإنجليز الذين كانوا على رأس الحملة فى هذه المرة ، ثم – كما سنرى فى كل مرة – فهم المسئولون عن الهزائم فى المرة بعد المرة لسوء خططهم وعجز تدبيرهم ، مع ما هم عليه من غرور وغطرسة واستعلاء . وأعجب من ذلك أن انتصارات الثائرين فى السودان كانت تتراءى للمصريين من أجل هذه الملابسات كأنها انتصار للمصريين باعتبار كونهم إخوان السودانيين فى العروبة والدين ، ومصداقًا لذلك نذكر أن المهدى كان يسمى حكام مصر وأتباعهم بالخديويين الترك . كذلك كان قادةُ الجيوش المصرية الإنجليز يسمون الثوار السودانيين بالعرب ، وحسبنا مثالاً على ذلك ما ورد بالبرقية الأخيرة التى أرسلها «هيكس باشا» فى الثالث من أكتوبر سنة ١٨٨٣ قبيل هزيمته ومصرعه فى كردفان ، إذ يقول فيها : «لم أعثر بعد على العرب» . ولو كنا وحدنا القائلين بما كان يشعر به السواد الأعظم من المصريين من عطف على الثوار السودانيين ، لكان يؤخذ علينا – للتشكيك فى قولنا – أننا لم نكن من المعاصرين ، وأننا قد نكون متأثرين اليوم بوشائج الأخوة العربية القائمة والسياسة المشتركة والمصالح المتبادلة . ولكن هناك غيرنا شهود كثيرون . ونحن نترك هنا الكلمة

فى هذا الشأن ، لواحد من الأجانب المعاصرين لذلك الزمان وهو المستشار المالى الإنجليزى فى عهد الاحتلال «السير أوكلاند كولفن» فقد ذكر فى كتابه «تكوين مصر الحديثة The Making of Modern Egypt» فى صدد كلامه عن هذه الحقبة ما فحواه أنه كانت تصدر وقتئذ فى القاهرة جريدة فرنسية باسم «البسفور» ، وأنها كانت دائبة على نشر أنباء ملفقة فى جانب السودان ، فى الوقت الذى كان فيه السودان ثائراً على الحكومة المصرية التى يتبعها ، وكان الاعتقاد السائد أن الكثيرين من المصريين يعطفون على هذه الثورة . وهذا القول من أحد المعاصرين الانجليز فى مصر مؤيد لاعتقادنا الجازم بأن الفتى حافظ إبراهيم كان - كسائر هؤلاء المصريين الكثيرين - يخالجه ذلك العطف على السودانيين الثائرين الذين يحرزون النصر على القادة الإنجليز المكروهين لا محالة عند المصريين بحكم سلطانهم على الحكومة المصرية واحتلالهم أرض الوطن المصرى نفسه .

(ب) هزيمـة أخـرى

بقيادة إنجليزى آخر فى السودان الشرقى

من الأقوال المأثورة قولهم : «إن المصائب لا تأتى فرادى» ، ولا شك أن هذا القول يصح على ما كان يجرى من الأمور أيام حافظ فى السودان .

فى شهر أغسطس ١٨٨٣ تواترت الأنباء بتوقع الفتنة ووقوع الاضطراب فى السودان الشرقى ، ثم صار معروفًا بعدها أن هذه الحركة الثورية ، على رأسها رجل من قبيلة «هدندوه» فى ناحية سواكن ، اسمه عثمان دقنه ، وأنه موفد من المهدى منذ ١٥ من يونية لاستنهاض القبائل فى شرق السودان للثورة . ولم يمض إلا القليل حتى استجابت سائر القبائل لدعوته ، وعينه المهدى أميرًا من أمرائه .

وفى ١٦ من أكتوبر كانت قوة مصرية من ١٦٠ جنديًا فى طريقهم من سواكن - ميناء البحر المشهور - إلى «سِنْكات» لتعزيز حاميتها ، فدهمتهم فى بعض الشعاب الضيقة بالقرب من «سنكات» جماعة تبلغ عدتها ١٥٠ من رجال القبائل الثائرة فأتت عليهم تقتيلاً ، ولم ينج إلا خمسة وعشرون . وكان هذا الانتصار مشجعًا لانضواء عدد من رجال القبائل يتزايد كل يوم تحت إمرة الأمير عثمان دقنه .

وهنا ترك عثمان دقنه أمر حصار «سنكات» لمن ذكرناهم من الثائرين ، وتقدم جنوبًا مع جماعات غيرهم للاستيلاء على طوكر التى تبعد ستين ميلاً عن «ترنكيتات» الميناء الآخر الصغير . فأبحرت حملة قوامها ٥٥٠ جنديًا من ميناء سواكن إلى ميناء ترنكيتات ، ومنها أخذوا طريقهم إلى طوكر وبعد مسيرة طويلة تعرضت لهم جماعة

دونهم عدداً من الثوار ، واخترقت صفوفهم ، فاختل نظامهم واستولى عليهم الفزع ، وحاول بعضهم الفرار ، فأوقع بهم العدو ، وكثر قتلاهم ومنهم القنصل البريطانى فى سواكن .

وفى ديسمبر سارت حملة من سواكن تبلغ عدتها الألف ، وكانت وجهتها بلدة «تمانيب» أو «تمانية» على مسيرة ثلاث ساعات من سواكن ، وتقع بينها وبين سنكات . وكانت «تمانيب» معسكراً للثوار ، فلما انتصف النهار واشتدت الهاجرة ، كان جنود الحملة يخترقون شعباً من الشعاب الضيقة ، فدهمهم من الثوار جماعة يبلغ عددها ثلاثة أضعافهم فتكاثرت عليهم وأعملت القتل فيهم ، فلم ينج من القتل إلا ثلاثة وخمسون ولوا الأدبار .

وهكذا أصبحت «سنكات» و «طوكر» محاصرتين ، فأوشكت المئونة على النفاد ، وكاد التسليم يكون أمراً مقضياً عليهما ، والهلاك مصير حاميتهما .

وحيال هذا الموقف الخطر والمصير المنتظر ، لم يبق للسلطات المسيطرة فى مصر مندوحة من إيفاد نجدة لتدارك الحال دون إمهال .

وكالمعتاد رأت هذه السلطات أن يكون قائد الحملة من القادة الإنجليز المعروفين ، وأن يكون كبار ضباطها من الإنجليز أيضاً . ولما كان الاختيار قد وقع على حكمدار الشرطة فى مصر الجنزال «ڤانتين باركر» ، فقد اختار لها من الضباط وصفّ الضباط من مرءوسيه فى الشرطة . وكان الاعتقاد السائد أن الجنرال باكر هو وحده الجدير بأن يقود الحملة إلى النصر ، والفراغ بعدها من الأمر كله فى شرق السودان .

ومنذ الحادى عشر من سبتمبر بدأت الحملة تتوافد على سواكن ، وكانت قد أرسلت لحمايتها كذلك بعض البوارج البريطانية بإمرة «الأميرالاى السير هويت» ، كما زيد على الحملة فيلق سودانى جهزه «الزبير باشا» وأرسله للحاق بها من طريق السويس ، ثم أعقب الفيلق بغير . وفوق ذلك كله جمعوا للحملة تعزيزات من مناطق «بربر» و «الصومال» ، كما أرسلت من القاهرة فرقة من الشرطة ومعهم عدد لا يقل عن ٢٠٠ باشى بوزوق تتألف منهم كوكبة من الفرسان . وهكذا اجتمعت تحت قيادة

الجنرال الإنجليزى «باكر باشا» حملة تبلغ عدتها نحو ٤٠٠٠ مقاتل ، وكان من أسلحتهم مدافع كروب وغيرها من قاذفات القذائف .

ولم يحلّ أول فبراير سنة ١٨٨٤ حتى كانت هذه القوات والمعدات قد وصلت إلى سواكن فترك «باكر» فيها قوة لحمايتها ، وغادرها جنوبًا إلى ميناء «ترنكيتات» ومعه سائر الجيش البالغ ٣٧٤٦ مقاتلاً . وفى الرابع من فبراير تقدم بهم لملاقاة العدو ورفع الحصار عن طوكر . وكان الطريق تحفه هنا وهناك بقاع من الأجَم والأدغال تتخللها دوحات السنط الشائكة . وكانت الأدغال والأجَم تتكاثف مع التوغل فى المسير . وبعد قليل انطلقت بعض الرصاصات ولاحت طلائع العدو ، وبعد مناوشات بينها وبين مقدمة الحملة اختفت . ثم عاد غيرها للظهور ، فهاجمتها الطليعة وعلى أثر عودتها خرجت من الأدغال جموع ضخمة مسلحة بالرماح انقضت على مقدمة الحملة فتراجعت لتنضم إلى سائر الجيش فتبعها العدو . وإذا بأفواج أخَر تطلق بنادقها على مقدمة الجيش وجناحيه . وعلى بغتة أقبلت حشوده منحدرة من التلال كثيفة متدافعة ، وكان ظاهراً من تحركاتها محاولة الاستدارة بالجيش ، يعززها الكمين بعد الكمين يخرج من الغابات صائحًا صياحه المفزع . وسرعان ما أخذ يتحقق للعدو تطويق الجيش كله . وعندها بلغ الفزع من الجيش أشد مبالغه ، واستولى على سائر جنده الاضطراب ، واختلط الراكب بالراجل منهم فُشلت حركتهم وضعفت مقاومتهم ، فأوقع بهم العدو وأثخن فيهم حتى أفنى منهم ٢٣٧٣ مقاتلاً من بينهم بعض الضباط الإنجليز ، وغنم ستة مدافع و ٣٠٠٠ بندقية ونصف مليون طلقة . وأدبرت فلول الجيش ، وأدبر معهم قائدهم الجنرال «باكر» إلى «سواكن» .

ولم تمض أيام حتى سلمت حامية «طوكر» ، وكان تسليمها فى الثالث عشر من فبراير ، وكان وصول الفلول الهاربة إلى سواكن فى اليوم نفسه ، وكانوا لا يكاد يصدق أحد منهم أنه نجا برأسه .

وأما ما كان من حامية «سِنْكات» فقد أبدى رئيس حاميتها المصرى شجاعة نادرة ، وفى ذلك يقول القاضى الإنجليزى «شارلس رويل Charles Royle» : «لقد بلغ من معاناة «سنكات» وشدة ضنكها من حصار عثمان دقنه لها ، أن أكل أهلها الجمال ،

ومن بعدها القطط والكلاب ، ولكن رئيس الحامية «توفيق أفندى» أبى التسليم وآثر عليه الموت الكريم ، فقد خرج مع حاميته وعددهم ٤٥٠ كلهم منهوكو القوى جائعون ، فانقضوا على الثوار الذين يعترضون طريقهم وهم عدد غير قليل ، ثم تكاثر العدو عليهم فصمدوا له حتى لاقوا الموت جميعًا إلا نفرًا يعد على الأصابع . وقد ظل توفيق يقاتل العدو حتى نفدت آخر رصاصة معه ، فاستل سيفه للدفاع عن نفسه ، إلى أن كان ختام القتال موته فى موقفه ميتة الأبطال .

وبدهى أن يلتمس النقاد الإنجليز لمواطنهم «الجنرال باكر» مختلف الأعذار ، ولكن الكثيرين من النقاد الحربيين - كما يقرر القاضى الإنجليزى «تشارلس رويل» - أخذوا على «الجنرال باكر» اتجاهه فى المعركة إلى تكوين مربع واحد من جيش يتكون من ٣٠٠٠ مقاتل ، على حين أنه لو عمد إلى تأليف ثلاثة مربعات مثلاً ، لصمد واحد على الأقل إذا اختلت الصفوف الأخرى من المفاجأة ، يضاف إلى ذلك ما كان من خلطه الجند المصريين والسودانيين والترك خلطًا ينعدم معه التفاهم والتعاون والتضامن . ويزيد بعض النقاد الحربيين فى المقابلة بين مصير حملة «باكر» هذه ، وحملة «هيكس باشا» قبلها ، أن الفضل إنما يرجع إلى العدو نفسه فى نجاة من نجا برأسه فى حملة «باكر» يوم أديرت وأدبر معها قائدها إلى «سواكن» ، فلو أن العدو استمر فى مطاردة جنود «باكر» فى أثناء هربهم بضعة أميال أخرى لأفناهم وقطع دابرهم وأتى على آخرهم حتى قائدهم ، كما وقع لهكس باشا وجيشه من قبلهم .

(جـ) مبعوث الإنجليز «غوردون»

ومذبحة الخرطوم

كان لم يمض شهر وبعض شهر على تقلد المعتمد البريطانى الجديد «إفلين بارنج» – الذى نتعجل هنا تعريفه باسم «كرومر» – سلطاته العظمى فى مصر ، حتى كانت الهزيمة العظمى فى السودان على يدى مواطنه «هيكس باشا» من جراء طمعه فى الرياسة ، وتطلعه للقيادة ، وعناده فى موقفه بدافع من صلفه وغروره على عادة الإنجليز ، مع إضافة عِوَج تفكيره وسوء تدبيره . وكان على المعتمد البريطانى الخطير أن يبلغ حكومته أخبار الهزيمة ويعقب عليها بالرأى الذى تمليه خبرته ، فإذا كان ما هداه إليه تفكيره وأسعفه به تدبيره من رأى مبتكر ، هو ترك السودان للثوار وتخلى مصر عنه . وقد اعترف «كرومر» بذلك فى كتابه «مصر الحديثة» بقوله : «إنى أعد نفسى مسئولاً عن ابتكار سياسة إخلاء السودان ، وعلى غلادستون تقع تبعة الموافقة على هذه السياسة» . وقد عارض رأيه ناظر النظار شريف باشا ، ولما رأى إصرار إنجلترا على الأخذ به استقال فى ٧ من يناير سنة ١٨٨٤ بخطاب مشهور . فعرضت النظارة على «نوبار باشا» فقبلها فى ٨ من يناير على أساس القرار الإنجليزى ، وهو تخلى مصر عن السودان ، مع الاحتفاظ بميناء سواكن . وقد احتجت مصر كلها على ذلك ، وكان فى مقدمة من رفع الصوت بالاحتجاج فى الصحف صحيفة «الأهرام» .

ومن أجل إخلاء السودان ، عرضت إنجلترا على مصر خدمات «الجنرال غوردون» ، الذى عرفه السودان فى عهد الخديوى إسماعيل الذى عينه مديراً لإقليم خط الاستواء من ١٩ من فبراير سنة ١٨٧٤ حتى استقال من منصبه عام ١٨٧٦ ، ثم أعاد تعيينه

حكمداراً عاماً على جميع الأقاليم السودانية المصرية فى فبراير سنة ١٨٧٧ ، بناء على توصية الحكومة البريطانية التى كانت ظاهرة الميل إليه لتعضيده فى السودان حركة المبشرين . وقد بقى «غوردون» فى هذا المنصب حتى استقال فى أواخر عام ١٨٧٩ بعد شهر من عزل الخديوى إسماعيل . وفى هذه الفترة وقّع الخديوى إسماعيل مع إنجلترا اتفاقية أغسطس سنة ١٨٧٧ بإلغاء الرقيق ومنع التجارة فيه ، وجددت هذه الاتفاقية فى السنة التالية . وتكبد الخديوى نفقات جسيمة فى سبيل تنفيذ هاتين المعاهدتين . وها هى ذى إنجلترا تعرض الآن إعادة استخدام «غوردون» حاكمًا عامًا للسودان لتنظيم إخلائه من المصريين ، وقد رفضت مصر ذلك وكانت حجتها أن حركة المهدى فى السودان تقوم على دعائم دينية فلا يصلح فى علاجها إيفاد مسيحى . ولكن الحكومة المصرية لم يسعها حيال إصرار الإنجليز التمادى فى الرفض ، فصدر القرار بتعيين «غوردون» وأبلغته إنجلترا أن يقدم نفسه على الفور إلى المعتمد البريطانى فى مصر . فكان قدومه فى ٢٤ من يناير سنة ١٨٨٤ ، ثم لقاؤه للمعتمد البريطانى ، ووضعت التعليمات وسلّمت إليه الفرامانات والمنشورات . ولم يغِب عن «غوردون» وجه الحكمة فى وجهة النظر المصرية ، فأضمر وجوب الانتفاع فى مهمته فى السودان بحاكم مسلم عظيم من حكام السودان الأسبقين وهو «الزبير باشا» ، ولما كان رجال «غوردون» سبق أن قتلوا ولده ، فقد طلب «غوردون» وساطة المعتمد البريطانى للجمع بينه وبين الزبير وإصلاح ذات البين ، فكان اجتماعهما فى يوم ٦ من يناير . وفى اليوم نفسه ارتحل «غوردون» ووكيله «الكولونيل استيوارت» من مصر إلى الخرطوم . فكان وصولهما إليها فى ٨ من فبراير. وما كاد غوردون يصل إلى الخرطوم فى ١٨ من فبراير سنة ١٨٨٤ ، حتى أرسل فى طلب الزبير باشا ، وقد تبين له أنه كان وحده محط الآمال عند السودانيين . ولكن الرأى العام البريطانى كان معارضاً لذلك ، لنفوره من الزبير لأنه تاجر قديم من كبار التجار فى الرقيق. وهذا الموقف من الإنجليز يناقض نفسه بنفسه ، لأن إخلاء السودان وتركه لحكم المهدى يحمل معنى التسليم بعودة تجارة الرقيق للربوع السودانية ، سواء حضر «الزبير» أو لم يحضر. وما زال «غوردون» يلح فى طلب الزبير باشا دون جدوى، فقد استقر رأى الحكومة الإنجليزية نهائيًا على عدم الموافقة على إيفاده .

وكان غوردون مع ما اشتهر عند قومه من طيبته وتقواه ، لا يخلو من المكر وسعة الحيلة في شئون دنياه ، فلم يفته وهو في «كروسكو» على أبواب السودان أن يرسل إلى المهدى كتاباً ومعه هدية من ثياب ، وكان فحوى الكتاب أن حكومة جلالة الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا قد عينت «غوردون» حكمداراً للسودان ووافقت الحكومة الخديوية على ذلك ، وأن «غوردون» بهذه الصفة يعترف بالمهدى سلطاناً على السودان الغربى كله وملكاً مطلقاً على كردفان ودارفور ، وأنه يرغب فى توثيق العلاقات بين سلطنة المهدى وبينه وإعادة المواصلات ووقف إراقة الدماء ، كما أرسل «غوردون» فى الوقت نفسه تلغرافاً إلى حكمدارية السودان بالخرطوم باستقبال رسل المهدى حين يصلون بإطلاق المدافع وإقامة الزينات . ولما نزل غوردون فى سراى الحكمدارية بالخرطوم أعلن فى خطبته قراءة فرمان توليته هذه التصريحات :

« لقد صار فصل السودان عن مصر فصلاً تامًا ، وفُوّض إلىّ الحكم المطلق . وقد خابرت السيد محمد أحمد المهدى بفحوى مأموريتى ، واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برمته ، على شرط ألا يمد يده لغيره . هذا وقد ألغيت جميع الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق ، وتجاوزت عن جميع المتأخرات من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ ، وقد تجاوزت أيضًا عن ضرائب ثلاث سنوات منذ أول سنة ١٨٨٤ وأمرت بإحراق دفاتر المتأخرات ، وأمرت بإطلاق سراح جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جناياتهم ، وعزمت منذ الآن على ألا يكون أعضاء حكومتى إلا من الوطنيين، حيث إننى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه. وقد عينتُ عوض الكريم أبو سن(١) مديراً للخرطوم ، ولى الأمل بأن العلائق ستفتح بينى وبين سلطان الغرب «المهدى» وثيقة العُرَى . وقد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون وإتلافها وسحب الجنود ، لتلتفتوا إلى عمران بلادكم ، وحرث أراضيكم ، وإنماء تجارتكم . ومنى عليكم السلام » .

---

(١) هو زعيم قبائل الشكرية وكان موالياً للحكومة المصرية .

ثم استقبل «غوردون» العلماء فأبلغوه أن إتلاف الحصون نكبة محققة ، لأن المهدى لن يلتفت إلى ما قاله من كلام . فعدل «غوردون» عن تخريب الحصون .

ولقد جاء رد المهدى المؤرخ أول جمادى سنة ١٣٠١ (١٠ من مارس سنة ١٨٨٤) مؤيداً سوء ظنهم . فقد تعالى المهدى على ما جاء فى كتاب «غوردون» من أنه عينه سلطانًا على كردفان ، ودعا «غوردون» إلى الإسلام والتسليم ، وإلا فإن حزب الله واصل إليه ومزيل له . وأرسل المهدى هدية لقاء التى تلقاها مع كتاب «غوردون» ، وكانت الهدية على حد قوله ، كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات ، طلبًا لعالى الدرجات . والهدية جبة مرقعة ورداء ، وسراويل ، وعمامة ، وكلها من الدمور ، وطاقية من الخوص ، وحزام وسبحة . فلما قرأ غوردون الخطاب ورأى الهدية غضب ، وركلها بقدميه ، قائلاً بالإنجليزية «جوديم» ثم سلم للرسل رده على المهدى وفيه يقول :

« إننى أدعوك إلى السلم ، وأنت تدعونى إلى الحرب . وأدعوك إلى حقن الدماء ، وأنت لا تميل إلا إلى سفكها . فأقول لك الآن ، لا بد من قهرك وكبح جماح طغيانك . ومهما يكن عندك من الأتباع ، فلا بد أن ترضخ صاغراً أو تهلك حيال القوتين : قوة الحكمة الخديوية والدولة الإنجليزية » .

وكان الشغل الشاغل لغوردون بعدها ، مخابرة السلطات الإنجليزية فى مصر ولندرة تلغرافيًا لإرسال مدد إليه ، من الجنود الإنجليزية أو الهندية والأتراك ، فقد كان لا يُخفى عدم ارتياحه للجند المصريين . كما أنه لم يلبث أن ضم إليهم فى تعصبه عليهم الباشى بوزوق الأتراك . وظل «غوردون» بالخرطوم يعد ما يستطاع للدفاع عن المدينة ، وهو يمنى نفسه بقرب وصول نجدة من حكومته ، إذ لم يكن خافيًا عليه عدم ميل أهل السودان للانضمام إليه، لغلبة اعتقادهم فى المهدى منذ هزيمة «هيكس باشا»، وحرصهم بدافع هذه العقيدة على الجهاد فى سبيل الله والمهدى . وهكذا امتدت الثورة إلى أواسط السودان ، واقترب مشايخ القبائل بجموعهم من الخرطوم وكان زعيم قبائل الشكرية «عوض الكريم أبو سنّ» قد اعتذر من عدم تولى مديريتها . من ثمة كان كل من هؤلاء طامعًا فى أن تكون مديرية الخرطوم له على يد المهدى .

ولقد بدرت بادرة أمل لدى «غوردون» وهو يرى زيادة النيل حول الخرطوم فى موسم الفيضان فى عام ١٨٨٤ ، لأنه يفعم الخندق بمائه ، كما أنه يسمح باستعمال ما لدى «غوردون» من البواخر النيلية المدرعة المسلحة بالمدافع فى تغطية جنود الحامية فى تقدسها إذا خرجت لمهاجمة المحاصرين . ولم يكن «الجنرال غوردون باشا» لتفوته هذه الفرصة، وخاصة أن لديه بطلها المصرى «محمد على» الذى كان يلقبه «الباشا المناضل». وقد خرج محمد على فى ٢٩ من أغسطس ١٨٨٤ بفرقة كبيرة مجهزة ، متجهاً إلى حيث يجتمع المحاصِرون جنوبى الخرطوم من ناحية النيل الأزرق . فلما وصل إلى بلدة جريف لقى الدراويش وعلى رأسهم الشيخ عبد القادر فهزمهم وغنم ١٦٠٠ بندقية وعدداً لا يحصى من السيوف والحراب . ولم ينتظر «غوردون» عودة الظافر بل خرج فى باخرة لاستقباله وهنأه فى حرارة ورقاه إلى رتبة «جنرال» . وفى اليوم التالى أجلى الجنرال «محمد على» الأعداد عن جميع المثلث الواقع جنوبى الخرطوم من «جريف» على النيل الأزرق إلى «كالا كالا» على النيل الأبيض . وفى اليوم الثالث خرج محمد على للقتال ، وكانت وجهته هذه المرة إلى الشمال ، حيث لاقى عند «حلفايا» قائداً من قواد الدراويش المعروفين وهو شيخ الأبيّض ، فانتصر عليه انتصاراً باهراً ، وأجلى ضفتى النيل من الأعداء حتى شندى شمالاً ، وحُملت منها الحنطة والعجول والمسلى وكل أنواع المأكل إلى الخرطوم حيث صار بيعها لأهل الخرطوم الذين كانون يشكون من قلة الزاد وارتفاع الأسعار ، فكاد يجن جنونهم من الغبطة والسرور . بيد أن هذه الانتصارات التى جلبت السرور، كان منها دخول الزهو والاستهتار على القائد المغوار. فقد اتجه «محمد على» للمرة الثانية قبلى الخرطوم ومضى موغلاً ، فإذا به يلقى للمرة الثانية خصمه شيخ الأبيّض ومعه أمير آخر من أمراء الدراويش هو الشيخ مداوى وقد انضمت قوتهما ضده ، فهاجمهما فى ٤ من سبتمبر فانهزما وتراجعا فى الداخل بعيداً عن النهر ، فتبعهما وقد جن الليل ، فأخذاه على غرة فى الظلام فحارب محمد على وجنده ببسالة نادرة ، وأبى – وقد أصبح جنرالا – أن يتقهقر خطوة واحدة ، ولم يزل يحارب حتى تمزق جسده وقتل هو وثمانمائة معه ، وهم نصف الفرقة ، فضلاً على خسارة ألف بندقية . فكانت هذه النكبة فى البطل المصرى المناضل أكبر ضربة أصابت حامية الخرطوم فى حصارها الطويل .

وفى السادس والعشرين من مايو سنة ١٨٨٤ وفى أثناء حصار الخرطوم سقطت فى يد المهدى مدينة بربر وهى طريق المواصلات الباقى الوحيد الذى كان يصل الخرطوم بالعالم الخارجى .

وقد كان «كتشنر» وقتئذ يعمل ضابطًا للمخابرات ، لما كان معهودًا فيه من سعة الحيلة والمضاء ، فضلاً على معرفته اللغة العربية قراءة وكتابة ، ومن ثمة كان عليه أن يكون وثيق الاتصال بمختلف القبائل المنتشرة بين النيل والبحر الأحمر ، فلا غرو يجيد اللغة العربية ، ولا غرو يعرف الذين يداخلهم ويتعامل معهم . وقد اكتسب «كتشنر» مودة العرب البشاريين ، كما ألف من العبابدة والفجارة سلسلة من المراكز الأمامية من الصحراء إلى البحر .

وهكذا كان «كتشنر» يسعى سعيه المتواصل لتيسير الوسيلة لإنقاذ «غوردون» منذ أبريل ١٨٨٤ بمخابرة قبائل العربان العبابدة ، والبشارية والكبابيش وغيرهم ، ولكن الشهور مضت تلو الشهور قبل أن تعزم الحكومة الإنجليزية فى ٥ من أغسطس على إيفاد حملة إنجليزية للنجدة ، وهى الحملة التى تقرر فى ٢٦ من أغسطس أن يكون على رأسها الجنرال «ولسلى» الذى يحمل لقب «لورد القاهرة» منذ دخوله العاصمة المصرية على رأس جيش الاحتلال عقب الثورة العرابية . وقد وافقت الحكومة الإنجليزية نزولاً على رأيه أن تتخذ الحملة طريق النيل من القاهرة مخترقة الجنادل والشلالات إلى الخرطوم ، بدلاً من طريق السويس – سواكن ، ومنها برًا إلى بربر فالخرطوم .

ولا يسعنا – إذا ذكرنا ما كانت تحمله أسلاك البرق كل يوم طوال الشهور العدة من البرقيات المرسلة من «غوردون» إلى «كرومر» المعتمد البريطانى فى القاهرة مكررة طلب النجدة – إلا أن نذكر ما ورد فى إحداها من سخرية فى قوله :

« تسألنى عن السبب والقصد من بقائى فى الخرطوم ؟ إنى باق فى الخرطوم لأن الثوار العرب يحبسوننا فيها ولا يتركوننا نخرج منها » .

وفى برقية أخرى :

« لا يزعجنى إلا هذا التلكؤ ، حتى ينقضى الوقت وتضيع الفرصة » .

ولقد صدق «غوردون» حسّه ولم يخدعه حدسه ، فقد انقضى الوقت وضاعت الفرصة فعلاً . فها هو ذا المهدى فى عاصمته الأبيّض فى آخر شهر الصيام ويصدر أمره إلى أقدر قواده عبد الرحمن النجومى - ومعه أخوه حسن وغيره من الأمراء - بالزحف على رأس قوة لا تقل عن مائة ألف مقاتل ، فرسانها عشرة آلاف ، وحملة البنادق عشرة آلاف ، والباقون من حملة الحراب . وكان الجيش مزوداً بمدفع كروب وستة مدافع جبلية كان قد غنمها الثوار من حملة «هيكس» المنكوبة . وفى الوقت نفسه أذاع المهدى على جميع قبائل السودان شرقيها وغربيها فى الصحارى والبلدان دعوته للانضواء تحت علم الجهاد ، والمبادرة إلى الزحف للاشتراك فى حصار الخرطوم واعداً إياهم أجزل الثواب وحسن المآب ، ولمن تخلّف شر العقاب فى نفسه وفى ماله . فامتثلت القبائل كلها أمره ، وتدفقوا أفواجًا ، وبدأ الزحف الكبير ، وقد أوفى عدد المجاهدين فى حملته على نصف مليون . وجاز هذا الجيش الهائل من شتى القبائل كردفان ، وسار فى محاذاة النيل الأبيض ، وعندما اقترب القائد من الخرطوم أرسل مع رسولين فى التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨٤ كتاباً يدعو فيه «غوردون» للتسليم ومعه جبة الدراويش على سبيل الهدية ، وكانت هذه هى عاداتهم المرعية . وكان جواب «غوردون» الرفض كما تعودوا ذلك منه . وفى هذا اليوم (التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨٤) وقد أخذ المحاصرون يضيقون الخناق على الخرطوم ، كان «اللورد ولسلى» قائد حملة الإنقاذ المقرر إيفادها لإنقاذ «غوردون» قد وصل بصحبة « كرومر» إلى القاهرة لتسلم مقاليد مهمته ، وبعدها بدأ السباق نحو الخرطوم بين اللورد «ولسلى» والمهدى ، ذلك السباق الذى يتقرر فيه الموت أو الحياة لغوردون .

وفى اليوم الثانى من محرم سنة ١٣٠١ (٢٣ من أكتوبر سنة ١٨٨٤) أرسل المهدى كتاباً إلى غوردون ينذره : «إننا على مسيرة يوم من أم درمان» .

وفى اليوم التالى وصل المهدى إلى بلدة أم سعيد قبلى أم درمان حيث كانت ثمة جموع من المقاتلة الدراويش يحاصرون أم درمان ، على حين كانت الجموع الأخرى فى شمالى الخرطوم بقيادة شيخ الأبيض ، وكذلك قبلى الخرطوم حيث كان على الميمنة القائد أبو جرجه ، أما الميسرة فكان عليها القائد الكبير عبد الرحمن ولد النجومى الذى

كان معتبراً عندهم «سيف المهدية» ، مثل «سيف الإسلام» خالد بن الوليد فى الفتوح الكبرى على عهد النبى عليه السلام وخلفائه الراشدين .

ولم يزل المهدى منذ وصوله إلى ضواحى الخرطوم يعرض على «غوردون» شتى العروض للتسليم و «غوردون» يطاوله . وكانت الخرطوم فى أزمة شديدة فى الزاد والمئونة حتى أدت هذه الحال إلى تفشى المجاعة ، إلا أن «غوردون» كان ينام ويستيقظ وهو يحلم بوشك قدوم حملة الإنقاذ ، فلا غرو يسخر من طلب التسليم . ولكنه حاول أن يدفع عن نفسه القتل إذا وقع أسيراً بقوله فى إحدى رسائله ، إنه إذا وقع أسيراً فإن حكومته تفديه بعشرين ألف جنيه ذهب. فكان رد المهدى عليه : «أنت إذا قبلت نصحنا ؛ فبها ونعمت ، وإلا إن أردت عند أسرك أن تجتمع على الإنجليز ، فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم» .

ورأى المهدى أن يبدأ بأم درمان ، وكان على جيش الدراويش عملاق سودانى اسمه حمدان أبو أنجر ، وعلى حامية أم درمان من المصريين محمد فرج الله الذى أحسن الدفاع عنها حتى كان من ذلك أن عدل الثوار عن أخذها عنوة إلى تشديد الحصار عليها .

ولم تلبث أم درمان أن نفدت فيها الأقوات ، ولم يكن لدى «غوردون» ما يمدها به لنفاد الزاد من الخرطوم نفسها فضلاً عن أن الحصار قطع كل مواصلة بينهما وهما على ضفتى النيل متقابلتان . فلم يسع «غوردون» إلا أن يشير على فرج الله بالتسليم ، فسلمت أم درمان فى ٥ من يناير سنة ١٨٨٥ .

ولما كان المهدى قد اتصل بعلمه أن حملة الإنقاذ الإنجليزية على مسيرة أيام عند بلدة «المتنة» وأنه قد وقعت بينها وبين قواته معركة فى «أبو قليع» (ويقال لها أيضاً أبو طليع) التى هلك فيها الكثيرون من رجاله ، وأن الحملة فى طريقها إلى بلدة القبة ، فقد سارع إلى دعوة أمرائه فى العشرين من يناير للتشاور ، وأبلغهم أنه حظى بالحضرة فأوحت إليه (كالنبى عليه السلام) بالهجرة إلى الأبيّض . وكادت تتفق الآراء على ذلك لولا رأى قال به أحدهم وهو الهجوم على الخرطوم أولاً ، فإذا لم يفلح الهجوم

كانت الهجرة فالطريق إلى الأبيّض مفتوح والهجرة ميسورة كل حين . وكان «غوردون» ومعه قناصل الدول ينتظرون وهم على سطح السراى بالنظارات المعظمة إلى كثرة من يجتازون النهر من الدراويش لاحقين بمعسكر النجومى حيث يحتشدون كأنه يوم الحشر فى صعيد واحد ، مما يدل على أن المهدى غير بعيد فى أم درمان ، وأنه ما قدم بشخصه إلا لأمر عظيم .

وفى يوم الأحد ٢٥ من يونية ، جاء الخبر بأن بواخر الحملة الإنجليزية غادرت صباح أمس فقط بلدة القبة . فعقد الخليفة مجلسه مرة أخرى فاستقر الرأى على أن يكون الهجوم صباح الغد ، وبعث المهدى من يذيع فى جموعه حول الخرطوم أنه حظى بالحضرة فأوحت إليه أن الله جعل أرواح حامية الخرطوم كلها فى قبضته . وفى المساء اجتاز المهدى فى زورق ومعه أمراؤه الثلاثة : عبد الله التعايشى ، وعلى ولد حلو ، ومحمد شريف إلى الضفة الشرقية قبلى الخرطوم ، حيث احتشدت الألوف المؤلفة من المقاتلة . فقصد الخليفة إلى معسكر عبد الرحمن ولد النجومى فعرض الجيش ورتبه وخطب فيه يحضّهم على الجهاد ، ويعد من يستشهدون بالجنة وطيباتها ، وقد حَرَص قبل الختام أن يوصيهم هذه الوصية فى شأن «غوردون» وهى ألا يتعرض أحد منهم لحياة «غوردون» بسوء . والسر فى ذلك أن المهدى كان على حد قوله لأمرائه يريد أن يفتدى به أسيراً آخر ، وهو أحمد عرابى ، لما كان من ثورته فى مصر على حكم الأتراك وتدخل الإنجليز .

وفى الثلاثاء ٢٧ من يونية فى منتصف الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم ، زحف الدراويش بجموعهم الغفيرة تحت قيادة النجومى ، تتقدمهم طلائع من حلة البنادق ثم جميع المقاتلة بالسيوف ، ومن ورائهم سائر حملة البنادق ، وفى المؤخرة وعلى جانبيها الفرسان . وكانت الأوامر تقضى بأن يكون الزحف فى سكون لا يسمع فيه حتى وقع الأقدام ، وقد ساعد على ذلك أن الأرض كانت ميثاء ناعمة ، ومعظم المقاتلة حفاة، وقد كان الدخول إلى المدينة فى موضع انحسر عنه الماء فى الخندق المحيط بها، فانقض الدراويش على الحامية وكانت مؤلفة من الأورطة المصرية والأورطتين الثانية والثالثة السودانيتين والأتراك والباشى بوزوق . ولم تأت الساعة الخامسة حتى كانت

الخرطوم فى أيدى الدروايش فأسرع الشيخ محمد نبوى والجمع الذى معه إلى سراى الحكمدارية ، حيث خرج إليهم «غوردون» وقد لبس كسوة التشريفة الصغرى متقلداً سيفه ووضع على رأسه كوفية من الحرير معقودة بالعقال . وسألهم «غوردون» وهو على سلم السراى «أين محمد أحمد المهدى ؟» فأجابوه بالطعن بالحراب وكان محمد نبوى أول طاعن ثم جذبوه من رجله على السلم وجزّوا رأسه وحملوها إلى المهدى .

وكان بمدينة الخرطوم نحو عشرين ألف نسمة كانوا ينتظرون ترحيلهم على يد حملة الإنقاذ الإنجليزية التى طال إرجاء إرسالها ، وها هم أولاء لما أوشكت الحملة أخيراً على الوصول ، كان سيف الدراويش قد سبق إليهم . وقد استمرت مذبحتهم ست ساعات ، ولم يرفع عنهم السيف حتى أصدر الخليفة الأمر بالكف عن القتل بعد أن بلغ عدد من قتلوا نحو الأربعة والعشرين ألف رجل . كما لقى عدد من الأطفال والنساء حتفهم فى هذه المذبحة العامة . أما من بقى من النساء على قيد الحياة من الحسان ومن لا يزلن فى مقتبل العمر فضلاً عن العذارى ؛ فقد ساقوهن سوق الأنعام إلى حيث يُعْرَضْن ليتقاسمهن المنتصرون سبايا لهم ، ومن بقين بعد الاختيار فإنهن أصبحن نصيب عامة الجند . أما العجائز فقد صرفوهن هائمات فى أسمالهن ، يتضورن جوعاً ويعشن على الفتات التى تلقى إليهن إن قابلهن محسن متصدق .

وعلى مثال ما جرى فى الخرطوم ، ذَبَح أنصار المهدية الآلاف من أفراد الحاميات المصرية والموظفين والتجار المصريين فى سائر أنحاء السودان مع تعذيب من يشتبه فى أن لديهم بعض المال للإقرار بمخابئه . كما سبيت الفتيات العذارى ، وتعدى بعض الثوار إلى بقرهم بطون الحبالى ، وبلغ قسوتهم أنهم كانوا يتبارون فى قذف الأطفال فى الهواء ليتلقوهم على أسنة الرماح . وأوجز ما يقال فى تعليل هذه القسوة العارمة من بعض الثوار هو أن أتباع المهدى كانوا ينظرون إلى من لا يؤمن بدعوة المهدى ، وإن يكن مسلمًا على أنه من الكفار . أما المهدى فإنه على الرغم من هذا قد أظهر استنكاره لهذا الإسراف فى التقتيل والتنكيل .

أما الحملة الإنجليزية القادمة لإنقاذ «غوردون» فقد أشرفت على الخرطوم فى ٢٨ من يناير سنة ١٨٨٥ بعد فوات الأوان ، فوجدت دار الحكومة قد تهدمت ، والراية المصرية قد اختفت ، و«غوردون» الذى كان وفودهم لإنقاذه فى عداد الهالكين .

واستقر الأمر بعدها للمهدى . ، فجعل عاصمته أم درمان ، وقام بسك النقود وشرع فى جمع الذكاة والعشور . ودخلت أقطار السودان - عدا مديرية خط الاستواء - فى طاعته حتى توفاه الله فى ٩ من رمضان سنة ١٣٠٢ (٢١ من يونية سنة ١٨٨٥) ودفن فى الحجرة التى فارق فيها الحياة . وعلى هذه الحجرة أقيمت قبة صار الناس يحجون إليها للتبرك ، وكان المهدى قبل وفاته قد استخلف الفقيه عبد الله التعايشى فصار «الخليفة» الحاكم بأمره فى السودان .

هذه الهزائم المتكررة والفظائع المنكرة كانت أخبارها تتوارد على «كرومر» المعتمد البريطانى ممثل دولة الاحتلال فى القاهرة فيطيرها - مشفوعة فى معظم الأحيان برأيه - إلى لندن . ولم تكن البيانات كلها بهذه التفاصيل التى جمعها بعد ذلك المحققون الرسميون وغير الرسميين ، واعتمد على تحقيقاتهم المؤرخون فى بحوثهم المستفيضة التى استغرقت عدة سنين ، ولكنها كانت رسائل تحملها البواخر النيلية أو برقيات عاجلة تنقلها أسلاك التلغراف التى كان يتعرض لقطعها الثوار ، كلما اقتربوا فى زحفهم واقتربت معهم الخاتمة وحق الدمار .

أما الوزارة المصرية والخديوى نفسه ، فكانوا آخر من يعرف ، وإن علموا فلا تدخل فى علمهم دقائق الأسرار ، بل يكون إلمامهم بالأخبار العامة التى هى فى الغالب الأعم مجملة فى كلمة أو كلمتين مؤداهما وقوع نكبة طامة من قبيل ما سبق .

أما عند انقطاع أسلاك التلغراف فكانت تصل إلى القاهرة من الجنوب ، بعض الرسائل مع النجابة المكلفين ، ومن ورائها الشائعات يتناقلها العربان من البدو الرحل فى تنقلاتهم على ظهر الهجين فى الصحراء الشرقية . وقد كان من انقطاع سبل المواصلات فى الختام أن تأخر نبأ سقوط الخرطوم ، فلم يصل فى حينه إلى مصر والعالم ، ويقال إن القاهرة لم تعلم به إلا بعد شهر من وقوعه . وفى جميع الأحوال

كانت الشائعات المتناقلة تحكى ما لا يتعلق به الخيال من الفظائع والأهوال التى تنخلع لها القلوب وتقشعر الأبدان ، فتشتد النقمة ويزداد السخط فى مصر على من كان السبب فى هذا كله . ومَن ذا يكون السبب غير السادة الذين استولوا على السلطة العليا فى مصر وأخذوا أزمة القيادة كلها فى أيديهم : الإنجليز ؟

فلا غرو إذا اشتدت فى قلب الفتى حافظ إبراهيم كراهتهم واستفحلت النقمة عليهم ، واستعرت مراجل الغيظ منهم والمقت لهم ، شأنه فى ذلك شأن سائر المصريين الذين كانوا يتعزون بعض الشىء عن فجائعهم فى مواطنيهم وذوى قرابتهم ، ممن كانوا تجارًا أو موظفين أو ضباطًا أو جنودًا فى الحاميات المصرية فى السودان ، بالتشفى والتنديد بالقادة البريطان ، بما أصابهم على يد المهدى من الهزيمة والهوان ، وإن كان تشفيًا لا يرد على مصر ما فقدت وهو عظيم ، ولا يعيد الحياة لمن ثكلت فى أبنائها وهم يعدون بالألوف لا بالمئين .

فى طنطا

حافظ وتكوينه الأدبى

وكان مقام حافظ فى القاهرة رهنًا ببقاء خاله فيها، إذ كان هو ووالدته الأرملة يعيشان فى كنفه، وكان خاله محمد أفندى نيازى المهندس لم يلبث أن تغير بعد سنوات مقر عمله إذ صدر الأمر بنقله إلى طنطا ، فلم يكن بد من انتقالهما معه .

وكان سفر حافظ ووالدته الأرملة إلى طنطا سنة ١٨٨٧ كما هو المرجح عندنا مما كتبه الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار – وكان طالبًا بالمعهد الأحمدى – عن لقائه حافظًا فى طنطا فى أبريل سنة ١٨٨٨ ، بعد أن صارت له فيها شهرة فى الشعر .

قال الأستاذ النجار :

«فى صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالبًا فى الجامع الأحمدى بطنطا، وقد سافرت فى أيام العطلة إلى بلدنا «القرشية» ثم عدت فى أواخر شعبان من تلك السنة إلى طنطا، فإذا بإخوانى وأصدقائى يلونون بفتى غض الإهاب، جديد الشباب، وقد أسرعوا بتقديمى إليه وتقديمه إلىّ باسم الأديب الشاعر «محمد حافظ إبراهيم» : ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلاً إليه بجاذب من الأدب الذى كان نهمة نفسى حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة، وبديهة مطاوعة وسرعة خاطر، وحضور نادرة، وكان دأبنا من رمضان تلك السنة أن نصلى المغرب والعشاء والتراويح معًا، ثم نلبث فى سمر ممتع ومطارحة للشعر، ومذاكرة فى نوادر الأدب، وما كان يطرف الحضور به مما يقف عليه من جيد القريض ، إلى أن يأتى وقت السحور، ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا

فيه إلى انبثاق الفجر، فنؤديه، ثم نخرج بغلس إلى خارج المدينة إلى قرب بلدة قحافة، ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع، فيذهب كل واحد منا إلى بيته، ثم نعود إلى مثل ذلك فى الغد إذا جن الليل».

ويمضــى صـديق الصبا فيـــروى مـــن نوادر هذه الجماعة من أدباء الشباب، وما بدر منهم فى أواخر رمضـان من ذلك العام عن حسن قصد التماساً لترويح الخواطر ونزهة النواظر .

«ظل هذا دأبنا مدة شهر رمضان وفى أواخره بصرنا ببشروش جميل الصورة فى حديقة مدرسة الفريد، فتقدم واحد منا وطرق بحلقة الباب ليفزعه، فكان المنظر جميلاً. فعاودنا ذلك العمل ثلاث ليال، ولكن جماعة الفريد ظنوا تعمد ذلك لإقلاق راحتهم. فلما كانت صبيحة آخر يوم من رمضان خرجنا من المسجد بغلس، وأسرعنا الخطا حتى أتينا إلى مدرسة الفريد والظلام لم يقوض خيامه، وما إن تقدم واحد منا لتحريك الباب حتى هب جماعة من الفلاحين قد أكمنهم جماعة الفريد للقبض علينا ، فعلقت حبائلهم بمحمد حافظ إبراهيم شاعر النيل ومحمد حلمى الجميزى أفندى، أما أنا والشيخ محمد إبراهيم البيومى فأسلمنا أرجلنا للريح، ولمـــا أمنا الطلب وقفنا ننظر أخوينا، إلى أن فضحنا النهار ولم يبق للانتظار فائدة، فذهبنا بحسرة ما بعدها حسرة وكان السيد محمد إبراهيم صلاح قد تخلف عن الذهاب معنا فى هذه المرة .

«ولما كان هذا اليوم آخر أيام رمضان، ذهبت إلى بلدنا لقضاء العيد هناك، وقد اتفقت مع السيد محمد إبراهيم صلاح والشيخ محمد إبراهيم البيومى، على أن يكتبا إلىّ بما يتم من أمر حافظ ومحمد أفندى حلمى، وأن يلحنا لى لحناً أعرفه، وذهبت وأنا على أحرّ من الجمر، وفى اليوم الثانى من أيام العيد وافتنى تذكرة بوستة من محمد حافظ إبراهيم بما تم :

«وذلك أنه لم يرتفع النهار حتى ذاع الخبر، وأرسلت التلغرافات لقنصلية فرنسا، وعلم كل من نيازى أفندى مهندس تنظيم طنطا وهو خال حافظ والشيخ محمود الجميزى شقيق حلمى أفندى، فذهبا إلى جماعة الفريد وكلماهم فى هذا الشأن

فرضوا بإطلاقهما، وكانوا قد سلموهما إلى الضبطية، بشرط أن يعودا إلى المدرسة ويستسمحاهم، ففعلا وانتهى الأمر بإطلاقهما ».

ولقد ظهر للجماعة فى ذلك الحين من آيات حافظ فى قوة الحافظة وسرعتها اللاقطة، أنه كان يسمع الفقيه فى بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو سورة مريم أو سورة طه فيحفظ ما يقوم ويؤديه كما سمعه بالقراءة التى قرأ بها الفقيه .

ومن المؤكد أن حافظ كان وهو فى طنطا قد انقطع عن المدارس، وأنه لم يكن يرتضى لنفسه أن يدخل فى خدمة الحكومة فى وظيفة من الوظائف الصغيرة أو يمتهن عملا أيًا كان ليدرّ عليه بعض المال مهما كان يسيرًا، فلقد كان الفتى وحيد أمه الأرملة وكان عيشه مكفولاً فى كنف خاله .

ولا شك عندنا فى أن خاله محمد أفندى نيازى المهندس، كان ممن يقرءون الكتب ويقتنونها، كما أنه لا شك عندنا فى أن حافظ كانت تمتد يده فى حداثته منذ تجاوز الحادية عشرة من عمره إلى بعض ما كان يقرؤه خاله من الكتب وخاصة القصص، وأولها - كما قدمنا - «قصة عنترة بن شداد» و«ألف ليلة وليلة»، ويضاف بعد ذلك ما كان يقرؤه خاله من كتابات معاصره الصحفى الأديب الشاعر عبد الله النديم وأولها جميعا المجلة الأسبوعية الأدبية الهزلية التى كان يصدرها منذ ٦ من يونية سنة ١٨٨١ باسم «التنكيت» فقد كان يقرؤها الخاصة والعامة لخفة روحها ولطف أسلوبها وسهولة لغتها، وكان فيما يكتبه فيها للعامة يعدل عن الشعر إلى الزجل القريب من متناولهم المحبب إلى قلوبهم، ومع ذلك فإنه كان فى زجله يمزج بين العامية والفصحى. كذلك لانجد ما يدعو للشك فى أن الفتى حافظ تدرج معها فواصل قراءتها بعد أن صارت لسان الحركة الثورية العرابية تحت اسم جريدة «الطائف» ابتداءً من ٢٠ من نوفمبر سنة ١٨٨١ ، ولم تلبث «الطائف» أن اكتسبت منزلة جعلت الصحف تنقل عنها وإن تكن أقدم منها مثل «الأهرام» و«المحروسة» وغيرهما، وصارت تُكتب كلها باللغة الفصحى وحدها، وكان مجلس شورى النواب الذى انعقد أول انعقاده فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨١ قد تعرض لأزمة شديدة بسبب ما كان من مطالبة الرقابة الثنائية الأجنبية القائمة على شئون البلاد المالية بعدم حق المجلس فى بحث الميزانية باعتباره من

اختصاص الرقابة، وما كان من وقوف جريدة «الطائف» تناضل مع المجلس دفاعًا شديداً موفقًا حفظه المجلس لها، حتى إذا تم له الاحتفاظ بحقه أرسل رئيسه محمد باشا سلطان بكتاب فى الخامس من مارس سنة ١٨٨٢ يطلب إلى ناظر الداخلية تكليف إدارة المطبوعات بأن تطلب من الإدارات الحكومية الاشتراك فى جريدة «الطائف» ليكون موظفوها على اتصال بمجرى الأحداث، فكان من شأن ذلك أن كان «الطائف» لا محالة مما يقرؤه فى جملة الموظفين محمد أفندى نيازى المهندس خال حافظ وبالتالى حافظ نفسه .

ويظهر تأثر حافظ بأسلوب عبد الله النديم منذ ظهور جريدته الأولى «التنكيت والتبكيت» فى اتجاه تفكيره إلى الاجتماعيات فى مستأنف حياته الأدبية . ومن الشواهد على ما كان من تأثره بأسلوب تعبيره أنه حين استشعر – بعد بلوغه مبالغ الرجال – أن مقامه بلا عمل فى بيت خاله قد بدأ يثقل عليه، واتفق أن خاله أغلظ له القول مرة فى شأن من شئون البيت وزجره، فأخذته العزة وعافت نفسه أن يعيش تحت هذا السقف يوماً آخر واعتزم أن يهجر البيت، رأى من واجب الأدب واللياقة أن يترك لخاله إشعاراً فتوخى أن يكون ذلك الإشعار أشعاراً، فجاءت على هذا النحو الذى يذكرنا روح عبد الله النديم فى كتاباته التى من هذا القبيل. وهذا ما قاله حافظ فى رسالته الصغيرة ، يخاطب خاله :

ثقُلَتْ عليك مئونتى   وأنا أراها واهية
فافرح فإنى ذاهبٌ   متوجهٌ فى داهية

ولقد تعمد حافظ أن يصطنع ما كان يصطنعه أستاذه النديم مع العامة، لأنه كان يعلم علم اليقين أن خاله سيتلو هذين البيتين على أمه، فهما رسالة ولدها الذى اعتزم هجره وهجرها، وقد كان حافظ حريصًا بطبيعة الحال على تفهمها للبيتين وتأثرها بهما، حتى تلتمس له العذر، إن لم تذكر له هذه النخوة بالفخر .

ومهما يكن من استفادة حافظ من مطالعاته فى صحف القاهرة لما كان يكتبه عبد الله النديم فى أثناء الثورة العربية، ثم ما كانت تدبجه أقلام جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده فيما كان يقع للفتى من الأعداد الصادرة عن باريس من مجلة العروة الوثقى بين ١٣ من مارس و٧ من أكتوبر عام ١٨٨٤، فضلا عما كانت تنشره جريدة «الأهرام» فى ذلك العام وبعده فى شأن قضية السودان من انتقاد شديد لسياسة الإنجليز وضغطهم المتواصل على حكومة مصر لإخلاء السودان، وغير ذلك مما كان ينشره البلغاء عن عيوب المجتمع ووجوه إصلاحه ... نقول مهما يكن من استفادة حافظ من هذه المقالات فإنه بحكم ابتعاده الآن عن القاهرة قد انقطع عن الصحف وأمثالها، واستبدل بها ما كان يقع تحت يده فى طنطا من الكتب التى تضمها خزانة خاله : ولعلنا بعد ما رأيناه من ميل خاله إلى الشعر لا نستبعد أن يكون من المتذوقين لرقائق الأشعار عند العرب ، ومن أهل المشاركة فى التفقه فى اللغة ودراسة الأدب، ونحن إذا كنا نقول هذا هنا على سبيل الحدس والتخمين، فإن الذى سوف نورده من خبره بعد قليل فيه اليقين. وعلى كلتا الحالين، نستطيع القول بأن المهندس محمد أفندى نيازى كان له مكتبة لا تخلو من بعض المصنفات فى الأدب، وأنه من المرجح أن تحتوى فيما تحتويه على كتاب فى الشعر حديث الظهور، وقتئذ، وهو كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى الأزهرى أستاذ العلوم العبرية فى مدرسة دار العلوم، وهو من جزأين كان صدورهما عامى ١٢٨٩ و١٢٩٦ هـ (١٨٧٢-١٨٧٩م) جامعًا بين دفتيه طائفة صالحة من أجود الشعر العربى القديم فى مختلف صوره مضافًا إليها قصائد لحامل لواء الشعر فى زمنه، رجل السيف والقلم محمود سامى البارودى. للتنويه بها، وبيان ما على كبير الشعراء المحدثين فى فرائد شعره من الدَّين للشعراء الأقدمين أمثال أبى نواس والشريف الرضى وأبى فراس الحمدانى والنابغة الذبيانى الذى عارضهم فى الوزن والقافية وفى الطابع العربى، فأحب الشيخ الأزهرى أستاذه فى الشعر أن يشير إلى ذلك ؛ إذا كان الشيخ لا محالة يدين لهم أكثر من أى محدث غيرهم بالقداسة والتعظيم. وأكبر الظن عندنا أن حافظ منذ أن وقع فى يده هذا الكتاب، انكب عليه يعب فى مناهله منصرفًا إليه بكل جوارحه، وأنه قد اكتسب من

مطالعته وإعادة النظر فيه ومراجعة ما قويت به ملكة الحفظ عنده أضعافًا، حتى صار من أسرع الناس حفظًا وأثبتهم حافظة. وقد ساعده فى العكوف على هذا الكتاب وغيره من مجاميع الأشعار ودواوين الشعر ما كان يلزم به نفسه فى بيت خاله من الانفراد والوحدة لفرط شعوره بالوحشة والحزن المترتبين على اليتم، فضلا عن فراغ يده من المال الذى يمد لصاحبه فى أسباب اللهو. وفى هذه الوحدة كان عكوفه على مطالعة كتب الأدب والاستكثار من حفظ الأشعار، ويشهد على ذلك ما ذكره الصديق الحميم فى طنطا الشيخ النجار عنه إذ يقول : «كان حافظ إذا وقف على بيت نادر أو شعر بارع، يبادر إلىّ قبل أن يسمعه إنسان آخر، ويسمعنى ما أعجبه، وكان لا يعجبه إلا كل مرقص مطرب» .

والذى لا شك فيه كذلك أن حافظ حين هبط عام ١٨٨٧ فى طنطا، كان فى جعبته جملة لا بأس بها من أشعاره، يُنشدها من انعقدت بينه وبينهم أواصر الصداقة من طلاب معهد طنطا الدينى، وكان هؤلاء فى إعجابهم بشعره، يعجبون – ومنهم الشيخ النجار – لما فى هذا الشعر من لوعة الأسى وبغض الحياة. فقد كان الشاعر لا يكف وهو فى ميعة صباه، عن نداء الموت وتكرار دعوته، متعجلا زورته ونزوله ساحته، شديد الأسف على أن الله مد فى عمره، متمنيا أن يموت من فوره حتى يستريح مما يعانيه من الهم المقيم، حين يوسّد فى قبره. ومما قاله الفتى حافظ فى ذلك :

عجبتُ لعُمرى كيف مُدَّ وطالا ... وما أثرتْ فيه الهمومُ زوالا
وللموت ما لى قد أراه مباعداً ... وجلّ مرادى أن أوسّد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها ... ذليلا وكنت السيد المفضالا

فماذا يا ترى كانت هذه الهموم التى تركت فى نفسه كل هذه الكلوم الدامية الداعية إلى إيثار الموت على الحياة ؟ وما هى تلك الذلة التى ضربها عليه الزمن بعد الكرامة والعزة ؟

أتراه يشير هنا إلى وطنه تلميحًا وهو محاذر أن يجهر بالقول تصريحًا؟ أم هو يتحدث عن حياته الخاصة، حياة اليتيم الذى مات عنه والده السرى الكريم ؟.

إن ما أوجزنا ذكره من سيرة الشاعر، وما أطلنا بيان أمره من حوادث عصره، يسوغان مقالة من يقول إنه فى إشارته إلى الهموم والذلة بعد العزة قد جمع بين الحالين : حاله وحال عصره، فى شعره الذى نظمه فى صباه وحداثته، كما هو الشأن بعد ذلك فى شعره إبان نضجه وأيام كهولته .

ولقد كانت من معاشرة حافظ أترابه من طلاب المعهد الأحمدى، وطول مناظرته إياهم فى الأدب، ومطارحتهم الأشعار، أن عرف فى نفسه طلاقة اللسان وحسن البيان فى الحوار، وبراعة التأتى إلى ما يريد، فاطمأن إلى صلاحه لمزاولة المحاماة .

وكانت المحاماة الأهلية وقتئذ حديثة الوجود، وليس للمحاماة قانون مسنون، ولا توجد شهادات حقوقية فى طائفة المحامين. ولم يكن نظام الامتحان قد استحدث، فكان كل ذى قضية إذا جاء بشخص وقال إنى وكلته، قبلته المحكمة محاميًا عنه .

وكان فى طنطا الكثير من المحامين، فقصد أحدهم وعمل مدة فى مكتبه ثم تحول إلى غيره ثم إلى آخر من بعده. ولا غرابة أن نرى شاعرنا الشاب قد ضاق بالعمل فى مكاتب المحامين، الذين يرهقونه بالتردد فى الصباح على المحاكم لاستيفاء الإجراءات، وتكرار الطلبات بالتماس التأجيل وتقديم أسماء الشهود فى القضايا التى سيتولى الدفاع عنها أستاذه المحامى، وقيامه هو بالدفاع أمام المحاكم الجزئية القريبة من طنطا فى القضايا التى يحيلها الأستاذ عليه، فإذا انتهى من طوافه على المحاكم كان عليه أن يواظب على الحضور بمكتب الأستاذ فى المساء، ليقوم عنه بمساومة العملاء فى الأتعاب، ومعظمهم من أهل الريف الأميين، ولكى يعيد للأستاذ أعمال الغد، ويكتب له المسودات التى تعاد إليه بعد المراجعة ليعيد كتابتها فى صياغتها النهائية، فضلا عن استدعاء الأستاذ له فى بعض الشئون الخاصة به. وبالجملة لم يكن له سبيل إلى الانصراف من المكتب حتى ينتهى الأستاذ من مقابلاته ومشاوراته، وبما كان الأستاذ ممن يؤثرون السهر فى المكتب على السهر فى المقهى أو البيت. ولقد تستدعى مظاهر

المهنة أن يتكلف الأستاذ أمام عملائه شيئًا من التعاظم عليه فى الخطاب والمعاملة. وياليت الفتى بعد هذا كله يحصل من الأستاذ على ما يساوى سعيه وجهوده؛ بل إنه ليكون سعيد الحظ إذا حصل آخر الشهر على ما به يسد رمقه ويحفظ عليه ماء وجهه . وحسبنا فى تأييد زعمنا أن نذكر هذه الأبيات التى تركها شاعرنا للأستاذ محمد الشيمى المحامى حين ترك مكتبه بطنطا وهو أول عهده بمكاتب المحامين فى ذلك الحين. قال شاعرنا :

جراب حظى قد أفرغته طمعًا ... بباب أستاذنا الشيمى ولا عجبا

فعاد لى وهو مملوء، فقلت له ... مِمَّ ؟ فقال «من الحسرات واحربا»

وقد أسف الأستاذ الشيمى لانفصاله عنه، وحاول استرضاءه وعودته إلى العمل معه فى مكتبه، فلم يقبل .

ولعلّ شاعرنا صادر إلى حال خير من هذه الحالة من الناحية النفسية على الأقل، حين تحول إلى مكتب آخر فى طنطا هو مكتب الأديب الأستاذ محمد أبو شادى، لما كان يجمع بينهما من حب للأدب، فكانا فى ساعات الفراغ يتسامران فيتذاكران رسائل الأدب المأثورة ونوادر العرب المستملحة وأشعارهم المشهورة. ولكن ذلك لم يمنع من خروج شاعرنا من مكتبه. وبعدها عمل الشاعر مدة من الزمن مع الأستاذ عبد الكريم فهيم المحامى، وكان مكتبه مجاوراً لمكتب الأستاذ إبراهيم الهلباوى، وكان الهلباوى يأنس بحافظ ويسر بحديثه وأدبه، وكان الفتى كثير التردد عليه. وأخيراً ضاق حافظ بمكاتب المحامين جميعاً، وترك مهنتهم إلى غير رجعة .

وأكبر الظن أن هذه التجربة نبهت عند حافظ الاعتقاد السائد وقتئذ من اعتبار العمل الحر غير خليق بالاعتماد عليه، فاتجه أمله إلى العمل الحكومى لما له من الثبات والاستقرار، وما هو مكفول فيه من ضمان الحقوق .

وقد كان حافظ يعلم ولا ريب أن المدرسة الحربية - كما هو العهد بها حتى اليوم - هى الوحيدة التى يجتازها الطلب إلى مكانه فى وظائف الجيش على الفور، دون أن يبقى يوماً واحداً معلقاً فى انتظار التعيين .

فهل سيأتى فى القريب، ذلك اليوم الذى نرى فيه شاعرنا الأديب الأريب، السارح الفكر الرقيق القلب، ضابطاً من رجال الحرب؟

الوطن فى خطر

الشاعر والحياة العسكرية

كان المهدى بعد انتصاره الحاسم فى السودان قد أرسل من عاصمة دولته فى أم درمان، إلى سكان مصر: حكاماً وتجاراً وعمداً وغيرهم من أهل هذه البلاد، منشورات يبلغهم عزمه على غزو مصر: كما بعث إلى خديوى مصر كتاباً بهذا المعنى. ولكن الله لم يمد فى أجله ليتم ذلك على يده، فأصبح أمر هذا الغزو فى ذمة خليفته «عبد الله التعايشى» الذى استبدل بالأمر من بعده. وكان أول هم الخليفة بعد مبايعته، أن عزل بعض قواد سلفه، وأخذ يجرد زميليه أيام المهدى، وهما الخليفة شريف والخليفة ولد الحلو، من سلطتهما، وأقام أقاربه التعايشية فى المناصب الكبرى، وما إلى ذلك مما قوض ما كان سائداً أيام المهدى من الوفاق، فحل مكانه الخلاف والشقاق، وما وراءهما من عواقب وخيمة .

ولم يمض القليل على خلافة التعايشى حتى وجّه اهتمامه إلى فتح مصر، فكاتب رؤساء القبائل والعشائر فى الصعيد يستنفرهم إلى معاضدته والاشتراك معه .

وكانت الجنود الإنجليزية المشتركة فى حماية الحدود قد انسحبت، واضطلع الجيش المصرى الجديد بقيادة سرداره جرنفيل باشا بهذا العبء وحده. وبدأت شراذم من قوات التعايشى فى شمال السودان، بالدخول فى مناوشات لتمزيق شمل الحاميات المصرية قبلى وادى حلفا، حيث خربوا السكة الحديدية بين عكاشة وسرس وعبكة فى نوفمبر سنة ١٨٨٥، وعلى أثرها احتلوا سرس. وفى ١٨ من ربيع الأول سنة ١٣٠٦ (٢٣ من نوفمبر سنة ١٨٨٨) عهد التعايشى مهمة غزو البلاد المصرية إلى قائد القوات عبد الرحمن ولد النجومى المشهور، وعقد عليه لواء جيش عرمرم كبير ليقود المؤمنين

إلى مصر حتى يبلغ القاهرة فيرفع الراية المهدية على قلعتها، وحدد لذلك صيف عام ١٨٨٩ . وفى رمضان عام ١٣٠٦ هـ تقدم قائد الدراويش عبد الله النجومى بجيش يبلغ ١٥٠٠٠ مقاتل بالبنادق والحراب ومعهم أربعة عشر مدفعًا، فأخذوا فى الزحف حتى كشفوا وادى حلفا ثم تجاوزوها حتى بلغوا قبالة البلينا جنوبى هيكل أبو سنبل. واحتشدت لمواجهتهم القوات المصرية بقيادة السردار جرنفيل باشا شمالى حلفا، من أسوان إلى توشكى، وكان من رؤسائها بعض الضباط الإنجليز، منهم: «كتشنر» و«ونجت». ونشبت المعركة بين الجيشين فى ١٣ من أغسطس عند توشكى (بين كورسكو وحلفا)، فانتصر الجيش المصرى ولم ينج من جيش الدراويش إلا ٣٠٠ وكان من القتلى قائدهم الأكبر عبد الله النجومى. وقد أظهرت هذه الواقعة بأجلى بيان مقدرة المصريين ضباطًا وجنودًا وحسن بلائهم فى القتال.

وكانت المناوشات التى بدأت على الحدود فى أواخر ١٨٨٥ بمثابة النذير باقتراب الخطر فشرعت مصر فى أخذ الأهبة والاستعداد لمواجهة العدو، وقد شمل هذا الاستعداد أن أعيد فى عام ١٨٨٧ تنظيم المدرسة الحربية التى كان ناظرها اللواء «لارمى باشا» الفرنسى، فجعلت الدراسة فيها نوعين : دروسًا مشتركة لجميع التلاميذ، ودروسًا للتخصص على حسب الأقسام، مع زيادة عدد من يقبلون فى المدرسة إلى بضعة وتسعين. وبمناسبة هذا التنظيم - أو بحجته - عين إلى جانب ناظرها الفرنسى قومندان إنجليزى، ثم أضيف إلى القومندان الإنجليزى فى سنة ١٨٨٩ معلم أول إنجليزى . وكان من أغراض هذه التعيينات تجريد الناظر الفرنسى من سلطته، إذ كانت التعليمات الصادرة من السردار تقضى بجعل إدارة المدرسة من اختصاص القومندان، كما تقضى بأن يكون وضع البرامج من اختصاص المعلم الأول. وفى ظل هذا النظام أخذت الزيادة تطرد عامًا بعد عام فى عدد من يُسمح لهم بدخول المدرسة الحربية، وظاهر من كلام حافظ فيما بعد، فى كتابه ليالى سطيح أن زيادة الكم كان على حساب الكيف. وفى ذلك يقول حافظ على لسان بعض شخصياته :

«ها أنا ذا وليس وراء ما بى من سوء الحال غاية. ولو لم أكن متخرجًا فى المدرسة الحربية لكفانى العلم ذلة الفقر والسؤال. ولكنى خرجت منها كأنى المعنى بقول من قال :

الجـهل شـخص ينادى فوق هامتـه لا تسـأل الربع، مـا فى الربع من أحـد

ولكن ، أنَّى لحافظ علمُ ذلك فى صباه وقبل التجربة؟ إن كل ما يعلمه وقتئذ هو أن الوطن فى خطر .

ولا شك فى أن المدرسة الحربية كانت تنشر فى الصحف أنواع الدعاية من حيث التجاوز عن شرط السن والمؤهلات فى إعلانها عن موعد تقديم الطلب لدخولها ، يضاف إلى ذلك مـا هو مـعلوم من تعـيين جـمـيع الخـريجين على الفـور فى وظائف دائمـة فى نظارتى الحربيـة والداخلية. فـلا غرو أمام كل هذه التـسـهيـلات الجديدة، فـضـلا عن الإغراء بضمان الرزق الموفور، والأمل فى الترقّى السريع، أن نرى شاعرنا الشـاب حـافظ إبراهيم فى الظروف التى كـان يعانيـهـا تسـاوره فكرة طارئة عليـه هى اللحـاق بالمدرسة الحربية .

بيد أننا لا بد أن نضيف إلى دواعى الإغراء عند حافظ بدخول المدرسة الحربية، تعلقه وإعجابه بشخصية محمود سامى البارودى باشا الذى جمع بين السيف والقلم. فإن حافظ ولا شك قد قرأ فى كتاب «الوسيلة الأدبية» قصيدتى البارودى فى وصف الحرب التى اشترك فيها ضد أهل جزيرة إقريطش المعروفة الآن بجزيرة كريت، حين خرجوا عن طاعة الدولة العلية سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥م) ثم قصيدته فى الحرب الأخرى بين الدولة العلية وروسيا ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧م) ، ثم قول المؤلف الشيخ حسين المرصفى فى تقديمه للقصيدتين : «وقد باشر هذا الأمير الحرب مرتين بصدق وشهامة وعلو همة، حتى إن الناس كانوا يتعجبون - كما أخبرنى من حضره فى تلك المواطن - من خشونة بأسه، على ترف نشأته ولطف حسه» ولقد كان من جمع البارودى بين السيف والقلم أن صار مأموراً للضبطية فى عهد إسماعيل، ثم ناظراً للأوقاف فى عهد توفيق فى نظارة رياض باشا الأولى فى ١١ من سبتمبر ١٩٨٧، ثم ناظراً للأوقاف والجهادية معًا، وأخيراً ناظر النظار من ٤ فبراير إلى ٢٦ من مايو سنة ١٨٨٢ جامعًا أعلى الرتب فى دولة الحكم ودولة الأدب. وإذا كـان البـارودى قـد نفى بعـد ذلك على أثر الثـورة العربية، فإن وجود هذه الشخصية النموذجية فى المنفى يومئذ لم يكن مثبطًا لحافظ، فقد كان هذا المنقلب راجعًا إلى دواع أخر ليس من المحتم التعرض لها وتكرر وقوعها .

وهكذا صار دخول المدرسة الحربية عند حافظ منتهى ما يتمناه. وقد شاء له سوء حظه أن تحقق أمنيته، فرحل إلى القاهرة وتقدم مع سائر المتقدمين إلى العرض أمام الممتحنين. وما نظن الممتحنين ترددوا فى قبوله، أو كان بينهم أدنى الخلاف فى صلاحه. فقد كان حافظ وافى النماء، طويل القامة، عظيم الهامة، وكان وقتئذ فى عنفوان الشباب، قوى البنية، وثيق التركيب، عريض المنكبين، غليظ الألواح، متين العضل، فلا عجب أن بدا لهم من رجال الصراع ومساعير الحرب، فقرروا باجتماع الرأى قبوله فى المدفعية. ولو علموا الغيب لانكشف لهم أن صاحبهم الماثل أمامهم لم يكتب له وهو المتخرج فى المدرسة الحربية أن يشهد فى حياته معركة حربية واحدة. لقد ظل حافظ نزوعا بطبعه ومنصرفًا بقلبه وجوارحه إلى فنون السلم من تعلق بالجمال وحب القراءة وممارسة للأدب .

وفى أعقاب رحيل حافظ إلى القاهرة ودخوله المدرسة الحربية، حدث ما أدى إلى مقاضاة خاله المهندس محمد أفندى نيازى أمام محكمة طنطا الأهلية، وصدر الحكم عليه بالحبس سنتين. فانفطر قلب حافظ له ولمصير أمه، وتعاظمته النكبة فى خاله، فعمد إلى نظم قصيدة رفعها للخديوى توفيق يعرض فيها وصف حاله ويستعطفه على خاله، ومصير عياله من بعده، وليس لهم من عائل غيره. وقد شاء القدر أن تجوز قصيدة الضابط التلميذ قبولا عند الخديوى توفيق ، فأصدر عفوه عن خاله . ولا يقف الراوى، وهو الشيخ عبد الوهاب النجار، معاصر حافظ فى طنطا والطالب وقتئذ فى المعهد الأحمدى – عند هذا الخبر، بل يذكر أن العفو عن خال حافظ أعقبه أن عين مدرسًا خاصًا للأمراء أحمد سيف الدين ومحمد إبراهيم وشويكار هانم، ولما انتهى عهد التدريس لهم بقى المدرس على عادته يستولى على مرتبه حتى وفاته .

وفى أثناء ذلك، كان حافظ فى القاهرة قد أتم دراسته فى المدرسة الحربية وتخرج فى أواخر عهد الخديوى توفيق عام ١٨٩١، وكان تعيينه فى وزارة الحربية «ملازمًا ثانيًا» من ١٣ فبراير سنة ١٨٩١ إلى ٣١ يولية سنة ١٨٩٣، أى فى أوائل عهد الخديوى عباس الثانى ، ثم كانت ترقيته «ملازمًا أول» فى أول أغسطس سنة ١٨٩٣، واستمر فى وزارة الحربية حتى ٦ مايو سنة ١٨٩٤ .

وكان الخديوى توفيق قبل وفاته، قد بُذلت لديه المساعى فى أواخر عام ١٨٨٨ للسماح بعودة الشيخ محمد عبده من منفاه إلى الديار المصرية، فعاد إلى مصر وعين قاضيا بالمحاكم الأهلية فى بنها وفى الزقازيق، وأخيراً فى القاهرة بمحكمة عابدين، وبعدها قاضيًا بمحكمة الاستئناف. وأكبر الظن عندنا أن الضابط الأديب الشاعر حافظ إبراهيم كان قد بدأ منذ أوائل عام ١٨٩٣ اتصاله به وشهوده لمجلسه، وعرض أشعاره عليه، والإفادة من إرشاداته وتوجيهه، فيما هو فى حقيقة الأمر مؤهل له، وهو الاشتغال بالأدب ونظم الشعر، لولا ما كان عليه من قصور اليد وقلة الرزق وضيق الحال .

وقد كان سردار الجيش المصرى وقتذاك «فرنسيس رنفيل» ، ثم خلفه على الجيش «هربرت كتشنر» فى ١٢ من أبريل سنة ١٨٩٢ ، فلم يمض عليه فى منصب السردار عامان وبضعة أيام، حتى كان حافظ إبراهيم ضابط المدفعية قد أبعد عن الحربية إلى الداخلية ملاحظ بوليس لمركز بنى سويف من ٧ مايو سنة ١٨٩٤ لغاية ٢٣ مارس سنة ١٨٩٥، ثم معاون بوليس فى مركز الإبراهيمية من ٢٤ مارس سنة ١٨٩٥ لغاية ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٥ . وأخيراً أحيل حافظ إبراهيم إلى الاستيداع حيث انخفض مرتبه فى الاستيداع إلى أربعة جنيهات فى الشهر، فعادت به الحال إلى ما كان يعانيه قبلُ من شظف العيش .

حافظ فى الحملة المصرية الإنجليزية

إلى السودان

كان محمد حافظ إبراهيم منذ الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٨٩٥ فى الاستيداع يعانى شظف العيش بالمرتب الذى يجرى عليه وهو أربعة جنيهات فى الشهر، ومر الشهر بعد الشهر وهو قعيد بيته، حتى فوجئ فى القاهرة بين عشية وضحاها بخبر مثير، ولم يكن وجه الإثارة فيه عدم توقعه أو غرابته، بل كانت إثارته فى سرعة حلول ساعته قبل المقدر لها، لما كان من انصراف الحكومة المصرية وقتئذ إلى مشروع عظيم من مشاريع الرى كانت تدخر له المال، وهو إقامة خزان عظيم على النيل عند أسوان. أما استرجاع السودان فقد كان التفكير فيه يعتبر - كما قلنا - سابقًا للأوان، وإن كان متوقعًا منذ أن أرسل ملك الحبشة «منليك» منشوراً للدولة فى أبريل سنة ١٨٩١ يخبرهم فيه عزمه على فتح السودان، مما أثار فى ذلك الحين مخاوف إنجلترا، ثم زاد هذه المخاوف تسابق الدول الأوروبية فى التهام ما تصل إليه يدها من أطراف السودان بعد الذى كان من تخلى مصر عنه، نزولاً على إرادة الإنجليز وتصميمهم منذ أعوام .

وبعد انقضاء أكثر من عشرة أعوام على التخلى عن السودان، إذا برقية عاجلة من الحكومة البريطانية ترد على القاهرة يوم ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ فى منتصف الليل موجهة إلى «كتشنر» السردار الإنجليزى بالجيش المصرى. فبادروا إلى أركان حربه «الكولونيل روندل **Rundle**» الذى كان مستغرقًا فى النوم حتى اضطروا إلى حصب نافذته بالحجارة لإيقاظه، ولكنه لم يوت الشجاعة لا هو ولا غيره على إيقاظ السردار وإبلاغه. فبقى السردار غير عالم بفحوى البرقية حتى الصباح. وكانت البرقية تحمل أمرًا للسردار الإنجليزى الجيش المصرى بتسيير حملة على وجه الاستعجال لإعادة فتح السودان. ومما هو

جدير بالتنبيه إليه أن هذه البرقية وردت على أثر كارثة الطليان فى «عدوه» من جراء الهزيمة الساحقة المخزية التى أنزلها بهم الأحباش منذ اثنى عشر يوماً فكانت بمثابة ناقوس الخطر الذى ينذر بوشك سد الطريق دون أى تدخل أجنبى – ومن قبيله التدخل الإنجليزى الاستعمارى – فى القارة السوداء .

وقبل أن يطلع الصبح كانت الأوامر قد صدرت لقائد قوة الحدود فى وادى حلفاء الكولونيل «هنتر Hunter» بالزحف لاحتلال عكاشة قبلى وادى حلفا تمهيداً للاستيلاء على دنقلة عاصمة المديرية التى تحمل هذا الاسم. ولم يصل قرار الوزارة الإنجليزية إلى رئيس وزراء مصر إلا بعد ظهر ١٣ مارس، ولم يصل لمسامع الخديوى إلا مساء ذلك اليوم .

وصدرت الأوامر بحشد كل ما يمكن حشده على الفور من فرق الجيش، واستدعاء كل من فى الاستيداع من الضباط ، وترحيل الجميع إلى وادى حلفا للاشتراك فى الحملة الزاحفة. وكان محمد محافظ إبراهيم من ضباط الاستيداع الذين استدعتهم وزارة الحربية، ولكنها – لسبب لا نعرفه، وإن كان الذى نرجحه أنه كان غير مرضى عنه، وربما غير مطمأن إليه – لم تلحقه بالجيش المقاتل الذى كان معظم ضباطه من الإنجليز، بل كان إلحاقه بإدارة التعيينات فى ١٨ مارس سنة ١٨٩٦ ، وكانت التعيينات فى إدارة الجيش تحت رياسة الميرالاى رجروس بك والقائمقام دراك بك والبكباشى بلنت .

وغادر «السردار كتشنر باشا» القاهرة فى يوم الأحد الثانى والعشرين من مارس، ومعه «المايجور ونجت» مدير المخابرات و «سلاتين باشا» قاصدين إلى أسوان، ومنها إلى وادى حلفا وفى اليوم نفسه سافرت فى قطارين الأورطة الأولى الإنجليزية من آلاى شمال ستافورد شاير، وقد بلغ عدد من سمح الكشف الطبى بسفرهم ٩١٤ باستبعاد عشرة فى المائة منهم، كما بادرت بالسفر مختلف الأورط المصرية إلى أعالى النيل فى أقصى ما يستطاع من السرعة. ولما كانت خطوط السكة الحديدية من القاهرة تنتهى عند البلينا فى أقصى مديرية جرجا، فقد صار نقل معظم الجنود والعتاد والزاد على بواخر شركة كوك التى استولت عليها الحكومة، بعد أن تجردت من زينتها

وما كان فيها من أسباب الراحة والترف. وقد بلغ عدد من نقلتهم تلك البواخر فى المدة بين ٢١ و٢٦ من مارس ما لا يقل عن ٤٥٠٠٠ وكان لا محالة من بينهم ضائعًا فى زحمتهم الملازم الأول حافظ إبراهيم، فضلا على ٧٥٠ رأسًا من الحيوان وكميات ضخمة من المئونة. وكان يقوم على مستودعات المئونة فصيلة من حرس «كونوت **Connaught**» مركزها فى البلينا، وهى – كما ذكرنا – نهاية الخط الحديدى وبداية السفر النيلى بالبواخر. وما كادت الباخرة التى أقلت حافظ إبراهيم والحشود التى معه تبلغ أسوان، حتى أنزلت ما عليها من الرجال والأثقال، ليحملها قطار السكة الحديدية إلى بلدة الشلال القائمة عند النيل على رأس الشلال الأول، حيث نقلتهم البواخر إلى وادى حلفا .

وكان الجيش المصرى موكولاً أمره إلى السردار كتشنر منذ ١٢ من أبريل سنة ١٨٩٢ . وكانت الحملة المصرية الموجهة إلى السودان والمعروفة فى أول أمرها بحملة دنقلة تتألف من نحو ١٨٠٠٠، ويمكن تفصيلها على الوجه الآتى : آلاى من السوارى عدده ١٢٥٣، وآلاى من الطوبجية يشمل ٩٥٣٢ جنديًا، و١٨ مدفعًا، وآلاى من الهجانة المصرية والسودانية عدده ٦١٨ رجلاً ثم ثلاث عشرة أورط بيادة، منها ثمانى أورط مصرية، وهى التى ألفت بعد تسريح الجيش المصرى على أثر هزيمة عرابى، وكان تأليفها من أبناء الفلاحين المصريين المجندين مدة الخدمة العسكرية الإلزامية، وخمس أورط من السودانيين السود الذين تقدموا للخدمة العسكرية مدى الحياة. وكانت أورط المصريين الفلاحين من رقم (١) إلى رقم (٤) ضباطها إنجليز من رتبة كولونيل أو ماجور، وأما التى أرقامها من (٥) إلى (٨) فكان ضباطها مصريين. وكانت الأورطة السودانية من رقم (٩) إلى (١٣) ضباطها إنجليز. وأخيرًا أورط الاحتياطى يقوم عليها ضباط مصريون وإنجليز. وبالجملة لم يكن يربو عدد الضباط الإنجليز على الثمانين، وإذا انضم إليهم الوافدون فى مهمات خاصة بلغ هذا العدد إلى المائة والعشرين .

ولا شك فى أن الإدارة العامة لهذا الجيش، الموكولة إلى كتشنر فى حرب كهذه ضد أولئك الدراويش أنفسهم الذين سبق لهم الانتصار، وفى الأقطار السودانية نفسها التى يبلغ بعد شقتها عن القاهرة عشرات المئات من الأميال فيها الكثير من الصحارى المقفرة والفيافى القاحلة فضلاً على الغابات والأدغال ، هى ولا شك إدارة شاقة غير يسيرة تلقى على كاهل صاحبها عبئًا ثقيلاً من المهام الجسام والتبعات

الخطيـرة. ولا يخـفـى أن إدارة الجيش العـامـة التى يتـولاهـا كتشنر كانت يندرج تحتـها فيـما يندرج من الفروع، إدارة التعـيينات التى كان من ضباطها الموظفين صاحبنا حافظ إبراهيم. ومن ثمة يمكن القول إن كتشنر كان لا محالة كثير الاحتكاك بهؤلاء الضباط فى بداية الحملة حيث يجرى إعداد العدة لحشد ما يلزم من العمال والمساعدين فى عمليات التفريغ والشحن لمهمات الجيش وأصناف التموين ، فى وادى حلفا .

ولما كان كتشنر من الضباط المهندسين، وقد خبر بنفسه فى المعارك التى اشترك فيها تحت قيادة السردار السابق السير جرنفيل، مبلغ الحاجة إلى التغلب على مصاعب المواصلات فى الحروب السودانية، نظراً لتباعد أقطارها وشاسع فضائها وقحولة قفارها وخطر أدغالها، مع ما كان عليه الدراويش من السرعة المدهشة فى تحركاتهم والشجاعة النادرة فى قتالهم. فهو لم يكن مؤمناً بتلك الحملات من الفرق الهندية أو الإنجليزية التى يحاط إيفادها بالضجة والصخب والتى تطارد العدو كما يفعل الصيادون فى الصحارى والغابات ثم تعود أدراجها لتعاود المطاردة بعد شهور. وإنما كان همه – على خلاف ذلك – هو أن ينظم ضد الدراويش حرباً بطيئة متئدة، ولكنها شديدة متصلة، وأن يكون كل اعتماده فيها على الموارد المصرية، وأن ينهج منهج الرومان فى مد الطرقات ليكون على اتصال مستمر بقاعدة التحركات، ليضمن وصول المئونة والذخيرة والمواد الطبية والأمداد العسكرية . فلا عجب إذن أن رأينا همه الأول منصرفاً إلى بناء السكك الحديدية على طول النيل فى اتجاه الخرطوم. ولقد كانت هذه الفكرة متسلطة على كتشنر حتى كأنما كان يتمثل له على الدوام خيال مصرع غوردون فى الخرطوم من جراء تأخر الحملة الموفدة لإنقاذه لسوء المواصلات. فهذا هو كتشنر، لم يكد يصل إلى وادى حلفا، حتى أمر بتأليف فرقة لإنشاء السكك الحديدية، وجمع كل من استطاع جمعه من الفلاحين للقيام بما يلزم من العمل اليدوى والجهد البدنى، حتى بلغت عدتهم بضع مئات، وكان لا بد من تعليمهم وضع العوارض الخشبية ووصل القضبان بالمسامير الكبار «الصواميل».

ولم يقنع كتشنر بكل هؤلاء ، بل عمد إلى تكليف فرق من عساكر الجيش المصريين للمعونة فى الأعمال اللازمة للسكك الحديدية، فكانوا على ذلك أكبر معين. ومن شهود

العيان على ذلك حافظ إبراهيم الذى كان وقتئذ مع الحملة فى وادى حلفاء وما يقع قبليها، مثل عكاشة وما يليها. فقد أشار حافظ فى «ليالى سطيح» إلى عظم هذا العون الذى اضطلع به الجند المصريون وما تحملوه فى سبيله من المشاق قائلاً :

« لقد لبثتُ فى الجيش مع من فيه بضع سنين، فصبرنا على ما لا يصبر على بعضه كل أولئك الذين سخروا لبناء الأهرام وإقامة البرابى. وما باتت الإنس والجن مطوية الضمير على الطاعة لسليمان، كما باتت تلك الجنود المصرية لرؤسائها الإنجليز، نعم ؛ ولا لاقى جيش الإسكندر فى فتوحاته ولا جيش نابليون فى غزواته بعض ما لاقته هذه الفئة المصرية فى الأقطار السودانية. فلمًّا حاول الإنجليز وصل الكرة الأرضية بأحد الكواكب السيارات بمد السكك الحديدية، لما وجدوا من يصابرهم على هذا العمل غير ذلك الجيش».

وكان من المناظر التى اعتاد أن يراها الراءون، منظر السردار على ظهر جمل يتابع العمل فى مد هذه السكك الحديدية من وادى حلفا إلى عكاشة ، وهى الطريق المؤدى إلى دنقلة التى كانت هدف الحملة ، وأولى المراحل فى استرجاع السودان .

وما من شك فى أن حافظ إبراهيم كان ممن تكرر على ناظرهم منظر السردار، وهو راكب على ظهر الجمل، يراقب مد هذه الخطوط الحديدية، فإن شاعرنا مؤلف «ليالى سطيح» لم يفته وهو يعدد أوصاف كتشنر أن يقول : «وواصل أعصاب الفيافى والقفار بأعصاب المدائن والأمصار» .

فى وادى حلفا

لا أحسبنا فى حاجة إلى القول بأن «حافظ» قد لاقى العنت والويل منذ اللحظة الأولى التى استقل فيها القطار من القاهرة، فقد كانت عرباته مكتظة بالأكداس المكدسة من الجنود المسافرين، ولعل القطار قد تحرك فى ساعة متأخرة من المساء فقضى حافظ الليلة يحاول النوم بين غطيط من حوله وشخيرهم، ولما أصبح الصبح انتهز وقفة القطار عند محطة من المحطات ليغسل وجهه من الخرطوم القائم على الرصيف لملء خزان القاطرة كغيره من المسافرين، ثم استأنف القطار المسير حتى بلغ «البلينا» بعد رحلة لا تقل مدتها عن العشرين ساعة. وكانت تنتظرهم فى «البلينا» بواخر نيلية من ذات الدواليب الدائرة بالبخار فى جانبها، وتجر كل باخرة خلفها مركبًا تشحن فيه العجول والمئونة والذخيرة وسائر المخزونات من المهمات، وهذه البواخر النيلية كان لا بد أن تحمل من الجنود المسافرين أضعاف ما كانت تحمله وقت السلم من السياح المترفين. ولما كان النيل وقتئذ منخفضًا فقد كان مساعدو القبطان «الريس» يسبرون أعماقه كل حين. وقد شاهد حافظ بعد يومين أو ثلاثة من سفره فى النيل معبد الأقصر قريبًا من الشاطئ. ولو أنه كان فى هذا السفر غير مُعْجل لكان ولا شك ماضيًا إلى الكرنك لمشاهدة معبد أمون مستوحيًا قصيدة فى الآثار يصف فيها قاعدة الأعمدة بأنها تبدو بما فيها من العُمُد التى تزيد على المائة والثلاثين كأنها غابة شجراء من الصخر. وقد يطيب له كذلك أن يزور الشاطئ الغربى حيث ما قبر الملوك وتمثالا ممنون. ولكن حافظ لم يكن هنا فى نزهة ترفيهية ليرى هذه الآثار وما يليها على طول النيل، بل كان ومن معه مدعوين على استعجال إلى حيث تنتظرهم الأعمال المنوطة بهم فى الحملة العسكرية، وأخيرًا بعد أسبوع من قيامهم من القاهرة، بلغت بهم الباخرة أسوان، على رأس الشلال الأول الذى تعترض جنادله الملاحة فى النيل .

وهنا أنزلت الباخرة من عليها من الضباط والجنود، وتم تفريغ المركب المقطورة الملحقة بها من شحنتها. وقام بهذه الشحنة قطار من قطر السكة الضيقة ألحقت به عربات لنقل البضائع، بينما سار الجنود والضابط على البر فى محاذاة نهر أربع ساعات من أسوان إلى بلدة الشلال المشرفة على جزيرة «فيلة الصغيرة» وقد انحسر النيل عنها فتراءى معبدها الجميل .

وفى بلدة **الشلال**، استقل الجنود والضباط ومعهم حافظ بواخر نيلية أخر، دواليبها الدائرة بالبخار فى المؤخرة، وعلى كل من جانبيها صندل كبير ذو طابقين مشدود إليها، وقد جعل الصندلان للجنود وباطنهما للمخزونات، وخصصت الباخرة نفسها للضباط والأمتعة. فلما استقر كل شيء فى موضعه وأخذ الركاب أماكنهم ، تحركت الباخرة وعلى جنبيها الصندلان فى النيل - وقد اتسع مجراه وتعكر بالطين ماؤه- مخترقة النوبة القاحلة الشاسعة، مارة بالدر، ثم قفار كورسكو على رأس طريق القوافل، ثم من بعدها تراءت واجهة معبد أبو سنبل بتماثيله الأربعة الجسام، وفى وسطها الباب المؤدى إلى المعبد الغائر تحت الأرض. وأخيراً فى اليوم العاشر للرحلة ألقت الباخرة مراسيها فى وادى حلفا، وهى الحد الآخر الفاصل بين مصر والسودان .

وكانت حلفا فى هذا الأسبوع الأول من أبريل عام ١٨٩٦ محط الرحال، لما يرد عليها كل يوم من القوات المصرية والإنجليزية من المشاة والفرسان والمدفعية فضلا عن عتاد الذخيرة ومخزن الزاد والمئونة .

وهنا نزل حافظ إبراهيم وقد نالت منه مشاق الرحلة وكانت بلدة وادى حلفا مكونة فى الواقع من قريتين : التوفيقية، وحلفا، والقادم على وادى حلفا يطالعه أول ما يطالعه مئذنة بيضاء هى مئذنة جامع التوفيقية، وهذه القرية هى الوحيدة فى النوبة التى فيها بعض حوانيت ومتاجر، ومعظم الحوانيت فى الشارع الرئيسى أصحابها من الأروام. أما قرية حلفا فهى تتألف من بيوت صغار كالأكواخ من الطين يبلغ عددها نحو العشرين ، وسط خمائل كثيفة من النخيل، وبضعة فدادين من نبات الحلفا الذى أعار اسمه للإقليم كله. وتقع الخطوط المخصصة للقوات فيما بين القريتين : الحلفا

والتوفيقية، وتبلغ مسيرتها عشر دقائق، والشوارع ههنا أرضها رمل كأرض الصحراء سواء بسواء، وليس فى وادى حلفا وسائل نقل ذات عجلات، وكل ما فيها للركوب هو الحمير والهجان فى بعض الأحيان. وفيما عدا المستشفى لا يوجد مبنى يرتفع إلى أكثر من طابق أو نوافذ تزهو بألواح الزجاج، وكل ما هنالك هو الرواق المستطيل المظلل حول كل مجموعة من المبانى. وكانت وادى حلفا كلها فى ذلك الوقت عبارة عن معسكر كبير، مبنى من الطين، تدور حوله الأسوار وتقوم الطوابى عند أطرافها المشرفة على النيل. والمبنى الرئيسى فى هذا المعسكر هو مبنى القيادة العليا المطل على النيل، وهو مركز السردار كتشنر ومكاتبه وأركان حربه، وقسم المخابرات الذى يديره الماچور ونجت، مع مكتب سلاطين باشا ومساعده الأول. وفيما يلى محطة السكة الحديدية تقوم الورش وهى لا تكاد تخلو يوماً من قطار فى حاجة إلى إصلاح .

وكانت حلفا فى تلك الأيام تشبه خلية نحل هائلة، من كثرة الساعين ذهاباً وإياباً بين البواخر النيلية وقطارات السكة الحديد، حاملين الذخائر والمؤن. وكان الغالب على هذه الشحن غرارات القمح، وقطع القبطان وأجزاء القطارات يحملها المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة من المساجين أو الجنود أنفسهم. وكان مشهد المصريين وهم يعملون تحت الشمس المحرقة مما يملأ النفس بالإعجاب والثقة. ومما يذكر عن حلفا كذلك أنها كانت المركز الرئيسى لفرق الهجانة المصرية والسودانية فقد كانت فرق الهجانة تبذل لقسم النقل أكبر العون .

أما الحياة فكانت قاسية جداً على الذين لم يتعودوا شدة الحرارة، وخاصة فى الصيف فلم يكن أحد يطيقها بين الساعة العاشرة قبل الظهر والخامسة بعده حيث كانت الأرض رمضاء، والهواء مثل ألسنة اللهب. وإذا ذكرنا بيوت الطين وجب علينا أن نذكر أن غرفها كانت أرضها تراباً، وأن نوافذها لم تعرف قط زجاجاً، وكان يترتب على ذلك وجوب اختيار أحد الأمرين: إما فتح النوافذ والتعرض لهاب الريح الساخنة الرملية، وإما إغلاقها وإشعال مصباح البترول واحتمال حرارته ودخانه. أما أثاث البيت

فكان لا يتعدى السرير وهو لا يعدو ما هو معروف بالعنجريب. وكان هنالك كالأثاث في البيت كل أصناف الحشرات والهوام من الخنافس والعقارب فضلاً على الفئران .

هنا عانى حافظ إبراهيم حياته التى شكا منها فى رسائله إلى إخوانه وندمائه فى القاهرة وهى لا محالة رسائل كثيرة، وإن لم يصل إلينا منها إلا القليل الذى احتفل بتنميقه. فقد كان حافظ كلما انفسح له فراغ الوقت تحرّى أن تكون رسائله فى الشكوى شعراً كانت أو نثراً مفرغة فى القالب الفنى والرونق الطلى .

ويا ليت الأمر وقف بصاحبنا حافظ عند هذه الحياة المنزلية التعسة الشقية فى وادى حلفا أو بينها وبين عكاشة فى قبليها، بل زاد على ذلك أن كان العمل مرهقًا متصلاً يشق عليه، ولا يدع له وقتًا لراحة بدنه، واستجمام ذهنه والترويح عن نفسه .

حافظ وكتشنر

هنا قبلى وادى حلفا، كان محمد حافظ إبراهيم، الملازم الأول فى إدارة التعيينات الخاصة بالجيش المصرى، وسط دوامة لا قبل له بها، لكثرة من كانوا يعينون فى أعمال التفريغ والشحن، ومد السكة الحديدية تحت إشراف المهندسين «نيكور بك Nicoar» و«جيروار Girouard»، والكثير من الأعمال الأخر، وهى جميعًا باللغة الأهمية عند كتشنر، وتجرى تحت ملاحظته وقيد مراقبته الشخصية .

وحسبنا كى نعرف مبلغ ما كان عليه كتشنر من الغطرسة والتكبر، أن نرجع إلى ما قبل الحملة بعامين اثنين حيث وقع فى وادى حلفا نفسها بين كتشنر سردار الجيش المصرى وبين خديوى مصر عباس حلمى ما اشتهر وقتئذ باسم «حادث الحدود».

فقد بدا للخديوى فى أثناء ثورة المهدى فى السودان، أن يقوم بزيارة رسمية لمديريات الوجه القبلى من أدنى الصعيد إلى أعلاه حتى الحدود. وفى مساء ٩ من يناير سنة ١٨٩٤ استقل الخديوى يخته الخاص فى حفل من حاشيته وفى معيته محمد ماهر باشا وكيل الحربية، وتتابعت زياراته للمديريات حتى بلغت الرحلة نهايتها عند الحدود فى وادى حلفا، وكانت فى ذلك الحين أيضا مركز احتشاد الجيش المصرى. فكان الاستقبال العسكرى الرسمى المعتاد وعلى رأس المستقبلين كتشنر باشا. وفى أثناء استعراض الخديوى للجيش، أبدى بعض الملاحظات على الأورطة الثانية بمسمع من ضباطها من الإنجليز. فشق ذلك على كتشنر وتعاظمه، وأبلغ الخديوى أن الضباط الإنجليز متذمرون، وأنهم يعدون ما حصل إهانة لهم، وأنهم عازمون على الاستقالة، وأنه من ناحيته لا يسعه إلا عرض الأمر على قائد جيش الاحتلال والمعتمد البريطانى فى مصر. فلما أفهمه الخديوى أنه صاحب الحق فى إبداء ما يراه من الملاحظات على الجيش المصرى، وأنه لا وجه لهؤلاء الضباط فى الاحتجاج لأنهم ليسوا

فى خدمته غير ضباط مصريين، أجابه كتشنر فى ثورة غضبه أنه لا يقبل من الخديوى ملاحظات لا حق له فى إبدائها. ولم يقف النقاش عند هذا الحد فإن الخديوى حين نبهه إلى أنه القائد الأعلى لجيشه، قال كتشنر إنه لا يعرف له هذه الصفة، ثم أعرض عنه وأدار له ظهره وافترق الاثنان دون تبادل السلام. وانصرف الخديوى مغضباً إلى يخته، وأبلغ أنه يحس بوعكة وأنه غير حاضر المأدبة العسكرية الرسمية التى أقامها السردار احتفالاً به. أما كتشنر فأبلغ الحادث إلى اللورد كرومر ذلك المساء نفسه فى برقية عاجلة. فانتهز كرومر الفرصة للتهويل فى أمرها، وأبلغها إلى لندن على الفور. فوردت التعليمات من لندن إلى كرومر بتبليغ مذكرة إلى رئيس الوزراء رياض باشا مفادها مطالبة الخديوى بتقديم الترضية الرسمية للضباط الإنجليز بالثناء على الجيش وضباطه، قبل وصوله إلى العاصمة أو تقديم تنازله عن العرش. وقد رضخ الخديوى عباس، فأرسل عند وصول ركابه إلى الفيوم خطاباً بتاريخ ٢٦ من يناير سنة ١٨٩٤ موجهًا إلى السردار فى وادى حلفا، مردداً هذا المعنى فى جملته وتفصيله، على سبيل الاعتذار .

ولما كان ما ذكرناه عن كتشنر يمكن حمله على المعنى السياسى الذى تتوخى السلطة البريطانية توكيده فى مصر، فإننا نسوق شهادة أركان حربه الإنجليزى إدوارد سيسل **Eduard Cecil** فى هذه الحملة نفسها ؛ وهى حملة النيل كما يدعونها. لقد جاء فيما كتبه اللورد إدوارد سيسل فى مذكراته عن أيام خدمته فى مصر **Ahe Leisure of an Egyptiian official**» إشارة إلى حادث الحدود إذا يقول : «كان لقائى كتشنر للمرة الثانية فى لندن عقب الحادث الذى وجه فيه الخديوى عباس الإهانة له. وقد كان كتشنر يردد فى لهجة الجاد وهو يهز رأسه هذا التعليق عليها : «شقاوة غلام». فلما لقيته بعد سنوات، وذكرت له كراهتى للخديوى، بدا كأنه ينكر علىّ ذلك، فالخديوى لم يكن عنده بالشىء الذى له شأن حتى يكرهه.

ونحن نذكر هذا عن كتشنر بمناسبة ما كنا بسبيل روايته عن تعاظمه وغطرسته، وهى غطرسة كان يظهرها حتى فى علاقاته مع رؤسائه الإنجليز، ولو كانوا فى دست

الوزارة. ولكننا نؤثر هنا إيراد الشواهد على نوع علاقته مع مرءوسيه خاصة لنلقى الضوء على ما كان من علاقته بمؤلفنا الضابط حافظ إبراهيم، وقد اخترنا أن يكون شاهدنا على ذلك أحد مرءوسيه من الإنجليز أنفسهم. وليكن هذا المرءوس «إدوارد سيسل» نفسه، أيام كان أركان حربه فى الحملة المصرية الإنجليزية على السودان، قال :

«لقد جمعنى العمل بالسردار كتشنر أيام الحملة، ولا أحسبنى أصدق فى قولى إذا قلت إننى أحببته وقتئذ، ذلك أنه كان وقتئذ أكثر جفوة وجلافة وأقل تمدناً وتهذيباً فى طباعه وشمائله منه فى مستأنف أيامه. فقد كان من ديدنه أن يكون قليل الاعتبار لأى إنسان كائناً من كان. ثم هو بعيد عن الملاينة سريع إلى المصادمة، خشن الطباع غير مصقول الحواشى، به نزوع إلى انتهار من حوله والسخط عليهم والاستبداد بهم. كما يفعل بعض الرجال مع زوجاتهم. وإذا كان منطوياً على غلٍّ صب على من حوله جام غضبه تنفيساً عن صدره ، ثم هو كثيراً ما يقيم الساعات الطوال صامتاً عابساً. وبالجملة هو رئيس يلقى منه المرءوس أنواع التنغيص».

هذا هو كتشنر مع مرءوسه الإنجليزى، فما بالك به إن كان المرءوس ذلك المصرى حافظ إبراهيم، بما جبل عليه من الخروج على النظام وقلة الصبر على العمل المتصل، وإيثار مجالس السمر يفنى فيها لياليه حتى السحر، ينادم الخلان من أهل الظرف والأدب، يتذاكرون نوادر الأخبار ويتطارحون فرائد الأشعار، فلا يأوون إلى دورهم حتى تؤذن الأطيار على منابر الأشجار .

والراجح عندنا أن ما وقع من الإضطهاد على حافظ إبراهيم من كتشنر، إنما كان هذا بدايته، بسبب بادرة بدرت من كتشنر المتشدد المستبد، وهو المعروف بكثرة بوادره، أو من أجل تقصير تكرر من حافظ، وهو المعروف على الدوام بعدم احتفائه بالنظام وقلة مراعاته لحسن الهندام، ويضاف إلى ذلك ما ابتلى به حافظ من سوء علاقته برئيس فرقته رفعت بك الذى كان يكرهه ويسىء الشهادة بحقه فى كل ما يخبره من تقارير عنه، وكان حافظ يقابل ذلك منه بنظم الأراجيز يتضاحك به فيها، ويتناوله بالسخر، ويتخذه ملهى وعرضة استهزاء، ومن ذلك قوله :

تـراه إذ يـنـفـخ فـى المـزمـــــار   تحـســبــه فى رتبـه الســردار
يجـــتـنب العـــاقل والنـبــيـــه   ويعـــشق الجـــاهل والســفــيــه

ولم يكن من شأن هذه الأهاجى إلا استفزاز رئيسه رفعت بك إلى مضاعفة مساعيه غير الحميدة فى زيادة الوقيعة به عند السردار، حتى أصبح منطوياً له على الكثير من سوء التقدير، فكتب على أحد التقارير المقدمة فى حق حافظ إبراهيم كلمته المشهورة «لا يُرفت ولا يُرقى»، وهى كلمة يفهم منها أن رئيس حافظ المباشر كان قد اقترح فصله من الخدمة. ولقد كان حافظ يخشى ألا يقف الأمر عند حرمانه من الترقية، ويتوجس مع استمرار السعاية أن يبطش به هذا الجبار العنيد، أو على الأقل يطوح به إلى أبعد البعيد، فى هذه الفيافى البيد .

رسالة استغاثة من السودان

إلى الشيخ الإمام محمد عبده

كان الشيخ محمد عبده قد اشترك - كما هو معلوم - فى الثورة العرابية حين تحولت من حركة عسكرية لمطالب خاصة إلى هبّة شعبية ذات أهداف وطنية عامة، فكان ما كان فى أواخر سنة ١٨٨٢ من الحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات خارج الديار المصرية، إلى البلد الذى يختاره كغيره من المدنيين، ولكن الشيخ محمد عبده مكث فى المنفى ثلاث سنوات أخر باختياره، لأن تهمته كانت الفتوى بوصفه من رجال الدين بخلع الخديوى توفيق، وقد خشى العودة والذى أفتى بخلعه قائم على العرش، وخاصة أنه حين زار لندن فى بداية صيف سنة ١٨٨٤ بدعوة من صديقه العاطف على الحركة العرابية «ولفرد بلنت» وسأله هنالك مُكاتب «البول ميل جازيت» عن رأيه فى الخديوى توفيق لم يلذ بالصمت أو يصطنع التلميح، بل أدلى برأيه الصريح عن الخديوى توفيق وعن الإنجليز فقال :

«إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة، لأنه مهد لدخولكم بلادنا. ورجل مثله انضم إلى أعدائنا أيام الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه، وعمل على الخلاص منكم، ربما غفرنا ذنبه. إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية» .

وفى عام ١٨٨٨ والشيخ فى منفاه الاختيارى فى بيروت، تحركت عليه السعاية لدى السلطان عبد الحميد، فكره السلطان طول إقامة الشيخ فى البلاد الشامية التابعة للسلطنة العثمانية، فسعى الغازى مختار باشا لدى السلطات البريطانية لعودته إلى مصر. واتفق أن كانت إحدى الأميرات فى مصر وهى الأميرة نازلى فاضل التى

يحضر منتداها سعد زغلول وغيره من أهل الثقافة العالية من المصريين، قد سمعت ثناءهم على الشيخ محمد عبده، ولما كانت حسنة الصلة ، مقبولة الرجاء عند كرومر فقد سعت لديه فى الشفاعة لعودته عند الخديوى توفيق، فلم يجرؤ الخديوى على رد شفاعة المعتمد البريطانى. وعاد الشيخ أخيراً إلى وطنه. ومنذ ذلك الحين وقر فى الأذهان أن للشيخ محمد عبده لا محالة منزلة عند الإنجليز. والواقع أن الشيخ محمد عبده قد اكتسب صداقتهم على الرغم من عداوته لهم، لأنه كان بعد تجربته للثورة العرابية قد اتجه رأيه إلى أن الإصلاح الأخلاقى والتربية القومية يجب أن يكون لهما السبق حتى تقوم عليهما النهضة السياسية، وهذا معناه أن الشيخ محمد عبده كان من المعتدلين. والواقع أن هذا كان طبعه الفطرى، وقد غلب عليه بعد أن فارقه جمال الدين الأفغانى .

فلا غرابة إذن إن رأينا حافظ إبراهيم فى محنته مع كتشنر ينصرف ذهنه إلى الاستشفاع بالأستاذ الشيخ محمد عبده، الذى علا وقتئذ نجمه وبلغ فى وظائف الدولة إلى تعيينه مستشاراً فى القضاء الأعلى بمحكمة الاستئناف وعضواً بمجلس إدارة الأزهر. وها هو ذا حافظ يكتب إليه من السودان ثم يعاود الكتابة إليه ملتمساً وساطته عند الإنجليز وحسن مسعاه لديهم لنقله إلى القاهرة بعيداً عن العمل فى السودان تحت السلطة المباشرة لذلك السردار الجبار .

والقارئ سيأخذه العجب ولا شك من هذا النموذج الذى سنورده من رسائله للأستاذ الشفيع، لمبالغة المستشفع فى اصطناع النثر الفنى. وقد بلغ من احتفاله بديباجته فى عرض شكايته أن أصبحت رسائله أشبه ما يكون برسالة ابن زيدون المشهورة. ولقد دعاه إلى هذه المعاناة ما يعلمه فى الشيخ محمد عبده من تذوقه لفنون الأدب وسعة علمه بوجوه البلاغة والبيان، كما يعلم ذلك كل من قرأ للأستاذ شرحه نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان. وفى هذه الرسالة يكرر حافظ التماسه من أستاذه أن يسعى فى نقله من السودان إلى القاهرة مستنجزاً وعداً سبق له بذلك، وينحو فيها منحى الرسائل المشهورة لأعلام المنشئين، من الاحتفال باللفظ وتكلف السجع، ومن كثرة الإشارات والتضمينات التى تدل على سعة إحاطتهم بفنون الأدب وتاريخ العجم والعرب :

«كتابى إلى سيدى، وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل، ومن تيهى به فوق النثرة والإكليل، وقد تعجلت السرور، وتسلفت الحبور،

وقـطـعـت مـــــا بـيـنـى وبـين الـنـوائـب

وبشـرت أهلى بالذى قـد سـمـعـتـه ... فـمــا مــحـنتى إلا ليــال قــلائـل

وقلت لهم للشـيخ فـينا مـشـيـئـة ... فـلـيـس لـنـا مــن دهـرنـا تــنـازل

وجمعت فيه بين ثقة الزبيدى بالصمصامة، والحارث بالنعامة، فلم أقل ما قال الهذلي لصاحبه حين نسي وعده، وحجب رفده:

يـا دار عـــــاتـكـة الـتـى أتـغــــزل

بل أناديه نداء الأخيذة فى عمورية، شجاع الدولة العباسية، وأمد صوتى بذكر إحسانه مد المؤذن صوته فى أذانه، وأعتمد عليه في البعد والقرب، اعتماد الملاح على نجمة القطب .

وقـال أصـيـحـابى وقـد هالنى النوى ... وهالـهم أمـرى : مـتـى أنت قــافلُ ؟

فــقـلـت : إذا شــاء الإمــام فــأوبتى ... قــريـب . وربعى بـالسـعــادة آهل

(وهاأنا) متماسك حتى تنحصر هذه الغمرة، وينطوى أجل تلك الفترة، وينظر لى سيدى نظرةً ترفعنى من ذات الصدع، إلى ذات الرجع، وتردنى إلى وكرى الذى فيه درجت رد الشمس قطرة المزن إلى أصلها، ورد الوفى الأمانات إلى أهلها .

فـإن شاء فـالقـرب الذى قـد رجـوته ... وإن شــاء فــالعـــز الدى أنا آمل

وإلا فـــإنى قـــاف (رؤبـة) لـم أزل ... بقـيـد النوى حـتى تغـول الغـوائل

فلقد حللت السودان حلول الكليم فى التابوت، والمغاضب فى جوف الحوت، بين الضيق والشدة، والوحشة والوحدة، لا بل حلول الوزير فى تنور العذاب والكافر فى موقف يوم الحساب، بين نارين: نار القيظ ونار الغيظ .

فناديت باسم الشيخ والقيظ جمره يذيب دماغ الضب والعقل ذاهل

فصرت كأني بين روض ومنهل تدب الصبا فيه وتشدو البلابل

واليوم أكتب إليه وقد قعدت همة النجمين، وقصرت يد الجديدين، عن إزالة ما فى نفس ذلك الجبار العنيد، فلقد نما ضب ضغنه علىّ، وبدرت بوادر السوء منه إلى، فأصبحت كما سر العدو وساء الحميم، وآلامى كأنها جلود أهل الجحيم، كلما نضج منها أديم تجدَّد أديم. وأمسيت وملك آمالى إلى الزوال أسرع من أثر الشهاب فى السماء، ودولة صبرى إلى الاضمحلال أحث من حباب الماء، فنظرت فى وجوه تلك العباد، وإنى لفارس العين والفؤاد، فلم تقف فراستى على غير بابك .

وإنى أهديك سلامًا لو امتزج بالسحاب، واختلط منه باللعاب، لأصبحت تتهادى بقطره الأكاسرة، وأمست تدخر منه الرهبان فى الأديرة، ولأغنى ذات الحجاب عن الغالية والملاب، ولا بدع إذا جاد السيد بالرد فقد يرى وجه المليك فى المرآة، وخيال القمر فى الأضاة، وإن حال حائل دون أمنية هذا السائل، فهو لا يذم يومك، ولا ييأس من غدك، فأنت خير ما تكون حين لا تظن نفس بنفس خيراً، والسلام» ..

تلك هى رسالة حافظ، يتجسم فيها ما كان عليه من الغيظ والاضطراب وتوجس الشر على نفسه من قائد الحملة العام السردار كتشنر العنيد الجبار، على حد وصف حافظ له فى رسالته .

واعتقادنا أن الأستاذ الشيخ محمد عبده – مع صدق رغبته فى مساعدة حافظ – كانت الفرصة أمامه غير سانحة، والملابسات غير مواتية، للتدخل بين الرئيس الأعلى ومرءوسه فى مثل هذه الساعات الحاسمة. ومع ذلك فنحن لا نستبعد أن يكون الأستاذ الإمام قد خاطب كرومر فى شأن عودة حافظ، ولكننا نستبعد التدخل من جانب كرومر عند كتشنر، لما كان معلومًا عن كتشنر من صلابته وعناده، وانحصار اهتمامه فى تحقيق مراده، دون التفات إلى ما يصيب خلائق الله وعباده .

وكان كتشنر قد وجه منشوراً إلى أهل السودان يعدد مساوئ حكم الخليفة التعايشى ومظالمه فيهم، ومنها استئثاره بأموالهم، وانتهاكه حرمهم، وتقتيله أشرافهم. ويدعو المنشور فى ختامه أهل السودان إلى الانضواء إلى الجيوش المظفرة القادمة تحت قيادته من القاهرة .

السكة الحديدية والقطار

هما الشغل الشاغل للسردار

كان كتشنر طوال الحملة المصرية الإنجليزية التى يقودها فى السودان، صارفًا همه الأكمبر إلى مد السكك الحديدية، حرصًا منه على خطوط الاتصال بين قواعده العسكرية وجبهة القتال، لضمان تدفق الذخيرة والمئونة ومدد الرجال .

وقد بلغ من تعويل كتشنر على السكة الحديدية واعتماده على القطار، أنه حين بدأ الخط الحديدى من وادى حلفا لم ينتظر بلوغه عكاشة، بل كان كلما تم إنشاء جزء منه، تقدم معه الجيش حتى تم الاحتشاد فى عكاشة. ولم يمض وقت يسير، حتى كانت فناطيس الماء وأكداس المئونة محمولة للمرة الأولى بالقطار من وادى حلفا إلى عكاشة، حيث كانت تنتظرها حشود يبلغ عددها نحو الثلاثة آلاف من الجند، لتسد به جوعها وتروى عطشها. وكانت أوامر كتشنر المشددة كفيلة بأن يكون مع المئونة والماء المنقولين بالقطار مزيد من القضبان والعوارض لمواصلة العمل فى مد الخط الحديدى وتسيير القطار إلى الهدف المقصود بلوغه وهو دنقلة قبل حلول الشتاء .

ولقد استمر مد السكة الحديدية جنوبًا بلغت بلدة كوشة، فى ٥ من يولية سنة ١٨٩٦، فأصبحت بدورها مركزًا لاحتشاد الحملة فى آخر مراحلها للانقضاض على دنقلة .

ويقال إن جواسيس الدراويش كانوا يحملون إلى أهالى السودان حتى الخرطوم أنباء عجيبة عن هذا القطار الحديدى، أو على حد ما يتخيلون ذلك «التنين» أو الثعبان العظيم الذى أتى به الإنجليز معهم، ينفث الدخان والنار، متوغلاً فى بلادهم ليل نهار، متوعداً إياهم بالويل والثبور، وسوء المصير .

ولقد حل فى الواقع بهم ما ألاح به النذير فى زعمهم، من الويل والثبور وسوء المصير، ولم يسلم من ذلك الإنجليز والمصريون أنفسهم. فقد انتشرت الكوليرا فى مصر ذاتها، وانتشرت حتى بلغت المركز الحربى الأول فى أسوان، ثم اختفت الكوليرا منها لتظهر فى وادى حلفا فى حالة وبائية ذريعة، كان من ضحاياها الكثيرون ومنهم بعض أفراد فرقة «نورث سترافورد شاير» الإنجليزية، ولم يكن فى الإمكان معالجة الحالة فى وادى حلفا، لما كان من استحالة عزلها، لأنها الطريق الذى تمر به الفرق العسكرية والمؤن إلى ميدان القتال، ولقد حمل بعض هؤلاء معهم الوباء إلى مركز التجمع فى بلدة كوشة نفسها فى ١٥ من يولية حتى اقتضى الأمر نقل المعسكر من جوار النيل إلى مسافة ألفى ياردة فى الصحراء، وقد أسفر هذا الإجراء الأخير عن قطع دابر الكوليرا بعد أن هلك منها خلق كثير .

وتهيأت الحملة للتحرك، وصاحبها فى النيل أسطول صغير من أربع بواخر مدرعة وثلاث غير مدرعة. ثم سبق الأسطول الصغير إلى دنقلة بحراً، وأدركته الحملة براً. وبدأ الهجوم على دنقلة فى منتصف الساعة الخامسة من مساء الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٩٦ وكانت الليل مقمرة. وفى الساعة السابعة مساء تقدمت جموع الدراويش، فتقدم المصريون إلى لقائهم مبادرين، لكن الدراويش تراجعوا، وتكرر هذا الكر والفر منهم، مما يدل على ما داخلهم من وهن العزيمة والتخاذل والتردد، ولم يكن ذلك معهوداً فيهم من قبل. وأخيراً فى منتصف الساعة العاشرة مساء، تقدمت الحملة البرية حتى واجهت معسكر الدراويش فى شمال المدينة فإذا هم يرون العلم المصرى يخفق على دار المديرية. ذلك أن السودانيين الذين تتألف منهم حاميتها المرابطة فيها، قد سبقوا إلى التسليم لرجال الأسطول المصريين، فلم يبق أمام جنود الحملة البرية إلا مطاردة المقاتلة العرب من قبائل البقارة والجعليين . وقد أبدى البقارة خاصة بعض المقاومة لتغطية انسحاب الفلول الهاربين قاصدين إلى ناحية الخرطوم. وما أصبح يوم ٢٤ من سبتمبر حتى كانت مدينة دنقلة أو على الأصح خرائبها وأطلالها مقفرة من أهلها، كما غادر الدراويش المديرية كلها .

واحتفل السردار بهذا النصر المبين فى دار المديرية فى دنقلة، وتلقى التهنئة من الخديوى عباس الثانى، ومنح النيشان العثمانى العالى من الطبقة الأولى. وكان من الحاضرين فى هذا الاحتفال من أعضاء الحملة المصريين إبراهيم فتحى (باشا) قومندان الأورطة السابعة، والملازم حسين بدر (باشا) واعتبرت حلمة دنقلة منتهية فى الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ بعد أن حققت الغرض وبلغت الغاية بفضل حكمة السردار فى مد الخطوط الحديدية وتسيير القطار .

الشاعر الطريد على سواحل البحر الأحمر

بين سواكن وطوكر

هو ذا السردار ، قائد الحملة العنيد الجبار ، قد وفى بوعيده ، وأنفذ فى حافظ تهديده ، وأمر بنقله بعيداً عن الحملة التى يقودها بنفسه وسط السودان .

وهذا هو الضابط الشاعر «حافظ» قد أصبح طريداً مبعداً إلى شرقى السودان، حيث ظل كالمنفي على شواطئ البحر الأحمر مدة سنتين كاملتين ، أكثرها فى سواكن.

والبحر الأحمر - كما هو معلوم - ليس من البحار المحببة إلى الناس ، سواء إلى الأغراب النازلين على ساحليه المتقاربين بشعابهما الصخرية المرجانية ، أو إلى المسافرين ركاباً كانوا أو ملاحين وهم فى جملتهم يعدون بالألوف تعبر البواخر بهم عبابه الملح الأجاج من كثرة تبخر مائه . وهذه الكراهة لهذا البحر الذى يعرفه الأقدمون باسم « القلزم Claysm » لا ترجع إلى عواصف وأعاصير كالتى تهب فى المحيط الهندى أو المحيط الهادى ، وإنما سببها ذلك الحر الشديد الذى لا تطاق شدته متصاعداً مثل نار الجحيم من هذا الأخدود المستطيل المحصور بين أرض رملية رمضاء محرقة ، وجبال بركانية جرداء شاهقة .

على هذا البحر ، يقع ميناء « سواكن » وقد كان أكبر موانى النوبة وأكثرها حركة، وكان مجاز ذوى التقى والورع من المسلمين فى أقطار السودان تعبر بهم المراكب إلى ميناء جدة فى الساحل المقابل ، حيث تنقلهم القوافل للحج إلى مكة المكرمة ، وفى الوقت نفسه كانت ترفأ إلى سواكن مراكب القادمين من جدة إلى السودان .

وسواكن كانت كذلك مركزًا هامًا للنخاسة والاتجار بالعبيد وتصديرهم ، قبل توقيع الاتفاقية على منع الرقيق عام ١٨٧٧ .

وتتألف سواكن من قسمين : قسم على الساحل وهو المسمى « القف » ثم القسم الآخر وهو سواكن الحقيقية ، ويقوم على جزيرة رملها قاحل ماحل لا ينبت ، وبيوتها من الصخر المرجانى الأبيض ومعظمها يتهدم ولا يثبت . وتكثر بينها المقاهى حتى يكاد المقهى يكون كالدرة فاصلة بين كل بيتين من هذه البيوت المبنية من الحجارة المرجانية .

وأهل سواكن من البجاه السودان ، من الجنس الحامى . وتزعم أحاديث الأقدمين أن كلمة «سواكن» أصلها « سواء الجن » وذلك أنه فى سالف الزمان ، أودع الأحباش فى هذه الجزيرة أربعين عذراء ، فأغواهن الجن ، فولدن أربعين فتاة كان لها من عبقرى الحسن أوفى نصيب ، فاجتمع فى نسلهن الخبث الشيطانى والجمال الحبشى. ومن هؤلاء أهل سواكن البجاه المشهورون حتى اليوم بجمال الأجسام، ومنهم العبايدة سكان الصحراء والجمال الحبشى، ومن هؤلاء أهل سواكن البجاه المشهورون حتى اليوم بجمال الأجسام ، ومنهم العبايدة سكان الصحراء الشرقية بمصر وجنوبها، وفى شرقى النوبة حتى ساحل البحر الأحمر البشاريون والهدندوه وبنو عامر ، ورجال هذه القبائل قلما تخلو من ذكرهم حادثة من أحداث السودان الشرقى فى أثناء حياة حافظ وكتشنر .

ولا شك فى أن حافظ قد اتصلت أسباب المعرفة بينه وبين بعض الأفراد من هذه القبائل وخاصة البجاه ممن يجمعون إلى معرفة لغتهم معرفة اللغة العربية بحكم ما كان من تجارتهم مع جدة . ومن هؤلاء لا نشك فى أن شاعرنا حافظ قد سمع بعض الأحداث الأخيرة التى جرت فى هذه الناحية المزدحمة وقتئذ بالأحداث الخطيرة مع كونها من الأطراف الصحراوية النائية .

فلقد عرف ساحل البحر الأحمر فيمن عرف فى أيام الحملة المصرية الإنجليزية إلى السودان شخصية فريدة عجيبة . وهذه الشخصية هى « عثمان دقنه » الذى قدم على هذا الساحل فى الأسبوع الأول من شهر أبريل عام ١٨٩٦ فى ثلاثمائة من فرسان الخيل ، وسبعين من الهجانة أو فرسان الجمال ، وألفين ومائة من المشاة. وأخذ منذ ذلك الحين فى تهديد سواكن والمراكز الأخر المتطرفة .

وكانت سواكن يحميها من الغارة عليها كونها جزيرة ، ولكنها كانت تعتمد فى معاشها على الجزء المكمل لها على البر ، وهو سواكن البرية ، وهذه كانت قوية التحصين يحيط بها سور وخندق ، وتحميها إحدى عشرة طابية قائمة فى أركانها، متتابعة كالسلك المنظوم .

أما المراكز القريبة من سواكن وعلى مسافة من الساحل ، فهى فى الشمال قريباً من البحر « هندوب » وبعيداً عنه « تامبوك » وفى كل منهما ما يكفى أربعة أشهر من الزاد والذخائر . وتمتاز الأخيرة من الناحية الحربية بأنها لا تستطيع مهاجمتها قوة غير المدفعية ، فهى قائمة على صخرة عالية منيعة ، ويتألف معقلها من مخزن وحصن من كتل الخشب وبرج للمراقبة يكشف ما حوله إلى مدى بعيد يبلغ أميالاً عديدة ، ثم هى على رأس الطريق المؤدية إلى بربر ، كما أنها تتحكم فى آبار الماء عند سفح الصخرة ، وهنالك عدا هذين بلدة « سكنات » جنوبى سواكن ، بعيدة عن الساحل ، وهى فى واد ناضر الخضرة ، ويتخذه السراة من تجار سواكن مصيفًا حين تشتد حرارة الصيف فى ساحل البحر .

أما « طوكر » فهى واقعة فى أقصى الجنوب من سواكن على مسافة من الساحل، فى الطريق من البحر إلى كسلا . وهى فى سهل خصب يرويه خور بركة الذى يتفرع إلى قنوات للرى عديدة ، ويبلغ من خصوبة التربة فى طوكر أنها فى مواسم البذر والحصاد يجتمع فى حقولها نحو العشرين ألف عامل وفلاح. وقلعة طوكر محصنة بثلاثة خطوط من الاستحكامات مزودة بمدفعين « كروب » ومدفع « جاتلنج » ، فضلاً على مقادير كبيرة من المئونة والذخيرة ، وكانت طوكر وقت

ابتداء الحملة على السودان تحميها الأورطة العاشرة السودانية التابعة للقوات المصرية . وأقرب الموانى ، إلى طوكر ، ميناء « ترنكيتات » ، وتقوم بلدة « الطيب » بينها وبين طوكر .

وقد كانت هذه الموانى البحرية والمراكز الداخلية جميعها على صغرها ميداناً لمعارك حامية الوطيس كان لها خطرها بين القوات المصرية الإنجليزية ، وعثمان دقنه ورجاله من قبيلة هدندوة وغيرها ، فضلاً على العربان فى موقفهم المتذبذب المتنقل بين المعسكرين آنًا بعد آن ، وقد ظلت هذه المعارك دائرة دون انقطاع منذ سنة ١٨٨٣ أو قبلها .

وما من شك فى أن حافظ إبراهيم قد سمع فى أثناء إقامته فى سواكن من المقاتلة القدامى أطرافًا من المعارك حولها، وفى الأطراف النائية عنها فى جنوبها وشمالها ، ولا نحسب أن أديبًا مثله قرأ فى الأدب العربى مقامات بديع الزمان والحريرى فضلاً على روائع القصص الشعبى مثل سيف بنى ذى يزن وعنترة وأبو زيد الهلالى ، يفوته الاستماع إلى قصة بطل عصرى من أبطال سواكن وهو الثائر عثمان دقنه ، ذلك المغوار الماكر .

وهكذا علم حافظ فيما علم ، أن عثمان دقنه أصله من أكراد ديار بكر ، وكان أحد أسلافه قدم منذ قرون مع جيوش السلطان سليم الأول عند فتحه مصر، ثم أقام فى ميناء سواكن ، واختلط بقبائل الهدندوة ، وكان منهم قبيلة الدقناوى التى اتصل وإياها بالمصاهرة ، فكان من ثمارها عثمان دقنه الذى ولد فى سواكن ونشأ بها ، وتعاطى وأخوه التجارة التى كانت تمارسها الأسرة وهى العاج وريش النعام وغيرها، ثم ما هو أكثر من ذلك استدراراً للربح وهى النخاسة أى الاتجار بالرقيق ، وكانت تجارته رائجة بين السودان والحجاز، فلما أن صارت تجارة الرقيق ممنوعة منذ أغسطس سنة ١٨٧٧ بمقتضى اتفاقية الرقيق الإنجليزية المصرية ، ساءت حالة عثمان دقنه المالية وخاصة بعد أن سجن هو وأخوه مرة فى جدة بسبب اتجارهما فى الرقيق بعد صدور القرار بتحريمها . واتفق وقتئذ أن بلغت (دقنة) الدعوة المهدية الثائرة على

بدع المدنية الأجنبية ، فلم يتوان عن اعتناقها ، والتعصب حتى النهاية . وكان يعرف لغات الهدندوة والبجة ، كما يعرف العربية قراءة وكتابة ، وكان معروفًا بالشهامة والشجاعة والمهابة ، فلا عجب – فى إبان الدعوة المهدية ، والتوسع فى نشرها بعد انتصارها – أن يعهد إليه المهدى بالدعوة لها ما بين البحر الأحمر ونهر عطبرة ، أى فى موطنه وسائر السودان الشرقى . فقام عثمان بما عهد إليه حق القيام مستفزًا أهل هذه الأقطار للثورة والمبادرة للانضمام إلى جموع الأنصار تحت الراية المهدية. وفى أواخر سنة ١٨٨٣ حمله المهدى إلى أهل هذه البلاد منشورًا يتضمن تعيينه من قبله أميرًا فأوفد عثمان دقنه أخاه رسولاً عنه لهداية أهل كسلا ، وتولى هو بنفسه بلاد الساحل ، متخذًا معسكره الرئيسى فى بلدة « تماى » التى صارت معقله المشهور ، وهى على مرتفع من الأرض فى سفحه جداول ، ما بين سواكن وسنكات. وكذلك كان له معسكر فى تل هشيم على بعد سبعة أميال من سواكن، ومعسكر ثالث عند طوكر . وقد كان من نجاح مساعيه الثورية أن أرسلت الحكومة من القاهرة فى آخر نوفمبر سنة ١٨٨٣ حملة باكر باشا حكمدار البوليس التى سبق لنا ذكرها ، فأفناها عن آخرها .

ولكن الذى كان يهتم له حافظ اهتمامًا لا يعدله اهتمام ، هو أخبار عثمان دقنه مع كتشنر الذى كان منذ أغسطس سنة ١٨٨٦ محافظًا لسواكن ، لعله يجد فى تضاعيفها ما يشفى غل قلبه الموتور فيما وقع لهذا المتعجرف المغرور . وإننا لنرى بعين الخيال « حافظا » يستمع ، وهو معلق الأنفاس ، كيف كانت هزيمة كتشنر أمام عثمان دقنه فى هندوب شمال سواكن ، ثم نلمح كالبرق ومضات التشفى فى عينه حين يصف الراوى كيف أصيب كتشنر فى أثناء التقهقر إصابة شديدة فى وجهه برصاصة استقرت بعدها فى عضلة من عضلات عنقه ، حتى جعلته الإصابة عاجزًا عن القتال لتغطية الانسحاب ، وأخرجته من عداد المقاتلين إلى عداد المصابين ، فتولى عنه ما بدأه من تنظيم حركة الانسحاب الكابتن « هيكمان » الذى خلفه على قيادة الفلول المنهزمين ، وكان من شدة الإصابة أن نقل كتشنر بعد يومين إلى القاهرة باعتباره من

العسكريين الذين أصبحوا غير صالحين ، وخلفه غيره على محافظة سواكن . ومن عجيب ما يروى أن الجراحين بذلوا كل ما في وسعهم من علم الجراحة وقتئذ لإخراج الرصاصة من عنقه فذهبت جهودهم سدى ، وبعد شهور في أثناء نوبة سعال أخذته ، انتقلت الرصاصة من مكمنها فأمكن إخراجها والتأم الجرح بعد أن قاسى منه أشد البرح طوال هذه المدة ، ولقد ذكر حافظ عندها ، ذلك الحول الذى لحظه عند كتشنر في عينه اليسرى ، فتبادر على الفور إلى ذهنه أن ما ظنه حولاً إنما هو شلل بالعضلة العليا لعينه اليسرى من تلك الإصابة بالرصاصة في وجهه ، يوم هزيمته وانكساره أمام عثمان دقنه ورجاله .

ولكن حافظ يعود بعد فترة إلى نفسه ، وإلى حاضر وقته ، فيذكر الواقع المؤلم بحقيقته المرة ، فهذا هو الكولونيل كتشنر الذى ترك سواكن جريحاً سطيحاً محمولاً إلى القاهرة في عداد العسكريين غير الصالحين ، قد أصبح بعدها كتشنر باشا سردار الجيش المصرى والقائد العام للحملة المصرية الإنجليزية لاسترجاع السودان ، على حين يجد حافظ نفسه كالمنفى متطوحاً على ساحل البحر الأحمر في سواكن، أو على مسافة منه في ذلك القفر المسمى طوكر ، حيث كان يمشى على أديمهما الرملى وكأنما يمشى على بساط من الجمر ، وحيث تكاد شمس الهجير من فرط السعير تذيب الصخر ، وحيث الرياح السافيات تعفر الوجوه وتقذى العيون برملها ، وتسفع الخدود وتدبغ الجلود بحرها ، وحيث يترامى الأمل الخادع كالسراب اللامع .

في هذا المنفى اجتمع على الشاعر شعوره بالقهر ، وعذابه مما يصلاه من جحيم الحر ، واستيحاشه إلى النعيم ، بين خلان ليس كمثلهم خلان ، علاقة الأدب جمعتهم ، وقلادة الشعر نظمتهم ، لا يأنسون بشيء أنس بعضهم بالبعض ، في مجالس مشرقة البهجة ، فائضة بالبشر يتنادمون فيها بأحاديث حلوة تفوق المدام في حلاوة النشوة . وقد كان من فرط وحشة شاعرنا حافظ إليهم أن اتصلت رسائله بهم، ما بين السودان والقاهرة يشكو إليهم مقامه في أقاصي السودان قفرها وحرّها ، ويحن إلى مجالسه معهم بالقاهرة حنيناً ولا كحنين أهل الجحيم إلى النعيم ، ومن ذلك قصيدته إلى صديقه محمد بيرم رداً على خطاب له :

أثرت بنا من الشوق القديم … وذكرى ذلك العيش الرخيم
وأيام كسوناها جمالا … وأرْقَصْنا لها فلك النعيم
وفتيان مساميح عليهم … جلاليب من الذوق السليم
وظبي من بني مصر غرير … شهيّ اللفظ ذي خد مُشيم
ولحظ بابلي ذي انكسار … كأنّ بطرْفه سيما اليتيم
سقانا في منادمة حديثًا … نسينا عنده بنت الكروم
أحنٌّ لهم ودونهمُ فلاةٌ … كأن فسيحها صدرُ الحليم
كأن أديمها أحشاء صب … قد التهبت من الوجد الأليم
كأن سرابها إذ لاح فيها … خداع لاح في وجه اللئيم
وتمشي الشاقيات بها حيارى … إذا نقل الهجير عن الجحيم
فمن لي أن أرى تلك المغاني … وما فيها من الحسن القديم
نزحت عن الديار أروم رزقي … وأضرب في المهامه والتخوم
وما غادرت في السودان قفرًا … فلم أصبغ بتربته أديمي
وها أنا بين أنياب المنايا … وتحت براثن الخطب الجسيم
ولولا سورة للمجد عندي … قنعت بعيشتي قنع الظليم

ولكم خلا شاعرنا في هذا المنفى إلى نفسه ، يتأمل في أعماقها عمق بؤسه ، ولا يجد من يرجع عليه باللائمة غير نفسه ، فهو الذي جنى عليها هذه الجناية التماسًا للرزق ، وتأمينًا للمستقبل . ولقد تملك شاعرنا هذا الشعور حتى كان يردده فيما كان يكتبه إلى أصدقائه من منفاه :

رَميتُ بها على هذى التباب | وما أوردتها غير السراب
وما حمّلتها إلا شقاءً | تقاضيني به يوم الحساب
جنيت عليك يا نفسى وقبلى | عليك جنى أبى ، فدعى عتابى
ولولا أنهم وأدُوا بيانى | بلغت بك المنى وشفيت ما بى
سعيت ، وكم سعى قبلى أديب | فآب بخيبة بعد اغتراب
وما أعذرت حتى كان نعلى | دمًا ووسادتى وجه التراب
وحتى صيّرتنى الشمس عبدًا | صبيغًا بعد ما دبغت إهابى
وحتى قلّم الإملاق ظفرى | وحتى حطم المقدار نابى

ويتنقل شاعرنا من هذه الشكوى الأليمة إلى تذكر أرض مصر ، وقد استوحش إليها ، وحن إلى كل شىء فيها حتى قطار السكة الحديدية ، فقد طال به المقام فى القطر السودانى الشرقى ، ولم يقع ناظره على قطار غاد رائح ، يحس فى غدوه رواحه أنه على صلة بالعالم الخارجى :

متى أنا بالغٌ يا « مصر » أرضًا | أشم بتربها ريح الملاب
رأيت « ابن النجار » على رباها | يمر كأنه شرخ الشباب
كأنّ بجوفه أحشاء صب | يوجّج نارها شوقُ الإياب
إذا ما لاح ساءلنا الدياجى : | أبرقُ الأرضِ أم برق السحاب ؟

وكان الأمر قد انتهى بحافظ إلى اليأس من شفاعة الشافعين له ، وكان عزاؤه أن يذكره على الأقل أصدقاؤه . ولكنه بدأ يحز فى نفسه تشاغلهم عنه ، وتراخيهم مع

تطاول الزمن فى مراسلته ، وتقاعدهم عن بذل المعونة له وهم من أهل السعة والاقتدار ، فلا غرو يداخله الريب فى مودتهم ويزايله اليقين حتى فى أخصائه المقربين ، فيهمُّ فى سَوْرة غضبه منهم أن يصارحهم ، ويطوى صفحتهم ويقطع كل سبب بينه وبينهم، ومن ذلك هذا الكتاب الذى أنفذه إلى أحدهم :

أخى والله قد مُلئ الوطاب ... وداخلنى بصحبتك ارتياب

رجوتك مرة وعتبت أخرى ... فلا أجدى الرجاء ولا العتاب

نبذت مودتى فاهنأ ببعدى ... فآخر عهدنا هذا الكتاب

ونحن نعهد حافظ ممن يحبون المخالطة والصحبة ، ولا يصبرون عن مجالسة الأدباء ومنادمة الظرفاء ، وها هم أولاء قد ترامت بينه وبينهم كل هذه الصحارى الشاسعة ، وطالت عليهم غيبته حتى كاد يطوى النسيان عندهم مودته ، فانقطعت مع تطاول الأيام أسباب المكاتبة ، فلم يبق أمام حافظ فى هذه الوحدة الموحشة ، إلا أن أكب وهو فى المنفى على معالجة القراءة فى الفرنسية للشاعر العظيم فيكتور هوجو ، وخاصة القصة الضخمة الكبيرة المشهورة التى كتبها فى منفاه ونعنى بها « البؤساء » أو كما شاء المتنطسون من أعلام اللغة « البائسون » . ويدلنا على أن معاناة حافظ لهذه القراءة كانت شديدة ، قوله فى بعض أحاديثه إنه أعاد قراءتها أكثر من عشرين مرة قبل أن يترجمها ، فضلاً عن قوله فى صدر الجزء الأول من ترجمته وهو يتكلم عن التعريب :

« ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذى أعانى تعريبه اليوم وقد خار لى الله أن أعربه فاستعنته ، فأعاننى ، وسلخت اثنى عشر هلالاً فى تعريب تلك الصفحات التى ترونها ».

والمتعارف عند قراءة الفرنسية أن البؤساء فى لغتها الأصلية ليس فيها من ناحية مبناها أو معناها صعوبة أو تعقيد أو إخفاء ، ولكنه ضعف حافظ فى الفرنسية وعدم

تضلعه فيها وتمكنه منها . ومن ثمة آثر حافظ أن تكون ترجمته لها تعريبًا ، فهى لا تمت كثيراً إلى النص الفرنسى ولكنها فى طبقته البلاغية من حيث الأسلوب العربى فى ذاته ، دون النظر إلى مطابقة النقل للأصل ، ودون الالتفات إلى ما تحراه فيكتور هوجو فى إبراز الاختلاف بين الشخصيات فى أسلوبهم فى الخطاب وصوغهم للعبارات . ومن أجل ذلك اكتفى بلغاء النقاد العرب عند كلامهم عن ترجمة حافظ للبؤساء أن يذكروا بجميل الثناء بلاغته وجمال أسلوبه ورصانة عبارته .

وأكبر الظن أن حافظ كان همه فى ترجمته للبؤساء التنفيس عن وطأة إحساسه بما هو فيه من البؤس والعناء ، كما يدل على ذلك ما جاء فى خطابه إلى الأستاذ الإمام محمد عبده فى كلمة الإهداء :

« إنك موئل البائس ومرجع اليائس ، وهذا الكتاب قد ألم بعيش البائسين وحياة البائسين وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ».

وقد عاد حافظ إلى توكيد هذا المعنى فى مقدمة الكتاب :

« هذا كتاب البؤساء ، وهو خير ما أخرج للناس فى هذا العهد ، وضعه صاحبه وهو بائس ، وعرّبه معرّبه وهو بائس ، فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة ، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه ، وعرّبه كاتب هذه الأسطر وهو فى بلواه ».

وهكذا كانت ذكرى المنفى الذى ذاقه حافظ هنا تعاوده بعد عودته إلى القاهرة ، حيث أنجز تعريب ما عرّبه من البؤساء ، وهذه الذكرى – ذكرى المنفى – لا تزال عالقة بباله ، ماثلة فى خياله .

كتشنر

في الطريق إلى الخرطوم

بينما كان شاعر النيل حافظ إبراهيم فى شرقى السودان على ساحل البحر الأحمر، كانت المعارك على ضفاف النيل الأعلى دائرة لاسترجاع ما بقى من السودان .

ذلك أنه بعد أن مضت فترة وجيزة على فتح دنقلة ، أعلنت الحكومة البريطانية فى شهر فبراير سنة ١٨٩٧ أنه من الواجب على الحملة إتمام العمل الذى بدأته ، حتى تسترد مصر ما فقدته نزولاً على ما أملى عليها من رأى ، وخاصة أن هذا الواجب قد أصبح فى الإمكان تحقيقه ، فى هذه الساعة التى أشرف فيها حكم الخليفة فى السودان على التداعى والانهيار .

ولم يكن أحد أسعد من كتشنر فى هذه الساعة التى صدر إليه فيها الأمر بالزحف على الخرطوم ، فقد سبق أن بذل كتشنر كل ما وسعه فى خدمة البعثة التى كانت قد أوفدت لإنقاذ غوردون ولم يكن له بحال من الأحوال أدنى شأن فى إخفاقها . وقد بلغ من أسفه وقتئذ أنه لما قُضى الأمر وأصبح الرأس الذى كان أعز رأس عند الشعب الإنجليزى مجزوراً ومعروضًا فى معسكر المهدى . قدّم استعفاءه من خدمة الجيش المصرى ، وعاد كسيف البال إلى بلاده . ويذكر عنه فى أثناء سفره فى الباخرة التى استقلها من بورسعيد إلى إنجلترا فى رجوعه فى صيف عام ١٨٨٥ أنه كان يرى وهو على ظهر الباخرة فى الحلة العادية للضباط المهندسين شديد العكوف على كتيب

فى يده ، وقد روى أحد الكتاب المسافرين على الباخرة التى سافر عليها كتشنر ، أنه كان يذرع ظهرها بخطواته حيناً ، ثم ينحط على مقعد القماش المدود حيناً آخر، ولكنه كان فى الحالين لا يكف عن القراءة ، ولم يكن هذا الكتيب الذى كان يمعن النظر فى قراءته مسترسلاً فيه متوافراً عليه ، إلا كتاب حكايات باللغة العربية ، وأكبر الظن عندنا أنه كليلة ودمنة . وهذا الاهتمام بمواصلة دراسته للعربية مع مبارحته بلادها ، يشعر بأنه كان يحس فى دخيلة نفسه أنه لا بد عائد إليها .

فكيف لا يكون كتشنر اليوم سعيداً جد سعيد بالقرار الأخير ؟ لقد شاءت المقادير له أن يكون السردار للجيش المصرى ، ثم القائد العام للحملة المصرية الإنجليزية على دنقلة ، وهذه هى المقادير الآن تلقى إليه مقاليد الأمور للزحف على الخرطوم التى شهدت مصرع غوردون ، فأصبح متاحاً له الانتقام لمواطنه.

وبناء على قرار الحكومة الأخير ، بدأ السردار فى استئناف خطته بعينها، من التقدم فى تؤدة خطوة خطوة ، ومد السكة الحديدية حيثما سار جيش الحملة ، جرياً على سياسته فى تأمين خطوط اتصال جيشه بقواعده فى أثناء تقدمه فى زحفه ، ولكن فى هذه المرة لم تكن الفكرة التى تسلطت عليه هى مد السكة الحديدية على شط النهر من نقطة النهاية فى كرمة إلى أبى حمد ، بل كانت شيئا جديداً آخر ، هو إنشاء سكة حديدية ضيقة ابتداء من وادى حلفا وهى نقطة الابتداء الأولى إلى أبى حمد ، عبر صحراء النوبة ، مارة بالآبار المعروفة بآبار مراد ، باعتبار هذا الطريق الذى يخترق الصحراء أقصر شقة وأقل نفقة . ولقد كان هناك اعتراض على هذه الفكرة ، ولكنه كعادته أصر على فكرته ، وما اتجهت إليه عزيمته . وقد تم إنشاء هذه السكة الحديدية الجديدة كسابقتها تحت إدارة مهندسه القدير الكابتن « جيروارد » وفى آخر شهر يولية كانت السكة الحديدية قد امتدت إلى نحو منتصف الطريق الصحراوى ، وتوقفت بعيداً عن أبى حمد التى لا تزال فى حوزة العدو ، لاتجاه الرأى إلى بدء الزحف من اتجاه آخر مضاد ، أى من ناحية « مروى » التى بلغتها الحملة فى ٧ من يولية سنة ١٨٩٧ ، ولقد زحفت القوات من «مروى» بقيادة هنتر باشا إلى

أبى حمد وهاجمت جيشاً من الدروايش يتألف من ١٥٠٠ وهزمتهم ، واحتلت المدينة فى السابع من أغسطس ، وقد وقع فى الأسر كثير من الدراويش ومن بينهم الدرويش محمد زين قائدهم .

وجاء بعد « أبى حمد » دور « بربر » التى كان عليها الأمير الزاكى عثمان البقارى، ولكنه أخلاها ورجاله الدراويش من غير قتال ، فدخلت فى حوزة المصريين فى ٦ من سبتمبر ١٨٩٧ . وعلى أثر ذلك زحفت القوات على « الدامر » الواقعة على مقربة من ملتقى النيل بنهر عطبرة ، وكان قد التجأ إليها الدراويش المرتدون من بربر ، فلم تطل مقاومتهم وكان احتلالها فى ٣١ أغسطس ، فأقيمت فيها التحصينات واتخذتها الحملة مركزاً أمامياً للمعركة الهامة التالية . وقد روعى قبل حلول العام الجديد أن يتم امتداد السكة الحديدية الصحراوية من وادى حلفا إلى أبى حمد فى ٣١ من أكتوبر سنة ١٨٩٧ ، كما اتخذت الأهبة لمدها بعدها إلى بربر . وقبل نهاية العام ، وعلى وجه التحديد فى ١٨ من ديسمبر استردت مصر « كسلا » من الطليان، وباسترداد « بربر» و« كسلا » انفتح الطريق إلى شرقى السودان . فاطمأن حافظ عندها على نفسه ، وأكب على درسه للفرنسية ، ومطالعاته فى قصة « البؤساء » لفكتور هيجو و«الليالى» لألفريد دى موسيه ، ليتعزى بالبؤس عند الأول واليأس عند الآخر عما اجتمع عليه من بؤسه ويأسه . ولكنه ولا ريب ، قد بدأ من ذلك يداعبه الأمل بقرب الفرج ، فهذه هى البوادر تحمل البشائر بوشك انتهاء الحملة المصرية الإنجليزية من مهمتها ، وأصبحت الشفاعة له ميسورة على يد الأستاذ الإمام « محمد عبده » ليعود من طريق الخرطوم بعد فتحها إلى حيث كان بين الصحاب والندمان فى العاصمة المصرية .

فظائع الإنجليز فى السودان

الفرق الإنجليزية تستعمل رصاص « دم دم »

فى أوائل سنة ١٨٩٨ كانت الحملة الموجهة ضد خليفة المهدى « عبد الله التعايشى » مقبلة على خاتمتها الرهيبة ومعركتها الحاسمة الأخيرة . فأبرق كتشنر - وقد أصبح الآن « ميجور جنرال سير هربرت كتشنر » - برقية مستعجلة فى طلب أمداد إنجليزية أُخَر . فأنفذ إليه السردار « السير فرنسيس جرنفيل » بعض أورط من جيش الاحتلال : أورطة من الإسكندرية وأورطتان من القاهرة . وعلى جناح السرعة وصلت هذه الأمداد إلى وادى حلفا فى آخر يناير ، وكان مقرراً أن تصل على أثرها أورطة إنجليزية من جزيرة مالطة . وقد أوفدت الحكومة البريطانية اللواء « جاتاكر Gatacre ليتولى قيادة هذه الفرق من الجنود الإنجليز . وفى هذه الأثناء كانت محطة السكة الحديدية فى بلدة « كرمة » يتوارد عليها بغير انقطاع كل من كان فى الإمكان نقله من القوات المصرية المرابطة بين دنقلة ووادى حلفا . وكانت هذه القوات تنقل على الفور من محطة كرمة إلى حيث يقلها قطار السكة الحديدية إلى أبو حمد ، ومنها إلى أبو ديس بسرعة خمسة وعشرين ميلاً فى الساعة .

وكان الأمير الدرويش « محمود » قد أخذ يعبر النيل من « المتمة » إلى « شندى » للزحف على « بربر » . وفى أثناء ذلك كانت الأورطة الإنجليزية قد وصلت بالسكة الحديدية من وادى حلفا إلى محطة أبو ديس ، وكان الآلاى الإنجليزى الجديد مسلحًا ببنادق ذات مخزن للخرطوش من ماركة « لى متفورد Lee - Metford . وكانت هذه البنادق تمتاز ببعد مرماها ، ولكن رصاصها كان قطره صغيراً بحيث لا يحدث فيمن

يصيبهم إلا ثقوباً صغاراً ، ومن ثمة كان من المشكوك فيه أن تصد اندفاع الهجمات التى اشتهر بها الدراويش ، ولكى يمكن تدارك هذا العيب ، عكف بعض رجال اللواء الإنجليزى على تجويف الرصاص من الطرف المدبب إلى عمق نصف بوصة ، وأجريت التجارب على القذائف ، فدلت على أنها - بفضل هذا التجويف - تنفجر كالشمسية عند الاصطدام بأى جسم ، فتحدث به ثقبًا واسعًا يحقق الإصابة المطلوبة ، ولم تلبث أن عمت هذه التجربة سائر الفرق الإنجليزية ، حتى تم إعداد مليون رصاصة من هذا القبيل ، لتستعملها الجنود الإنجليزية بقيادة الجنرال جاتاكر ، فى معركتهم القادمة ضد الدراويش .

بهذا الرصاص الذى صار معروفًا باسم « دم دم Dum Dum » وهو الذى استنكرت استعماله بعد ذلك سائر الأمم المتمدينة ، قابل جيش الجنرال جاتاكر تحت القيادة العليا للسردار كتشنر جيوش الدراويش بقيادة القائدين الأمير محمود وعثمان دقنه أمام عطبرة . وقد انجلت المعركة كما هو المنتظر عن اندحار الدراويش تاركين وراءهم ٣٠٠٠ قتيل و ٢٠٠٠ جريح ، لا يرجى لمعظمهم البرء من جراحهم ، وكان الأمير « محمود » قائدهم من الأسرى الذين بلغ عددهم الألفين ، وإذا كان ما يقرب من نصف جيش الدراويش قد نجوا بحياتهم ومنهم القائد الكردى الأصل عثمان دقنه المغوار المكار ، فإن الكثيرين منهم لن يعيدوا بعدها الكرة أمام هذا الذى واجهوه من المدافع الثقيلة والمدافع السريعة ، وبخاصة أمام ما يستعمله الإنجليز من رصاص « دم دم» الممزق الفتاك .

وقد كان الخليفة التعايشى يتلقى أنباء الهزائم واحدة بعد الأخرى ، رابط الجأش ، لا يبدو عليه التخاذل والجزع، وكان لا يقبل العزاء فى من ينعى إليه من الأنصار ، لأنهم قد استشهدوا ، وحقهم أن يحسدوا على سبقهم إلى جنة الأبرار . فلما انتهت موقعة عطبرة إلى ما انتهت إليه من الهزيمة المنكرة ، وعاد القائد عثمان دقنه بعد الاندحار إلى أم درمان عاصمة الخليفة ، سأله الخليفة سؤال من يتجاهل الأخبار :

« وما وراءك ، وكيف حال الأنصار ؟ » .

فأجابه على جارى العادة ، وإن جاء جوابه هذه المرة شديد الاختصار :

« سيدى قُدْت الأنصار إلى الجنة » . ولم تكن هذه بالمرة الأولى التى يسمع فيها الخليفة أخبار الهزائم تصاغ على هذه الصورة ، ولكنه فى هذه المرة لم يتمالك أن راجع قائده بما يحمل معنى التعريض به : « ولماذا لم تلحق بهم إلى الجنة ؟ ».

ولكن عثمان دقنه فى سعة مكره وسرعة بديهته لم يفته أن يقول فى خشوع المؤمن :

« لم يأذن الله بعد ، ولعله سبحانه وتعالى ادخرنى لعمل مهم سأقوم به » .

ثم لم يزد على هذا تاركًا للخليفة أن يدرك ما وراء هذا القول المختصر من الهول المنتظر .

والواقع أن المعركة التى دار عليها هذا الحوار بين الخليفة القاسى الجبار وقائده الكردى المغوار المكار ، كانت معركة حاسمة فى كسرها جيش الأنصار شر كسرة، ولكنها لم تكن بالمعركة الأخيرة القاضية .

سقوط عاصمة المهدى

وانتقام كتشنر لمواطنه غوردون

كان بعض المتفائلين من الإنجليز يذهب بهم الظن إلى أن الخليفة « عبد الله التعايشى » سيلقى سلاحه ويعلن التسليم ، بعد ما ثبت له ثبوت اليقين ، أن آلة الحرب التى يواجهها لا قبل له بها ، ولا سبيل إلى قهرها . ولكن كتشنر لم يكن بالذى يحسن الظن ، فلم يلق إلى هؤلاء بالاً ، ومضى يتخذ الأهبة للزحف الأخير .

وكان كتشنر فى ذلك على حق ، فإن « أم درمان » عاصمة المهدى كانت حتى اليوم كالحرم القدسى لم يمسسه أجنبى ، وما من أحد انتهك أسوارها ، ولا رصاصة خدشت طين جدارها ، إنها قلب المهدية ، والكعبة التى يحج إليها الأنصار حجّهم إلى أقدس مزار[1] ، إلى قبر المهدى القائم هنا فى أم درمان رمزاً للثورة ، ومناراً يذكى حماسة الثوار ، فهيهات هيهات تسليمها للكفار ، إلا أن يستشهد دونها عشرات الألوف من المؤمنين الأبرار .

وكانت الأخبار قد تسربت إلى العاصمة بما تعرض له الأنصار من انكسار يتلوه انكسار ، والخليفة يشدهم إليه ويمنع انصرافهم عنه ، ويجبر ما تصدع من إيمانهم فيه ، بما يرويه من هبوط الوحى عليه ، وما يكاشف به فى المنام من الرؤى

---

(١) كان الحج إلى الحرمين ممنوعاً فى دولة المهدى ، خوفاً على تعاليمه من الضياع .

والأحلام ، وفى هذا جميعه الوعد الحق بتعزيز جنده بجند من الملائكة ، بيد أن التعايشى إلى جانب دعواه فى الاتصالات العلوية والرؤى والمنامات ، كان يعتمد على ما تجهز به من تحصينات كان وراءها ٦٤٠٠٠ مقاتل ، أما السردار فلم يدع - من جانبه هو الآخر - جهداً إلا بذله فى توفير الرجال والذخيرة والمراكب الحربية ، وبالجملة تعهد آلة الحرب وصقلها وتشحيمها ، وزيادة قطعها ، وسائر ما يتصل بها فى دقيقه وجليله ، حتى حار كاتبو سيرة كتشنر عند الكتابة عنه : أيكتبون سيرة رجل قتال ، أم رجال أعمال ؟

وكانت الحكومة البريطانية قد قررت فى يولية إمداد السردار بآلاى كامل آخر ومعه الفرسان والمدفعية ، فضلا عن المهندسين والفرق الطبية ، بحيث بلغ عددهم ٧٥٠٠ ، كما زيدت القوات المصرية إلى ١٢٥٠٠ عدا ٢٥٠٠ من العربان الموالين من عرب العبايدة والجعليين والجمعيات والمسلمية والشكرية والشايقية والبطاحين وغيرهم، وعلى ذلك يمكن تقدير الحملة بنحو ٢٢٠٠٠ على أقل تقدير ، وكانت الأمداد تصل بالسكة الحديدية حتى الشلال ، ثم تحملها البواخر إلى وادى حلفا ، ثم يكون نقلها بالسكة الحديدية من طريق أبو حمد إلى العطبرة .

وفى أغسطس تقدم كتشنر كعادته فى خطى ثابتة غير متعجلة ، بجيوشه المصرية والإنجليزية بمعداتها ، والمراكب الحربية تتقدم فى النيل ، والعربان الموالية تسير براً فى الشرق بحذائها حتى بلغوا «عجيجة » على ستة أميال شمالى أم درمان عاصمة المهدى ، ولم يفت السردار أن يبعث إلى الخليفة فى أغسطس كتاباً على سبيل الإنذار.

وفى أول سبتمبر عندما أصبحت الحملة المصرية الإنجليزية على مرمى النار، ظهرت البوادر الدالة على وجود الدراويش ، وإذا بهم قد أقبلوا من المدينة حشوداً حاشدة لا تقل عن الخمسين ألفًا وقد تزيد ، و تتابعت صفوفها فى موكب هائل ، ثم وقفت وانتهى العرض وأخذت مواضعها ، وكان السردار قد اختار لقواته موقعًا على ارتفاع قليل على مقربة من « تل كربرى » شمالاً ، وجبل ضرغام جنوبًا ، ومن وراء

هذا الموقع ينبسط النيل متسعًا عريضًا ، بحيث يكون المعسكر على شكل هلال يعتمد طرفاه على النيل تحت حماية المراكب الحربية . وقد تعمدت المراكب الحربية فى ذلك اليوم أن تدور حول جزيرة « توتى » الصغيرة ، وتطلق بعض القنابل من مدافعها على قبة ضريح المهدى البيضاء ، فى وسط المدينة ، رغبة فى تقويض الاعتقاد عند المهدية فى سره القدسى وقوته الروحية .

وفى اليوم التالى وهو الثانى من سبتمبر ، فى منتصف الساعة الرابعة صباحًا ارتفع نداء التفير فى الفجر إيذانًا بتوقع الهجوم . وفى الساعة السادسة والدقيقة الأربعين ، سمع لجب الدراويش ، وعلى أثره لاحت راياتهم خضرًا وسودًا وبيضًا وزرقًا ، وظهر تحتها حشد هائل يبدو من عدد الرايات أنه خمسة فيالق ، وسمعوا يكبرون : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وتقدم أمراء الجيش وشيوخه ، واختار فرسان البقارة على ظهور الخيل أمام المشاة ، وعندها أطلقت الحملة المصرية الإنجليزية نيران المدفعية ، وبدأت المعركة . ولم يقصر الدراويش فى إطلاق ما لديهم من مدافع كانوا غنموها فى ثورتهم ضد الإنجليز ، كما أن استعمال الإنجليز رصاص «دم دم » الفتاك ، كان يفتك بالدراويش فتكًا ذريعًا ، وكانت لهذا الرصاص ميزة أخرى ، وهى أنه لا دخان له ، فكانت الرؤية جلية لإصابة الرمية . وكان الدراويش تتهاوى صفوفهم الأمامية ، فيحل محلها على الفور من كانوا وراءها ، وهكذا كانوا يتساقطون أكداسا على أكداس فوق ساحة الحرب التى أصبحت بيضاء بما يغطيها من صرعى الدراويش فى بياض ثيابهم الملطخة بالدماء ، وكان مشاتهم فى قتالهم الفرسان الإنجليز يعمدون إلى إصابة عرقوب الفرس ، حتى إذا أكب الفرس طعنوا الفارس بحرابهم. وقد كان هجوم الدراويش أول الأمر منصبًا كله على الفرق الإنجليزية ، ولكن حر النار من المدافع الحديثة ورصاص « دم دم » ما لبث أن حولهم إلى القوات الأخر . وكان فرسان قبائل البقارة يهجمون بخيولهم المسرعة وسيوفهم المصلتة أو حرابهم المشرعة، ولا يتراجعون ، فإذا توقف هجومهم لم يكن لذلك سبب إلا أنهم قد بادوا عن آخرهم .

لقد أبلى قادة الدراويش جميعًا بلاء حسنا ، ومع ذلك دارت الدائرة عليهم، فقد كانت المعركة بين العلم الحديث والجهل القديم ، وفيما عدا ذلك ، لم يكن هنالك فارق بين المغلوب والغالب ، من حيث روح التضحية وحسن البلاء فى القتال .

وانجلت هذه الوقعة الهائلة ، وعلى الرمال من صرعى الدراويش نحو من ١١٠٠٠ قتيل و ١٦٠٠٠ جريح أى نحو ٢٧٠٠٠ من مجموع جيش الخليفة وعدته ٥٢٠٠٠ ، أما الباقون فقد فروا هائمين على وجوههم ، حتى الخليفة التعايشى نفسه فر برأسه غير مفكر فى الارتداد إلى داخل أسوار العاصمة والتحصن خلفها لمواصلة الدفاع .

وهكذا سجل التاريخ أنه فى اليوم الثانى من سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، فى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، بعد معركة دامت خمس ساعات ، سقطت الدولة المهدية فى السودان .

وفى ذلك اليوم نفسه فى الساعة الثانية بعد الظهر ، دخل كتشنر أم درمان . أو على الأصح أطلال أم درمان ، ومعه أركان حربه ، وبعض فيالقه وممثلون للفيالق الأخر ، ومن وراء ظهره علم الخليفة الأسود ، وهنا أصدر كتشنر تعليماته فى شأن قبر المهدى الذى حطمت القنابل بالأمس قبته العالية . فأمر بهدم القبر ، وإخراج رفات المهدى منه ، وإحراقها فيما عدا رأسها فى موقد إحدى البواخر النيلية ، والإلقاء بالرماد فى النيل ، وأما الرأس فقد صنع الإنجليز به ما صنع الدراويش برأس غوردون ، أنها جزت ، وكما قضت تعليمات كتشنر أرسلت إلى متحف الأنثروبولوجى فى لندن .

وبعد يومين ، وكان يوم الأحد الرابع من سبتمبر ، عبر كتشنر النيل إلى الخرطوم، حيث توجه توًا إلى ما بقى من سراى غوردون . فأقيمت أمام خرائبها المظللة بالنخيل صلاة دينية على روحه ، وكان القداس فى الموضع نفسه الذى كان فيه مصرعه ، وشهد الصلاة ممثلون لمختلف فرق الحملة ، وقد تقدمهم أركان الحرب ، وأربع قساوسة من جميع الطوائف . وفى وسط الجميع كانْ كتشنر واقفًا فى خشوع

يشوبه شيء من الرضا والقنوع ، لقد انتقم كتشنر لمواطنه غوردون ، وعلى أثر إشارة من كتشنر ، خفقت راية فى أعلى هذا البيت المتهدم ، بيت حاكم السودان القديم، لقد رفع العلم البريطانى ، ثم رفع من بعده العلم المصرى ، ومع رفع العلمين سمع عزف النشيدين الإنجليزى والمصرى . وهكذا كان إعلان الحكم الثنائى ، إعلانه على حقيقته من حيث الترتيب والتعقيب .

ولعل خير ما نذكره هنا هو هذه الأبيات التى قالها حافظ ، وهو يذكر ما أحسه حين طالعه العلمان الإنجليزى والمصرى فى مدينة الخرطوم . إن الذى أحسه الشاعر نجده هنا محسوسًا ملموسًا ، فى نغمة الأسى ذات الرنة المضاعفة ، فى هذه الأبيات التى تقرن أسى الشاعر على مصر إلى أساه على السودان ، كما اقترن العلمان على سراى الحاكم العام فى ذلك الأوان ، ونحن قبل أن نورد الأبيات الحزينة الأليمة ، نحمد إلى الله أبطال عهدنا الحاضر ، على ما بذلوه من الجهد المؤيد الظافر، الذى انتهى إلى تغير تلك الحال الموصوفة ، إلى الخاتمة السعيدة المعروفة، التى تحقق بها فى مصر والسودان زوال الاحتلال عنهما، وكمال الاستقلال لكل منهما ، وقيام الأخوة العربية الموثقة الأواصر بينهما[1].

رويدك حتى يخفق العلمان — وتنظر ما يجرى به الفتيان
فما مصر كالسودان لقمة جائع — ولكنها مرهونة بأوان
وأكبر ظنى أن يوم جلائهم — ويوم نشور الخلق مقترنان

---

(١) تحقق للسودان استقلاله فى أول يناير سنة ١٩٥٦ وانضم فى ١٩ من يناير إلى الجامعة العربية.

الاستعمار الإنجليزى فى خطر

الفتنة المصرية السودانية فى الخرطوم

تقدم بنا كيف تم انتصار الحملة المصرية بقيادة كتشنر على الدراويش فى السودان، بسقوط أم درمان عاصمة المهدية فى الثانى من سبتمبر عام ١٨٩٨ ، وبعد يومين أى فى الرابع منه كان دخول الخرطوم . ولما كان الخليفة عبد الله التعايشى قد اختفى بعد المعركة الأخيرة ، فقد استمرت مطاردته حتى ظفرت به فى ٢٤ نوفمبر حملة بقيادة السير رجينالد ونجت وكيل السردار عند بلدة « جديد » . فاستقبل الخليفة الموت – ومعه صحبه – بجنان ثابت حين أحس بالنهاية المحتومة ، فقد مد الخليفة فروة على الأرض وجلس عليها ، ومن حوله جلس أمراؤه عن يمينه وشماله ، وهنا استقبلوا مصرعهم دون أن يجفلوا .

ولم يلبث السردار بعد ما أحرزه من انتصار أن استقل وأركان حربه البواخر النيلية من أم درمان فى ٣ من أكتوبر إلى العطبرة ، ثم السكة الحديدية إلى حلفا، ومن حلفا استقل باخرة نيلية إلى أسوان ، ثم السكة الحديدية إلى القاهرة حيث كان وصوله إليها فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٩٨ ، أى أن الرحالة لم تستغرق غير ثلاثة أيام ، وهى أقصر مدة عرفت إذ ذاك .

وأكبر الظن عندنا ، وقد انتهت عمليات القتال ، ووضعت الحرب أوزارها ، واستؤنفت المواصلات بين شرقى السودان ووسطه ، أنه فى ذلك الأوان كان صدور الأمر بنقل حافظ – مع من نقلوا – من الأطراف النائية ، إلى الخرطوم فى أوائل سنة ١٨٩٩ .

ولا تخال أن هذا النقل كانت تقوم أمامه أية صعوبة الآن ، إذ إنه من غير المعقول أن يظل ما حدث ، فى يوم من الأيام ، من غضب كتشنر عليه مذكوراً عند السردار الجبار ، فى أثناء كل هذه الأحداث الجسام ، وبعد ما أحرزه من الانتصار واكتسب لنفسه من الفخار .

ولا شك أن حافظ وهو فى الخرطوم ، قد بدأت نفسه تأنس إلى الحياة فى السودان ، وكان على قول صديقه الأستاذ عبد العزيز البشرى يلازم فى السودان الأستاذ العلامة الشيخ الخضرى ، وربما اتصل كذلك بالأستاذ الشيخ عبد الوهاب وغيرهما ليأخذ منهم وينتفع بعلمهم وأدبهم ، كما كان يواصل الاجتماع بالزملاء من الضباط للحديث فى شئونهم الخاصة والشئون العامة ، مع غير قليل من الفكاهة والمنادرة ، والخوض فى الأدب وإنشاد ما يحضرهم من الأشعار ومنهم ما ينشده حافظ لنفسه .

ولما كانت الحال لا تخلو من وجود بعض الوجوه الوسيمة بين شباب الضباط، فإن الشاعر كان فى بعض الأحيان يحيى هذه الوجوه ببعض الأبيات مثل قوله :

ومن عجب أن قلدوك مهندا ... وفى كل لحظ منك سيف مهند

إذا أنت قد جردته أو غمدته ... قتلت به واللحظ لا يتعمد

ومن هذ القبيل أيضًا هذه الأبيات ، وهو يعرِّض فيها بما كان من حرص الإنجليز على تحريم الرق فى السودان مع احتلالهم لمصر .

ظبى الحمى بالله ما ضرَّكا ... إذا رأينا فى الكرى طيفكا

وما الذى تخشاه لو أنهم ... قالوا فلان قد غدا عبدكا ؟

قد حرموا الرق ولكنهم ... ما حرموا رق الهوى عندكا

وأَصبحت « مصر » مراحًا لهم ... وتلك أحشائى مراح لكا

ما كان سهلاً أن يروا نيلها ... لو أن فى أسيافنا لحظكا

وقد كان من اشتهار حافظ بالأدب وطلاقة اللسان وحسن البيان عند الضباط بالسودان أنه كان إذا عقد مجلس عسكرى لمحاكمة أحد الضباط ، انتخبه المتهمون للدفاع عنهم أمام هذا المجلس ، وهو عند القوم معروف باسم « محكمة الجيش » . وكانت هذه المحكمة تتألف من رئيس إنجليزى أو مصرى بحسب الظروف ، وسبعة أعضاء من الضباط المصريين والإنجليز ، وإلى جانب هؤلاء عضو يسمى نائب الأحكام، مهمته إرشاد المجلس إلى الموقف من الناحية القانونية المتبعة ، وهناك المدعى العمومى وهو ممثل الاتهام ، يقابله محامى المتهم الذى يتم اختياره بمعرفة المهتمين ، وقد كان لحافظ إبراهيم شرف اختيارهم له أكثر من مرة. ولقد روى حافظ إبراهيم للأستاذ طاهر الطناحى أن عدد القضايا العسكرية التى دافع عنها أمام محكمة الجيش تبلغ العشرين ، كان الحكم فيها كلها بالبراءة ، ما عدا قضية واحدة كانت التهمة المنسوبة فيها إلى المتهم هى القتل ، وقد اعترف المتهم بالتهمة مراراً فلم يبق من وسيلة لتبرئته .

ونحن إذا ذكرنا ما كان لحافظ قبل وفوده على السودان من مزاولة المحاماة فى طنطا بضع سنوات ، لم يداخلنا أدنى شك فيما يقوله حافظ عن نفسه فى حسن بلائه فى هذا الميدان ، فى أثناء وجوده فى السودان .

وقد حدث فى أواخر سنة ١٨٩٩ - فى أثناء وجود حافظ فى السودان - أن نشبت ثورة البوير على الإنجليز فى الترنسفال فى جنوب إفريقيا ، فاستخفت الحكومة البريطانية بأمرها، وظنت أن جنودها هنالك قادرون بين عشية وضحاها على سحقها . فإذا الإنجليز تتوالى عليهم الهزائم واحدة بعد أخرى .

وعلى أثر هذه الهزائم فى الترنسفال ، قررت الحكومة البريطانية أن توفد إليه قائداً من أقدر قوادها الذين أثبتوا حسن البلاء فى إخماد الثورة فى الهند . وهو اللورد روبرتس ، وأرسلت له بذلك برقية فى ١٨ من ديسمبر ١٨٩٩ . وقبل أن يسافر اللورد إلى ميدان الحرب فى الترنسفال أرسل إلى كتشنر يعرض عليه أن يعمل معه رئيساً لأركان حربه ، فلم يتردد كتشنر فى قبول الدعوة ، واستقل الباخرة من

الخرطوم فى الحال ، وفى ٢٣ ديسمبر كان فى الإسكندرية فى طريقه للحاق بقائده الأعلى لمواجهة الأهوال معًا فى حرب الترنسفال .

وقد خلفه وكيله السير ريجنالد ونجت سردارا للجيش المصرى ، وحاكمًا عامًا على السودان .

وبينما كان السردار ونجت بالقاهرة ، وردت عليه برقية بقيام فتنة من بعض الفرق السودانية وضباطها ، ولما كانت هذه البرقية وموضوع فحواها من الأمور التى لا تشير إليها المؤلفات العامة فى التاريخ ، فقد عنينا بالرجوع إلى المذكرات التاريخية ورسائل التاريخ الخاص، وفيما يلى ما تيسر لنا جمعه فى هذا الشأن :

كان أول ما رجعنا إليه من المراجع ما كتبه الفرنسيون فى تاريخ مصر الحديث، بحكم العداء التقليدى بين السياسة الإنجليزية والفرنسية ، لما كان قائمًا بين الدولتين من التنافس على النفوذ فى الشرق ، ولقد وقعنا على ما كنا ننشده عند المؤرخ الفرنسى ليون برهيبه فى كتابه « مصر بين عام ١٧٩٨ وعام ١٩٠٠ » فقد وردت فيه فقرة عن هذه الفتنة التى خنقت فى مهدها ولم يطل أجلها ، وهذه ترجمتها :

« بعد انتصارات كهذه ، كان يمكن أن يبدو فتح السودان راسخ الأساس وطيد الأركان ، ولكن أحداثًا ليست فى الحسبان ، أثارت المخاوف عند الساسة الإنجليز، واستلزمت منهم اتخاذ المزيد من التدابير . لقد نشبت حرب الترنسفال ، فاضطر الإنجليز إلى تخفيض جيش الاحتلال فى مصر ، وحرمان السودان من فاتحها ذى الجبروت والسلطان ، فقد كان لزامًا على كتشنر أن يبادر إلى مدينة الكاب ، ليكون إلى جانب الفيلد مارشال روبرتس رئيسًا لأركان حربه ، فإذا خلفه حاكم السودان العام السردار ونجت يشتبك مع أورطة سودانية متمردة لم يطق بعض ضباطها وصفّ ضباطها صبرًا على قيادة ضباطهم الإنجليز الذين كان معظمهم دونهم سنًا . وعندما ظهرت بوادر العصيان صدرت الأوامر بتجريد أورطتين من السلاح وتسليمهم الذخيرة ، ولكن الجنود اقتحموا مخازنها واستردوها . فاستدعى الأمر

تجريدهم من السلاح ثانية ، وكان من معقبات هذا البدء فى التمرد الحكم بتنزيل رتبة البعض من الضباط ، وأن يستبدل بالحامية غيرها فى فبراير سنة ١٩٠٠ ».

وبعد هذا تحولنا إلى المؤرخين الإنجليز الذين كتبوا تاريخ مصر فى هذه الحقبة فألفيناها خالية مما ننشده ، واتجه تفكيرنا على الفور إلى كتاب « مصر الحديثة » للورد كرومر ، وهو أوفى تقرير عن أحداث مصر وأحوالها فى ذلك الأوان من وجهة نظر المعتمد البريطانى ، وما كان أشد عجبنا حين لم نجد فيه إشارة إلى هذه الفتنة، كما لم يرد ذكر للخديوى عباس حلمى نفسه وهو الذى وقعت الفتنة فى عهده . ولكن إغفال كرومر لذكر الخديوى فى كتابه الكبير ، ألهمنا الاتجاه إلى كتابه الصغير الذى أفرده للكلام عن صاحبه اللدود « عباس الثانى » فوقعنا فى ختامه على الضالة المنشودة ، وفيما يلى ترجمتها :

« عندما شبت الحرب فى جنوبى إفريقيا ، استدعى الأمر عودة الكثيرين من خبرة الضباط البريطانيين الذين كانوا يتولون قيادة الفرق السودانية فى الجيش المصرى ، المرابط فى السودان ، إلى فرقهم الأصلية فى الجيش البريطانى ، ونظراً لبعض الملابسات التى لا حاجة بى إلى ذكر تفصيلاتها والتى ما كانت لتقع لو لم يضطر هؤلاء الضباط المحنكون إلى السفر ، حدث أن عم استياء فى الجيش ، وجاهرت فرق من الفرق السودانية بالعصيان ، وقد تواترت الإشاعة بأن الخديوى قال أقوالاً تجعل الثائرين يعتقدون أنه راض عنهم عاطف عليهم . على أن الثورة أخمدت دون إراقة دماء ، وحوكم عدد من زعماء الفتنة أمام المجالس العسكرية ، وحكم عليهم بالسجن مدداً مختلفة ، وأرسلوا إلى القاهرة ليقضوها بها .

ولما حادثت الخديوى فى هذه المسألة ، رأيت من المستحسن أن أتجاهل ما كان يقال عن أنه ضالع مع المتمردين ، لأنه كان من المتعذر - وربما من المستحيل - إقامة الدليل القاطع عليه . واقتصرت فى حديثى على وصف ما أظهره بعض جنوده من الخروج الخطير عن طاعته والوقوف فى وجهه ، واقترحت عليه أن يرى المحكوم عليهم ، ويخاطبهم بكلمات اخترتها وعربتها له . فوجد الخديوى نفسه فى مأزق حرج

وموقف لا يدرى كيف يخرج منه ، لأن الرفض والقبول غير مستساغ عنده ، فهو إذا رفض يعرض نفسه للشبهة فى أنه حرض على الثورة فى جيشه ، كما فعل جده من قبله . وإذا قبل يتضح للثائرين أن لا أمل لهم فى مساعدة ذات شأن من جانبه ، وبذلك يفقد كثيراً من نفوذه السيئ فى الجيش . وفى آخر الأمر ، لم يكن من الخديوى – كما كنت أتوقع – إلا أن اختار الأمر الأخير ».

أما المراجع العربية فقد أحصينا فيما يلى ما وقعنا عليه فيها :

جاء فى مذكرات أحمد شفيق :

« فى ٢٨ من يناير سنة ١٩٠٠ ، حضر إلى السراى ونجت باشا ، فأبلغ الخديوى عزمه على السفر سريعاً إلى السودان نظراً لتمرد أورطتين فى الجيش ، على أثر صدور أمر مكسويل باشا نائب الحاكم العام بتجريد الجيش من سلاحه ، فأبت الأورطتان إطاعة هذا الأمر لما فيه من المساس بكرامتها ودلاله على عدم الثقة بالجيش، وأنه قد أطلقت بعض الطلقات النارية وجرح بعض الجنود ، وقبض على بعض الضباط ، وأودعوا السجن . وقد أوصى الخديوى ونجت باشا باستعمال اللين فى معالجة المسألة ، لأن هذا التذمر وليد الشدة التى استعملت فى عهد السردار السابق كتشنر باشا ، فى أثناء حملة السودان ، مما أدى إلى إضمار الإحنة فى نفوس رجال الجيش ، وتواترت الإشاعات بعد ذلك ، وأخذ أنصار الاحتلال يهونون فى الموضوع قائلين : إن سبب العصيان هو تحريض الضباط المصريين فى الأورطتين لجنودهم على التمرد وعدم إطاعة الأوامر . وفى ١٠ من فبراير حضر للسراى رئيس النظار مصطفى فهمى باشا فى وزارته الثانية (١٢ نوفمبر ١٨٩٥ – ١٢ نوفمبر ١٩٠٨) لمباحثة الخديوى فى الموضوع على أثر برقية وردت له من السردار بأنه يحقق مع بعض الضباط المصريين الذين يظن أن لهم يداً فى الموضوع ، وأنه تم تسليم السلاح من بعض رجال الأورطتين بواسطة الضباط السودانيين منهما . وكانت المباحثات بين الخديوى ورئيس النظار تدور حول استصدار أمر عال من سموه باعتبار الضباط الذين تثبت عليهم التهمة عصاة متمردين مهددين لسلامة الجيش، ليكون

عقابهم شديداً رادعًا لغيرهم ، فأبى الخديوى عباس مع استشارة رجال معيته أن يلفق على ذلك لأن كل البرقيات التى وردت له من السردار لم تلق على أى ضابط مثل هذه التهمة الكبرى ، وكل ما يؤخذ منها أن بعضهم خالف أوامر رؤسائه ، وهؤلاء يحاكمون فقط حسب القانون العسكرى ، وانتهى البحث بإرسال برقية للسردار فيها ما يلى :

أولاً : إظهار الأسف من أن حالة التمرد التى ظهرت من بعض عساكر الجيش لم تحسم نهائياً .

ثانيًا : أن الجناب العالى أمل فى سعادة السردار أن يستعمل نهاية الحكمة فى تلافى المسألة ، والدقة الزائدة فى تحقيقها ، حتى لا تلقى المسئولية إلا على المسئولين الحقيقيين .

ثالثًا : أن الضباط الذين تثبت مخالفتهم لأوامر رؤسائهم يحاكمون أمام مجلس عسكرى عام طبقًا للقوانين العسكرية .

رابعًا : أنه إذا اقتضت الحال نشر أمر الخديوى هذا على الضباط والعساكر لدعوتهم إلى الطاعة والسكينة ، فلا بأس من أن يقوم السردار بذلك .

وأعرب سموه فى الختام عن أمله بألا يصل هذا الأمر إلى السردار حتى تكون المسألة قد انتهت بالحسنى ، وعادت العساكر إلى تمام الطاعة للرؤساء .

وفى ٢٤ من فبراير أرسل السردار برقية بقرار مجلس التأديب الذى شكل فى الخرطوم لمحاكمة المتمردين ، فإذا هو يقضى بطرد بعض الضباط المصريين من الخدمة ، وإحالة آخرين إلى الاستيداع ، وعقاب بعض الأومباشية بالطرد وبعضهم بخصم جزء من راتبه أو تنزيله إلى رتبة أقل ، فوافق مجلس النظار على هذا القرار فى جلسة ٥ مارس ، وأرسله للخديوى فى أثناء رحلته فى الصحراء الغربية فاعتمده.

وعلى أثر ذلك وردت إلى الخديوى رسالة من صحفى أجنبى فى ١٥ من مارس يظن أنه ألمانى مقيم فى مصر ومطلع على ما يجرى بها خفية وعلانية ، ولما قرأها سموّه تألم مما جاء فيها من القذف ، ونورد هنا ترجمة هذه الرسالة بنصها :

« إن الضباط الذين حوكموا أمام المجلس العسكرى السودانى ومعظم أعضائه من الإنجليز جديرون بشكر الوطن ، فإن ما قالوه وطالبوا به هو عين الحق والإنصاف، فقد طلبوا أن يعطوا نفس المرتبات التى يتقاضاها الضباط الإنجليز ، فلماذا لا يجاب طلبهم هذا ، وهل جلد المصرى أقل قيمة من جلد الإنجليزى ، وما هو الباعث على هذا التمييز ؟ وقالوا إن الإنجليز كسروا فى جنوب إفريقيا ، أفليس هذا صحيحًا ؟ وكيف يلامون إذن على ذلك ؟ وقالوا إن مقداراً من المدافع أرسل إلى الكاب من مصر وهى دولة محايدة وقد ملأ حديث هذه المدافع العالم بأسره ، فهل تظنون يا مولاى أن هذا الأمر مما يؤدى إلى توطيد عرشك ؟ كلا ، وسوف ترى فيما بعد أن الأمور تجرى على غير ما تريد ، لأن مصر لن تستطيع إلا أن تحترم حياد القتال ولو كره نظارك. وقال هؤلاء الضباط إن الذخائر الحربية أرسلت إلى الكاب مع ٢٠٠ مركبة من مركبات السكة الحديدية ، أليس هذا صحيحًا ؟ ذلك ما آلم الإنجليز لأنه أماط اللثام عن مكرهم وخبث طويتهم ، وأنت يا مولاى قد ذهبت بك الجرأة إلى الموافقة على كل ذلك ، وإنه لمن العار على أمير أن يعمل مثل هذا العمل غير ناظر إلى مصلحة بلاده ، ثم إن السردار الذى سلب مدافع المكسيم ، وسرق الذخائر الحربية المرسلة إلى مصر، ومركبات السكك الحديدية المصرية لا يزال فى منصبه ، ولم تفه أنت بكلمة ، إذن أنت ملك مزيف، ملك من الكرتون ، لقد قال الضباط إن سرقة المكسيم من الأمور الغريبة فى بابها ، وهذا ما قالته صحف العالم بأسره ، وأنت لم تفعل شيئًا لمعاقبة السارق ، وهذا ما يدل على أن الأمر تم بموافقتك ، ويلوح لى أنك وافقت على مكل هذه السرقات ، لأنك لم تتوسط الضباط للعفو عنهم ، وهناك مسألة الجندى الإنجليزى الذى قتل رئيسه وهو ضابط مصرى فإنه لم يعدم رميًا بالرصاص فى اليوم التالى لوقوع الجناية بحسب القانون ت، ولماذا هذا ؟ يقال إن هذا الجندى يمرح الآن على ضفاف التايمز ،

فما أجمل هذا ، ولا سيما أنك سمحت بأن يعدم رميًا بالرصاص جنديان سودانيان لأنهما هربا من الجندية فى وقت السلم ، وهذا ما يعد وصمة عار تلحقك مدى الحياة، وقد وقع هذا الأمر قبل حملة السودان التى جردت لمصلحة الإنجليز بأموال مصر ودمائها .

إنك تجهل السبب الذى حكم من أجله المجلس العسكرى الإنجليزى على هذين الجنديين المسكينين بالإعدام رميًا بالرصاص فى أيام السلم، ذلك أن الإنجليز كانوا على وشك افتتاح السودان ولم يكن أحد عارفًا بذلك ، فأرادوا أن يوردوا مثلاً بإعدام جندى فار من الجندية فى أيام السلم، ولكن أوروبا برُمّتها استنكرت مثلهم هذا . لقد شعروا فى المدة الأخيرة باحتياجهم إليك ، أو أنهم تظاهروا بذلك ، لاجتذاب الجنود السود إليهم ، فما هذا المكر ؟

لقد خدعوك يا مولاى يوم أكرهوك على حضور حفلة افتتاح البنك الذى أطلق عليه اسم « البنك الأهلى» . إن هذا يعد احتقاراً لك ، وقد ساقوك إلى هذه الحفلة كما يساق الخروف ، ورأيتهم بعينيك وأنت صامت يضعون تحت الحجر الأساسى ورقة تتضمن تاريخ إنشاء هذا البنك وهى مكتوبة باللغة الإنجليزية وليست بالعربية طبعًا ، ومع ذلك حضرت الحفلة مكرهًا ، لقد أصابت صحف برلين فى وصف هذه الحفلة على الصورة المتقدمة فى هذه الرسالة .

لا يخفى عليك يا مولاى أن الضباط الذين حوكموا وعوقبوا هم من صميم الوطنيين ، فإن دم الوطنية يجرى فى عروقهم ، وهم من خيرة الناس وأكثرهم جرأة وشجاعة كما قال عنهم إمبراطور ألمانيا ، نعم هم من الشجعان ، ولم يحسبوا للإنجليز حسابًا ، وسيكونون فى الأيام المقبلة خير أداة لإحياء مصر وإنهاضها : نعم ؛ إن الدم الذى يجرى فى عروق هؤلاء الشجعان، إنما هو دم كريم طاهر ، وأنا أؤكد لك أن مائتى رجل على مثالهم يكفون لتحرير مصر من نير الإنجليز .

لقد قال الضباط إن جنودنا السود سيقوا فى طريق البحر الأحمر ، فإلى أين يذهبون بغير ضباطهم ؟ وهم على حق فى سؤالهم هذا ، ولم يكادوا يلقون هذا السؤال حتى كتب تقرير فى حقهم باللغة الإنجليزية ، لأنهم أدوا الواجب المفروض عليهم، فما أجمل هذا العمل يا مولاى ، وما أحرى أن يقال عنه « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » .

ثم إن هناك أمراً آخر يستوقف النظر ، وهو أن المسمى « برش بك » من موظفى الداخلية متغيب فى إجازة ثلاثة أشهر ، وقد انقضت مدة إجازته ولم يعد بعد ، ثم إنه يتقاضى مرتبه من خزينة الحكومة الإنجليزية أى أنه يتقاضى مرتين اثنتين ، من الحكومتين المصرية والإنجليزية ، ولا غرو فالإنجليزى حاد الأسنان طويلها ، وفى اعتبارى أن هذا الضابط سيطلب من الحكومة المصرية إجازة مرضية ، وإنى مستعد أن أراهن على ذلك فأدفع مائة جنيه مقابل جنيه واحد .

لنفرض أن الضباط الذين عوقبوا يستحقون العقاب الذى حكم عليهم به ولكن ما قولكم فى السردار الذى تصرف فى مدافع مصر تصرف المالك فى ملكه ، وكيف تفسر أيها الأمير التعس حياد مصر ؟ وما هى فى اعتبارك قيمة هذا الحياد ؟ إن جميع صحف العالم تحدثت بهذا العمل الغريب مشيرة إلى حياد مصر ، وإلى الأسلوب الذى اتخذته مصر للاحتفاظ بحيادها هذا ، فما أجمل هذا الحياد الذى قد يفضى بصورته هذه إلى عواقب خطيرة ، وهو ما لا بد من وقوعه ، ومن يعِش يرَ.

إن أسماء هؤلاء الضباط ستنقش أيها الأمير على رغم أنفك فى صحائف من النحاس تخليداً لعملهم الوطنى الجليل ، لقد سلمت بمعاقبة ضباط كشفوا النقاب عن مبادئ الذين أقاموا نفوسهم محامين عنك ، وأعلنوا على رءوس الملأ أعمالهم السافلة، مبينين ما انطووا عليه من الخبث واللؤم وعدم الإنصاف ، إنه لمن العار عليك يا مولاى ألا تكون نطقت بكلمة احتجاجاً على سلب مصر مدافعها ، إنك لم تقل كلمة واحدة للسارق حتى جعلت أوروبا برمتها ، ولا سيما برلين تسخر منك وتحتقر عملك ، ووصفتك بملك الكرتون قائلة إنك من الممثلين المضحكين.

وعلاوة على ذلك فلى كلمة أخرى أقولها لك وهى أنه المؤلم أن نرى الموظفين المصريين ينتقلون من خدمة بلادهم إلى خدمة الإنجليز ، ثم يعودون بعد حين إلى خدمة مصر ، إن هذا لمن الأمور المخجلة المعيبة .

تذكر بلا ريب أنه لما مر الأسطول الإسبانى منذ بضعة أشهر فى القتال أبَى ولاة الأمور أن يزود بالفحم اللازم له ، فلماذا تسمح الآن للإنجليز بأخذ الفحم اللازم لهم من مصر ، وهم مشتركون فى حرب مع البوير ؟ أيقال إن حكومتك تكيل بمكيالين ؟ إن هذا غير معقول ، وليس بمثل هذا الأسلوب ينفذ نظام القتال ويحترم قانون حياده، ولعل ما يقال صحيح وهو أن هؤلاء من طينة وأولئك من طينة أخرى ، كم من المظالم والمحرمات يرتكبها هؤلاء الإنجليز فى هذه البلاد وأنت صامت ، وهذا ما يدل على أن كل ما يأتونه من الأعمال يتم بموافقتك وهو الأصح .

إن مسألة المدافع التى سرقت فضيحة كبرى ، ولا سيما أنك لم تعاقب السارق فى حين أنك سمحت بمعاقبة ضباط هم من صميم الوطن .

اذكر أيها الأمير هذا الأمر وأعمل الفكر فيه، وهو أن هؤلاء الضباط الخمسة سيعادون إلى رتبهم ، ويصلون إلى أرفع المناصب فى الدولة وأرقاها ، وأما أنت فالدول لن تهتم بشخصك وإنما هى تهتم بمصر ، فليس من المهم عندها أن تقتصر فى حياتك على الاحتفاظ بهذين الأمرين وهما الانصراف إلى الصلاة وحضور السباق، وستقص عليك جريدة المؤيد قصة طريفة يومًا عن السودان فيما يتعلق بالأعمال الغريبة التى يعملها الإنجليز هناك .

لقد قيل لى إن مدير الجمارك الإنجليزى يتقاضى مرتبًا قدره ٦٧٠٠٠ فرنك فى حين أن الوزير فى حكومة مصر لا يتقاضى سوى ٥٢٠٠٠ فرنك لأنه مصرى.

ومما يستوقف النظر أن السردار المصرى أدت غيرته إلى إرسال مدافع المكسيم الستة ليلاً وخالصة الأجرة ، بدليل أنه ليس فى دفاتر حساب السكة الحديدية أقل أثر للأجرة المفروضة عليها ، ولا للمحافظة التى شحنت هذه المدافع بمقتضاها ، ثم المائة

مركبة من مركبات السكة الحديدية التى أخذت ومصر محتاجة إليها كل الاحتياج لشحن البضائع ونقلها من مكان إلى آخر أليست هذه أيضاً جديرة بالذكر ».

وإلى جانب ما جاء فى مذكرات شفيق باشا نورد هذه الفقرة الموجزة فى صفحة ٣٣٣ من الطبعة الثالثة من كتاب « مصطفى كامل » للأستاذ عبد الرحمن الرافعى، وهذه الفقرة تلقاها المؤلف من أحد الضباط الذين حوكموا بتهمة الاشتراك فى الفتنة، وهو اليوزباشى محمود حلمى وقد صدر الحكم عليه بالإحالة على المعاش ، وهذا نص الفقرة :

« فى يناير سنة ١٩٠٠ حصل تمرد فى فرقتين بالجيش المصرى بالسودان على أثر حضور أمر نائب الحاكم العام بتجريد الجيش من سلاحه وذخيرته ، فأبت الفرقتان إطاعة هذا الأمر لما فيه من الامتهان لكرامتهما وعدم الثقة فى الجيش ، وقد سجن الضباط المتهمون بالتحريض على التمرد وأحيلوا إلى مجلس تحقيق لمحاكمتهم ، وانتهت المحاكمة بطرد سبعة من الضباط من خدمة الجيش وهم : اليوزباشى محمود أفندى مختار ، واليوزباشى حسن أفندى لبيب ، والملازمون الأول : مصطفى لطفى ، وصالح زكى ، ومحمد أفندى توفيق يوسف ، والملازمان الثانيان عبد الحميد شكرى ، وإدريس عبدالله ، وإحالة اليوزباشى محمود أفندى حلمى إلى المعاش ، والملازم ثانٍ أحمد شاكر إلى الاستيداع ، وتوبيخ الملازمين الثانيين عثمان عارف ومصطفى محمود الشامى ، وقد استحضرهم الخديوى وعنفهم على ما وقع منهم وأبدى تأييده للسردار ونجت باشا ».

ويلحظ القارئ أن عدد الذين حوكموا كما ورد فى هذا البيان سبعة فإذا استبعدنا منه الذين اكتفى الحكم بتوبيخهم ، كان العدد خمسة ، وهو مطابق لما ورد فى خطاب ذلك الألمانى المجهول إلى الخديوى عباس ، فضلاً عن أنه يتفق مع قول حافظ « فى ليالى سطيح » إن المحقق الإنجليزى حين بالغ فى عدد المتهمين فجعلهم ثمانين ، طلب إليه الضابط الكبير أن يضرب على هذه الأسماء المعروضة بالقداح ، وألا يجاوز القداح أنامل الكفين عدداً ، وهذا ينطبق على كونهم سبعة بما فيهم

المحكوم عليهم بالتوبيخ ، وخمسة من غيرهم ، ولكن هذه الأقوال جميعًا لا تتفق مع قول القائل إنهم ثمانية عشر سواء أكان منهم حافظ ، أم كان مضافًا إليهم .

بيد أننى لم أهتم بعد اطمئنانى إلى هذه النتيجة ، أن وقفت دهشًا أمام هذا الثبت الذى قدمه اليوزباشى محمود حلمى بأسماء الضباط المصريين المتهمين معه بالتحريض على الفتنة فى حادثة الذخيرة بالسودان لعدم ورود اسم حافظ إبراهيم فى عدادهم ، مع ما يلاحظ فى البيان من شموله حتى الذين صدر عليهم الحكم بالتوبيخ. وقد كان من أثر ذلك أن ساورنى الشك فيما يتنقله جميع من قرأت له من الكاتبين ، من قولهم إن حافظ كان له الشرف أن يكون ضمن هؤلاء المتهمين .

عندها ذكرت حديثًا للأستاذ سلامة موسى مع حافظ إبراهيم ، كان قد نشره فى مجلة « الهلال » فرجعت إليه فى عدد يونية سنة ١٩٢٤ فإذا بالكاتب لم يشر إلى هذه الفتنة إطلاقًا ، بل ورد فى غضون ثنائه على حافظ قوله :

« إنه كانت هناك خطة إنجليزية بإبقاء حافظ فى السودان بعيداً عن الحركة الوطنية فى مصر ، ومن أجل ذلك لم يوفق الأستاذ الإمام محمد عبده فى مسعاه لنقله إلى مصر استجابة لشكواه ، ولكن التوفيق قضى بعد ذلك أن يجد حافظ حظوه فى عين رئيسه الإنجليزى فى السودان ، وكان هذا الرئيس جديداً لم يدر بتلك الخطة الإنجليزية ، فلما طلب إليه حافظ أن يستقيل أقاله ».

وهذا الكلام سواء أكان من عنديات سلامة موسى أم نقلاً عن غيره فإنه منقوض من أصله وذلك لسبب واحد ، وهو أن حافظ لم تكن له كل هذه الشهرة بالوطنية عام ١٩٠٠ ، وإنما بدت هذه الشهرة بعد عودته من السودان على أثر الفتنة .

فلم يبق لى إذن للتغلب على هذا الشك إلا أن أعود إلى المصدر الأول الذى يرجع إليه – فيما أعتقد – القول السائد بأن حافظ كان متهمًا فى الفتنة مع ضباط آخرين من رفاقه وعددهم ثمانية عشر من المصريين ، وهو الأستاذ داود بركات محرر الأهرام الذى كان ولا ريب من المحيطين بدخائل الأمور ، لاتصاله بحكم عمله بمختلف الدوائر الرسمية والأوساط المصرية والإنجليزية ، وهذا نص قوله :

« وعرفت حافظ فى أواخر سنة ١٨٩٩ ، وقد جاء من السودان أو بالأحرى جيء به من حيث كان ضابطًا فى الطوبجية (المدافع) بتهمة التآمر ورفاقه الضباط الثمانية عشر مع الخديوى عباس باشا الثانى ومكاتبته سرًا بعد افتتاح الخرطوم . عرفته وشوقى يقدمه لصاحب « الأهرام » كاتبًا وشاعرًا ليتولى عملاً بالأهرام ، لأن حافظ ورفاقه أحيلوا إلى الاستيداع بطلب اللورد كرومر وكيل الدولة الإنجليزية ، وكان يطلب من الخديوى فوق ذلك إعلان استنكار عملهم ، والخديوى يماطل ويتردد، فلما أحيلوا إلى المعاش اهتم الخديوى بأمرهم ليجدوا مرتزقهم ».

وهذا الذى جاء ذكره على لسان داود بركات ينفى ما انفرد بقوله سلامه موسى، ويتفق فى جوهره مع جميع المصادر الأُخَر ، ومنها مصدران رسميان على ما بينهما من اختلاف المنازع وهما اللورد كرومر المعتمد البريطانى وأحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى .

ولا بأس على ما فى بيان داود بركات من ارتفاعه بعدد الضباط المتهمين إلى ثمانية عشر يضاف إليهم حافظ إبراهيم ، فإن كرومر فى بيانه يقرر أن الذين حوكموا هم عدد من الزعماء لا الزعماء كلهم ، أما الباقون فقد كان تسريحهم من غير محاكمة، فلماذا يمنع أن يكون حافظ إبراهم من هؤلاء ؟ ثم إننا إذا رجعنا إلى « ليالى سطيح » ألفينا حافظ إبراهيم نفسه يقول فى تقديمه لقصة هذه الثورة :

« إنى أقص عليكما من أنباء الثورة ، فقد حضرت أولها ، وعلمت بآخرها ».

وعلى ذلك لا يكون هنالك وجه للاعتراض على ما يقرره داود بركات من أن حافظ كان مشتركًا فى الفتنة السودانية ، وأن عودته إلى الوطن كانت فى أواخر سنة ١٨٩٩.

وما دام حافظ لم يحاكم ، فليس هناك ما يمنع من أن يكون قد عاد إلى وطنه أواخر سنة ١٨٩٩ كما يقول داود بركات ، وتكون إحالته على الاستيداع فى ٣ من مايو سنة ١٩٠٠ ، كما هو وارد فى السجلات الرسمية .

وسيان كان حافظ إبراهيم قد عاد إلى وطنه فى أواخر ١٨٩٩ أو بعد إحالته إلى الاستيداع فى ٣ من مايو سنة ١٩٠٠ ، فإن المحقق أنه عند عودته اختار لنفسه حرفة الأدب ، وعاش فى القاهرة حياة الأدباء البوهيميين بعد أن حال وقتئذ شاعر القصر أحمد شوقى دونه والمشاركة فى هذا المنصب ، ولو فى طبقة دون طبقته .

فى هذه الضائقة احتمى حافظ بالأستاذ محمد عبده ولزم مجلسه وعرف هنالك أكثر من عرف من رجالات مصر وقتئذ مثل سعد زغلول وقاسم أمين واللقانى ، وخاصة سليمان باشا أباظة أحد وزراء العارف السابقين وعميد الأسرة الأباظية ، وكان أديبًا شاعرًا فقرب إليه حافظ وأفاء عليه من كرمه وعطفه ، وعنه اتصل بالأسرة كلها : ولكن الذى يقرأ مدائح حافظ ومراثيه لا يخطئ تفوق حافظ على نفسه فى مدائحه للأستاذ الإمام ورثائه له مما يدل على أنه كان حصنه من الأعداء ، وملاذه من الشدة والفاقة ، وأستاذه فى الأدب والحكمة ، ولقد كانت صحبتهما مثارًا للعجب لما عرف من الإمام من الجد والزهد ، وما اشتهر به حافظ فى مجالسته الخاصة من ميل إلى بعض اللهو والمجون ، وقد سئل حافظ عن هذه الصحبة النادرة ، فروى عنها من النوادر كثيرًا ، ومنها قوله :

كان الشيخ محمد عبده يقول لى : « صحبتك عشر سنين فما أمكنك أن تضلنى ، وما أمكننى أن أهديك » . وكان لى خصوم ينفسون علىّ صحبتى له ، ويغارون من حبه لى ، ويذكرون عنى إكبابى على الشراب والقمار ، فكان يقوله لهم : « ما صادقته لكى أجد فيه شيخًا للإسلام أو عالمًا دينيًا » .

ولما سئل حافظ « وكيف بدأ التعارف بينكما ، ثم كيف اتصلت المودة ؟ » قال : « لا أتذكر ذلك على وجه التحقيق ، وإنما أتذكر لأنه كان يعجب بنثرى ، وكنت راوية لا أفتر عن ذكر الأشعار ونوادر الأدباء ، وكنت أيام شبابى أميل إلى الدعابة والفكاهة، فكان يأنس إلى حديثى » .

ولما مات الإمام محمد عبده عام ١٩٠٥ ظل حافظ يعيش فى ظل من عرفهم من أصحابه ومريديه . وقد أخذ منذ مأساة دنشواى يجرفه التيار الشعبى إلى معالجة الكتابة فى السياسة كما فعل فى « ليالى سطيح » ، ثم زاد انطلاقًا فى نظم الشعر السياسى الحماسى .

حافظ ينقل الثورة إلى القاهرة

ليالى سطيح والإنجليز

لا نعرف لشاعر النيل حافظ إبراهيم مصنفًا فى النثر من تأليفه غير « ليالى سطيح » . والقارئ لهذا الكتاب يحس فيه زحمة التجارب الشخصية التى كان الكتاب ثمرتها ، فلقد تناول المؤلف فى كتابه كل ما يشغل معاصريه من الموضوعات الاجتماعية والأدبية ، وبخاصة الموضوعات السياسية ، وعلى الأخص الإنجليز.

أما الموضوعات الاجتماعية ، فنذكر منها قضية الحجاب والسفور ، وما يستتبعه تحرير المرأة من المزيد من تعليمها وتربيتها لتكون عضواً عاملاً فى المجتمع إلى جانب وظيفتها الطبيعية زوجة وأمًا . وكذلك يدخل فى الموضوعات الاجتماعية موضوع العمل الحر ووظائف الحكومة ، وعلاقة التعليم بالتأهيل لهذا أو لذلك ، وفى هذا الباب أيضًا يتعرض المؤلف للعادات الواجب تغييرها والتحول عنها مثل زيارة أضرحة الأموات من ذوى الكرامات ، وما يغنمه من غير حق شيخ السجادة الجالس فوقها ، من النذور التى تجرى أنهاراً من تحتها دون أن يبذل فى سبيلها أدنى جهد مما يغوى بالبطالة أو الأشغال بالمخرقة على أهل الجهالة ، وأخيراً يتفنن المؤلف فيتناول بالأوصاف من غير إسفاف معاقرة الخمر وعربدة السكر فى النوادى الليلية ، ومشاهدة الطرب والرقص فى الأزبكية ، وما يجب من الرقابة على هذا النوع من الملاهى إن لم يكن حظرها.

وأما الموضوعات الأدبية ، فيبدأ فيها بالصحافة ورسالتها وحدود حريتها ومدى ترويجها للفصحى ، وأثر الصحافة التجارية التى تحررها أقلام المرتزقة فى إفساد

أخلاق العامة ، ثم يعرض بعد هذا إلى عالم الأدب وأعلامه ، مع الحديث عن الشهرة والخمول ، وهنا يستدرجه الحديث إلى الشعر ، ودور الصحافة فى الترويج لشاعر دون الآخر ، ومما يلاحظ أن حافظ هنا لا يكبت الدافع إلى هذه الإشارة فإن هذا الدافع على رغمه ، يطل بقرنه ، وهو ما بين حافظ وشوقى من المنافسة ربع قرن كامل على دولة الشعر .

وأخيراً وليس آخراً تغلب على الحديث الموضوعات السياسية ، ومحورها السياسة الإنجليزية ، وهنا يستمر الحديث ويحمى وطيسه وتغلى مراجله حين يتعرض للإنجليز ، واحتلالهم مصر وتسريحهم جيشها ، وتوليهم إنشاء جيش جديد قائده العام منهم ، تفرضه على الحكومة المصرية حكومتهم ويفرض الحاكم العام على الجيش ضباطًا من بنى جنسه ، فيحكم ويحكمون فى الجند والضباط المصريين بمطلق أمرهم ، وينعمون بكل شىء من دونهم .

وهذه الأحاديث فى « ليالى سطيح » أمثلتها كثيرة ، نذكر هنا بعضها مبتدئين بما صار إليه الحال فى مصر بعد الاحتلال الإنجليزى ، فى الجيش المصرى وفى المدرسة الحربية . ونحن على يقين من أن القراء لهذه الأمثلة من كلام حافظ إبراهيم سوف يمسهم معه أوارها وتكوينهم مثله نارها :

دخلت الإنجليز مصر ، وفى جيشها المصرى من هم أولو سابقة فى الفضل فكنت ترى فيهم المهندس الماهر ، والكيماوى الباهر، والمحيط بفن الحرب والخصيص فى العلم ، ومن حنكته السن ، وغذته التجربة ، وخبطته الحروب ، وعلم التكتيك ، ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرقونا ، فأشفقوا أن يكون هؤلاء أمام سياستهم صفًا صلدًا ، فزحزحوهم عن أماكنهم ، حتى أصبح الجيش عطلًا من كل رجل ركين .

ثم نظروا فإذا المدارس الحربية تغذو أشبال تلك الأسود لبان العلوم والمعارف فهالهم أمرها ، وأسرعوا فى سلبها كنز علومها ، وتجريدها من حلى فضائلها حتى

أصبحت كالأخيذة السليبة ، ثم يتّموها أساتذتها ، وأراد ربك فأمست وهى أشبه شيء بمصانع الدجاج يدخل فيها التلميذ فلا يسلخ ستة أشهر حتى يغدو وعلى جنبه سيف صقيل . فهو يوم دخل فيها مثله يوم خرج منها ، لا يزيد علمه فى الحالين عن يوم خروجه من بطن أمه . وما كانت قوة التصوير الشمسى بأسرع فى أخذ الصور من تلك المدرسة فى تهيئة التلامذة للدخول فى الجيش ، فأصبحت بفضل القوم كما ترى، وقد جمدت فيها روح العلوم ونضبت سيول المعارف ، وأقفرت غرفها من نجباء التلامذة وقام ينعق فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك ، وبات يطلبها كل فدم وجاهل كما تطلب اليوم الضيعة الخربة .

يمشى الكبير من الإنجليز فى معسكر الجنود فى الجيش الجديد فيعثر بأولادهم وهم يلعقون فضلات الطعام ، وكأنهم وقعوا على ثمرة الغراب ، فيقف عليهم يتفرس فيهم ، ثم يختار من تدركه السعادة منهم ، فيقذفه بمنجنيق إرادته على أسوار المدرسة الحربية فلا يحول الحول حتى ترده إليه وعلى كتفه نجمان من نجوم النحوس.

والسعد يدرك أقوامًا فيرفعهم وقد ينال إلى أن تعبد الحجرا

ويمر ذلك الكبير من الإنجليز على الجنود وهم على مصافهم قيام ، فيروقه منظر أحدهم ويعجبه حسن سمته ، وما هى إلا لفتة منه إلى كاتم سره حتى يمسى ذلك الجندى تلميذاً ، فلا يهل بالمدرسة شهراً حتى يوافى إخوانه من الجنود وهو يجر سيفاً لولا الغمد يمسكه لسال خجلاً .

شكا ضابط مصرى إلى كبيره وهو يحاوره من سوء العيش، وجفوة الرؤساء ، وكثرة الأتعاب ، وقلة الأعطية ، فأجابه الإنجليزى وقد أمال سالفته تيهًا وثنى عطفه كبراً : « إذا أصبح السردار وقد أراد أن يملأ غرف المدرسة الحربية وفناءها من التلامذه ، ألا تتم له تلك الإرادة ؟ قال المصرى : « بلى ، فلا يكلفه ذلك إلا النشر فى إحدى الصحف حتى تتواقع التلامذة على بابها تواقع القطا على المنهل العذب ».

قال الإنجليزى : « لهذا أنتم فيما أنتم فيه من البلاء . فهو إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، ولو عاف المصريون ورود هذا المورد وانصرفت وجوههم عن ذلك الباب وعزفت نفوسهم عن الولوج فيه ، لأصبحتم من الإعزاز بحيث نحن الآن ».

لذلك تكسرت فى المصرى الأظافر ، وبات مهضوم الجانب ، غير مرعى الجناب ، يعتوره الذل والخور ، ويأخذه سوء القالة ، وهو كأنه العمر كلما مر به يوم لحق به النقص .

ينظر المصرى إلى الإنجليزى ، وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة فيكبره رهبة وإجلالا ويتضعضع لرؤيته ، وينظر إليه الإنجليزى بتلك النظارة وقد عكسها ، فيصغره استخفافًا بشأنه، ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته، ومنحه نعمة التنفيس فى جو يتنفس الإنجليزى فيه . وهو إن خاطبه فبلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق أو بإشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر.

هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط ، أما الكبار منهم ، كبار الرتب والأجسام، لا كبار النفوس والأحلام ؛ فحالهم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم . فلقد سقاهم ساقى السياسة الإنجليزية كئوسا من منقوع الرعب . فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم ، وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث ، حتى إذا صدر له أمره بشىء ، كاد يخرج من ظله سرعةً لإمضاء ذلك الأمر ، فهو إلى إجابة داعيهم أسرع من الصدى ، وهو على حفظ أمره أحرص من الفوتوغراف على حفظ الصوت.

اللهم إن العيش مع الأبيضين وإن أبرد العظام أروح ، للنفس من عيش ضباطنا العظام . تراهم وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم فيروقك ما ترى، ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء أفئدة هواء :

فليت سيوفهم كانت عصيًا وليت نجومهم كانت رجومًا

وما عسى أن تقول إذا حدثتك عن حياة الضابط الإنجليزى فى الجيش المصرى.

يهبط أحدهم مصر فما هو إلا أن يشم نسيمها حتى يقابله الأمر بمنصب فى جيشها .

فإذا سما من رتبة المأمور إلى رتبة الآمر ، وأصبح عطاؤه الذى كان لا يتجاوز الأسبوع عدداً وقد تجاوز أيام الشهر ، ونقلته كيمياء القوة من معدن يرغب عنه إلى معدن يرغب فيه ، وقذفت به يد الطمع من مناجم الفحم إلى كنوز الذهب ، وهبت ريح سعوده ونسى جلود جدوده ، نظر إلى المصرى تلك النظرة التى أسلفنا وصفها . وقد جعلوا ثواباً لمن يتعلم العربية منهم فى وقت وجيز. فترى قادمهم يصطفى بعض التراجمة أو المتزلفين من الضباط ، فيأخذ عنهم مبادئ اللغة ولا يبدأ فيها إلا بحفظ كلمات الهجر والفحش . فإذا وعى منها كلمة وأراد استعمالها فيما وضعت له أسرع إلى المصرى فجبهه بها عن غير ذنب فتخرج من فيه ، وهى كأنها حجارة المنجنيق، فإذا أنّ لصدمتها ذلك المسكين أوسعه سباً باللغة الإنجليزية ، كذلك نصيب كل مصرى يخاطبه الإنجليزى بالعربية ولم يفهم مقصده لتعذر النطق عليه ، أو لعزوب الكلام عنه ، أو لإبراده على طريقة النطق الإنجليزى فينطقه بلسان يرتضخ إنجليزية ، وحلق كأنه يقىء .

ولقد مررت ببعضهم وهو يكاد يقطر غضباً وينشق غيظاً ، وأمامه مصرى قد انفجر فى وجهه بركان الغضب الإنجليزى ، فبحثت فى الأمر فإذا الإنجليزى حديث العهد باللغة .

والويل لم يقع تحت سيطرة الإنجليزى قافلا من الهند ، فإن رجله إلى لكز من يخاطبه أسرع من لسانه إلى سبه .

ومن لم ير نعيم الدنيا أو يذق عيش الترف فليقدم الجيش ، وينظر الإنجليزى فى لين عيشه ورخاء باله بين مبتسم زمانه ، وعز سلطانه ، إذا صاح ابتدرت صيحته الألوف ، وإذا مشى قامت إجلالاً له الصفوف .

وإذا لبس القلنسوة كانت لها فى النفوس رهبة التاج ، وإذا غضبه تقطعت لخوف بطشه الأوداج .

أأفـــــروديت فى التـــــــاج أم الإسكـنـدر الثـــــــانى
أم الرجـــعـــة قـــد عـــادت إلـيـنـا « بسلـيــــمـــــان »

يهب من نومه فيترامى الخدم على خدمته كل فى شأنه الذى نصب له . فإذا قضى لبانته من مأكله ومشربه وملبسه ، قدم له الجواد فاستوى عليه ومضى متباطئاً إلى حيث الجنود مصطفة للتدريب ، غير مبال بانتظار تلك المئات ، ولا بما يلحق بهم من السأم والملل ، إذا تأخر أوان تجليه عليهم إلى وقت الضحى ، وهم يرتقبونه والليل والصبح خيطان ، فإذا صار بحيث تراه العيون سجدت السيوف ، وقامت البنادق، وخفتت الأصوات ، وجمدت الشخوص ، وسكنت الأنفاس ، كسكون النسيم إجلالاً للقادم ، ورهبة للمقبل ، وما أسعدهم إذا أجاب على كل هذا بإشارة من رأسه أو من يده، ثم يخترق الصفوف بجواده بهيئة المتفقد وخلفه أكبر ضابط مصرى يكتب عنه ما يملى عليه من ملاحظاته ، ثم يركض جواده ملء فروجه إلى ملعب الكرة بعد أن يرسم لمن ينتدبه مكانه خطة التدريب فى غيابه » .

ومن رآه وهو عائد من ملعبه يجر خلفه الصولجان ، وقد أخذ منه الجهد ، ظنه منقلباً من إحدى مواقع حرب البوير بعد عراك وصدام وتعانق والتحام وروغ وإقدام ، قد رنحه الضرب وأثملته الحرب ، يجر من ورائه رمحاً قد جمد عليه النجيع بعد ما سالت النفوس .

وتحين ساعة عودته إلى مقر حكمه فيغير من زيه ، بعد أن يقطع صدر يومه على مائدة الصباح ، ثم يوافى فى ديوانه نهبه وأمره ومظهر علو قدره فيتربع فى دست جلاله ، فما سليمان على بساطه ، ولا كسرى فى إيوانه ، بأكثر جلالا فى الصدور

ولا أشد رهبة فى النفوس ، فإذا قعد للمظالم والأخذ للمظلوم من الظالم ، فهنا لا تسل عن الميل والإجحاف ، وسل عن العدل والإنصاف .

ثم يعود إلى داره فينغمس فى حوض من الماء ، فإذا تم ابترداه فيه تحول عنه إلى المائدة حتى إذا امتلأ عمد إلى مجلس الشراب ، واسترسل فيما هو فيه إلى قبيل تطفيل الشمس . ثم يفزع إلى بارودته فيحتقبها ، وينطلق للتصيد فى الأودية والغابات ، وخلفه الكلب والخادم ، ولا يعقب حتى يلوح سهيل .

هذا كل ما يفعله الضابط الإنجليزى فى يومه ، وهذه عيشته وتلك حالته .

أما الجندى الأشقر ، صاحب الرداء الأحمر ، والعيش الأخضر ، والطالع الأزهر ، فعيشته أعجب ، وسيرته أطرب .

يؤتى به من جيشه وهو فيه من عامة الجند عاطل الذراع ، خفيف المتاع ، فإذا قدم مصر ليلا أبى أن تشرق عليه شمسها حتى يكون رئيسًا لمكتب إفرنجى يعنو لإمرته كل من فيه من مترجم وكاتب ، ثم تسيل له أودية الميزانية بالعطاء ، وتفتح أبواب الخزائن ، فيمنح من النقود ما شاءت القوة ، ومن النفوذ ما شاءت السياسة ، حتى يصبح محل الثقة وموضع السر ومحور الأشغال وقطب التنقلات ومركز التغييرات، فلا يبرم الحاكم الإنجليزى أمراً دون استشارته . فإذا دخل فيه العجب وغلب على نفسه الزهو نظر إلى المصرى تلك النظرة التى أسلفنا نعتها ، فتتقاطر على بابه فئات المتزلفين وأرباب الحاجات ، فمن كان له به دخل أو خاصة ، كان السعيد المحبوّ ومن صلى لغير تلك القبلة كان الطريد المجفو .

وأعرف واحداً منهم قد استطرد به جواد السعادة حتى أصبح قومندانًا لحملة الجيش ، وآخر قد سما به سلم العز حتى أصبح السردار قاب قوسين أو أدنى . وهو

اليوم بالسردار واضع إحدى قدميه على العسكرية ، والأخرى على الملكية ، تجرى على سن قلمه أرزاقهم ، وتدور على طرف لسانه تنقلاتهم .

ثم أراد حافظ الترويح عن نفسه فقام إلى ابن سطيح الذى أوفده والده لينوب عنه فى الليلة الأخيرة وقال يسأله :

« ما الذى يراه سيدى بشأن تلك الشركة السودانية التى خفق لها العلمان على أطلال أم درمان ؟ » .

فابتسم ابن سطيح إلىّ مبتسماً وقال :

« وقف شريكان شرقى وغربى أمام المرآة وفى يد الغربى قطعة من الذهب ، فقال له شريكه الشرقى وقد تلطف : « ألا تعطينى قسمى من تلك التى بيدك ؟ » قال الغربى : « أما وقد أردت بالقسمة فاعلم أن التى بيدى هى لى ، وتلك التى تراها فى المرآة هى قسمك ونصيبك » . ذلكم مثلكم مع القوم فى شركة السودان » .

هكذا قال ابن سطيح ، وهو لا محالة قد ورث الحكمة عن أبيه سطيح . ولكن من هو سطيح ؟

من هو سطيح ؟

أهو شخصية تاريخية أم أسطورية

لعله من الواجب قبل أن نمضى فى حديث « ليالى سطيح » أن نعرف المقصود من لفظ « سطيح » المضاف إلى الليالى فى عنوان الكتاب ، أهو - كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان - بمعنى المستلقى على ظهره من زمانة مرضٍ أضناه ، أو وهن كهولة أعجزه عن القيام وأعياه ، أم أنه هنا اسم علم من الأعلام ، أم الاثنان معًا ؟ - ثم بعد ذلك ، أهو شخصية تاريخية أم أسطورية ؟.

ولعل أقوم طريق الإجابة على ذلك ، هو أن نسلك بالقارئ إلى خزائن الكتب التى بقيت لنا من تراث العرب ، وننفض الغبار عن هذه الأسفار ونضع بين يديه خلاصة ما وقعنا عليه من الأخبار عن « سطيح » .

روى ابن إسحق[(١)] فى كتاب السيرة النبوية لابن هشام[(٢)] ، أنه فى عصر الجاهلية قبل الإسلام ، كان هناك أمير من أمراء اللخميين ملوك اليمن التبابعة ،

---

(١) هو أبو بكر محمد بن إسحق بن يسار المطلبى ، وهو من أهل المدينة ويعد من أقدم مؤرخى العرب، ومن مصنفاته « المغازى والسير » التى رواها عنه الإمام ابن هشام » وكتاب « الخلفاء » وكتاب « المبدأ » وكانت وفاته عام ١٥١ هـ (٧٦٨م) وقد زار الإسكندرية عام ١١٩ هـ.

(٢) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى ، وكان مولده فى البصرة ووفاته بمصر عام ٢١٨ هـ (٨٣٤ م) ، وأشهر كتبه « السيرة النبوية » وله كذلك « القصائد الحميرية فى أخبار اليمن وملوكها فى الجاهلية » و « التيجان فى أخبار قحطان » وغيرها .

هو ربيعة بن نصر ، فرأى ذات ليلة فيما يرى النائم رؤيا هالته ، فلم يدع كاهنًا ولا ساحرًا ولا عائفًا ولا منجمًا من أهل مملكته إلا دعاه فيمن جمعهم إليه ، وقال لهم : « إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها ، فأخبرونى بها وبتأويلها ؟» ، قالوا « اقصصها علينا نخبرك بتأويلها » قال : « إنى إن أخبرتكم بها ، لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها » . فقال له رجل منهم : « إن كان الملك يريد هذا ، فليبعث إلى « سطيح » وصاحبه « شق » فإنه ليس أحد أعلم منهما فهما يخبرانك بما سألت عنه » ، فبعث يستقدمهما . فكان « سطيح » أول من قدم عليه ، فقال الأمير : « إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها، فأخبرنى بها فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها » قال الكاهن : « أفعل . رأيت حممة[1] خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة[2] فأكلت منها كل ذات جمجمة » فقال له الأمير : « ما أخطأت منها شيئًا يا سطيح ، فما عندك فى تأويلها ؟ » فقال : « أحلف بما بين الحرمين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش » فقال الأمير : « وأبيك يا سطيح، إن هذا لنا لغائظ موجع فمتى هو كائن ؟ أفى زمانى هذا أم بعده ؟ » فقال : « لا بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين » قال : « فهل يدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ » قال : « لا ، بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين » ، فمضى الأمير يستعلم : « ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم؟ » قال : « يليه إرم ذى يزن يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحد منهم باليمن » قال : « فيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ » قال : « بل ينقطع » فسأل الأمير : « من يقطعه ؟ » فقال الكاهن فى خشوع ظاهر : « نبى زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى » فزاد شوق الأمير إلى التقصى وقال : « وممن هذا النبى ؟ » فقال الكاهن على الفور: « رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر » فسكت الأمير لحظة ثم قال : « وهل للدهر يا سطيح من آخر؟ »

(١) حممة : جمرة .

(٢) أرض تهمة : خبيثة الرائحة .

قال : « نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون » فعاد الأمير يقول : « أحق ما تخبرنا يا سطيح ؟» قال : « نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق ».

ولكى تصبح لشخصية « سطيح » صورتها التاريخية ، أورد ابن إسحق ، ومن بعده ابن هشام والطبرى[1] وغيرهم من المؤرخين - على عاداتهم - نسب المترجم له فقالوا : اسم « سطيح » ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن بن غسان » فإذا أرادوا الإيجاز قالوا « سطيح الذئبى » .

والمؤرخون متفقون على أن « سطيح » كان من المعمرين مع تفاوت فى التقدير، ولكن أخبار سطيح إلى جانب هذه المغالاة فى الإيجاز لا تخلو من خلاف بين المؤرخين رواة الأخبار ، فإن رواية ابن إسحق التى قدمناها عن سطيح قد حددت زمنها فى سياق نبوءته التى تكهنت بأن هبوط الأحباش على اليمن سيكون بعد ستين أو سبعين سنة ، ولما كان مبدأ الاحتلال الحبشى لليمن سنة ٣٤٠ ميلادية ، فيكون زمن صدور هذه النبوءة عن سطيح فى سنة ٢٧٠ ميلادية ، وهذا لا يتفق وما رواه اليعقوبى[2] فى تاريخه ، من أن سطيح حسم خلافاً نشب بين جد رسول الله زعيم قريش فى الجاهلية عبد المطلب بن هاشم الذى كانت وفاته عام ٥٨٠ م[3] وقبيلتين من بنى قيس حول ملكية العين التى كشف عنها جد النبى فى الطائف ، والشك لا مدخل له فى حكاية الخلاف والتحكيم التى رواها اليعقوبى، ولكن الذى يدخل عليه الشك هو اسم الحكم

(١) انظر صفحة ٩٩ من الجزء الثانى من أخبار الرسل والملوك «للطبرى» وهو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ولد فى آمل طبرستان سنة ٢٢٤ هـ (٣٩٨ م) وتوفى فى بغداد سنة (٩٢٣ م) وهو من ثقات المؤرخين .

(٢) هو أحمد بن أبى يعقوب من أبناء موالى الخليفة المنصور العباسى وهو من أهل بغداد وله غير كتاب التاريخ « كتاب البلدان » وكانت وفاته عام ٢٧٨ هـ (٨٩١ م).

(٣) توفى بمكة من ثمانين عاما وكانت وفاته عام ٤٥ قبل الهجرة (٥٨٠ م) .

فى هذا الخلاف ، ويؤيده أن الميدانى[1] فى كتاب « الأمثال » ينسب الحكم إلى كاهن آخر يدعى سلمة بن أبى حية القضاعى .

والذى يتابع « سطيح » فى كتب المورخين العرب لا يفوته ما بين مختلف الروايات عن أخبار سطيح من الفجوة الزمانية الشاسعة ، كما رأينا .

أما المسعودى فقد روى فى مروج الذهب - فى صفحة ٣٩٥ من الجزء الثالث - أن أول ما تكهن به « سطيح الغسانى » أنه كان نائمًا فى ليلة عاصفة مظلمة مع إخوته فى سفح جبل ، وكان أهل الحى متخلفين ، إذا به يئن ويتأوه زاعقًا بأعلى صوته : « والضياء والشفق ، والظلام والغسق ، ليطرقنكم ما طرق » ، قالوا : « وما طرق يا سطيح ؟ قال « أمر سد نغاره ، وحرة بعدها حرة ، فى ليلة قرة » فأضربوا عن قوله واستهانوا بأمره ، ولم يلبثوا أن تعاصفت مدود من أودية هنالك ، ففاجأتهم فى ليلة باردة عاصفة - كما ذكر سطيح - فساقت الأنعام والمواشى ، وكادت تذهب بعامتهم، ولم يذكر المسعودى إن كان المقصود بهذه النبوءة انقطاع سد مأرب باليمن أم هو سد آخر .

وقبل ذلك جاء فى الجزء الأول صفحة ٢١٧ والجزء الثانى صفحة ٢٢٨ من مروج الذهب نفسها ، أنه فى أيام كسرى حدثت حوادث منذرة ، فأنفذ كسرى أحد عرافيه، عبد المسيح بن بقيلة الغسانى إلى سطيح الكاهن وأخبره بما كان من رؤيا الموبذان، وارتجاج الإيوان ، فأخبر سطيح على الفور بما وراء ذلك من إعلام بالنبوة المحمدية وتبشير بوشك ظهور رسالتها .

ويذكر أكثر من مؤرخ إسلامى أن سطيح كان بلغ من العمر ثلاثمائة سنة حين أخبر بهذ النبوءة عن مولد النبى محمد عليه السلام ووشك ظهور الإسلام ، وأنه أخبر

---

(١) هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن حمد بن إبراهيم الميدانى مؤلف مجمع الأمثال وقد ولد ونشأ وتوفى فى نيسابور عاصمة خراسان وسمى الميدانى نسبة إلى « ميدان راد » وهى محلة فيها ، وكانت وفاته سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) .

بها وهو على فراش الموت ، وكاد يتمها حتى لفظ آخر أنفاسه وتوفى من ساعته . ولقد أفضى ذلك ببعضهم أن وضعوه على رأس المعمرين وبلغوا بحساب عمره إلى أكثر من ثلاثمائة سنة ، ومنهم من زادها إلى ستمائة وأكثر . ولا عجب ، فقد جرى عامة المؤرخين الأولين على أن يرتفعوا بأعمار من يؤرخون لهم من أصحاب الشأن الأقدمين إلى ما يتجاوز المائة بقليل أو كثير ، فلم يجد بعضهم ما يمنع فى جملة الأوهام أن يعمر سطيح وأضرابه أضعاف ذلك ما داموا من الكهان ، حتى يدخل طول أعمارهم كذلك ضمن ما هو منسوب إليهم من العجائب والخوارق .

ولم يقف الخيال بالمؤرخين عند هذا الحد ، فقد أبى البعض إلا أن يجعل الغرابة فى مواهب هؤلاء الكهان وقواهم الروحية ، غرابة كذلك فى خلقتهم الجسدية ، ولكن على جهة الأضداد . بحيث يقابل الجلال والجمال فى النفس ضآلة وركاكة فى الجسد، لأن النفس فى هذه الحالة هى كل شىء ، حتى لا يكاد يبقى إلى جانبها من الجسد شىء يذكر . وفى هذا المعنى يقول المسعودى : « وإذا كانت النفس فى غاية البروز ونهاية الخلوص ، كانت تامة النور كاملة الشعاع ، كان تولجُّها إلى دراية الغائبات بحسب ما عليه نفوس الكهنة وحدها » . وهذه حال الكهان « سطيح » و« شق » و « طريفة » .

والمأثور من أخبار هؤلاء الثلاثة أن الكاهنة طريفة ابنة الخير الحميرية ، وهى زوجة عمر بن عامر ماء السماء الملقب مزيقيا الذى تبوأ عرش مأرب فى فترة فى القرن الثالث الميلادى ، وكانت وفاتها فى اليوم الذى ولد فيه كل من « شق » وابن خالته « سطيح » ، وقد دعت لكل منهما قبل وفاتها وتفلت فى فيه على الطريقة المأثورة لنقل القدرة على السحر من ساحر إلى غيره . ثم أعلنت أنهما سيخلفانها فى علمها وكهانتها .

وقد أطلق بعض الكتاب العرب الأقدمين لخيالهم العنان فى تصوير هذين الكاهنين على صورة تجعلهما من أعاجيب الدنيا ، وأخذوا يتنافسون – كما لم يتنافسوا قط – فى جعلهما مسخة فى الخلقة والنقص فى الأجسام ، بقدر ما كان من

مبالغتهم فى وصف قدرتهم الروحية فى الكهانة والعلوم الغيبية ، ومن ذلك قولهم باتفاق ولادتهما معًا فى يوم واحد بالليل ومن غير أب .

وهذا الاتفاق فى مولد « شق » وابن خالته « سطيح » بالليل ومن غير أب يقابله انفراد كل منهما بصفات جسدية تخالف الآخر .

أما « شق » فإنه كان - كاسمه - نصف إنسان ، فكانت له يد واحدة ورجل واحدة .

أما ابن خالته « سطيح » فإنه لم يكن له عنق ، فكان وجهه فى صدره . ثم هو فى الجملة لا عظم له إلا الجمجمة ، وقد قيل مع ذلك إن جمجمته كانت إذا لمست أثر اللمس فيها من لين عظمها . كذلك لم يكن بين مفاصله قصب تعتمده ، فكان أبداً منبسطًا على الأرض لا يقدر على قيام ولا قعود ، ولا يتحرك منه إلا اللسان . فإذا أريد نقله من مكان إلى مكانه يطوى من رجليه إلى ترقوته ، كما يطوى الحصير ، ويوضع على السرير ، ويذهب به إلى حيث يشاء . أما إذا غضب أو استثاره استخبار عن المغيبات ، فإنه ينتفخ مثل سقاء اللبن إذا مخضه الماخض ، ويعلوه النفس بعد أن كان جسداً ملقى ساكن الجوارح .

ولا شك عندنا فى أن القراء جميعهم معنا فى أن من كان هذا شأنه ، فلا عجب أن يطلق عليه هذا اللقب : سطيح .

ولقد شاء شاعرنا حافظ إبراهيم ، فى وصف لياليه على النيل - وهى الليالى التى جلاها علينا فى أوائل القرن العشرين ، وعلى التحديد عام ١٩٠٦ - أن يجعل نسبة هذه الليالى إلى « سطيح » الذى ترجع وفاته فى الجزيرة العربية إلى أواخر عهد الجاهلية فى القرن السادس الميلادى وعلى التحديد عام ٥٧٠م وهو العام الذى شهد مولد النبى العربى عليه الصلاة والسلام .

وهكذا نجد الرواية فى كتاب « ليالى سطيح » وهو يروى لنا وقائع زماننا الأخير يأبى إلا أن يتخذ « سطيح » حكيم الزمان القديم وكاهن الجاهلية الأولى وعرافها ،

حكماً يوثق بحكومته فى القضايا الحديثة ، التى يعرضها عليه فى تلك الليالى العجيبة، لينظر فيها كعهده بعين الغيب ، فيجلو غامضها ويخبر عن عواقبها .

ولكن أليس من حق القارئ وقد أحاط علماً بالشخصية القديمة ، شخصية كاهن الجاهلية وعرافها الذى غالى بقدره المؤرخون الأولون حتى أحالوه شخصية أسطورية ، أن يحيط علماً بما فى « ليالى سطيح » من الشخصيات الحقيقية إلى جانب ما أسلفنا من الأحداث التاريخية .

إذن فلتكن هذه الشخصيات الحقيقية مدار حديثنا فيما يلى من الفصول .

ليالى سطيح

وقيمتها التاريخية فى الأدب والسياسة

كل ما فى ليالى سطيح فيما عدا « سطيح » نفسه أو – إذا شئنا غاية التحقيق والتدقيق – فيما عدا سطيحًا ثم ابن سطيح – لا يتعدى كونه شخصيات حقيقية وأحداث واقعية منقولة عن الماضى القريب من واقعنا التاريخى . فمن أراد أن يعرف هذا الماضى القريب منذ محنة الاحتلال عام ١٨٨٢ حتى مأساة دنشواى عام ١٩٠٦، لم يجد صورة أدبية مصغرة لتلك الحقبة المضطربة الزاخرة خيرًا من هذا الكتاب، فهو على صغره لم يترك واردة ولا شاردة إلا أحصاها ، لا إحصاء المؤرخ الموضوعى الهادئ الفاتر ، بل إحصاء الذى عاشها وانفعل بها بعد أن شق غباره واكتوى بنارها وأشفى على أغوارها .

وقد كان عهد ما بعد الثورة العرابية والاحتلال البريطانى ، من أنشط العهود التى أقبل فيها الشعب المصرى إثر الهزيمة على النقد الذاتى ، والدعوة إلى الإصلاح والإقبال على العلوم العصرية ، والأخذ بأسباب النهوض والرقى حتى تنطوى الشقة ما بين الغالب والمغلوب ، ويلحق أبناء هذا القطر العربى بالركب الحضارى الذى سبقهم إليه أبناء الغرب ، ولقد كان من ذلك أن كثر فى أثناء هذه الحقبة من ظهروا فى الأمة من الدعاة المصلحين فى كل ناحية من نواحى الحياة الخاصة والعامة ، وكلهم مدين إلى رجل الدين والدنيا ذلك المصلح العظيم جمال الدين الأفغانى الذى كان حيثما ذهب فى أقطار الشرق كالنافخ فى الصور ، يستنهض الهمم ويستجيش الصدور حتى ليكاد يبعث الموتى من القبور .

وقد عاش جمال الدين الأفغانى طريد الاستعمار ، يلاحقه فى كل قطر من الأقطار . وكان أول ما جر عليه نقمة الاستعمار الغربى ، أنه حين ذهب من الهند إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج فى مكة المكرمة حيث يلتقى مئات الألوف من المسلمين ، نبتت فى ذهنه فكرة الاستعانة بهذا المؤتمر الإسلامى ، فى محاربة الاستعمار فى كل قطر من أقطار العالم الإسلامى عامة سواء فى ذلك العالم العربى وغير العربى . فأنشأ هنا جمعية يمثل فيها كل قطر إسلامى واختار اسمًا لها « أم القرى » وأصدرت الجمعية مجلة باسمها لتحمل رسالتها إلى جميع الآفاق . منذ ذلك العهد تنبه الاستعمار إلى خطر الأفغانى وبدأت المؤامرات والدسائس تحاك حوله ، وغايتها سد جميع السبل حياله مع محاولة اغتياله . ولما كانت الهند لا تزال تضطرم على أثر ثورتها على الإنجليز عام ١٨٥٧ فقد اتجه إلى الهند ، فلم تحتمله حكومتها الإنجليزية أكثر من شهر وأمرت بترحيله ، فحملوه على السفر على إحدى بواخرهم إلى السويس ، فوصل إليها فى أوائل سنة ١٨٧٠ وسافر من السويس إلى القاهرة . وكان نزوله فى خان الخليلى ، وأخذ يتردد على الجامع الأزهر - وكانت هذه أولى زياراته لمصر ، وكان فى مقدمة المتصلين به الشيخ محمد عبده .

ولم يطل مقام الأفغانى فى القاهرة أكثر من أربعين يومًا ، سافر بعدها إلى الآستانة بدعوة من السلطان عبد العزيز ، فلم تلبث أن حيكت من حوله الدسائس ، وكانت هذه المرة باسم الدين ، ومن طريق شيخ الإسلام فى دولة الخلافة العثمانية ، فعاد إلى مصر فى ٢٢ من مارس سنة ١٨٧١ ، وهكذا كان قدومه المرة الأولى على أثر اضطهاد السياسة الإنجليزية له فى الهند ، وهذا هو يعود إلى مصر للمرة الثانية على أثر اضطهاد رجال الدين له فى تركيا . وقد استقبلت الحكومة المصرية هذا الطريد العظيم بالحفاوة والتكريم ، لما كان يداخل نفس الخديوى إسماعيل وقتئذ من الرغبة فى منافسة السلطان فى الآستانة ، والاستعلاء على الوقوف منه موقف التابع من المتبوع .

وقد كان من دواعى طمأنينة الخديوى ، رغبة الحكيم الأفغانى فى الاشتغال بتدريس الأدب وعلوم الدين . وكان يفد على منزله من الأزهريين وغيرهم نحو الثلاثمائة، ليأخذوا عنه ويتلقوا العلم عليه . وقد اجتذبهم إليه أنه يخالف العلماء الجامدين . ولا يسلم بأن باب الاجتهاد مسدود أمام أهل العلم ، ومن ثمة كانت تعاليمه الدينية مشجعة على دراسة العلوم العصرية ، والأخذ بأسباب المدنية ، والنزول على حاجيات الزمن الحديث وأحكامه فيما لا ينافى أصول الدين وجوهر نصوصه. ومن هنا كانت شخصية الحكيم الأفغانى وتعاليمه الحافز الأول على توجيه ما كان فى مصر وقتئذ من يقظة الخواطر وتنبه الشعور فى الوجهة المؤدية إلى النهضة الفكرية والأدبية . ثم لم يلبث الحكيم الأفغانى الثائر أن تطرقت إلى أحاديثه بمجلسه فى قهوة « البوستة » المذاكرة فى الأحوال السياسية ، فانقلب مجلسه إلى محاضرات فى السياسة والحرية والوطنية ، ولما كانت الدعوة إلى هذه المبادئ لا تهز النفوس إلا إذا تمت للداعيين أداة التعبير القوى والقدرة البيانية ، فقد شجع الأفغانى تلاميذه ومريديه على القراءة فى كتب الأدب ، فكان من ذلك أن ازدهرت دولة الأدب على يده .

وهذا مؤلفنا « حافظ إبراهيم » يشير إلى ذلك فى « ليالى سطيح » على لسان « سطيح » الحكيم القديم الأسطورى ، إذ يقول فى نصحه لأدباء العصر وشعرائه ، وخاصة المتنافسين المتخاصمين ، وعلى رأسهم شوقى وحافظ إبراهيم :

« ما ضركم لو تساندتم جميعًا ، وأنتم لا تجاوزون منازل القمر عدًا ، فرفعتم من شأن هذه الدولة ، وحركتم من الخامدين ، وهززتهم من الجامدين فإنى أراكم بين متفصح على أخيه ، ومتنبل على قرينه ، وليس هذا صنع من يريد ما تريدون ويحاول ما تحاولون من رد هذه الدولة إلى شبابها ، بعد ما خلا من سنها ، ولو لم يتداركها الله بذلك الأفغانى لقضت نحبها ، ولقيت ربها ، قبل أن يمتعها بكم ويمتعكم بها .

« أدركها الأفغانى ولم يبق فيها إلا الذماء ، فنفخ فيها نفخة حركت من نفسها وشدت من عزمها . أدركها وهى شمطاء قد نهض منها بياض المشيب فى سواد الشباب ، فشاب قرناها قبل أن تشيب ناصية القرن الخامس . فسودت يده البيضاء

ما بيضت من شعرها سود الليالى ، وتعهدتها همته بصنوف العلاج حتى استقامت قناتها وبدا صلاحها . وقد كان الناس فى هذا العهد يدينون باللفظ ويكفرون بالمعنى ، فما زال بهم حتى أبصروا نور الهدى وخرجوا بفضله من ظلمات القرون الوسطى .

« وقام بعده نفر ممن تأدبوا عليه فكانوا كالسيوف فرجت للرماح ضيق المسالك فانفسح للمتأدبين المجال ، وجال كل جولته وتنبه الوجدان وتيقظ الشعور وتحرك الفكر حتى أفضى إلى حركة النفس . وظهر أثر جمال الدين فى النفوس العالية ، وأصبحت تبتدر كلامه الأسماع الواعية ، فكان من ذلك أن انطوى أجل التقليد ، وبعث الله على يديه ميت اللغة ، وأحيا رفات الإنشاء ، وغادر رحمة الله عليه مصر ولم يضع لنا كتاباً نأخذ عنه أو مؤلفًا نغترف منه ، ولكنه ترك لنا رءوسًا تؤلف ، وأفكارًا تصنف . وكأنه أحس بذلك حين أحس بالموت ، فكان يقول وهو يجود بنفسه : « خرجنا منها ولم ندع لنا أثرًا ظاهرًا بين السطور ، ولكننا لم نغادرها حتى نقشنا ذلك الأثر على صفحات الصدور ، فإن لم ترثوا عنا فى بطون الكتب ، فقد ورثتم عنا فى صدور الرجال ، فإذا حثوتم التراب على رجل الأفغان فعليكم برجل مصر .

« خرج من الدنيا كما خرج « سقراط » لم يغادر كلاهما مؤلفًا ، ولم يدع مصنفًا . فلولا « محمد عبده » ما عرف رجل الأفغان ، ولولا « أفلاطون » ما ذكر رأس فلاسفة اليونان .

« ولما سكنت أنفاس الأفغانى بعد أن تجددت بذكره الأنفاس ، خلفه حكيم الشرق « محمد عبده » فى دولته ، ووطن على المضى نفسه فى طريقته . فأسمع الناس فى الحق ، وأسمعوه ، ولم يزل بهم حتى غلب حقه على باطلهم ، ثم مضى لسبيله رحمه الله .

« تفتقت الأذهان ، وتطلعت العقول إلى البحث ، وبرزت اللغة من خبائها تجر مطارف آدابها ، وأطل علم الأدب من مناره مشرفًا على النفوس فأرسل نوره إلى الضمائر ، ونفذت أشعته إلى السرائر ، فنما تحت نظره الشعور ، كما ينمو النبات

جادته الشمس بالنظر ، أو كسته أشعة القمر ، فلطف من كثافة النفوس ، وهذب من مرارة الأرواح ، حتى شفت الأولى ، وعذبت الثانية ، وبدأ دور هذه الحياة الجديدة بفضل الأدب وعلمه » .

هذه الكلمات التى قالها حافظ على لسان « سطيح » فى « ليالى سطيح » قمينة بأن يفرد لها مكان فى كل ما يخرجه المؤلفون من تصانيف فى تاريخ الأدب العربى الحديث ، لأنها بينت مبادئ هذه النهضة وأرسلتها على قواعدها الحقة ، وما نحسب أحداً بعد ذلك ينكر علينا ما ذهبنا إليه من قيمة لهذا الكتاب فى التأريخ لنهضة الأدب عندنا منذ أواخر القرن التاسع عشر .

وحسبنا أن نذكر ممن تخرجوا فى مدرسة الأفغانى فى ذلك الحين أديبين تقدما فى الزمان على حافظ إبراهيم ، فى معالجة الموضوعات الاجتماعية بما يشبه من بعيد أو قريب معالجة حافظ ما عالجه فى « ليالى سطيح » ، وهما إبراهيم المويلحى فى كتابه « حديث موسى بن عصام » وولده محمد المويلحى فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » .

وليس من الإنصاف أن نقصر الكتابة الأدبية وحسن البيان على البعض دون البعض الآخر من تلاميذ الأفغانى ومريديه ، فقد خرجوا كلهم من مدرسته سواء فى ذلك من اشتغلوا بالأدب ومن اشتغلوا بغيره ، فهم يعدون جميعًا من أهل البلاغة وصيارفة الكلام على تفاوت فى الطبقة مثل عبد الله النديم والشيخ عبد الكريم سلمان ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، وحفنى ناصف ، والشيخ بخيت ، وإبراهيم الهلباوى المحامى ، وغيرهم ، فضلاً عن جمع غير قليل ، منهم المسلمون وغير المسلمين ، من أدباء سوريا النازلين بمصر مثل : أديب إسحق ، وسليم النقاش ، وسعيد البستانى، وسليم العنجورى ، وخليل اليازجى ، وغيرهم كثيرون .

ولما كان الأستاذ محمد عبده أحقهم بالتقديم ، فلا حرج علينا هنا إذا استشهدنا على قيمة « ليالى سطيح » فى تقويم رجال التاريخ بهذا التحليل الدقيق ،

فما أحسبنا نقع فى أدب التراجم والسير على ما هو أدق وأصدق من تحليل حافظ فى « ليالى سطيح » لنوع ما صار من العلاقة بين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى كان منفياً مع الثائرين العرابيين وكرومر المعتمد البريطانى الذى نصب نفسه دكتاتوراً على المصريين .

روى حافظ فى « ليالى سطيح » حديثاً دار بين صاحبين ، تقمص هو أحدهما، وأجرى على لسانه دفاعه عن أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده حين سأله الآخر هذا السؤال : « من أى تلاميذ الإمام تكون . فقد سمعنا أنهم فريقان : فريق اختصه بسياسته ، وفريق قد اختصه بعلمه . وقد أثنى عليهما العميد ، وتنبأ لهما بالطالع السعيد؟ » . فكان الجواب : « لا علم لى بما تقول ، فلقد كنت ألصق الناس بالإمام أغشى داره وأرد أنهاره وألتقط ثماره ، فما سمعته يخوض فى ذكر السياسة – قبحها الله – ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ، وينتقل بنا بين مناطق الأفهام ومنازل الأحلام ويسمو بأنفسها إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق . وكان ربما ساقه الحديث إلى ذكر أحوال هذا المجتمع البشرى فأفاض فى شئون الاجتماع وحاج العمران ، ووقف بنا على أسرار الحياة . ولم يزل ذاك همه – رحمه الله – يلقى فى الأزهر دروس التفسير ، وفى داره دروس الحكمة حتى مضى لسبيله. فإن كانوا يسمون تلاميذه أحزاباً ؛ ويقسمون تعاليمه أبواباً ؛ فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران . على أنه كان من أشد الناس تبرماً بالسياسة وأهلها حتى أعلن براءته من الالتصاق بها ، فقال عنها فى كتاب « الإسلام والنصرانية » ما قال .

ولكنه كان يحتك بها ما دعت إلى ذلك الحاجة ، ويرصد حركاتها رصداً ، ويصدر غاراتها صداً ؛ خشية أن تقطع على العلم سبيله ، أو أن تقف عثرة فى طريق الفضيلة . ولولا ذلك لقطعت عليه سلك أمانيه ، وحالت بينه وبين ما كان يبتغيه ، فكم تلطف فى ابتزاز قواها وتحامى جهده طريق أذاها ، حتى إذا ظفر بطلبته وفاز برغبته، واستمد منها ما شاء تحت حماية الإفتاء ، عطف على العلم بذلك الإمداد ورد

عليه ما سلبت يد الاستبداد ، ولعله أوهم العميد بيقظة حزب جديد ليرد عادته ويفسد عليه سياسته فى مصادرة العلم ، ومصارعة الحلم ، أما ترى بربك أثر ذلك فى المدارس، وما عبثت به يد ذلك السائس ؟ ولولا أن الإمام مادّهم حبل الوداد ، وجاذبهم فضل النصح والإرشاد ، لأصابه ما أصاب حكيم الأفغان ، وقُضى على هذه الأمة . ولو كان حيًا يوم دار الفلك لنا بالنحوس فى دنشواى . لرأيت غير الذى رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد بذلك التهديد والوعيد ، ولما نزع إلى كتابة ذلك التقرير ، الذى جاء أبلغ ما تملى الضغينة على الموتور ».

كذلك لا نحسب كتابًا فى التاريخ السياسى ، أتى على بعض ما أتى عليه كتاب « ليالى سطيح » من تفاصيل ما حدث فى أعقاب استيلاء الحملة المصرية الإنجليزية بقيادة كتشنر على العاصمة السودانية « الخرطوم » فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨ من ثورة بعض العسكريين من الجنود السودانيين والضباط المصريين فى وجه القيادة الإنجليزية ، وهى الثورة التى يشار إليها غالبًا باسم « حادث الذخيرة ».

وقبل أن نقدم مثالاً من التفاصيل التى أتى بها حافظ فى « ليالى سطيح » نورد فوق ما سبق لنا أن أوردناه ، بعض التلخيص لمقدمات الحادث وما صاحبها من الملابسات ، فى بضع كلمات لإلقاء مزيد من الأضواء على ما يقصه علينا حافظ فى كتابه ، بسبب ما جرى عليه الكتاب من الإضراب عن ذكر الأسماء.

كان كتشنر سردار الجيش المصرى وقائد الحملة المصرية الإنجليزية قد عُين على أثر سقوط الخرطوم حاكمًا عامًا على السودان ، فلما تشب الخلاف بين تشامبرلين رئيس الوزارة البريطانية وبين كريجر رئيس الترنسفال بدأت الحرب بين البوير وجنود الاستعمار الإنجليزى ، واجتاح البوير مستعمرة الناتال وأنزلوا بالإنجليز الهزيمة تلو الأخرى ، ثم حاصروا الجنرال هوايت فى مدينة لاديسمث ، وكان قد جاء لنجدته جيش إنجليزى فهزمه البوير بقيادة بوطا **Botha** فى ديسمبر ١٨٩٩ هزيمة ساحقة تردد صداها فى الآفاق ، وقد كان لهذه الهزيمة التى نزلت بالإنجليز على يد البوير رنة فرح فى السودان فى حينها عند السودانيين والمصريين على السواء ، وقد نوه حافظ

باسم هذه المدينة « لاديسمث » بعد سنين فى كتابه « ليالى سطيح » . أما الحكومة البريطانية فبادرت بإرسال قائد عام من قوادها العظام لحرب البوير ، واختير كتشنر ليكون أركان حربه ، فاستعفى كتشنر من منصب السردار للجيش المصرى والحاكم العام للسودان ، وغادر الخرطوم فى الحال إلى الترنسفال ، ولم يكد يذيع الخبر القائل برحيل كتشنر حتى سرت الشائعات بأنه قد سيقت على أثر رحيله بعض الجنود السودانيين من طريق البحر الأحمر للسفر بغير ضباطهم المصريين للاشتراك فى حرب الترنسفال ، وقد كان من شأن هذه الشائعات أن ثارت ثائرة الفرق السودانية التى لا ترى هذه الحرب من شأنها . فاتجهت الشبهة إلى ضباطها المصريين الذين كانوا يتابعون أخبار هذه الحرب ويعلقون عليها فى ناديهم تعليقات لا تخلو من السخرية بالإنجليز والشماتة فيهم ، وأمام اهتياج الخواطر فى الفرق السودانية واتساع نطاقه ، رأى الجنرال مكسويل نائب الحاكم العام فى السودان أن يصدر الأمر بجمع الذخيرة من هذه الفرق خشية انقلاب الهياج فى الخواطر إلى فتنة عسكرية، يقدمون فيها على القيام بثورة فى الخرطوم ، قد تمتد وتستشرى حتى تؤدى إلى ضياع السودان من قبضة الإنجليز كما خلص « واشنطون » أمريكا من قبضتهم فى حرب الاستقلال ، وكما ستلحق بها - بعد هزيمتهم فى لاديسميث - مستعمرة الناتال وغيرها فى إفريقيا بفضل قيادة البوير فى الترنسفال .

وفيما يلى ما يقصه حافظ إبراهيم من أمر هذه الثورة فى ليالى سطيح :

« وعلى ذكر الثورة سأتلو عليكم من حديث أصحابها : إنهم فتية ربهم أعلم بهم غلبوا على أمرهم ، وأخذوا بجريرة غيرهم ، وإنى أقص عليكما من أنباء الثورة ، فقد حضرت أولها ، وعلمت بآخرها .

« صدرت مشيئة القائم بالأمر فى السودان بجمع ذخيرة البنادق من أيدى الجنود . فتساءل الناس عن هذا النبأ ، ومشى بعضهم إلى بعض ، وقد أرجفوا يومئذ بسقوط الوزارة وانحراف الأمير عن القوم ، فكثر التأويل كما كثر القيل ، فتنبأت طائفة أن سبب هذه المشيئة هو التحرز والتوقى من انتفاض الجيش ، وقد نما خبر

خذلانهم فى أوليات الحرب الترنسفالية . وظنت طائفة أخرى أن سببها هو ذلك الفتور الذى زعموا أنه وقع بين الأمير والقوم ، وقال ذوو الأسنان منهم « إنها محنة » من محن السياسة يبلون بها طاعة الجيش .

« وقال صاحب الأمر وقد أنهى إليه عيونه أمر تماوج الجيش : إنما نفعل ذلك صونًا للذخيرة من الرطوبة ، وحرصًا عليها من الضياع ».

« ولما كان الليل واجتمع أحداث الضباط فى ناديهم ، وأخذوا يتحدثون فى أمر يومهم ، قال قائل منهم : « أليس من الخطل أن تبقى هكذا الجنود ونحن فى بلد غير أمين ؟ وهذه دماء أعدائنا لا تزال غريضة ، وتلك أجسادهم تغدو عليها وتروح عنها جيوش العقبان والرخم ، وقد أكل الحقد صدور أهل البقعة ، وتغلغل الضغن فى نفوسهم ، وباتوا يرتقبون نهزة ينتهزونها ، وما أحسبهم وقد علموا اليوم بحالنا إلا غادين على مبادأتنا لعلهم يثأرون ، وكان بقرب ذلك النادى رهط يسترقون السمع، ويتسقطون الخبر ، وكانوا ممن بايعوا وشايعوا مع القوم ، فهم يعبدون الرداء الأحمر والفارس الأصفر ، فلم يجدوا شيئًا يلقون به صاحبهم هو أقرب زلفى من نقل ما سمعوه ، فاستبقوا بابه ورفعوا إليه الأمر على غير وجهه ، فوقع كلامهم فى نفسه ووعدهم خيرًا .

« وبات يقلب طرفه فى أسطرلاب السياسة ، ويحسب تقويم كواكب الرأى فى أفق الدهاء ، وحدث فى ليلته تلك أن فرقة من الجنود السودانية عصفت برءوسها النخوة، فعطفت على الذخيرة فارتدتها قسرًا ، ولما حاول كبيرهم أن يثنى عنها عنانهم ، ويحول بينها وبينهم ، وفره قسطه من الأذى ، وما زالوا به حتى رنحوه لطمًا ولكمًا .

« فمعظم الأمر على صاحب الأمر ، وكادت تنخلع شعبة مهجته هلعًا ، ويقطع نياط قلبه جزعًا ، وتمثل له شخص « واشنطون » وفى يده علم الاستقلال ، وطار به الوهم إلى « ليدى سميث » فانحلت منه الأوصال ، ونسى أنه بين مصرى له ولى من الذل ، وزنجى على قلبه أكنة من الجهل ، وكذلك لم يجد له عزمًا ، فجمع إليه نفرًا من

قومه وشاورهم فى الأمر ، فأشاروا عليه بالتماسك ، وأن يتراءى للجنود فى هيئة المتفقد للشئون ، المستخف بالكوارث .

« فخرج وهو مقلقل الشخص على جواده لا يصحبه حرس ولا يماشيه أحد من قومه ، وكان معه عند كل جولة يجولها من خاصته من يقوم بتبليغ مشيئته ، وإمضاء أمره ، فما زال يستقرى الوجوه والأبصار . وهو كلما مر بقوم تراصفت أقدامهم ، والتصقت أيديهم بجباههم ، وانتشرت على وجوههم طبقات من الخشوع .

« حتى إذا صار بمكان الموقعة وقد طرح عن منكبه رداء الفزع ، نظر فإذا جيش من النسوة يموج بعضهن فى بعض ، وفي يد كل واحدة منهن هراوة . فما هو إلا أن طلع عليهن حتى عطفن عليه يعبسن بها وجه جواده ، فأشفق أن يصيبه عنت منهن فلوى رأس جواده ، وأخذ يحثه هرباً وما زال يركضه ملء فروجه حتى وصل إلى دار حكمه .

« فلما أمن في سربه أصدر مشيئته ثانية بإبقاء الذخيرة فى أيدى الجنود حتى يؤتى لهم بسواها من حديثة العهد بالوجود ، وبعد أن كان سبب جمعها لوقايتها من الرطوبة ، وحفظها من الضياع ، أصبح لاستبدال غيرها بها من النافعة عند الدفاع.

« فدعت مثنوية رأى الحاكم سوء ظن المحكوم حتى ذهبت الظنون مذاهبا ، وحتى قال أحد الجنود السودانية لكبيره وهو يخطبهم ويدعوهم إلى الامتثال : ألم تعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق خلقًا ضعيفًا كان أو قويًا ، إلا جعل له من جسمه ما يدرأ به الأذى عن نفسه ؟ وهذه السمكة فى قاع البحر قد أنبت لها فى ظهرها شوكة تدفع عنها بوادر الشر فكيف بى وأنا ليس لى ما أذود به الردى عن نفسى إلا تلك الآلة التى نزعتم روحها فأصبحت كالعصا ، وما أردتم بنا الخير ولكن على كيدنا تعملون .

« وفى ذلك اليوم استدعى صاحب الأمر أصحاب ذلك النادى وقد طرح عنه الأنفة السكسونية ، وتزحزح عن عرش الجبرية البريطانية ، وأخذ يروض نفسه على التخلق بأخلاق بنى الإنسان ، وقال لهم وقد مثلوا بين يديه ، وما منهم إلا من استروح روائح

الرفق من شمائله : « لقد رفع إلينا خبركم بالأمس وما خضتم فيه من الحديث ، فكدنا نعجل العقاب لولا ما سبقت به شفاعة الحلم . فأنتم وإن أخطأكم عاجل العقاب فلا يخطئكم آجله إذا عدتم لمثل فعلتكم التى فعلتم ، فاذهبوا طلقاء السن ، فلولا حداثتها لمثلنا بكم تمثيلاً . وإياكم وذكر السياسة . فلستم من المنزلة التى يتناول أهلها الكلام فيها . فانزعوا عن شياطين الصحف فهى إنما تزين لكم من العمل ما لا تحمد له مغبة ولا تغتبط عاقبة . ولا يقوم بنفوسكم أن الكهرباء الفرنسية تسرى فى أعصاب أرض وطئتها قدم الإنجليزى فهى لها الجسم العازل والحد الفاصل ، فما غاب عنا أمركم ولكن سوف تعلمون من منا يحز الودج أسفًا ، ويقلب الكف ندمًا ، ويقول يا ليتنى لم أتخذ مع الجهل سبيلاً » .

« وينقضى ذلك اليوم والأحرف البرقية تنبض بأسلاكها والرسائل بين السردار (السير ونجت)[1] ونائبه (مكسويل) تروح وتغدو على وجهها ، وتملأ أنباء الثورة فؤاد السردار رعبًا ، فيقول فى نفسه : « أفتنة في الجيش ولما أقم بالأمر فيه غير أيام معدودات ؟ فيا سعد كتشنر كيف تحولت لى نحسًا ؟ » فيخف إلى العميد (كرومر) فينفض إليه جملة الخبر ، ثم يستوزعه الرشاد فى العمل فيلقنه كلمات يلقى بها الأمير (عباس حلمى) . ويعود السردار وهو يحمل ذلك الأمر العالى .

وهنا تمنعني هيبة الأمر من التعرض لذكر ما جاء فى الأمر . فالله عليم بذات الصدور » .

ونحن نكتفى بهذا القدر ونترك للقارئ أن يتابع قراءة البقية فى موضعها من الكتاب من حيث وقفنا فإن ما لحق من التفاصيل عن ذيولها أهم مما سبق فى بيان صدورها . ومن هذه الذيول أساليب الإنجليز فى التفرقة بين السودانيين والمصريين ثم تهيئة الشهود وتزييف صحيفتهم ثم مهزلة التحقيق وما آلت إليه من اتهام ما يربو

(١) الأسماء الموضوعة بين قوسين من قبيل الشرح وليست فى الأصل .

على الثمانين فى تلك الفتنة الصغيرة ، على حين لم تجر الثورة العرابية كلها إلى ما يقارب ذلك العدد . وأخيراً ما تفتقت عنه الحيلة واستقر عليه الاعتماد ، وهو الحكم بما يمليه الضرب بالقداح (اللوتارية) ، فكل من صادف النحس سهمه حق عليه العقاب.

وإلى جانب هذا إشارات كثيرة منبثة هنا وهناك فى غضون الكتاب عن الامتيازات الأجنبية وسر تغاضى الإنجليز عنها ، والمعلمين الإنجليز فى المدارس المصرية ، وسياسة دنلوب فى ديوان المعارف ، وغير ذلك من التفاصيل التى لا نجدها فى كتاب آخر .

لهذا كله كانت من المزايا الكبرى لكتاب « ليالى سطيح » قيمته التاريخية ، وهى حسبه من مزية ، ولكنه فوق ذلك حاز مزية أخرى وهى قالبه الأدبى وصورته الفنية .

ليالى سطيح فى صورتها الفنية

إذا ذكرنا أن حافظ إبراهيم كان فى صباه - إلى جانب حفظه عن ظهر قلب لقصة عنترة بن شداد - شديد الولع بقراءة « ألف ليلة وليلة » ، وأنه حين بلغ مبلغ الرجال كان وهو فى السودان - إلى جانب عكوفه على قراءة مؤلفات فيكتور هوجو - يستحب قراءة « ليالى » الشاعر ألفريد دى موسيه ، إذا ذكرنا هذا وذاك ، لم نعجب إذا شهدناه فى هذا الكتاب قد انجذب - من غير تعمد ولا قصد - إلى مساق حديثه عن همومه وأشجانه ، وشواغل قلبه وخواطر جنانه ، فى كل ما يتعلق بأوطانه من قضايا الاجتماع والأدب والسياسة فضلاً عن حكاية ما خبره بنفسه ووقع لشخصه فى مصر والسودان، مقسمًا إلى « ليال » كما فعل ألفريد دى موسيه فى الحديث عن حبه ، وكما فعلت شهرزاد من قبله فيما صورته للملك شهريار من تصاريف الزمن وتصرفات البشر فى العالم كله .

ولا نكتم القارئ أننا كنا نعجب ونأسف معًا ، لوقوف حافظ فى لياليه هذه ، عند السبع الليالى لم يتجاوزها . ولكننا حين رجعنا إلى الطبعة الأولى تبين لنا مما هو مسطور فوق العنوان ، أن ما بين أيدينا إنما هو الكتاب الأول ، فبطل عجبنا . أما أسفنا فقد ضاعفه علينا أن المؤلف الذى كان فى عزمه أن يتبع الكتاب الأول بغيره لم يفعل . ولعله لو فعل لبلغت « ليالى سطيح » التى بين أيدينا اليوم ألف ليلة وليلة، وإذا كانت بعضها ستكون ليالى سوداً من مساوئ الإنجليز ، فإن فيما يليها من مواقف الوطنية وبطولة الثوار ، كان كفيلاً بأن يجعلها فى بياض النهار.

والآن ندع هذا الطمع ، ونرجع إلى الليالى السبع التى بين أيدينا ، فإن فيها لمقنع للدارس المستفيد والناظر المستمتع .

في أولى هذه الليالى الساهرة « ليالى سطيح » نلقى – أول ما نلقى – الراوى : فلا يزيدنا التعريف به على أنه من أبناء وادى النيل فى القاهرة ، وهذا هو يروح عن نفسه المثقلة المهمومة بالسير على ضفة النيل فى ساعة الأصيل ، حتى إذا تعبت قدماه، جلس حيث ساقته خطاه ، وقد جن عليه الليل ، فأخذ فى مناجاة نفسه ومناجاة النيل ، فلما أخذ حظه من الراحة وحان موعد الإياب ، لم يكد يهم بالنهوض حتى وقع فى سمعه فى ذلك السكون ، صوت إنسان يسبّح خالق الكون . فلم يتمالك أن انطلق نحو مصدر الصوت ، وما هو إلا اقترب ، حتى ارتفع الصوت يقول مقالاً لا يصدر إلا عن كاهن عرّاف ، ولا غرو ، فإنه بعينه « سطيح » الكاهن التاريخى الأسطورى ، كما يدل عليه أسلوبه النثرى فى التزام السجع والخطاب الرمزى.

وإذا كانت الأسفار العربية القديمة قد كشفت لنا عن شخصية « سطيح » بما روته عنه الأوصاف حقيقة كانت أو خيالاً ، فإن ما أجراه حافظ إبراهيم فى كتابه هذا على لسان سطيح الكاهن العراف القديم من الإشارات ، يكشف لأهل العلم عندنا دون حاجة إلى مزيد من الإفصاح والإبانة عن مختلف الشخصيات .

ألم يكفنا أن قال سطيح فى صفة الراوى : « أديب بائس وشاعر يائس ، دهمته الكوارث ودهته الحوادث » حتى اتجه ذهننا أول ما اتجه إلى أن المقصود بهذه الأوصاف حافظ إبراهيم نفسه ، كما عرفناه من سيرته ورسائله ، ومترجماته وقصائده .

ومما يؤكد أن حافظ إبراهيم هو المقصود بها ، ما جاء بعدها فى خطاب سطيح :

« أى فلان ، لقد أخرجت للناس كتاباً ، ففتحوا عليك من الحروب أبواباً ، وخلا غابك من الأسد ، فتذاءب عليك أهل الحسد . أى فلان : إذا ألقى عصاه هذا المسافر، وغادر بحر العلم أرض الجزائر ، فقد بطل السحر والساحر ».

هذا كله ينطبق على حافظ إبراهيم ، فإن « ليالى سطيح » هذه كان نشرها عام ١٩٠٦ بعد وفاة أستاذه ونصيره الإمام محمد عبده بعام واحد ، وكان قد اضطلع قبل وفاة الإمام وبوحى منه بترجمة قصة « البؤساء » للشاعر الفرنسى فيكتور هوجو الذى أخرجها سنة ١٨٦٢ وهى قصة ضخمة الحجم ، ولم ينجز حافظ من تعريبها إلا بضع صفحات سلخ فيها من عمره عاماً كاملاً ، ونشرها سنة ١٩٠٦ وأسماها : « الكتاب الأول من البؤساء » ، وجعل إهداءها للأستاذ الإمام « موئل البائس ومرجع اليائس » وكان من حسن رعاية الإمام له أن حرص على تقريظه ، ومع ذلك كله فإن المناوئين لحافظ ومنهم خصوم المفتى دفعوا الصحف - وعلى رأسها الصاعقة - إلى الحملة الجائرة عليه .

كذلك لا شبهة فى أن « أسد الغاب » الذى كان يحمى صاحب الكتاب ، هو الشيخ الإمام محمد عبده . ويؤيد ذلك الإشارة هنا إلى « بحر العلم الذى غادر الجزائر بعد أن ألقى فيها عصا المسافر » ، فإن الإمام قد سبق أن زار الجزائر ، ولا سبيل إلى نسيان ذلك فقد نظم حافظ قصيدة نشرها فى السادس من أكتوبر عام ١٩٠٣ يحييه ويهنئه بمناسبة عودته منها ، وفيها يقول الشاعر :

يا أمينًا على الحقيقة والإفـ ـتاء والشرع والهدى والكتاب
خشع البحر إذ ركبت جواريه خشوع القلوب يوم الحساب
وبدا ماؤه كخاطرك المصـ ـقول كالفرند أو كالسراب
يتجلى كأنه صحف الأبـ ـرار منشورة بيوم المآب
علمت من تقل فانبعثت للـ ـقصد مثل انبعاثه للثواب
فهى تسرى كأنها دعوة المضـ ـطر فى مسبح الدعاء المجاب
وضياء « الإمام » يوضح للربـ ـان سبل النجاة فوق العباب

بات يغنيه عن مكافحة البحـ ـر ورقبى النجوم والأقطاب
وسرى البرق للجزائر بالبشـ ـرى بقرب المطهر الأواب
فسعى أهلها إلى شاطئ البحـ ـر وفودًا بالبشر والترحاب

وفي آخر هذه الليلة الأولى يختم سطيح خطابه الذي خاطب به شاعرنا الراوي بقوله له :

« فانكفئ إلى كسر دارك وبالغ في كتم أسرارك ، وأقبل غداً مع الليل ، وترقب طلوع سهيل ، ومتى سمعت من قبلنا التسبيح ، فقل لصحبك الذي يليك هلم إلى سطيح » .

فإذا كانت الليلة الثانية ، مضى الراوي إلى حيث مكانه بالأمس ، فإذا فيه إنسان يعرفه وهو ساكن سكون الشيخ الوقور وقد استرسل في التأمل والتفكير ، ثم إذا به يحدث نفسه بصوت مسموع عن الحجاب وعدم غنائه في حجب الفساد ، وعما يعود به السفور من فتح المنافذ إلى النور ، حتى إذا عاد هذا المفكر المتحدث إلى سكونه ، تراءى له شاعرنا الراوي وذكر له حديث سطيح ، فجعلا يرتقبان معًا طلوع سهيل ، ويتسمعان للتسبيح في جوف الليل ، فلما علا التسبيح ، هرول الاثنان إلى موضع سطيح ، فإذا بصوته ينادي الصاحب الذي كان مع الراوي فيقول :

« صاحب مذهب جديد ورأي سديد ، دعا القوم إلى رفع الحجاب ، وطالبهم بالبحث عن الأسباب ، فألقوا معه نقاب الحياء ، وتنقبوا من دونه بالبذاء ، أي فلان : إذا مضت على كتابك خمسون حجة ، وظهر لذي العينين إدلاؤك بالحجة ، تكفل مستقبل الزمان ، بإقامة الدليل والبرهان ».

هذا الخطاب على لسان سطيح مع اصطناعه التلميح دون التصريح ، فيه الكفاية وفوق الكفاية للدلالة على أن المخاطب هو قاسم أمين ، نصير المرأة ، في ذلك الحين ، والداعية إلى رفع الحجاب .

وعلى هذا المثال أو ما هو مشابه له قريب منه فى الرمز والتلميح ، نعرف الكثيرين - بمجرد سماع أوصافهم دون تصريح بأسمائهم - من أساتذة المؤلف وأصدقائه ، ومن منافسيه الغالبين عليه ونظرائه ، ومن الظاهرين والمستترين من خصومه ومناوئيه وهؤلاء جميعاً من مواطنيه ، وأخيراً أولئك الذين كانوا يوماً جلاديه وجلادى أبناء النيل فى مصر والسودان وهم الإنجليز ، وأبغضهم إلى نفس حافظ السردار الإنجليزى كتشنر الذى يرمز إليه سطيح بقوله :

« قائد الجيشين ، ورافع العلمين ، الحاكم بالإرادتين ، ووكيل الدولتين ، فاتح أم درمان ، وحاكم السودان ، وصاحب جزيرة أسوان ... ساكن القصر ، ونابش القبر ، ناسف القبة ؛ وسالب الجبة ، والجاعل قبته مربطاً للجياد ، ومسجده ملعباً لحمر الأجناد .... ذلكم اللورد الكريم ...... ».

وهكذا تعبر بنا تلك الليالى الطوال « ليالى سطيح » فى الحوار بين الشخصيتين العتيديتين : الراوية وهو شاعر النيل حافظ إبراهيم ويقوم بعرض القضية ، و « سطيح » الكاهن العراف القديم فى عهد الجاهلية العربية منذ مئات السنين ، وعلى لسانه يجرى حافظ ما يرى أنه حكمة الدهر التى فيها مقطع الصواب وفصل الخطاب لما يعرضه من مشكلات العصر .

وسماع الحكمة من سطيح على وجهين : فهو أحياناً يصدع بالحكمة مبتدئاً قبل توجيه السؤال إذا كان قد أغنت عنه الحال . وأحياناً يلتمس منه حافظ الهداية كأن يقول على سبيل المثال : ألا يحدثنا ولى الله عن الحرية ، تلك الكلمة التى أخذها الناس على غير وجهها ، فذهبت فيها الظنون مذاهبها ، وركبت الأوهام مراكبها ، حتى أسكنوها فى غير معناها ؟.

فيقول سطيح :

« عن الحرية سألت ، وعلى الخبيز سقطت ، اعلم يا ولدى أنها معنى الوجود وملاك الحياة ، وقد منّ الله عليكم بقسم منها ، ولكنكم خرجتم به عن أفق الحرية

الشرعية ، ولم تقفوا به عند حد الحرية الفلسفية ، بل رسمتم للحرية تعريفًا أنكره الشرع ، وتسخطت له الفلسفة .

عرفها الأول فقال : « إنها تكون في حفظ الدين والعرض والشرف والمال »، وأوسعت الثانية دائرة ذلك التعريف فقالت : « هي أن يكون المرء حرًا في عمله ورأيه ، على شريطة ألا يدعو ذلك إلى أذى غيره » .

فما أعجبكم الأول ولا راقكم الثاني على ما فيه من التسامح ، بل زعمتم أن تعريفها الشافي هو أن يعمل المرء ما شاء أن يعمل ، ويرى من رأي ما شاء أن يرى ، وأن سبيله في ذلك أن يستطرد به جواد الإرادة المطلقة في ميدان الشهوات، لا يبالي داس به آداب ذلك المجتمع الإنساني أم تخطى أعناق الفضائل ».

والناظر في ليالي سطيح يلحظ - مبتسما - حرص حافظ الشديد على أن يتمثل الحكيم سطيح في مواعظه الحكيمة بأبيات من شعره يقدم لها بقوله : « كما قال شاعركم » ، أو « كما جاء على لسان صاحبكم » ، وكذلك يجعل حافظ من نفسه في وقت واحد أكثر من شخص إذا دعا الأمر في هذا وفي غيره .

وقد يحاول حافظ أحيانًا أن يتهرب من تبعة كلامه كله ، فيضع شطر كلامه - وهو الأعنف - على لسان غيره ، ويتحمل هو الشطر الآخر ، لأنه الألطف ، كما هي الحال في مهاجمته للشاعر أحمد شوقي - وكانا متنافسين - فقد جعل المهاجمة مناصفة بينه وبين آخر مجهول .

بيد أنه أيًا كانت الحال ، فإن حافظ حرص على أن تبقى شخصيته في ليالي سطيح معبرة عنه تعبيرًا أقرب ما يكون إلى الصحيح ، باعتباره ابن أرضه وزمنه ، فلا يخلو من تعصب لرأيه وميل إلى عاطفته ، وتحيز لمصلحته ومصلحة قومه ، أما شخصية سطيح حكيم الجاهلية العربية وكاهنها العراف فإنها تمثل العقل الصرف ، الخالص من الأهواء والشهوات وإن كان لا يخلو من حرص المشير العاقل على مصلحة السائل .

بيد أن حافظ لم يذهب بعيداً فى استغلال شخصية « سطيح » الأسطورية ، ولم يظهر من التوسع والتفنن فى استخدامها ما كان يمكن أن تظهره قوة الملكة الخيالية عند أصحاب السليقة الشعرية . ولعل حافظ قد راعى فى ذلك أن ما يعالجه فى صفحات كتابه هو قضايا واقعية من صميم الأحداث المصرية ، ولهذا اكتفى بأن يكون سطيح فى القرن العشرين ، روحًا هائمًا فى الليل ، هاتفًا من وراء الغيب ، واقعًا فى الآذان صوته ، غير ظاهر للعيان شخصه .

ولقد أدار حافظ كل ليلة من لياليه مع سطيح على موضوع ، ولكنه توخى أن يمزجه ببعض التفاريع، فالليلة الأولى نجد فيها المؤلف وحده يناجى النيل ، ثم يكون لقاؤه مع سطيح ، أو على الأصح استماعه إلى صوت سطيح . أما الليلة الثانية فمدارها المرأة ، وقضيتها بين الحجاب والسفور ، وفى هذه الليلة لا يكاد سطيح يتم حديثه وينقطع صوته حتى يشفق حافظ أن يكون نصيبه من رؤيته كنصيب الأمس ، فيقول : « يا ولى الله ، قد سمعنا صوتك ولم ننظر إلى شخصك فهل لك أن تمن علينا برؤية شخصك الكريم ؟ » . فيقول سطيح : « لقد قدّر أن تراني ، بعد أن كشف لك عن مكانى فلا تقطع غدك الزيارة ، واذكر ما بيننا من إشارة » . وفى الليلة الثالثة يتجدد اللقاء ويدور الحديث عن سورية ومصر ، وفى الليلة الرابعة عن الامتيازات الأجنبية فى مصر وموقف الإنجليز منها ، وفى الخامسة عن الصحافة ، وفى السادسة عن الأدب عامة والشاعر أحمد شوقى خاصة ، وفى الليلة السابعة يدور الحديث على الثورة السودانية وحادث الذخيرة .

ويشذ هذا الحديث الأخير عما سبقه من الأحاديث ، لأنه لم يكن مع سطيح ، بل مع ابن سطيح ، لقد افتقد حافظ فى هذه الليلة سطيح فلم يجده ، ثم ما لبث بعدها أن تراءى له إنسان لم يدر أخرج من الأرض أم من السماء هبط . فتبينه فإذا هو غلام مراهق يتيمن الناظر بمشهده ، فداناه وهو يكبره لما ألقى الله عليه من الهيئة ، ويروى حافظ ما كان من شأنه معه فيقول :

« لقد بهرني جماله وأخذ مني حسن سمته ، فما هو إلا أن رآني حتى أقبل بوجهه عليّ وخاطبني بلسان عربي ، قد خلص من لوثة الأعرابية ، وسلم من لكنة الأعجمية .

« قال بعد أن حياني وسكن إليّ وداناني : إن ولي الله يأذن لك أن تنطلق إلى هذه المحاضرة ، وأنا ولده فكن مني بمنزلة العبد الصالح من ابن عمران ، فقد أذن لي أن أبرح الليلة الغار ، ومد لي في أجل الرجوع حتى يلوح النهار . فقلت له ، وقد تحفظت ما استطعت من أن تبتدرني سقطة في الكلام فيعدها عليّ ، فقد رأيت نفسي زمام عربي في صدر الإسلام ، قد قوّم التنزيل من لسانه ، وامتزجت الفصاحة بمنطقه وبيانه : ألا أرى الليلة ولي الله ، وقد كانت بيني وبينه آية للقاء » .

قال : « إنه يتهيأ للقاء الخالق ، وقد انقطع عن كلام المخلوق ، ألا تذكر ما قاله لك يوم ظفرت بلقائه : « لقد كشف لك عن مكاني وقد آن أواني » قلت : « ألا أتزود منه بنظرة ؟ » ، قال : في غد إن شئت أعد الكرة ، فإنه موعود برؤيتك ، في يوم خروجه من الدنيا » ثم أومأ بالمسير ، فسرت كالمأخوذ ، ونفسي على غير ما أعهد ، كأنما مرت بها لمحة من تلك اللمحات التي تتصل فيها بعالم الملائك ، وكنت كلما نظرت إلى ذلك الوجه المقسم وهو يألق بجنبي هممت بتصديق « المقنع » فيما يدعيه في بدره ، وما يخيله للناس من ضروب سحره ، فما زلت أسايره وما أكلمه هيبة وإجلالاً ، وقد كنت آليت ألا أبدأه بالكلام حتى عبرنا الجسر ، وقطعنا ما بين يديه من الطريق وقد هممنا أن نعطف يسرة ، قال صاحبي : « أراك منذ صحبتك صامت اللسان ، وإن كنت ناطق الجنان ، فما لك لا تحدّث ضيفك ؟ » .

قلت : « إني رأيت فيما لا يغيب عنك من أدب المحاضرات ، ألا يكون كلام الصغير إلا جواباً على سؤال الكبير ، وقد ساورتني منك هيبة فكرهت أن أبدأك بالكلام ، فتنزل أمري على الجرأة عليك ، وقد قال الأستاذ الإمام رحمه الله : « العلم ما علمك من أنت ممن معك » وإني لخليق ألا أخرج عن أفق القدر الذي حدده لنفسي علمي بها ، فليس لي عنه متقدم فأغرر بها ، ولا متأخر فأغض منها » .

قال : « إنى لأرى أناة تحمد ، وفضلاً لا يجحد ، ولقد أكرمك ولىّ لله بحسن الثقة وأكرمنى بصحبتك أيها الأديب ، فانطلق بى إلى تلك البقعة التى وقف الشيطان فى ساحتها ، يستقبل الزائر بابتسامة تستتر تحتها الويلات استتار النار فى العود، ويشيع المنقلب عنها بنظرة لو كانت سهمًا لنفذت من صميم الجلود » : قلت « لعلك تعنى الأزبكية ؟ » قال : « أى وأبيك ، فانطلق بى إليها » ، قلت : « بأى الأندية تريد أن نبدأ ؟ » قال : « بأنفقها سوقًا وأكثرها فسوقًا » قلت : « هذه المراقص المصرية والمخازى العصرية » .

ويشاء حافظ هنا أن يستوقفهما برهة غير قصيرة ، من يحدثها عن السودان حديثًا خطيرًا ، فلا يكاد يفرغ منه ، حتى يقول ابن سطيح لحافظ : « دعنا الساعة من ذكر السياسة فإننى أخشى أن ترتفع أذيال الظلام قبل أن تقضى اللبانة من رؤية تلك المراقص » ، وعندها يعطفان على المرقص .

« فما هو إلا أن دخلنا ، حتى نظرنا ، فإذا امرأة نصف ، قد تبذلت فى ملبسها حتى خرج بها التبذل عن أفق الحياء ، تكاد تتزايل من فرط التمايل أعضاؤها ، وينعقد من شدة التهييف خصرها ، فهى تتلوى التواء الحية الرقطاء ، وتضطرب اضطراب السمكة حيل بينها وبين الماء . فأجال ابن سطيح نظرة فى أنحاء المرقص ألمت بجميع ما فيه ، ثم دعانى إلى النهوض فنهضت ، وما كدنا نجاوز الباب حتى انشأ يحدثنى فقال وهو يخافت من صوته : « إنى نظرت فما كاد يرتد إلى طرفى حتى ألمحت بجميع ما يقع بين تلك الجدران من أسرار هذه المخازى العصرية » ، قلت : « وما عسى أن يكون قد كشف لك منها فى هذه اللمحة اليسيرة والنظرة القصيرة ؟ » قال : « رب نظرة عجلى تنقطع دونها سوابق الأفكار ، وتتكشف أمامها غوامض الأسرار ».

وانطلقنا إلى بيت من بيوت الله ، قضينا فيه صلاتنا ولم نبرحه حتى برحت الشمس خدرها فقلت له : « أعزم سيدى على الرجوع إلى أبيه ؟ ، أم على الأخذ فيما كنا بالأمس فيه ؟ » قال : « إنى ليحزننى أن أعود قبل أن أرى أسواق هذه الحاضرة

وأقف على شيء من عاداتها » قلت : « لله أبوك ، فما عدمت ما فى النفس » ثم أخذنا طريقنا إلى الغورية ..... الخ .

ويأتى حافظ على كل طريف فى وصف الزحام على الحوانيت فى المواسم ، ومنظر هذا التاجر أو ذلك وهو يبالغ فى تنفيق سلعته بضروب التمليق وصنوف الترويق ، ومنظر الشارى يدارى رغبته فيها وهو يساوم ، إلى آخر هذه الأوصاف وأمثالها .

وهنا فى هذه اللوحات ، يظهر لنا ما كان يغالب حافظًا من خفى الرغبة فى مباراة معاصره محمد المويلحى فى كتاب « عيسى بن هشام » الذى ضمته أمثال هذه المشاهد فى مصر ، وهو يطوف بها مع شخصية غابرة انشق عنها القبر ، فيسمع منها عبارات الدهشة ، ولواذع النقد ، وإذا كان المويلحى قد استحيا هذه الشخصية من القرن الماضى ، فقد عمد حافظ إلى استيحاء « سطيح » ليكون أبعد توغلا فى القدم، وأغرب إبداعًا فى المعجزات وخوارق العادات .

وليس هنالك ما يمنع هذه المباراة من حافظ لكتاب أفاء على صاحبه منذ ظهوره شهرة واسعة ، ولكنه لم يكن فى ذلك بالمقلد المستغرق فى التقليد ، فهو لم يبدأ هذه المباراة إلا فى أجزاء من كتابه ، كما أنه لم يمض فيها إلى آخر الشوط ، بل كان يتوقف ليعاود ما كان فيه من حديث عن الإنجليز فى مصر ، والشركة السودانية ، ومصر بين التبعية التركية والاحتلال الإنجليزى ، ودروس الإمام محمد عبده بالأزهر وداره ، وسياسته مع الإنجليز ، وقد كان من جراء هذه الاستطرادات فى فصول أشبه بالمقالات ، فضلاً عن انقطاع الصلة المباشرة الحية فى سياقه للأحداث وعرضه للشخصيات فى البداية والتقاريع فى النهاية ، أن جاءت « ليالى سطيح » غير مستوفية لمقومات القصة الحديثة من حيث البناء والحركة والوحدة الفنية ، وهى التى يجتمع منها ما يحقق للقصة الحديثة تلك البنية العضوية المعروفة بها ، ومن ثمة كان كتاب حافظ « ليالى سطيح » وسطًا بين القصة والمقامة والمقالة .

ولعل القارئ لا يرتضى الخاتمة التى ختم بها حافظ « ليالى سطيح » . ولكن فى ذكر السبب بطلان العجب ، فإن ما نأخذه على أنه الخاتمة ، ليس فى حقيقة الأمر بالخاتمة ، وإنما هو نهاية الجزء الأول من كتاب كانت له بقية حالت دون إنجازها الحوائل . ومع ذلك فإننا على يقين من أن « ليالى سطيح » فى صورتها الراهنة تبدو إلى حد كبير تامة البنية كاملة الفتنة ، مجددة الشباب والحيوية ، غنية بكل ما يجعلها تحفة فنية .

الخاتمـــة

يتبين مما تقدم أن الكتـاب الذى نقدم هذه الكلمة بين يديه ، كتاب تنعكس على مرآته السحرية ذكريات واقعية معظمـها فاجع . ولكن هذا الواقع الفاجع ، يلطف من واقعيته ويخفف من فجاعته ، أنه أصبح فى ذمة الماضى ، كما أن ذكرياته المروية ، يجمل سردها أنها محكية على نسق الحوار بين شخصيات متعددة ، وبصفة أساسية بين شخصية « حافظ » الحقيقية ، وشخصية « سطيح » الأسطورية .

ولقد استهوى هذا النسق فى معالجة الموضوعات الواقعية عموم القراء ، وارتضاه معظم نقادنا المعاصرين حتى تأدى بالبعض إلى اعتبار هذا العمل الأدبى الذى يهدف إلى النقد الاجتماعى ، من الفن القصصى .

ومهما يكن وجه القول فى نسبة هذا النسق إلى فن القصة أو فن المقامة أو الفنين معًا مضافًا إليهما فن المقالة ، فإن « ليالى سطيح » من الآثار الأدبية التى تجمع إلى المتعة الجمالية قيمة الوثيقة التاريخية ، وطرافة اللوحات التصويرية الحية ، وقوة النقد الهجائية للبيئة الاجتماعية ، وروعة الدعوة إلى الإصلاح والنهضة . ومن أجل هذا جميعه كان هذا الكتاب « ليالى سطيح » جديراً بأن تتزود به كل مكتبة عربية ، ليرجع إليه كل القارئين فى الوطن العربى فى الحين بعد الحين للمتعة والعبرة.

عبد الرحمن صدقى

ليالى سطيح

سطيح

حدث أحد أبناء النيل قال :

ضاقت عن النفس مساحتها لهمٍّ نزل بى وأمرٍ بلغ منى، فخرجت أروّح عنها، وأهوّن عليها، فما زلت أسير والنيل، حتى سال ذهب الأصيل، فإذا أنا من الأهرام أدنى ظلام[١]، وقد فتر منى العزم، وسئمت الحركة، فجلست أنفس عنى كرب المسير، واضطجعت وما تنبعث فىَّ جارحةٌ من التعب، وكنت من نفسى فى وحدة الضيغم، ومن همومى فى جيش عرمرم[٢] .

وجعلت أفكر فى هذا الدهر وأبنائه، فجرى على لسانى ذكر ذلك البيت :

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى وصوَّت إنسان فكدت أطيرُ

فرددّته ما شئت، وتغنيت به ما استطعت . وقلت : إى واللّه، لقد صدق القائل، ما خلق اللّه خلقًا أقل شكرًا من الإنسان، ولا أطبع منه على افتراء الكذب والبهتان .

ثم مرّ بالخاطر بيت آخر :

تباركت أنهارُ البلاد سوائحٌ بعذبٍ وخُصّت بالملوحة زمزمُ

---

(١) أعنى قريبًا .

(٢) عرمرم : كثير العدد .

فنقلت إليه متاعى، وحوَّلت حاشيتى، وما متاعى غير الأمانى السانحة، ولا حاشيتى سوى الهموم الفادحة . ولبثت أتفيَّأ[1] من ظلاله، وأتأمل فى حسن أشكاله . وإنى لكذلك إذ سطعت ريح كريهة انهزم أمامها النسيم، وانقبض لها صدر الجو، وتعبَّس بها وجه النهر، فعلقت أنفاسى، ولكن بعد أن نالنى منها ما صدَّع الرأس وغشَّى البصر . ولما أفقت من هذه الغشية وانجلت تلك الغاشية[2]، نظرت فإذا أصل البلاء جيفة فوق وجه الماء، فغاظنى ما أرى، وهاجنى ما أشَمُّ، وقلت أخاطب النيل :

ويحك ! إلى متى يسع حلمُك جهل هذه الأمة المكسال ؟ وإلى كم تحسن إليها وتسىء إليك ؟ علمَتْ أنه سيكون منك الوفاء فلم تحرص على ودك، واتكلت على حلمك، وبالغت بعد ذلك فى عقوقك . ولقد كانت ترجو فى سالف الدهر خيرك وتتقى شرك، فتحتفل فى مُهاداتك[3]، وتتحامى طريق معاداتك . أذاقتك وصال الحسان، وخالفت فيك شريعة الديان، وأرشفتك رضابًا أعذب من مائك، وأحلى من وفائك، ثم غيَّرها عليك الزمان، فجادتك بعرائس الطين بعد عرائس الحور العين، وأمعنت فى العقوق فجعلتك مصرفًا لفضلات البطون، ثم أمعنت فى العقوق فصيرتك مقبرة للجيف ؛ لتصبح بذلك مجرى البلاء ومستودعًا للوباء .

سبحانك اللهم هذه زمزم على ملوحتها قد عزت بجوار بيتك القديم، فتهادى بمائها القصَّاد، وحملوه إلى أقصى البلاد، وحرص أهلها على عينها حرص المرء على عينه . وهذا النيل – على عذوبته – قد ذل بجوار قوم أهانوه . ولو كان عند غيرهم لعبدوه . وتاللَّه لو جرى فى غير مصر لبنَوْا عليه أسوارًا من النفوس، وأقاموا عليها حرسًا من الضمائر . أفٍّ لتلك الأمة ! جهلت قدر محييها، ولم تعلم أن من مجراه تجرى عليها هذه الأرزاق، ومن حمرة مائه تخضر تلك الأوراق . أفٍّ لها ! ما أقلَّ شكرانها، وأكثر

---

(1) تفيأ الظل : استظل به .

(2) الغشية : الإغماءة، والغاشية القيامة، ويراد بها الشدة .

(3) مهاداة مصدر هادى، من الهدية .

كفرانها : ينبغ فيهــا النابغة فينبعث أشقاها للطعن عليه، فلا يزال يكيد له حتى يبلغ منه ، ويكتب فيها الكاتب فينبرى له سفيهها، فلا يفتأ ينبح عليه حتى يُنشبَ فيه نابه ويفسد عليه كتابه، ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهلها، فلا ينفك عنه حتى يغلبه على أمره ويقهَرَه على شعره :

يا رب أخرجنى إلى دار الرضا عجِلاً فهذا عــالم منحــوسُ

ظلوا كدائرة تحـوَّلَ بعضُهــا عن بعضها فجميعها معكوسُ

الليلة الأولى :

ثم إنى أمسكت عن الكلام، وعـزمت على التـحـول من هذا المكان، وإنى لأهُمّ بالنهوض إذ وقع فى سمعى صوت إنسان يسبّح الرحمن يقول فى تسبيحه : سبحان من حكــم على الخلق بالفناء، سبحان من تفرّد بالبقاء . فخشَع قلبى عند ذكر اللّه وقلت : أنطلق إلى صاحب ذلك الصوت، فعلّى أظفر بأحد عباد اللّه الصالحين فأستدعيه لى دعوة يمحو اللّه بها أثر استجابته فىّ لدعوة ذلك "الإمام" فثرت من مكانى وأخذت سمتى إلى جهة الصوت، وكنت إذ ذاك فى أوليات الليل . وتاللّه إنى لأقترب منه وإذا به يقول :

"أديب بائس، وشاعر يائس، دهمته الكوراث، ودهته الحوادث، فلم تجد له عزمًا ولم تصب منه حزمًا . خرج يروِّح عن نفسه، ويخفف من نكسه، فكشف له عن مكانى، وقد آن أوانى . أىْ فلانُ ؛ لقد أخرجتَ للناس كتابًا، ففتحوا عليك من الحروب أبوابًا . وخلا غابك من الأسد، فتذاءب عليك أهل الحسد . أى فلانُ، إذا ألقى عصاه ذلك المسافر، وغادر بحرُ العلم أرضَ الجزائر، فقد بطل السحر والساحر، فانكفئْ إلى كسر دارك، وبالغْ فى كتم أسرارك، وأقبل غدًا مع الليل، وترقبْ طلوع سهيل، ومتى سمعت من قِبَلنِا التسبيح ، فقل لصاحبك الذى يليك : هلُمَّ إلى سطيح .

ثم انقطع صوته، فلبثت فى مكانى حتى استوحشت لوحدتى وانفرادى فى جوف ذلك الليل، فرجعت أدراجى، وكنت منذ لقيته وأنا فى ذهول من عقلى، ودهشة من أمرى، ولما ثاب إلىَّ السكونُ جعلت أتأمل فى عباراته وأتروى فى مغزى سجعاته، وقلت فى نفسى : لقد كنت أعلم أن سطيحًا قد قضى نحبه، ولقىَ ربه . فهل صدق القائلون بالرجعة ؟ أم جعل الله لكل زمن سطيحًا ؟ على أنى فى غد سألقاه، وأطلب إليه أن أراه . وأسأله عن أشياء كتمتها فى صدرى، وكادت تدخل معى قبرى .

فانطلقت حتى إذا بلغت دارى - وقد شابت ذوائب الليل - أخذت مضجعى، وجعلت أعالج النوم، ولكن طافت بالرأس طائفة من الأفكار، فباعدت ما بين الجفنين، وأزعجت ما بين الجنبين، فأَقضَّ[1] على المضجع، وحار لى الفراش، فقمت إلى الشمعة فأشعلتها، وإلى لزوميات أبى العلاء فتحتها، فوقع نظرى فيها على قوله :

أيا دارَ الخسَار ألاَ خــلاصٌ فأذهب للجنوب أو الشمال
وظلمٌ أن أحاولَ فيك ربحًا ولم أخرجْ إليك برأس مـالِ

فاستشعرت نفسى الراحة، وسرى عنى ما كنت أجده من الغم، ونشطت إلى القراءة، فما زلت أنهل من معانٍ لم تخضعها أعين القارئين، ولم يُخلقها تداولُ الألسن، وأتروَّى من حكَمٍ فجر الله ينبوعها فى جوف ذلك الحكيم حتى فضحنى النهار فنمت ما شاءت العين .

الليلة الثانية :

وانتبهت وقد بلغ ظل كل شىء مثليه، فأصلحت من شأنى، وخرجت أطلب الموعد ونفسى إلى رؤية سطيح فى شوق الأسير إلى الفكاك . وقد حضرنى قوله "فقل لصاحبك الذى يليك هلُمَّ إلى سطيح" . فجعلت أقول : يا ترى أىَّ صاحب عَنَى ؟ ولكن

(١) القض والقضيض هو الحصى الصغير، وأقضّ عليه أى امتلأ عليه حصى فتعذر عليه النوم .

لعل الأسباب التى ساقتنى إلى الاهتداء إليه تجمع بينى وبين ذلك الصاحب . فما زلت أواصل السير وأنا بمنزلة بين الريث والعجل، حتى بلغت مكان الأمس فإذا فيه إنسان أعرفه قد أطرق إطراق المتأمل، وسكن سكون الوقور، فكرهت أن أقطع عليه تأملاته . وقلت : لم يجلس هذا الرجل العظيم تلك الجلسة إلا وهو يريد الانفراد بنفسه، فلعله يفكر فى خير لوطنه وسعادة لأبنائه، فجلست على كثب منه، وألقىَ فى روعى أنه طلبة[١] سطيح، ولبثت أنظر إليه، ولبث ينظر فى أمره، حتى مرت بالنهر جارية[٢] عليها من الجوارى الحسان ما يفتن اللب ويملك القلب . وهن متبذلات يخضن فى اللهو، ويمرحن فى اللعب . وبينهن رجال تستروح منهم روائح السلطة والجاه، يتهادون رياحين المجون، ويتعاطون كئوس الراح، ممزوجة برضاب[٣] أولئك الملاح، فرأيت صاحبى وقد رفع رأسه، ومد عينيه، ثم تأوه آهة الرجل الحزين، وقال يحدث نفسه بصوت تسمع فيه رنة الأسف : ألا يأتى أولئك الموكَّلون بالرد على أهل الصواب فينظروا ما صنع أهل النعيم فى يوم شم النسيم، ويروا كيف ابتذلت فيه الخدور، ونفَقتْ سوق الفحش والفجور، فلقد فعلوا تحت الحجاب ما ينكِّس له الأدب رأسه . ودعوناهم إلى غير ذلك فأبوا علينا الطلب، وأنكروا الدعوة . وقالوا : إن فى تربية النساء ما لا تحمد معه المغبَّة وإن فى اختلاطهن بالرجال ما يسوء معه المصير . وصاح يومئذ صائحهم : إن فى ذلك عقوقًا لأوامر الدين وانحرافًا عن صراط السلف الصالح، ودعانا شاعرهم إلى اليأس من جدالهم فى طلب إصلاح حالهم بقوله :

فلو خطرتْ فى مصرَ حواءُ أمنُّا ... يلوح محيّاها لنا ونراقبُهْ

وفى يدها العذراءُ يُسفرُ وجهُها ... تصافح منا من ترى وتخاطِبُهْ

---

(١) الذى يطلبه ويريده .

(٢) جارية : سفينة .

(٣) الرضاب : الريق الحلو .

وخلفهما موسى وعيسى وأحمدٌ وجيش من الأملاك ماجتْ مواكِبُهْ

وقالوا لنا رفع النقاب محلَّلٌ لقلنا نعم حقٌ ولكن نجانبُهْ

ولقد صدق الشاعر، واستهتر المكابر، وغفل الحق عن الباطل، فصمتنا حتى ينتبه الحق من غفلته، ولا زلنا إلى اليوم صامتين .

ولما نفثَ ما بصدره، وعاد إلى سكونه، تراءيت له، ثم حييته وجلست إليه أحدثه ويحدثنى، وقد أقبل بوجهه علىَّ وتبسط معى على الأنس، فذكرت له حديث سطيح وما كان من أمره، فهزه الشوق إلى رؤيته، وقد كنت أخبرته أن سطيحًا جعل لى آية إلى لقائه . فلبث يترقب معى طلوع سُهَيْل، ويتسمَّع التسبيح فى جوف ذلك الليل، حتى إذا لاح النجم فى السماء وعرفناه بما وصفه أبو العلاء :

وسهيلٌ كوجنة الحِب[1] فى اللو ن وقلبِ المحب فى الخفقانِ

مستبدًا كأنه الفارس المُعْدَ[2] ـم يبدو معارضَ الفُرسانِ

ضرّجته دمًا سيوفُ الأعادى فبكت رحمةً له الشِّعريانِ

ألقينا بالسمع وأمسكنا عن الكلام، فلما علا التسبيح، هرولنا إلى سطيح، وإذا بالصوت الذى سمعتُه بالأمس ينادى صاحبى بقوله :

صاحب مذهب جديد ورأى سديد، دعا القوم إلى رفع الحجاب، وطالبهم بالبحث فى الأسباب، فألقَوْا معه نقاب الحياء، وتنقبوا من دونه بالبذاء . أىْ فلانُ إذا مضت على كتابك خمسون حِجّة، وظهر لذى العينين إدلاؤك بالحُجَّة، تكفَّلَ مستقبل الزمان بإقامة الدليل والبرهان، فلعل الذى سخَّر لجماعة الرقيق والخصيان، من أنقذهم من يد

---

(١) الحب : المحبوب .

(٢) المعلم : الذى له علامة تميزه .

الذل والهوان، يسخّر لتلك السجين الشرقية، والأسيرة المصرية، من يصدع قيد أسرها، ويعمل على إصلاح أمرها .

أوصى نبينا بالضعيفين "الرقيق والمرأة" فخالفنا وصيته، ولم نتبع سنته ، قمنا إلى الأول فجببنْا منه المذاكير، وعمدنا إلى الثانية فزجَجْنا بها فى سجن المقاصير، فقيّض اللَّه للأول من أعدائنا من دعا إلى عتقه، وسعى سعيه فى تحريره من أسره ورقِّه، وتاللَّه ليأتين يوم تقوم فيه النساء الغربيات، تطالب برفع الحجاب عن أخواتهن الشرقيات، وهناك يعرفون قدر كتابك، ويقدرون مقدار خطئهم من مقدار صوابك . فانتظروا – وإن طال الأمد – ذلك اليومَ، ولا تبخَعْ[1] نفسَك أسفًا على أثر القوم . فهم أقل العالمين شكرانًا، وأكثر خلق اللَّه كفرانًا .

وهل أتاك حديث تلك المصرية الصالحة إذ رأت قومها يعانون أصناف الشقاء فى دفن موتاهم لوعور طريق المقبرة وقيام التلال فى سبيلها، فأنفقت من مالها على تمهيد تلك السبيل احتسابًا للخالق ورأفة للمخلوق، فكان منهم أن كافئوها على ذلك العمل المبرور بأن سموا طريق المقبرة : (بقطع المرة) . فانظر إلى أى حد بلغ العقوق من نفوس قومها، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً .

ثم انقطع صوته، فأشفقت أن يكون نصيبى من رؤيته كنصيب الأمس، فقلت له : يا ولى اللَّه، وقد سمعنا صوتك ولم ننظر إلى شخصك . فهل لك أن تمُنَّ علينا برؤية شخصك الكريم، كما منَنْتَ علينا بسماع قولك الحكيم . فقال : لقد قُدِّر أن ترانى بعد أن كُشفَ لك عن مكانى، فلا تقطع غدَك الزيارةَ، واذكر ما بيننا من الإشارة . ثم أخذ فى تسبيحه، وأخذنا فى طريقنا إلى المنازل، وما زلنا نخوض فى أحشاء الليل وفى صنوف الأحاديث، حتى بلغنا منتزه الحزيرة، فإذا نحن بشابين يمشيان على الأقدام فدانيناهما لنسمَع ما يدور بينهما . فإذا الأصغر يقول للأكبر : هل لك أن تذكر لى أقصى أمانيِّك فى هذه الحياة الدنيا ؟ قال الأكبر : أقصى أمانىَّ أن أصبح "الرئيس

---

(١) تبخع : تقتل .

الشرف" للمحكمة المختلطة، فأجلسَ فى كل عام ساعة واحدة أُنقدُ عليها ما يقوم بنفقة العام كله، فإن أسعد المصريين حالاً وأرخاهم بالاً من سَهّلت له الأقدار الجلوس على ذلك المرسى الذى لا يُسأل صاحبه عن الخطل، ولا يُخشَى عليه من الوقوع فى الزلل . قال الأصغر : أفٍّ لك ! تتمنى الرزق فى ظلال الكسل، والبعد عن الكد والعمل، أما أنا فأقصى أمانيَّ أن أكون مثل ذلك التلميذ الذى دخل منذ عامين فى مدرسة المهندسين ، فإنه قد بلغ من الإكرام والتعزيز منزلة لم تبلغها أولاد القياصرة، فإذا حق لمتعلم أن يفتخر فهو الحقيق بالفخر ؛ فإنه يتلقى دروسه على انفراد فى "فصل السنة الأولى" من طائفة من المعلمين الإنكليز يُنقَدُ أقلُّهم مرتبًا خمسًا وثلاثين قطعة من الذهب، ولو شاء القيصر تعليم نجله الوحيد لما فعل أكثر من ذلك . وهذا كله بفضل عناية ديوان المعارف وحرص القائمين فيه بالأمر على التعليم .

قال الأديب : فامتلأنا عجبًا من ذلك الحديث، وانطلقنا حتى إذا جاوزنا مربض[١] الليثين أخذ كل منا طريقه إلى داره . ولما بلغت منزلى أخذت مضجعى فعاودنى أرق الليلة الغابرة . فقلت : ما لهذا الأرق من دواء إلا لزوميات أبى العلاء . فقمت إليها وفتحتها، فأخذ نظرى فيها قوله :

الروحُ والجسمُ من قبل اجتماعهما ... كانا وديعين لا همًا ولا سَقَمَا
تفــردُ المــرء خيــرٌ من تألّفــه ... بغيـــره وتَجُــرُّ الألفة النِّقَمَا

ثم قرأت قوله :

اسمع نصيحـــــة ذى لُبٍّ وتجـــربة ... يُفدْك فى اليوم ما فى دهره عَلِمَا
إذا أصاب الفتى خطــبٌ يضــرُّ بـه ... فلا يظــنَّ جهــولٌ أنـــه ظُلِمَا
قد طال عمرىَ طولَ الظّفر فاتصلـت ... به الأذاةُ وكـان الحــظ لو قلِمَا

(١) يقصد جسر قصر النيل وتمثالى الأسدين الرابضين فوقه .

فقلت إى والله لقد صدق الفيلسوف . تعاف النفوس لقاء شَعَوب[1] وتطلب السلامة من عاديات الخطوب . والأعمار كالأظفار كلما طالت تخللتها الأقذار ، واستبشعت رؤيتها الأبصارُ .

وهكذا أفنيت فحمة الظلام وأنا أنزه النفس بين تلك السطور والكلمات، حتى صاح ديك الصباح، فأخذنى النوم، ولم أنتبه حتى شمَّر النهار أو كاد .

الليلة الثالثة :

فشمّرت إلى الموعد، ولما بلغت المكان المعهود ألفيت فيه سوريًّا من صفوة الأدباء كانت لى به صحبة قديمة، فقلت : لأمر ما جلس الأديب تلك الجلسةَ، واختلس من رقدة الزمان تلك الخلسة ، فقال بعد أن هش لرؤيتى وبش للقائى : جلست أبث إلى النيل شكاتى من أبنائى، وأنت تعلم أنهم صارمونا[2] على غير ريبة، وقاطعونا عن غير ذنب، وأصبحوا يرموننا بثقل الظل وجمود النسيم، ولم يراعوا حق الجوار، فسمَّوْا إقدامنا قحَةً، ونشاطنَا جشعًا، وكدْحنا وراء الرزق فضولاً، ونزوحنا عن الوطن عارًا، وضربْنَا فى الأرض شرودًا، وما ذنب من ضاقت عليه بلاده فخرج يلتمس وجوه الرزق فى بلاد اللَّه، اللهم إنها محاسنُ عدُّوها عيوبًا، وحسنات سمَّوْها ذنوبًا .

إذا محاسنىَ اللاتى عُرفتُ بها كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذرُ

وما ذاك إلا أنَّا لا نحس التنكيت، ولا نتقن التبكيت .

---

(١) شعوب : علم على المنية .

(٢) صارمونا بمعنى قاطعونا .

قلت له وقد وقع في نفسى كلامه، وبلغ منى مقاله : خفّضْ عنك أيها الأديب فسأرفع أمرك إلى سطيح، قال : ومن سطيح ؟ قلت : إنك لا تلبث أن تسمع كلامًا أحلى من الأربة وأروحَ للنفس من مغبة التوبة .

ثم أخبرته الخبر، فلبث ينتظر الآية معى حتى لاحت، فأخذنا طريقًا إلى سطيح، وإذا به يقول لصاحبى :

أختان أمهما اللغة العربية، تشرف عليهما الدولة العلية : مصر دار الأمان، وسورية روضة الجنان . أىْ فلانُ : ضع خريطة الأرض بين يديك، ثم أغمض بعد ذلك عينيك . واهو بأصبعك عليها، وانظر نظرة الحكيم إليها، تجدْ فى موقع ذلك الإصبع، سوريًا يعمل ويبدع ؛ فأنتم أهل العمل والنجدة، وإن كان بأخلاقكم بعض العهدة[١] .

يهبط السورى مصر لطلب القوات ، فإذا أثرى بكده وعمله ، وأراد القفول إلى وطنه ، حمل تلك الثروة إلى الدولة العلية : ويهبطها الرومى ويدعى الأول بالدخيل . ولم يجر للثانى ذكر على اللسان ، وهو الحقيق بالجفاء والعدوان .

أنسى أبناء اللسان العربى أن جماعة السوريين قد بلغوا فى نشر اللغة العربية منزلة لم تبلغها جماعة المبشرين فى نشر الملة المسيحية ؟

ذكر ابن عقيل ذلك التاجر السائح أنه اتفق له فى إحدى سياحاته ببلاد الصين أن حاول الدخول فى مسجد من مساجد المسلمين فيها ، فوقف فى وجهه خادم المسجد وقال له : إن بيوت الله لا تطأ أرضها الطاهرة قدم غير المسلم ، فاخرج منها فإنى لك من الناصحين . قال ابن عقيل وقد ساءته قولة الخادم : ومن زين لك الحكم بعدم إسلامى ولم ترنى قبل اليوم ؟ قال سمعتك تتكلم بالعربية ، ولا نعهد فى بلادنا من

---

(١) أعنى بعض المآخذ .

يتكلم بتلك اللغة إلا جالية السوريين من المسحيين . ولولا أن شهد بعض من كان حاضراً ممن يعرفون الرجل بصدق إسلامه لحيل بينه وبين ا لصلاة .

ولو كان نصيب المسلم السورى من التعليم نصيب المسيحى من أبناء بلده لرأيت منه رجلاً إذا تعلم أفاد ، وإذا عمل أجاد .

هذا صاحب طبائع الاستبداد وأم القرى[١]، بلبل أفلت من يد "الصياد"[٢] فغنَّى، وشم نسيم الحرية فتمنى . وهذا صاحب المنار[٣] فاءت له الحرية بمذقة من الظل، وجادته سماء الاستقلال بقليل من الطل، فصاح صيحة فى خدمة الدين اخترقت أحشاء الهند والصين . وذلك صاحب أشهر مشاهير الإسلام[٤]، غادر أرض الشام فألَّف، ونزل فى دار الأمان فصنَّف . ولكن لأمر سبق فى علم اللَّه قُدِّر على المسلم أن يعيش مع الهَمل، وأتيح للمسيحى أن يصبح من أهل العلم والعمل .

ثم أمسك سطيح عن الكلام، فقال له صاحبى السورى : لقد ذكرت يا ولىَّ اللَّه فى عَرَض حديثك أننا وإن كنا من أهل العمل والنجدة، إلا أن بأخلاقنا بعض العهدة . فما عسى يكون ذلك النقص الذى يراه فينا إخواننا المصريون؟

قال سطيح : إننى لا أكذب اللَّه . لقد أكثرتم من التدخل فى شئونهم فعز ذلك عليهم من أقرب الناس إليهم . نزلتم بلادهم فنزلتم رَحْبًا وتفيأتم ظلالهم فأصبتم خطبًا. ثم فتحتم لهم أبواب الصحابة فقالوا أهلاً . وحللتم معهم فى دور التجارة فقالوا سهلاً. لو أنكم وقفتم عند هذا الحد لرأيتم منهم وداً صحيحًا، وإخلاصًا صريحًا . ولكنكم تخطيتم ذلك إلى المناصب، فسددتم طريق الناشئين، وضيقتم نطاق الاستخدام على الطالبين . وأنتم تعلمون أن المصرى يعبد خدمة الحكومة، فهو يصرف إليها همه،

---

(١) "طابع الاستبداد" كتاب ألفه السيد عبد الرحمن الكواكبى الحلبى . وكذلك "أم القرى" .

(٢) يريد بالصياد من اضطهدوه فى حلب من حكام الدولة العلية .

(٣) يقصد السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار .

(٤) هو جورجى زيدان مؤسس دار الهلال .

ويقف عليها علمه . فهى إن فاتته فاته الأمل، وفتر نشاطه عن السعى والعمل . وهو لا يفتأ ينتظر الدخول فيها بقيةَ عمره، انتظار القوم عودة الحاكم بأمره . فما ضركم لو جاملتموهم، فرغبتم عن الانكباب فى دخول ذلك الباب ؟ أليس لكم عنه مندوحة ، وأمامكم وجوه الرزق كثيرة ، ومادتكم فى الكسب غزيرة ؟ حُبِّبَتْ إليكم الحركة وحُبِّبَ إليهم السكون . وجُبلتم على الجد وجبلوا على المجون . فاصرفوا نفوسكم عن مزاحمتهم فى أعز الأشياء عليهم ، حتى تخلق الحاجة فى نفوسهم شعوراً جديداً، فيحُسَّ ناشئهم أنه إنما يتعلم لنفسه ولأمته لا لخدمة حكومته .

قال صاحبى : وهل فى ذلك ما يأخذه علينا الآخذون، وأنت تعلم أن الحياة مزدحَم الأقدام، وملتحَم الأقوام؟ فإن كنا قد أخطأنا فى فعلنا فهل أخطأت الحكومة فى قبولنا ؟ وهل أصاب المصرى فى بغضنا؟

قال : لقد أصبتم فى عملكم وأصابت الحكومة فى قبولكم . وما أخطأ المصرى فى بغضكم . أما أنتم فطلاب للقوت وطالب القوت ما تعدى . وأما الحكومة فضالَّتها عامل ينصح فى عمله، فهى أنَّى وجدته طلبته . وأما المصريون فلأنكم غلبتموهم على أمرهم بانتشاركم فى أنحاء قطرهم . وهم يرون أن فيهم الأكفاء، لحمل تلك الأعباء . ولقد كنتم منذ بضع سنين لا تجاوزون ستة الآلاف عداً، فأصبحتم اليوم وقد نيّفتم على الثلاثين .

قال الراوى :

ثم سكت سطيح صاحبى، فقلت : يا ولىَّ اللَّه، إن عندى سؤالاً طالما بحثت فى جوابه فلم أقع فيه على الصواب . قال : قل وأوجز . قلت : كلما نظرت فى جالية السوريين المسيحيين رأيت بينهم رجالاً إذا هزوا أقلامهم أمطرت ذهبًا، وإذا خطُّوا بها سطرت عجبًا . ولو شئتُ أن أعدّ منهم عددت كثيراً، هؤلاء أصحاب المقتطف، ودائرة المعارف، والضياء، والهلال، والجامعة، وهؤلاء أصحاب الصحف اليومية وغيرها .

ولكننى كلما نظرت فى جالية السوريين من المسلمين لم أرَ بينهم غير البائع والسمسار، ورائض الخيل والجزار . فما علة ذلك التفاوت العظيم والقوم يسكنون فى فرد إقليم .

قال : علة ذلك وَهْم رسخ فى نفوس المسلمين ألا يدخلوا أولادهم فى مدارس المسيحيين ؛ ففاتهم بذلك تحصيل العلم، ومات أكثر نفوسهم بحياة ذلك الوهم .

قلت: لقد أمنتْ بحمد الله نفوسنُا من دخول ذلك الوهم ؛ فأرسلنا من مصر فى هذا العالم إلى كلية واحدة من كليات المسيحيين ببيروت مائة وخمسين تلميذاً .

قال: لقد سلمت نفوسكم من الأوهام ، وأصيبت عزائمكم بأنواع السَّقام . أليس من العار أن تكونوا أكثرَ مالاً وأعزّ نفراً ، ولا تجدوا فى مصر لتعليم أولادكم مستقراً ، وليست بيروت بأخصبَ من عروس النيل أرضًا ، ولا بأوسعَ من مُلْك مصرَ طولاً وعرضًا؟ أيعجز فى مصر عشرة ملايين من النفوس عن بناء كلية ، ويظفر عُشرُ معشارهم فى بيروتَ بنيل تلك الأمنية .

ثم أمسك عن الكلام، وأخذ فى تسبيحه ، فأخذت بيد صاحبى وانطلقنا فى سبيلنا راجعين . ولما بلغنا قصر النيل تياسر صاحبى وتيامنت . حتى إذا بلغت الدار، وعاودتنى تلك الأفكار ، قضيت الليلة على نحو ما قضيت به أختها السابقة، ولبثت بالمنزل إلى وقت التطفيل[١] .

الليلة الرابعة :

دعانى الموعد إلى المسير فركبت نعلى، وأعملت قدمى. ولكن النهار أسرع منى مطية، وأحث سيراً. فأدركنى الظلام قبل أن أدرك المقصد . فنبهت العزيمة، واحتثثت[٢]

(١) وقت التطفيل هو وقت الأصيل أى قبيل غروب الشمس .

(٢) حث الدابة واحتثها : حملها على السرعة .

الأقدام، حتى بلغت المكان المعهود وقد أجهدنى السير، وكدنى النصب. فإذا فيه إنسان ينوح من فؤاد مقروح. فقلت ما خطبك أيها النائح ؟ فقال وهو يشرق بعبراته، وأنفاسه تتوقد بزفراته ومن يا ترى أولى منى بالبكاء، وقد أقصدنى[١] بسهامه القضاء، كان لى أخ أسكن إليه، وأعتمد بعد الله عليه. إذا أملقت[٢] واسانى ، وإذا تربت[٣] أعطانى. أنام للمرض ويسهر علىّ، وأمشى للغرض ويجرى بين يدى. فما زلت مكفى المئونة بكدحه، غنيًا عن المعونة بنصحه، حتى انتويت[٤] به منذ عام. غاله رومى بمديته، وحرمنى من حسن طلعته : بقر بطنه، وضر دفنه ، وحالت بينى وبينه حمايته قومه .

قال الراوى ثم أمسك الحزن لسانه، وأسالت الذكرى نفسه، فما زال بين الزفرة والشهيق، حتى أشفقت عليه أن ينوب كمداً، فأقبلت أنفس عنه بسرد العظات، وأدعوه إلى الأخذ بالتأسى حتى رقأ دمعه[٥]، وهمدت نار أحشائه. ولما تماسك بعض الشىء أنشأت أقص عليه خبر سطيح، فارتاح إلى لقائه، وقد حان الوقت، فقمنا إليه وإذا به يقول :

واجد[٦] موتور ، وساهد مقهور. قد واصل النواح ، فى الغدو والرواح ، على دم هدر ، وأخ قبر. أى فلان . مادام امتياز الأجانب ، فلغير المصرى عزة الجانب. الرومى يطعن بمديته، ويستظل بعلم دولته ، والمصرى يلم القتيل، ويخضع خضوع الذليل. كأنما دية القتيل المصرى كرامة للقاتل الرومى، كما قال شاعركم :

---

(١) أقصده السهم : اخترقه، ونفذ من الجانب الآخر .

(٢) الإملاق : الفقر .

(٣) ترب بمعنى افتقر أو اغتنى : ضد ، والمراد هنا الأول .

(٤) انتويت به : منيت بفقده .

(٥) رقأ : جف .

(٦) واجد : حزين .

وهل فى مصر مفخرة　　سوى الألقاب والرتب
وذى إرث يكاثرنا　　بمال غير مكتسب
وفى الرومى موعظة　　لشعب جد فى اللعب
يقتّلنا بلا قود　　ولا دية ولا رهب
ويمشى نحو رايته　　فتحميه من العطب
فقل للفاخرين أما　　لهذا الفخر من سبب
أرونى بينكم رجلاً　　ركينًا[1] واضح الحسب
أرونى نصف مخترع　　أرونى ربع محتسب
أرونى ناديًا حفلاً　　بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم　　من التعليم والكتب
وماذا فى مساجدكم　　من التبيان والخطب
وماذا فى صحائفكم　　سوى التمويه والكذب
حصائد ألسن جرت　　إلى الويلات والحرب[2]
فهبوا من مراقدكم　　فإن الوقت من ذهب
فهذى أمة اليابان　　ن جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شغفا　　وهمنا بابنة العنب

ولو شاء لابس الرداء الأحمر ، لدفع عنكم هذا الهواء الأصفر ، وأمتعكم بالحياة فى أعطاف العيش الأخضر . ولكن ترككم نهبًا للامتيازات ، وغادر صدوركم ميدانًا للحزازات. حتى تسأموا حياة الإذلال، وتسكنوا إلى رجال الاحتلال، ولا تجدوا لكم من وقاية ، فى غير طلب الحماية.

---

(١) ركينًا : قويًا يركن إليه .

(٢) الحرب : فقد المال .

وهنالك تتساوى الأقدام ، وينشر فوقكم علم السلام . وهذا من دهاء القوم وسياستهم ، وحذقهم فى الأمور وكياستهم . وكما أن لكل أمة قسمتُها من الفضيلة ، فلهذه الأمة قسمتُها من الحزم ، وحصافة الرأى ، وبُعد النظر فى العاقبة . وما اجتمعت هذه الخلال فى أمة إلا وكانت خليقة أن يتناول حكمُها سكّانَ الكواكب لا هنودَ آسيا وزنوج إفريقيا .

وهُمْ أهل سياسة وخَتْل[(١)] ، وقد بلغوا من كليهما كوكبيهما . أما سياستهم فهى أشبه شىء بالكهرباء تدرك العينُ فعلها ، ولا يدرك العقلُ كنهَها يعنعنونها[(٢)] ويحمونها ، ويطلقونها بعقاقير يعرفونها . ثم تُزفُّ إلى الناس ، فلا والله ما ينفذ فيها ذكن[(٣)] الفطن ، ولا يحيط بها دهاء الحُوَّل[(٤)] . فلولا التقى لنحلناهم[(٥)] علم الغيب . وأما ختلهم فبينا هم ضعاف يُغضون للخطب إذا هم أشداء ركّابون للهول . فهم أشبه شىء بالخمر : ضعيفة فى الكأس ، شديدة فى الرأس . ولهم نظر يشفُّ له كل شىء كأنما قد جمعت أشعة رانتجن من أشعته ، وإرادة سخّر لها البخارُ فى البحار ، كما سُخِّر الريح لسليمان ، وهم إذا دخلوا قرية جعلوا أعزّةَ أهلها أذلَّة ، وكان لهم فى اجتذاب ثروتها كِياسة الإسفنج فى اجتذاب الماء مع ذلك الرفق والسهولة .

ولما دخلوا مصرَ دخولَ الشتاء على الشجر – ويا ليت طريقه كان على وادى التِّيه يوم دخولها – إذا أهلُها فريقان ، فريق نظر إلى مساويهم بعين الأرمَدِ فملأ

---

(١) غدر .

(٢) العنعنة : ذكر السند فى الرواية .

(٣) الفراشة .

(٤) الداهية الخبير بتحويل الأمور .

(٥) نله الشىء : عزاه إليه .

ماضغَيْه[١] بمحاسنهم . فكان مثله وإياهمْ كالظلام والنار : يُخفى دخانَها ويُبدى سناها . وفريق ركب متن الغُلواء[٢] فى ذم أفعالهم حسنةً كانت أو سيئة . فكان مثلُه وإياهم كالإنسان والزمان لا يشكر إذا أقبل ، ولا يصبر إذا أدبر ..

ومن تأمل فى رقعة شطْرَنْج الشرق ، ورأى اليدين اللتين تجولان فيه ، وعلم أن الأولى تديرها الأناة السكسونية ، وأن الثانية تحركها الخفة الفرنسية حكم بالفوز للتى يجب أن يحكم به كل من فرّق بين عاقبة البدار تخالطه الخفة ، وعاقبة الريْث تخطئه الغفلة .

ثم مسك عن الكلام ، وأخذ فيما كان فيه ، فانصرفت بصاحبى ، وجعلت أتحرى مسرَّته ، وأتوخَّى تسليتَه ، حتى بلغنا حيث نفرق ، فعطفتُ يمنةً وعطف يَسرة . وما أنا إلا أنا خطوتُ فى طريقى بعض الخطوات حتى لمحت شيخين يمشيان على مهل ، فقلت أدانيهما ، فلعلى أسمع منهما ما يَذْهب بذلك الهمِّ الذى حملتُه من حديث صاحبى الموتور ، فأسرعت الخطى ، حتى سرت على مسمع منهما ، فإذا أحدهما يقول للآخر : لقد أفاض الفلاسفة فى تعريف السعادة ، وتفننوا فى تصوير اللذة . ولكنى لم أجد فيهم من نفذ فهمه إلى حقيقة ذلك التعريف . جهلوا أن السعادة كلَّ السعادة فى شياخة السجادة ، وأن أسعد الناس حالاً ، وأرخاهم بالاً ، جالس فوقها ، يجرى رزقه من تحتها . فهى الجنة التى تجرى من تحتها أنهار النذور ، والكنز الذى لا تفنى ذخائره أمدَ الدهور .

وأسعدُ من هذا الحىِّ ميتٌ يسخَّر له الله من يبنى على قبره قبة عالية ، ثم يدعو الناس إلى التبرك بتلك العظام البالية ، فتجىء سعادته فى مماته ، على قدر شقائه فى حياته . وتطير بذكر كراماته الأنباء ، وتحسده على تلك النعمة الأحياء حتى يقول فى

---

(١) الماضغان : عرقان فى اللحيين ، والمراد لهج بالثناء عليهم .

(٢) الغلواء : الكبر والعنجهية .

ذلك قائلهم :

أحـــيــاؤنا لا يـرزقـــون بـدرهَـمٍ ... وبـألـف ألـف تُـرزقُ الأمـــــوات

مَنْ لـي بـخظ الـنـائـمين بـحــفـــرةٍ ... قـامت على أحــجــارها الصلواتُ

يسعى الأنام لهــا ويجـرى حـولهــا ... بحــــرُ الـنـذور وتُـقـــرأ الآياتُ

ويقـــالُ هذا الـقـطْبُ بـابُ المصطفى ... ووســيـلةٌ تُـقـضى بهــا الحـاجـاتُ

قال الثانى : لقد صدقت فى تعريفك ، وأنصفت فى وصفك ، ولكنى أعرف السعادة منهجًا آخر قد سلك فيه بعض الأقوام . فأصبحوا أسعدَ الأنام . ألم تعلم – وفقك الله – أن السـعـادة كل السـعـادة فى الوصـاية على اليتيم وفى النظارة على وقف حُبِسَ على العظم الرميم[١] ؟ يأكل الأول كما شاء ولا محاسبة ، ويلتهم الثانى ما أراد ولا مراقبة .

وإنى أعرف فى مصر قومًا قد احترفوا الوصاية على الأيتام ؛ فهم كلما حدث يتم بالبلد رشحوا لتلك الوصاية ، وعملوا جهدهم للوصول إلى هذه الغاية .

قال صاحبه : صدقت ولكن أتعرف السعيدة من النساء كما عرفتَ السعيد من الرجال ؟

قال : السعيدة من النسـاء من سهَّلت لها الأقدار ، فأصبحت تُدعى شيخة الزار . فهى تملأ يديها ذهبًا ، وبيتـهـا نَشَبًا[٢] ، وترفُل فى الحرائر من هبات الحـرائر[٣] ، ورأس مـالهـا فى تلك التـجـارة ، رُقيةٌ بأسـمـاء بعض العفـاريت الطيارة . تدخل على المقصورات فى القصور ، والمخدورات فى الخدور . فتفتق بطبلها طبل آذانهن ، وتُهز بأسماء الجن ونواعم أبدانهن ، وتُعمى بدخان البخور نُجلَ أعينهن . حتى إذا امتلكت

(١) الرميم : البالى .

(٢) النشب : المال .

(٣) «الحرائر» الأولى حرائر الملابس ، و«الحرائر» الثانية حرائر النساء ، وهنا جناس واضح .

منهن الوجدان ، وصار لهم عليهم أى سلطان ، حكمت فيهن حكم المنوِّع البارع ، على النائم الخاضع .

ولما انتهيا من تعريف السعادة وانتهيتُ إلى دارى غادرتهما يضعان من تعاريف الأشياء ما يرسمه لهما الخيال ، وتملى عليهما الآمال . فدخلت الدار وروحى مجروحة بشكوى ذلك الموتور ، فما زلت أفكر فى آلام الشرقى ، وشقاء المصرى ، حتى ضاق الصدر ، وعزب الصبر ، فقمت إلى ربيع الأرواح ومسرح النفوس ، وأعنى به اللزوميات . فطويت بفتْحِه كتبَ الأوهام ، ومحوت بسطوره سطورَ الآلام ، وجعلت أطالعُ حتى تبينت الخيطين ، وميزت ما بين الفجرين[1] ، فحنَّض الجنب إلى المضجع ، ومالت العين إلى الهجوع فنمت ما شئت .

الليلة الخامسة

وانتبهت وقد اكتهل النهار ، فأصلحت من شأنى ، وخرجت وأنا على غير عجلة من أمرى ، لفسحة الوقت ، وبعد ساعة اللقاء ، فمشيت مشية المتفرج ، حتى بلغت المكان المعهود ، فإذا فيه إنسان تنطق معارف وجهه[2] عما أنحتْ عليه ضلوعُه من سأم العيش وضجر الحياة ، فدانيته وحيَّيته ، فرد التحية بأحسنَ منها . فقلتُ له مالى أراك هكذا كاسف البال سيئ الحال ، ومالى أرى فى عينيك أثر البكاء ، وألمح على وجهك غبار الشقاء ، فقال وهو يخفى من شجونه ويغيِّض من شئونه :

إنى امرؤ خفيف الحال ثقيل الأعباء ، رزئت بفقد أبى قبل أن أبلغ الغاية التى إليها مدى أملى وأمل الأهل والأقارب . فانقطعتُ عن الدرس فى مدارس الحكومة ، لقِصَر يدى عن بلوغ نفقة التدريس التى اشتطت فيها . فأصبحت عيالاً على أهلى ، ولبثنا

---

(١) يريد بالخيطين الأبيض والأسود ، وبالفجرين الصادق والكاذب .

(٢) تقاطيع الوجه .

نعيش جميعاً من فضله كانت لنا حتى أمسينا ذات ليلة ولم نجد ما نستصبح[1] به فى الظلام ، فكرهت أن أجمع عليهم بين خفة الحال وثقل وجودى بينهم . فخرجت أقصد وجوه الرزق لعلىّ أصل إلى عمل أكسب منه ما أدفع به عنى شرَّة العوز . وذلة السؤال ، فأخطأنى التوفيق ، لأننى لم أكتب من أهل الشهادة . فما زلت أنظر فى وجوه الأعمال وأتبصر فى أيِّها أقل مئونةً وأكثرُ ربحًا ، حتى فتقَ لى الذهن أن ألقى بنفسى فى غمار المحررين ، وأن أنشئ صيحفة أسبوعية ، فصحّت عزيمتى على الدخول فى زمرة الكتاب – وإن لم أكن منهم – وأقدمنى على ذلك ما أراه كلّ يوم من ترامى الناس على احتراف تلك الحرفة ، وغفلة أهلها عن الذود عنها ، حتى عبث بها الدعىُّ ، وغضّ منها اللصيق . ولما طوّعت لى النفس ذلك أصدرت الصحيفة ، وجعلت أكتب فى الفضيلة ، وأدعو الناس إلى الأخذ بها ، وأستعين بما سطَّره الأول ، وجرى عليه الأخير ، وأستمدّ من بطون الكتب أحكمَ الأمثال ، وأمثلَ العظات ، وأكدّ ذهنى فى الاستنباط ، وأنصب بدنى فى السعى ، وأنشئ الأدباء فى دورهم ، فأطلب إلى هذا مقالة فى الأدب ، وإلى ذلك كلمةً فى الفضيلة فاضت أنهار الصحيفة بالنصائح ، وجرى تيارها بالمُلَحِ والطرائف .

ولكن فاتنى أن أنظر نظرة فى أخلاق الأمة التى أكتب لها ، وأن أجول بالفكر جولة فى وجوه عاداتها ، فلم تنفُقْ لذلك سلعتى ، ولم تنتشر صحيفتى . فجعلت أبحث عن علة ذلك الكساد ، وعدم تنفيق تلك السلعة ، حتى اهتديت بعد كد القريحة إلى أن ذلك راجع إلى فساد الأخلاق ، وأن العامة قد نامت عنها وعَّاظها ، فيبس ما بينها وبين الفضيلة ، وأخصب ما بينها وبين الرذيلة ، وذكرت قول ذلك الشيخ الحكيم : «هلاك العامة فيما ألفَت». فوددْت لو أننى كنت من رجال العلم وفُرسان البيان فأشُنّ الغارة على تلك العادات والأخلاق ، وأشكّ باليراع أضلاعها ، حتى أراها تأنَقُ[2] لغير المجون ، وجفافُ فى اليراع ، وخلة[3] أشكوها وحياة أستمرت[1] فقلت لنفسى : أيتها النفس ،

(١) أى ما نستضىء به .

(٢) تأنق : تفرح .

(٣) الخلة : الفقر .

لقد أعذر[٢] صاحبك وما قصَّر فأنت اليوم بين أمرين ، إما الفضيلة والنعش ، وإما الرذيلة والعيش .

وكانت من غير تلك النفوس المطمئنة ، والتى بشرها الله بالجنة ، فشَمَسَت[٣] على الأولى ، وسكنت إلى الثانية . فما زالت تأمرنى بالسوء حتى أصبحت صحيفتى مجموعة للنقائص ومُستنامًا للعيوب. وأصبح يراعى وقد استمد من لعاب الأفاعى لعابه ، واستعار من كُتّاب المسامير[٤] سبابه . فما زلت أطعن على زيد لأجتَعِل[٥] من عمرو ، وأغضُّ من خالد لأشدَّ من بكر حتى زلَّ الرأى وعثَر القلمُ . فأصبحتُ غريم الحكومة ، وخوُصِمت إلى المحاكم فأمسيت مخصوماً[٦] ، وبت وقد اصطلحت على الخطوب ، وطولبت بالتكفير عن الذنوب ، بأن أدفع عشرة ذهبًا ، وأتخذ لى غير الصحافة سببًا . ومن أين لى - أسعدك الله - أن أقوم بدفع هذا القدر من المال ؟ ولقد كنت كلما همَمْت بطبع الصحيفة أجمع من كل جيب من جيوب المشتركين قرشًا كما يجمع العامل فى المطبعة من كل بيت[٧] حرفًا .

لذا ترانى ضيقَ الصدر لضيق ذات اليد ، ولقد أعطيت الله عهدًا إنْ أنا خرجت من هذا المحذور كفافًا ، لأحطِّمنّ هذا اليراع العاثر ، ولأنبذن تلك الحرفة التى اضطرتنى إلى التحام[٨] الأعراض ، والميل مع الأغراض . ثم رفع يديه ضارعًا إلى الحق ، وقال :

---

(١) استمر الشىء إذا وجده مرًا .

(٢) أعذر الرجل إذا جاء بالعذر .

(٣) شمست أى نفرت .

(٤) المسامير جريدة كانت تصدر إذ ذاك معروفة باللغو والإفحاش .

(٥) أخذ الجعل أو جعالة .

(٦) أى مغلوبًا فى المخاصمة .

(٧) البيت هنا بمعنى الخانة .

(٨) التحام الأعراض : أكلها كما يؤكل اللحم .

اللهم إن كنتَ تعلم أنني دخلت فى هذه الحرفة كارهًا ، وسرتُ فى تلك الطريق مغلوبًا على أمرى ، فنفّسْ كربتى وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين .

فقلت له وقد أدركتنى رحمة عليه : أراك قد خاصمت نفسك إلى نفسك فحمِدت مغبّة الخصومة ، ورضيت حكومتك[1] عليك . فلا تجزع بعد ذلك ، فإنه لا شىء أمْحَى للخطيئة من التوبة يظهر أثرها فى نفس الخاطئ . وإنى أرى فى نفسك ، وأتبين فى وجهك أثرَ ماضيك . ولا أعلم فيما أرى شيئًا هو أبلغُ فى النفوس من يقظة الوجدان وحياة الشعور ، فإن كنت قد صدقتنى فيما قلت ، وكان لسانك شاهدًا عدلاً على قلبك ، فأنت حقيقٌ ألاّ تعود إلى ما أوضعت[2] فيه من الجهالة ، وخليق ألا يفُتَّ فى ساعدك ما وصل إليه أمرك من الفشل . فلا يكبرنّ عليك أمرُ الغرامة . فما هو ببالغ من نفسك ما بلغته أنت منها ، وهلم بنا إلى «سطيح» يحدثك بمأتى حالك . ثم حدثته حديثه فلبث ينتظر معى الآية ، فلما لاحت أخذنا طريقنا إلى «سطيح» وإذا به يقول :

ظالم مظلوم ، ولائم ملوم ، تزيَّا غير زيه ، وأقام فى غير حيِّه ، فأصابه ما أصاب الشرقىَّ ، وقد نزع إلى تقاليد الغربىّ ، فأصبح معنيًا بهذا البيت ، وأحسبه من شعر الكُمَيّت :

فيا موقدًا لغيرك ضوءُها ويا حاطبًا فى غير حبلك تحطبُ

أىْ فلانُ : إن للصحافة رجالاً وللسياسة أبطالاً ، طرَّقوا[3] لها إلى الضمائر وتناولوا بها ما وراء السرائر . فسددوا الكلام كما تسدد السهام ، وبلغوا بالمقال ما لا تبلغه النصال ، يُعجِّبونك[4] فتعجب ويستغضبونك فتغضب ، فهم ملوك الأفكار

---

(١) حكومتك أى حكمك الذى تصدره .

(٢) وقعت فيه .

(٣) جعلوا لها طريقًا .

(٤) يطلبون منك أن تعجب .

ينقشون فى النفوس ما نقشوا فى الروس ، ويودعون فى الصدور ما أودعوا فى السطور ، وهم كما قال صاحب كليلة[١] «يُحقُّون الباطل ، ويبطلون الحق ، كالمصور الذى يصور فى الحائط صوراً كأنها خارجة وليست بخارجة ، وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة» . فأين أنت من رجال إذا استلوا أقلامهم ثلوا[٢] العروش الرأسية ، وإذا أرسلوا بيانهم عطفوا القلوب فى قطرات مدادهم آمال الراجين ، تبتدر الأسماعُ ما يقولون ، وتنهب الأبصار ما يكتبون ، فما أنت يا ولدى فى الرأس منهم ولا الذنب ، ولا علمك من ذلك العلم ، ولا أدبك من ذلك الأدب ، ولكن تأنَّقَ الشيطان لك فى تزيين الضلال ، وألقى فى أمنيتك أن تصبح من رجال هذا المجال ، فساقك إلى نحسك ونكسك ، ووجد له منك معيناً على نفسك ، فأخرجت للناس تلك الصحيفة ، ثم جعلته لك فيها خليفة فما فتئ يملى عليك ، وهو جاثم بين كتفيك ، حتى أصبحت أشدّ سواداً من صحيفة أبى لهب ، وأظلمَ ممن افترى على الله الكذب ، فأتعبت الكرام الكاتبين ، وأحرجت الكتبة الراشدين ، وشدَّ منك إقبالُ العامة ، وسكوت الحامّة[٣] ، وشاركك القارئ فى آثامك ، وافتتن المصرى بكلامك . والمصرى مفتون بحب الهزل والمجون ؛ فهو أين حلّ له ولىٌّ من الذل ، وأين كان له قسطه من الهوان ، قد سكنت فى نفسه الهيبة ، واقترنت بأعماله الخيبة . تلك التى استعاذ منك السُّلَيْك العدّاء حين دعا ربه بذلك الدعاء «اللهم إنك تهيئ ما شئت لم شئت ، اللهم إنى لو كنت ضعيفاً كنت عبداً ، ولو كنت امرأة لكنت أمة ، اللهم إنى أعوذ بك من الخيبة ، أما الهيبة فلا هيبة» وكذلك أنت قد خاب أملك ، وخانك عملك ، وتعذر عليك التماس الخلاص ، وحق عليك بما قدَّمت يداك القصاص .

---

(١) هو الكاتب المعروف ابن المقفع صاحب كتاب «كليلة ودمنة» .

(٢) ثل العرش : هدمه .

(٣) تطلق الحامّة على العامة والخاصة ، والمراد هنا الثانى .

ثم أمسك عن الكلام ، فقال صاحبى : إنى أتيت تائبًا ، وفى الحق راغبًا ، وما كنت لولا الحاجة بخابط فى تلك الضلالة ، لولا أننى رأيت القوم يركبون تلك الطريق فركبت مركبهم ، واقتفيت أثرهم ، ولا علم لى بخشونته ، فما زال يستتيهنى[١] فيه الشيطان حتى ضلَلْت مع الذين ضلوا من قبل ، وما أنا فى ذلك بأول الخاطئين .

قال «سطيح» : أما اقتفاؤك آثار القوم فأنت فيه الحقيق باللوم ، فما الذى غبطت من حالهم حتى اقتديت بأعمالهم ، على الكدية[٢] . والسؤال وفيهما ذل الرجال ، أم على السجن وفيه يُقرَعُ السن[٣] أم هاجت حرصك تلك الإتاوة التى ضربوها على أهل الغباوة ، فأصبحتَ حُمدَةً[٤] لمن أعطى وإن كان لئيمًا ، لُمَزَةً[٥] لمن منع وإن كان كريمًا ، وأما اعتذارك بالحاجة والإملاق فى الهبوط إلى تلك الأخلاق لعذر يدفعه الواقع ، ولا يستأذن له على المسامع ؛ فكم فى هذه العشرة الملايين من صاحب حاجة أو مسكين ، فما لهم لم يشاركوك فى أمرك ، ولم يعتذروا للناس بعذرك / فإن قلت : إنهم لا يحسنون التحبير ، ولا يتقنون التحرير ، فكلكم سواسية فى البحر والقافية ، ليس منكم رجل رشيد ، ولا فيكم كاتب مجيد . ولكنهم عملوا أقدارهم ، فلم يتعدوا أطوارهم ، وجهلت قدرك ، فتعدّيت طورك . وأما التوبة التى تزعم أنك تبتها ، وبالندامة على ما فرط منك اتبعتها ، فهى إن كانت نصوحًا فقد بلغت بها ثمنًا ربيحًا ، ولا تلبث أن تقفك على سبيل الكسب من الحلال ، وتنحرف بك عن طريق الغىّ والضلال .

ثم انقطع الصوت فقلت : ألا يحدثنا ولى الله عن تلك الكلمة التى أخذها الناس

---

(١) يستتيهنى : يوقعنى فى التيه .

(٢) الكدية : الغصة .

(٣) كناية عن النوم .

(٣) الحمدة الذى يبالغ فى حمد الناس بما ليس فيهم .

(٤) اللمزة الذى يسعى بالنميمة فى الناس .

على غير وجهها ، فذهبت فيها الظنون مذاهبها ، وركبت الأوهام مراكبها ، ثم أسكنوها فى غير مغناها ، وأرادوا منها غير ما أرادت منهم ، فذلّت بهم وذلوا بها ، وكان ذلك علة هذه الفوضى التى تراها فى الصحف ، وذلك الفساد الذى سرى فى الأخلاق ، ولولاها لما هبط ذلك الواقف بجانبى إلى حاله تلك من سوء المنقلب وشر المصير .

قالوا : عن الحرية سألت ، وعلى الخبير سقطت ، اعلم يا ولدى أنها معنى الوجود وملاكُ الحياة ، ففى فقدها سجنُ النفوس ، وعِقالُ العقول ، وقيدُ الأفكار ، وما امتُحنتْ أمة بمحنة هى أقتلُ لها من فقد الحرية ، وخمود الشعور ، وإنى أراكم على ما أنتم فيه من الضعف والتقاطع قد أمتعكم الله بحرية الحياة ، فأمسيتم تتقلبون فى نعمة لم تعرفوا لله حق الشكر عليها .

إذا ألفَ الشىء استهان به الفتى ... ولم يره بؤسَى تُعد ولا نُعمَى

كإنفاقه من عمره ومساغِه ... من الريق عذبًا لا يُحسُّ له طعمَا

ألا تنتشرون فى الأرض فتنظروا حال غيركم من الأمم الإسلامية التى سلط الله عليها ما سلط عليكم ؟ تالله إنكم لتجدونهم بحسرة النظر إلى ابتسامة من ثغر تلك العروس[١] التى جلاها لكم الاحتلال فجهلتم قدرها ، ولم تدفعوا مهرها ، فلما علم منكم ذلك أقام لكم مكانها عروسًا من الشمع . يحاول إيهامكم بوجودها كى تُخدعوا بالنظر إليها كما خدعتم نيلكم من قبل بعرائس الطين بعد عرائس الحور العين[٢] .

وكان مثلكم فى ذلك مثل السجين فى مكان غاب سجانه ، وفُتح بابه ، فهو كلما همَّ بالانفلات من ذلك السجن نظر فى رجله قيدًا من الخوف ، ولمح على الباب حارسًا من الوهم . أفٍّ لكم ! لقد منّ الله عليكم بقسم من الحرية ، لو قُسِّم على المسلمين فى

---

(١) يريد بالعرس الحرية .

(٢) يشير إلى العروس الإنسية التى تلقى فى النيل ، وكيف استبدل بها أخرى من الطين .

الأرض لوسعهم ، فخرجتم به عن أفق الحرية الشرعية ، ولم تقفوا به عند حد الحرية الفلسفية ، بل رسمتم للحرية تعريفًا أنكره الشرع ، وتسخَّطت له الفلسفة .

عرّفها الأول فقال : إنها تكون فى حفظ الدين والعرض والشرف والمال . وأوسعت الثانية دائرة ذلك التعريف فقالت : هى أن يكون المرأ حرًا فى عمله ورأيه على شريطة ألا يدعو ذلك إلى أذى غيره . فما أعجبكم الأول ، ولا راقكم الثانى على ما فيه من التسامح . بل زعمتم أن تعريفها الشافى هو أن يعمل المرء ما شاء أن يعمل ، ويرى من الرأى ما شاء أن يرى ، وأن سبيله فى ذلك أن يطرد[1] به جواد الإرادة المطلقة فى ميدان الشهوات ، لا يبالى دارسُ به آدابَ ذلك المجتمع الإنسانى إن تخطى أعناق الفضائل .

قلت : قد علمتُ أن الذى نحن فيه لم يكن من الحرية فى شىء . فما رأى ولىِّ الله فى تلك الصحف التى باتت تنبح بغير فُرقان[2] على صاحب الدار والغريب ، وتقرض بلا مبالاة عرض البعيد والقريب ، أيرى فى وجودها ضررًا محضًا أو منفعة خالصة ؟ أم هى كالخمر فى حاليها قد جمعت بين الإثم والمنافع ، فوجودها بيننا ضار نافع .

قال سطيح : لقد نظرت قبل اليوم فى هذا السؤال ، وتبينت فيه الهدى من الضلال ، فألفيت فيها شرًا قائمًا ، وخيرًا جاثمًا ، فرأيت أن أزن الاثنين ، فلما حملتهما إلى الميزان ، ونظرت فيه بعين العرفان ، شالت[3] كِفةُ النفع والخير ، ورجحت كِفةَ الشر والضير .

فقلت : زدنى بارك الله فيك ، وأسمعنى تأويل ذلك من فيك .

---

(١) يطرد : يجرى .

(٢) فرقان تفريق .

(٣) شالت : ارتفعت .

قال : اعلم أنه ما من شيء إلا فيه منفعة تُرجى ومضرة تُخشى . أما وجوه النفع فى بقاء تلك الصحف فهى عديدة إلا أنها لا تكاد تتجلى لغير علماء العمران الباحثين فى ترقية شئون بنى الإنسان ، فمنها أن فى بقاء تلك الصحف على الحال التى هى عليها عنوانًا على وجود الحرية فى البلاد التى تنشر فيها ، فإذا قدم عليكم قادم ، وقرأ ما يكتب فى تلك الصحف كائنًا ما كان ، علم أنكم تتقلبون فى نعيم الحرية وإن جهلتم أنتم قدر هذه المزية .

ومنها أن فيما تكتبه مزْدجرًا للناس ، لتجد من الموضوعات فى تلك الصحف الصغيرة ما لا تجد بعضه فى أمهات الصحف الكبيرة . هذه بما فى نفسها تصرِّح وتلك لا تكاد به تُلمِّح ، تكتب الأولى ما يقع للغنى والفقير ، وتسطر ما يحدث للكبير والصغير ، وتأبى الثانية إلا أن تراعىَ المقام ، وتحجم فيما يقع من الحوادث عن الكلام ، إما لصلة تمنعها أو لرهبة تقطعها .

ومنها انتشار اللغة فى الجملة بانتشار تلك الصحف ؛ فإنك لا تعدم أن تجد فى صحائف الأسبوع أسلوبًا رقيقًا ومعنى دقيقًا ، يعز وجودهما فى صحائف اليوم ، لاشتغال أهلها بتسقط الأخبار وضيق وقتهم عن التأنق فى الأساليب والتماس الشائق من التراكيب . أما أصحابنا فلهم من فسحة الوقت ما يكفى لانتقاء اللفظ واختيار الموضوع فإذا شاءوا المدح عوضوا ألفاظ اللغة ، ونبشوا بطون الكتب ، وقلبوا أحشاء القواميس ، ثم استخرجوا من الألفاظ أحلاها وأطلاها ، ومن المعانى أسماها وأغلاها ، وصاغوا من كليهما مدحة تهُز الممدوح هزّا ، وتبزُّ منه المال بزّا . وهم إذا خلَوْا إلى شياطينهم ، وأرادو القدح فقل : أعوذ برب الإنس والجان من شر ذلك اللسان .

أما وجوه المضرة فى بقائها فقد أصبحت شيئًا يُحسُّ ، وأصبح مثلها كمثل الهواء فقد كنا نشعر به ولا نراه ، حتى سلطوا عليه ضغط الجو فتكاثف ، حتى همّت الأيدى بلمسه ، وتلوّن حتى وقع من النظر تحت حسه .

فمنها أنهم نصبوها حبائل لصيد المال فأقاموا لها سوقًا فُرشت فيها الصحف ، وركزت الأقلام ، وعرضت للبيع أعراضُ الناس . فتراهم يجلسون للمساومة فى تلك الأعراض ، ويأتى حامل الضَّب[1] لأخيه ، فيساومهم فى تمزيق عرض من أراد ، ويَشهْر ذلك فى المزاد .

ومنها دبيب الفساد إلى أخلاق العامة لكثرة ما يقرءون ويسمعون من ألفاظ السباب . وإذا فسدت الأخلاق فى أمة فقد فسد فيها كل شىء .

ومنها دخول السُّقَّاط[2] من القوم فى زمرة المحررين ، اللهم إلا نفراً من أنصار الفضيلة ذهب صرير أقلامهم ضياعًا فى وسط تلك الضجة القائمة . هذا قليل من كثير ، فانصرف يا ولدى الآن ؛ فقد قطعتنى عن ذكر الرحمن .

فانصرفت بصاحبى ، وقد أخذت منه العظة ، وتمشى فيه الاعتبار ، حتى إذا بلغنا حديقة الحيوانات قلت لصاحبى هذا قصر إسماعيل الذى يقول فى وصفه صاحب «عيسى بن هشام» :

«وصلنا إلى قصر الجيزة ومتحف الآثار وملتقى السيارة من سائر الأقطار ، فرأينا روضة تجرى الأنهار من بينها ، كأنها الجنة بعينها ، وقصراً يقصر عنه الطرف كما يقصر عنه الوصف . فأخذنا نرتاد خلاله ونتفيَّأ ظلاله ، وقد نظرنا الأسود مقصورات فى المقاصير ، والأساود[3] مكفوفات فى القوارير ، ورأينا النمور فى الخدور ، والرئال فى الحجال ، والذئاب فى القباب ، والظباء فى الخباء ، ولما رأى الباشا الأرض منضَّدة مرصَّعة مزرّدة حسبها أرضًا مفروشة ببسط منقوشة ، وأشكل الأمر عليه ، فهمَّ بخلع نعليه ، فقلت له : طريق معبّد لا فرش منجَّد ، وحصباء ومرو[4] ، لا بساط

---

(١) حامل الضب : أى حامل الضغن والحقد .

(٢) السقاط : جمع ساقط وهو اللئيم .

(٣) الأوساود : الحيات .

(٤) المرو : الحجارة البيضاء .

وفرو ، قال : لمن هذه الجنان ، وكيف يسكنها الحيوان ، وما علمت أن الأسد الضوارى تسكن مغانىَ الجوارى ، وأن ساكنات البيد تلعب فى ملاعب الغيد ، فقلت : بيت إسماعيل طالما كانت حجراته مطالع للأقمار ، ودرجاته منازل للأقدار . كان إذا نادى صاحبه «يا غلام» شقيت أقوام وسعدت أقوام ، ولبى نداءه البؤس والندى ، بأسرع من رجع الصدى . هنا كان يُفْصَل الأمر ويحكم ، وينقض الحكم ويبرم . وكان من احتمى بظل هذا الجدار تحامته غوائل الأقدار . هنا كانت فرائد القلائد من أجياد الخرائد ، تختلط بمنثوره أزهاره ، فترصع لجين أنهاره . هنا كانت تتكاثر الجواهر من قدود الحسان ، فتشتبه بأثمار الأغصان ، هنا كانت تصدح القيان على المزاهر والأعواد[1] ، فتجاوبها الوُرق على الأفنان والأعواد[1] ، فأصبح حديقة عامة وموطئًا للخاصة والعامة ، وأصبحت أرضه تكترى ، وجنى أشجاره يباع ويشترى . ودوّى فيه صياح النسور وزئير الأسود ، وعواد الذئاب وهمهمة الفهود ، وزال ما كان فيه من عز وطَوْل ، ومجد وصَوْل ، وأيْد[2] وحول ، وصدق الكتاب ، فحق القول :

فى هذه الدار فى هذا المكان على هذا السرير رأيت الملك قد سقطا

وقصصت على الباشا قصة صاحب القصر ، ومليك ذلك العصر ، وما كان فيه من الجَدِّ الصاعد ، والبخت المساعد ، وما صار إليه من نُحوسة سعده ثم سكنى لحده . وبعد أن ذاق فى هذه الدار دار الفناء ، مثل عذاب تلك الدار دار البقاء .

نالوا قليـــلاً من اللذات وارتحلوا برغمهم فإذا النعماء بأساءُ[3]

وما انتهيت من هذا الحديث حتى انتهينا إلى حيث نفترق ، فقصدت دارى وقصد داره . ولكننى استشعرت بعد فراقه ميلاً إلى السهر ، فعطفت على أحد الأندية ،

(١) الأعواد الأولى جمع عود الغناء ، والثانية حمع عود بمعنى غصن .

(٢) الأيد : القوة .

(٣) البيت لأبى العلاء المعرى .

وانتحيت ناحية . وجلست ، وما كاد يحتوينى المكان حتى طلع على النادى ثلاثة من الشبان ، شممت من أردانهم[1] أرج الحسب والنسب ، وعرفت فى وجوههم نضرة النعيم . فدخلوا وهم كأنهم روضة تمشى ، وجلسوا وما شككت فى أنهم من أقران الثريا . وكانوا بحيث أسمع ما يقولون . ثم صاحوا بالخادم فأقبل مهرولاً . فتقدموا إليه بطلب كاسات الراح ، فانطلق يعدو ، وما لبث إلا ريثما عاد يحمل كئوساً من البلّور ملؤها ذهب سائل أو أصيل جامد . فصففها أمامهم ، وحفها بأطباق النُّقل ، وطاقات الزهر . فقلت فى نفسى : لقد أرانى فى حان . وما كنت لأعد نفسى من أهلها فهممت بالانصراف ، ولكن أمسكنى حب الاطلاع على ما سيكون من أمرهم ، وما يدور من الحديث بينهم . فلبثت أسمع وأرى . وإذا بهم قد استرسلوا فى الأنس وتبسطوا على السرور . وكانوا كلما أفرغوا كئوسهم إلى أفواههم بحادى الغناء حتى خلعوا رداء الأنفة ، وطرحوا مطارف الاحتشام . فقام أحدهم وقد علت الخمر ذؤابته ، ورنَّحت أعطافه ، وقال : أخشى أيها الصاحبان أن تميل علينا هذه الصفراء بخديعتها وختلها ، «ما زلنا نشرب الخمر حتى بحنا بأسرارنا ، فلما رأت منا ذلك أشفقت على نفسها من أن نبوح بسرها ، فأمسكت ألسنتنا» . فأجابه أحد صاحبيه : وما عساك تخشى منها ، فهب أنها دبت منك إلى موضع السر فهل لك دوننا سر تطويه ، أو شىء تخفيه ، قال : كلا فإننى لم أكتمك مذ صحبتك شيئًا من أمرى ، اللهم إلا واحدة .

قال : وما عسى تكون ؟ قال : إنى أغبطك على أبيك ، وأتمنى أن أكون فى موضعك . قال صاحبه ، وقد عراه الدهش : وما الذى غبطت منى حتى بلغ بك الأمر إلى التمنى ، ولا أراك دونى فى شىء من الأشياء ، فأنت بحمد الله فى بشاشة من العيش، ورخاء من البال .

قال : تعلم أن أبى مدير ، وأن أباك مستشار بمحكمة الاستئناف : قال : علمت

(١) أردان : جمع ردن وهو أصل الكم .

ذلك ، وما غاب عنى أن أباك أعلى من أبى منصبًا ، وأكثر مرتبًا ، ينقد أبوك فى كل شهر مائة ذهبًا ، وينقد أبى دون ذلك .

قال : أراك تداجى فى القول ، وتتغابى عن الفهم . وأنت تعلم أنه ما من الله على خلقه بنعمة هى أولى بالشكر وأحق بالذكر من نعمة الزمن ، فقال تعالى معددا آلاءه على قريش : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ . فجعل سبحانه الأمن من نعمته الكبرى ومنّته العظمى . فمَنْ بات آمنا فى سربه ، كان حقيقًا ألا يغفل طرفة عين عن الشكر .

وأبوك ينام ملء جفونه لا يبالى أقبل المستشار ، أم انعقد مجلس النظار ، فقد تخطاه العزل ، وأخطأته عاديات النقل ، أما أبى فهو على منصبه الكبير وأجره الكثير ، يلبث الليل والنهار ، فى خوف من المستشار ، حتى إن أمثاله من المديرين الذين لم تشرق عليهم الشمس فى بلد إلا وتغرب عنهم فى آخر ، ليتركون أثاث منازلهم ورياشهم مطوّقةً بالحبال ؛ لكثرة ما يؤمرون بسرعة التحول والانتقال ، لذلك ترانا لا نحل فى بلد إلا ونحن من أمرنا على سفر ، ومن غضب المستشار على حذر ، كأنما عنانا ابن الوليد بقوله :

تراه فى الأمن فى درع مضاعَفَةٍ مخافةَ الدهر أن يؤتى على عجَل

هذا بعض ما نحن فيه ، أفلا أغبطك بعد ذلك ، وأتمنى حالاً كحالك ؟ ثم انتثر بعد ذلك عقد المجلس فمضى كل لوجهه . وغادرت المكان على أثرهم وتيمّمت[1] دارى فلبثت فيها . حتى حان الموعد ، فخرجت .

(١) تيممت : قصدت .

[الليلة السادسة]

وما زلت أمشى حتى اشتمل علىَّ الليل . وأسمع صوتًا فأتسمَّته . فأرى صديقًا لى يتغنى بشىء من الكلام المقفى الموزون ، فأجلس على كثب منه وهو لا يرانى . وقد شجانى حسن صوته وكاد يلهينى عن الموعد لطف إيقاعه . فألبث حتى يأتى على نشيده ، ثم أتراءى له ، فأحييه ، ونتبسط على الحديث ، فأسأله لمن الشعر يا فلان ؟ قال : هو بعض ما أعبث به . قلت : لقد أسمعتنى منذ الليلة كلامًا لو نحلته «ابن أوس»(١) ما شك سامعه فى أنه من مختاراته . فما لك تكتم الناس مثل هذا الشعر السَّوىِّ ؟ ولو أنك أذعته لغضضت به من كثير من أولئك الذين باتت تطن الصحف بذكرهم ؟ قال : ليس من أمرى المديح . ولا سبيل إلى إذاعته فى تلك الصحف إذا أنا لم أسلك به فى تلك الطريق . قلت : فإن أعياك الأمر فما لك لا تجمعه فى ديوان ، ثم تخرجه للناس كما يفعل الشعراء ممن هم دونك فى منازل الأدب ، ومراتب القريض ؟ قال : كان يكون ذلك حقيقًا بى لو أن من يقرأ الأثر فى مصر يقرؤه لذاته لا لذات صاحبه . ونحن بحمد الله فى بلد لا تنفق فيه سلعة الأديب ما لم يكن صاحبها حظيظًا عند تلك الصحف . حتى إذا ظهر أثره فى الناس قامت تقرِّظه بصنوف المديح والإطراء ، وتُنزل نفسها فى الدعوة إلى كتابه منزلة أولئك المبشرين فى الدعوة إلى دينهم .

فلو بُعث اليوم صاحبُ اللزوميات ، فحاول أن ينشر فى تلك الصحف حرفًا مما أخذه على الأمراء وأنكره على الكبراء ، لأبت عليه أن تَفْسَحَ لذلك الحرف مكانًا بين جداول الأموات ، فضلاً عن جداول الأحياء . ألم تر إليها كيف تقول يوم كانت تقرظ الشوقيات وقد أسندت إلى صاحبها من الألقاب ما تعجز صحف الآستانة عن إسناد بعضه إلى جلالة المتبوع الأعظم وقد أدى فريضة الجمعة ، أو تحركت شفتاه بالإنعام

---

(١) ابن أوس هو أبو تمام «حبيب بن أوس» الشاعر المعروف .

على بعض أهل الزلفى برتبة أو وسام ، بربك ماذا رأيت فيها من الآيات ، وما جاء به صاحبها من المعجزات ، اللهم إلا ما يتباصر[1] به علينا من تلك المعانى الغربية التى ما سكنت فى مغنى عربى إلا وذهبت بروائه ؟ !

قلت : حسبك ، لا تغضُضْ من شاعر الشرق ، ولا تنتقص من أدبه . فتالله إنه لظريف الوزن لطيف القافية ، خاطرُه طوعُ لسانه ، وبيانه أسير بنانه ، كأنما يتناول الشعر من كمه لسهولة متناوله عليه ، إلا أنه مكثار ، وقلَّ أن يسلم المكثار من العثار . فشعره كما قال الأصمعى فى شعر أبى العتاهية : «كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذهب» .

قال : إنى لا أرى رأيك فيه ، وفى مصر من لو انطقع لصناعة الشعر لوسع الناسَ إحسانُه فيه . ولكن قد ثنى الله عنان الكثيرين عنه إما لشرف يخشى عليه أن يُغضَّ منه ، وإما لاشتغال بشئون للحياة لا تقوم الحياة إلا بها . وصاحبكم بفضل ما هو فيه من السعة فارغ للشعر ، غير مشغول بغيره . فالعجب أنه لا يجيد . وأعجب منه أنه يقال إنه مكثار ، وقصائده فى العام معدودة ، وقوافيها مقدرة محدودة .

قلت : لا تطل فى أمره الجدال ، فهذا الحَكَم منا على رمية السهم فإن شئت غشيناه . قال : ما أرضانى بحكمه . ثم همَّ بالنهوض فقلت : على رسلك حتى يحين الموعد ، فقد جعل لى آية للقائه . ثم حدثته حديث سطيح وما كان من أمرى معه ، فارتاح إلى لقائه . ولما حان الموعد قمنا إليه ، وإذا به ينادى صاحبى بقوله :

شاعر عربىّ ، وأديب سَرِىّ ، طيَّبَ الله أنفاسه ، وازدهى السبقُ أفراسه ، نهاز أذنبة[2] الكلام ، خلاب أفئدة الأنام ، قريبُ القلب واللسان ، صديق الخاطر والبيان ،

---

(١) يتباصر : يدعى أنه أبصر بالشعر .

(٢) أذنبة : جمع ذنوب وهو الدلو ، ونهز الدلو : فتح الماء به من البئر ؛ فالمعنى أنه ممتلئ الدلاء من معين الكلام البليغ .

زوته[1] عواثر الجدود ، عن مظاهر الوجود . فزكا شعره ولم ينبه ذكره . ولو أنصفه زمانه ، لما خمل مكانه . أو لمحتْه القدرة لما حُرم الشهرة . أىْ فلانُ : إن ما خضت فيه من أمر صاحبك مع ذلك الواقف بجانبك ، فأنتما فيه سواء. زَلّة فى الآراء ، وانحراف عن خط الاستواء ، أغرقت أنت فى القدح ، وبالغ صاحبك فى المدح . فخرجت بشاعر النيل عن أفق الحسنات ، وكاد يسمو به إلى سماء المعجزات ولو أنصفتما لأنزلتماه فى برجه ، وأركبتماه فوق سرجه .

إنه أرقكم طبعًا ، وأجملكم صنعًا . فهو إن ركب الغزل والنسيب ، كان كأنه يُوحى إليه من قريب . وإذا سلك سبيل المديح ، فقد عجز عن وصفه سطيح . إلا أنه ضيِّق المجال ، وإن كان واسع الخيال . يقع له المعنى الجليل ، فى سبحات الفكر الطويل . فيمسكه خاطره ، وتحرص عليه سرائره ، والمعانى كالظباء كثيرة النِّفار ، شديدة الإحضار . فهى إن لم تجد من نضارة الألفاظ خميلة تسنح فيها ، أو لم تظفر من عذوبتها بعيون تنهل من نواحيها و ذهبت عنها إن لم يضق بها المذهب . وكذلك حالها فى شعر صاحبكم : فهى إما نافرة ، وإما حزينة باسرة[2] . ولو أنه منحَ من دقة المبانى ما منح من رقة المعانى ، فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته لكان شاعركم غير مُدافع ، وواحدكم غير منازع . قال صاحبى وهو يكظم غيظه : إنه لم يغادر معنى من معانى العرب والفرنجة إلا سلخه ، ثم مسخه . فإن كان الأسلوب على نحو ما وصفت ، وكانت المعانى لغيره ، فما عسى يكون فخره علينا ، وقد ذكر صاحب دلائل الإعجاز أن البلاغة لا تقع فى اللفظ ولا فى المعنى ، ولكنها تقع فى الأسلوب . فمن كان أسلوبه يجرى على غير هذا الحد كان خليقًا ألا يسمى بليغًا .

وصاحبنا لا يزال مهزول اللفظ ، غامض المعنى ، يحتاج الناظر فى كلامه إلى

---

(١) زوته : حجبته .

(٢) باسرة : عابسة .

تخوت الرمل ، وطوالع التنجيم . وقد قَصر همه على اصطحاب طائفة من الألفاظ ، لا يعدوها إلى غيرها ، حتى أصبح بعضها علامة تدل على شعره وإن كان غُفْلاً من ذكره . ولقد نظرت فى طريقة شعره ، فألفيتها فى الغارة على صحائف الأولين . فهو لم يغادر معنى فى خدره إلا سباه ، ولا لفظًا فى وكره إلا وأزعجه . ألا ترثى بربك إلى عظام أبى الطيب وهى تئن فى قبرها على أبيات شادها صاحبها وخربها صاحب الشوقيات ، ولو كُشِف لك عن مجامع الأرواح فى عوالمها لرأيت منها ثلاثًا قد ضمها الحزن ، وجمعها الأسى ، وأنين المتنبى وهو يبكى كلامًا ذهب به المسخ ، وزفير ابن الأحنف وهو يتحسر على رقة لعبت بها يد السلخ !!

ومن نظر فى قول أبى الطيب (نود من الأيام ما لا توده) وفى قول صاحبنا (يود من الأرواح ما لا توده) علم أن الثانى أغار على الأول ، فسلبه مطلعًا أبهى من مطالع الشمس ، ولم يقتصر على هذا السلخ ، حتى تخطاه إلى المسخ ، فرفع لفظة الأيام من شطر بيت المتنبى . ووضع مكانها لفظة الأرواح فى شطر بيته ، ثم جعله مطلعًا من مطالع التهانى ، أنزل فيه ممدوحه منزلة عزريل من النفوس . فإنى لا أعرف أحدًا (يود من الأرواح ما لا توده) اللهم إلا ملك الموت . فهل بعد هذا نغفر له ضعف الأسلوب لما عساه يقع فى شعره من لطف المعانى وجلها على نحو ما سمعت .

قال «سطيح» : إنك لا تفتأ تتعقب سيئاته ، وتتحامى ذكر حسناته . فما لك لا تذكر بجانب قوله فى هذا البيت الحكيم :

فـإنما الأمم الأخـلاق مـا بقـيت ... فـإن همـو ذهبت أخـلاقـهم ذهبـوا

قال صاحبى : لو شئتَ أن أضع بجوار كل سيئة من سيئاته حسنة من حسناته لنفدت الحسنات وأنا فى الربع الأول من ليل السيئات .

قال سطيح : إنك إن أخذت عليه أخذه للمعانى ، فقد أخطأت مواقع الرأى . فلو طلعت الشمس على جديد لكان صاحبكم خليقًا بما تقول . ولكنْ ألا ترى أن المعانى

كالنقود تداولها الناس ، وليس عليهم فى ذلك من باس ؟ ولكنْ بعض ما أوتيَه الرجل من الفضل أصبح داعيًا إلى حسده والوقع فيه .

قال صاحبى : لو كنت ممن يعرفون الحسد لحسدت ذلك الذى يقول :

أســـمع فى قلبى دبيب المنى وألمح الشبـهـة فى خاطرى[1]

ولكن لا أنزل بنفسى إلى حسد من يقول :

مـــال واحـــتجب وادّعى الغــضب[2]

بل أرثى له من التصاقه بمثل هذا الكلام ! !

قال سطيح : وهذا نوع من أنواع الحسد . فإنك تعمد إلى ذكر شعر ملؤه الوهن والغميزة ، وتعرض عن ذكره ما هو رصين من شعر . فتالله إن فى قوله :

بسيفك يعلو الحقُّ والحقُّ أغلبُ ويُنصرُ دينُ الله أيان تضربُ

وفى قوله :

همَّت الفُلك واحتواها الماءُ وحداها بمن تُقلُّ الرجاءُ

لآيات لقوم يعقلون .

قال صاحبى : حسبى فيما ذُكرَ ، وحسبك فيما تنكره علىَّ من ذلك أن أنشدك هذين البيتين ، ثم ذكر بيتين لا يحضرنى منهما غير الشطر الأول :

«تلك القوافى التى شاهدت شهرتها»

قال «سطيح» : صنع الله لك يا فلان : فإنى أراك تستبطن أمره ، وتستقصى

---

(١) البيت : للبارودى .

(٢) البيت لشوقى .

شعره . ولكن هذا لا يعيب من لبث ما أدرى كم سنة يضرب على وتر واحد فى الغزل والمدح ، وهو يأتى فى كل ضربة بنغمة جديدة . فلو أنك جئت بأطبع خلق الله على الشعر ، وكلَّفته ألا ينظم ما عاش فى غير المدح لما غنِىَ عن الظهير والمشير ، ولما جاء بأبدع مما يجىء به اليوم شاعر الشرق . فاعلم أنه حقيق بالرئاسة عليكم ، وأنه فى مقدمة أولئك الذين انبروا لتشييد هذه الدولة الأدبية ، ورفعوها على ألسنة الأقلام . فإن أنكرته بعد اليوم فقد أنكرت نفسك ، وكذبت حسك . فهو عميد رجال هذه الدولة الجديدة . فلا يكن مثلُك وإياه كمثل البحترى وذئبه الذى يقول فيه :

كلانا بها ذئب يحدِّث نفسَهُ بصاحبه والجدُّ يُتعسه الجدُّ

فما ضركم لو تساندتم جميعًا وأنتم لا تجاوزون منازل القمر عدًا ، فرفعتم من شأن هذه الدولة ، وحّركتم من الخامدين ، وهَزْزتم من الجامدين ؟ فإنى أراكم بين متفصّح[1] على أخيه ، ومتنبِّل على قرينه . وليس هذا صُنْعَ من يريد ما تريدون . تحاولون رد هذه الدولة إلى شبابها بعد أن خلا من سنِّها . ولو يتداركها الله بذلك الأفغانى[2] لقضت نحبها ، ولقيت ربها قبل أن يُمتعَها بكم ويمتّعكم بها . أدركها الأفغانى ولم يبق فيها إلا الذماء . فنفخ فيها نفخة حركت من نفسها ، وشدت من عزمها ، أدركها وهى شمطاء قد نهض منها بياض المشيب فى سواد الشباب . فشاب قرناها قبل أن تشيبَ ناصية القرن الخامس[3] ، فسوّدت يدهُ البيضاء ما بيَّضت من شعرها سود الليالى . وتعهدتها همته بصنوف العلاج حتى استقامت قناتها ، وبدا

(١) متفصح ومتنبل : أى يزعم أنه أفصح وأنبل من أخيه .

(٢) يعنى السيد جمال الدين الأفغانى .

(٣) لعلهَ يقصد القرن الخامس الهجرى ، وفيه أدرك الدولة الإسلامية الانحلال .

صلاحها وقد كان الناس فى هذا العهد يدينون باللفظ ، ويكفرون بالمعنى ، فما زال بهم حتى أبصروا نور الهدى ، خرجوا بفضله من ظلمات القرون الوسطى ، وقام بعده نفر ممن تأدبوا عنه ، فكانوا كالسيوف فرجت للرماح ضيق المسالك . فانفسح للمتأدبين المجال ، وجال كل جولته . وتنبه الوجدان ، وتيقظ الشعور ، وتحرك الفكر حتى أفضى إلى حركة النفس . وظهر أثر جمال الدين فى النفوس العالية ، وأصبحَتْ تبتدر كلامَه الأسماعُ الواعيةُ . فكان من ذلك أن انطوى أجلُ التقليد ، وأن بعث الله على يديه ميت اللغة ، وأحيا رفات الإنشاء . وغادر رحمة الله عليه مصر ، ولم يضع لنا كتابًا نأخذ عنه ، أو مؤلفًا نغترف منه . ولكنه ترك لنا رءوسًا تؤلف وأفكارًا تصنف . وكأنه أحس بذلك حين أحس بالموت . فكان يقول وهو يجود بنفسه : خرجنا منها ولم ندَعْ لنا أثرًا ظاهرًا بين السطور . ولكننا لم نغادرها حتى نقشنا ذلك الأثرَ على صفحات الصدور . فإن لم ترثوا عنا فى بطون الكتب ، فقد ورثتم عنا فى صدور الرجال . فإذا حَشوْتم التراب على رجل الأفغان فعليكم برجل مصر .

خرج من الدنيا كما خرج «سقراط» : لم يغادر كلاهما مؤلفًا ، ولم يدعْ مصنّفًا فلولا «محمد عبده» ما عرف رجل الأفغان ، ولولا أفلاطون ما ذُكر رأسُ فلاسفة اليونان.

ولما سكنت أنفاس الأفغانى بعد أن تجددت بذكره الأنفاس . خلفه حكيم الشرق فى دولته ، ووطَّن نفسه على المضى فى طريقته . فأسمع الناس فى الحق وأسمعوه ، وأخافوه فى ذات الإله وخافوه . ولم يزل بهم حتى غلب حقه على باطلهم ، ثم مضى لسبيله رحمه الله .

فتفتقت الأذهان ، وتطلعت العقول إلى البحث ، وبرزت اللغة من خبائها تجرُّ مطارف[1] آدابها . وأطلّ علم الأدب **Litterature** من مناره مشرفًا على النفوس ، فأرسل نوره إلى الضمائر ، ونفذت أشعته إلى السرائر . فنمى[2] تحت نظره الشعور كما ينمى النبات جادته الشمس بالنظر ، أو كسته أشعة القمر . فلطَّف من كثافة النفوس ، وهذَّب من مرارة الأرواح ، حتى شفّت الأولى ، وعذُبت الثانية ، وبدأ دور هذه الحياة الجديدة بفضل الأدب وعلمه .

واعلم يا ولدى أن عز الأمم موقوف على عز اللغات ، وأن حياة اللغات مستمدة من حياة آدابها . فإذا ظهر علم الأدب فى شعب كان ذلك آية لظهوره ، وعلامة على استعداده ، فهو الذى يهيئه لقبول أسباب الرقى والعمران، ويُعده لمساغ أنواع العلاج ، ويروضه على احتمال المصاعب فى سبيل المعالى . ألا ترى أنه يخاطب الشعور ، ويحادث الوجدان، فإذا خفق الأول خفقة حرّك منه، وإذا أغفى الثانى إغفاءة شرّد عنه ، ألا ترى أنه إذا تيقظ الشعور أحس صاحبه بالحاجة إلى معرفة ما يحيط به ، فهو يدفعه إلى البحث واكتشاف أسرار الكون ، ويدعوه إلى معرفة ماهية العوالم . فلو أنك جئت برجل هامد الشعور جامد الوجدان ، وحاولت أن تقنعه أن الناس فى حاجة إلى علم الكيمياء مثلاً لما وراءه من المنافع لنأى عنك بجانبه ، ورأى أنك تحول المستحيل ، وتدَعو إلى الباطل . كِلْ هذا الرجل برهة إلى علم الأدب حتى يتناول منه ما وراء الوجدان . ثم القَهُ بعد ذلك ، فتالله إنك لترى منه ما كنت تراه من نفسك : تراه مدفوعًا بقوة الشعور إلى استنباط الوسائل والاستعانة بالعلوم والفنون على دفع إغارة النقص الذى أصبح يُحسُّ به فى نفسه وفى أمته .

بُعث صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم فى عهد كان ربيعًا للغة وآدابها نضرت فيه الألفاظ ، وأورقت المعانى ، وقد مات من أمة العرب كل شىء إلا شعورها ولسانها . مات منها كل شىء ولم ينقصها من مواد الحياة شىء . فجاء الكتاب يخاطب منهم ذلك

---

(١) جمع مطرف ، وهو رداء من خز منقوش نقشًا خاصًا .

(٢) نما ينمو ونمى ينمى كلاهما صحيح .

الشعور الحي، ويكلم ذلك الوجدان اليقظ. فسرت فى نفوسهم الدعوة سريان الكهرباء. ووقع منهم مغزى الآية فى الأفئدة ، قبل وقوع لفظها فى الأسماع . فكان مثلُ أحرف الكتاب - وإن جلت عن المثل - كمثل أحرف البروق . هذه مطيتها الأسلاك تطوف بها حول المحيط طواف الفِكَر ، وتلك مطيتها الشعور يبلغ بها غاية النفوس قبل رجع البصر .

صادفت الدعوة نفوسًا غذَّتها اللغة وروَّتها آدابها ، فعرفت قدر الكلام ، وبالغت فى تكريمه حتى رفعته إلى مواطن الآلهة ، وسجدت له سجودها لهبل الأعلى .

صادفَتْ نفوسًا تملكها الوِجدان ، فأصبحت ترقص لشطر البيت . فهى إن شاء حملها الشاعر إلى مواطن الفناء . وإن شاء وقف بها فى مواقف الفخار ، صادفت تلك النفوس ، فلم تصدِف عن آياتها . وكان الفضل فى ذلك للشعور الذى ولَّده فيها فهم أسرار اللغة ، واستمراءُ لذة آدابها . وكان من أمر العرب بعد الدعوة ما قد علمت . ولولا آفة أصابت لسانها ، وفترة أماتت شعورها ، لرأيت أبيض الغرب ، وأصفر الشرق ، وصيفين فى بيت ذلك الأسمر .

هذا هو شأن الدولة التى أدعوكم إلى تأييدها . وهذا هو أثرها فى النفوس . فلولاها ما رفعت دولة فى الغربِ رأسها ، ولا خاف الناس بأسها . انظر نظرة فى تاريخ دول المغرب ، وأمعن قليلاً فى البحث عن أسرار مجدها ، تجدْ سر ارتقائها فى تضافر كتابها على بث روح التأثير فى نفوس العامة بما يزخرفون لهم من الأحاديث . وقد ساعدهم على ذلك أن الناس هنالك يكتبون باللسان الذى به يتكلمون ، فتتسرّب إلى نفوسهم معانى الشاعر ، وتمتزج بأرواحهم روح الكاتب وإن كانوا لا يشعرون .

خذ خطيبًا ذلقَ اللسان كثير تزويق الكلام ، مُلمًّا بالعربية ، عارفًا بالأعجمية ، وتنقل به بين تلك الأمم الواقف على أسرار لسانها ، ثم اندبه لأن يقف وقفة ويخطب الناس. وتفرس بعد ذلك فى وجوه السامعين ، وما يرتسم عليها من أثر تحرك النفوس، وتنبه العواطف . واحفظ ذلك فى نفسك . ثم عرِّج به إلى مصر ، ودعه يقف وقفته ، ويستجمع قوته ، ويخطب ما شاء من الصبح إلى المساء . وانظر كيف يختلف القياس ،

بين صنوف الناس . فلو أنه نثر على رءوسهم التنزيل وأتبعه بالتوراة والإنجيل ، ما حرَّك منهم جامداً ، ولا نبَّه خامداً . وأصل هذا البلاء الذى استعصى معه الدواء ، أن لهم لسانين ، قد تناكرا حتى تنافرا . اختصوا أولهما بالكلام ، وجعلوا الثانىَ من نصيب الأقلام. فمنع اعوجاج هذا من استقامة ذاك ، ووقع حاملهما فى سوء الخلط والارتباك. فكم ترددت بينهما حيرة الشاعر ، وأشفقت من العثار يراعة الناثر ، إذا أرضى الشاعر لسان الكلام أغضب لسان الأقلام ، وإذا نزع الكاتب إلى محاسنه العامة ، جره ذلك إلى مخاشنة الحامة . دع ما تجنيه الصحف اليومية على لسان هذه الأمة العربية ، وما تدخله عليه من لفظ عامى ، وأسلوب أعجمى ، حتى نعت اللغة نفسها على لسان صاحبكم حيث قال :

أرى كل يوم بالجرائد مزلقًا ... من القبر يدنينى بغير أناةِ
وأسمعُ للكتَّاب فى مصر ضجةً ... فأعلمُ أن الصائحين نُعاتى
أيهجرنى قومى عفا الله عنهمُ ... إلى لغة لم تتّصل برُواةِ
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى ... لعابُ الأفاعى فى مسيل فراتِ
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعةً ... مشكَّلة الألوان مختلفاتِ

فإن لم تعاونوا على شفائها بعد وقوفكم على مكامن دائها، فقد قضيتم عليها بالممات، وعلى أنفسكم بالشتات . وحسبك هذا من سطيح ، فقد قطعته عن التسبيح .

قال الراوى : ثم انقطع الصوت فقمنا ثملين مما سمعنا من ذلك الولى ، وقلت لصاحبى وهو كالمأخوذ : ما عسى يكون ظنك بصاحبك بعد اليوم ؟ قال : لقد صدق سطيح فيما وعظ ، ورحم الله عبداً اتعظ . فإن دابرتُ أديبًا بعدها فلستُ لأبى . وأشهد الله أننى وقفت يراعتى على التوفيق بين جماعة الآباء ، لعلنا نتساند جميعًا على تأييد هذه الدولة التى لم تكد تدرج من مهدها حتى وقف بها الضعف على حافة لحدها . ولو لم أكن خامل المنزلة ، بعيداً عن الشهرة ، لكنتُ أولَ الصائحين غداً بما وقع فى نفسى من كلام هذا الولى الكريم . ولكن من كان مثلى كان خليقًا ألا تردِّدَ الصحفُ صدى صوته لعدم نباهة ذكره .

قلت لقد أخطأت منافع الرأى ؛ فإن خمولك يجعلك بمنجاة من الحسد والضغينة . فإذا كتبت شيئًا لا تصرف الغيرةُ عيونَ القارئين عن الخوض فى جمال بيانه ، وحسن برهانه . وربما بلغ خمولك من الناس ما لا تبلغه نباهةُ غيرك ، فال تغبط نبيهًا على منزلة نالها بعد جفاء المضجع ، وإنصاب البدن ؛ فإن بجانب اللذة التى يشعر بها عند التنويه باسمه آلامًا يضيق عنها مدى الصبر . وإنما تحس بذلك كلُّ نفس أخذت قسمها من الشهرة . ولو أنك وقفت على ما يكابد النبيه من حسد المعاصرين ، وكيد المكابرين ، ولزهدت فى عيشه ، وفررت من الشهرة إلى الخمول ، ولرأيت رأى المعرى فى قوله :

تمنيتُ لو أنى بروض ومنهلٍ مع الوحش لا مصرًا أحل ولا كَفْرا

فأعلم أن الشهرة سجن من سجون النفس ، يعقلها فيه حبُ الكمال الإنسانى ويكلُها لخفارة الفضيلة ، فلا يقوى على البقاء فيه إلا قويُّ الإرادة . وليس كلُّ من عرفتَ من النبهاء مضطلعًا باحتمال ما يعرض له من آلام ذلك السجن ، ولا قادرًا على مصارعة الهوى . وكم من نبيه أعياه أمرُ نفسه ، فنزع إلى الخمول ، واختبأ فى ثنايا النسيان ، ورأى أن كِفة اللذة مرجوحة فى باب الشهرة ، فنزع إلى كفة اللذة فى باب الخمول .

لقيتُ مرة أحد أولئك الذين كانوا من النبهاء ، ثم سكنوا إلى عيش الخاملين ، فقلت له فى ذلك . فقال لى : لقد وُفِّيتُ قسطى من الأولى ، وهأنذا أستوفيه من الثانية . فقلت له : وماذا أصبت فى الحالين ؟ قال : أصبت فى الأولى لذة تكتنفها الآلام ، وأصبت فى الثانية ألمًا تحيط به الملاذّ . ولقد كنت وأنا فى ربيع الشهرة كأنى المعنىّ بقول أبى النجم فى أرجوزته :

كالغرض المنصوب للسهام أخطأ رامٍ وأصاب رامى

وكان شعارى فى التمثل بهذا البيت :

فيا عفَّتى مالى ومالكِ كلما هَمَمْتُ بأمر همَّ لى منكِ زاجرُ

فكان الخامل إذا حاول التسلق إلى مراتب الشهرة جعلنى سلمًا لغرضه ، واعتمد علىَّ فى الوصول إلى غايته . وكأن الناشئ فى حرفة الأدب لا يرى لنفسه منفذًا للظهور فى غير الغض منى والوقوع فىّ : فلا تخلو مقالة يُحبرِّها أو قصيدة قرضها من انتقاصى والنعى علىَّ فيما أذهب إليه من مذاهب الأدب . كنت أقرأ كل ما يهذى به ويدى قصيرة من إدراكه لعجزه وخموله ، وما يُعجزُك مثلُ العاجزين . دع ما كنت أكابد من حسد المعاصر ، وأقاسى من صرف النفس عن سبيل الهوى . فكم تمنيت مجالس الشراب والتبسطَ على اللهو ، وحالت بينى وبينها الحوائل . وكم التفتت نفسى إلى ما يدعو إلى التفات النفوس من الشهَوات فحاكمتها إلى سلطان الكمال ، وماددْتها حبل الجدال ، حتى إذا همت بالخروج من دائرة الامتثال ، وسئمتُ صحبتَها على تلك الحال، رأيتُ أن أرفّه عنها وأهونّ عليها ، فعَمدت إلى الخمول لأجمع فيما بقى من أيام العمر بين اللذتين ، وأسرِّح النفس من ذلك السجن الذى كاد يأتى عليها . وما فعلت ذلك التماسًا لعقوق الفضيلة ، أو نزوعًا إلى عيش المستهترين من عَبَدة الشهوات . فليس ذلك من أمرى ، ولا هو بملذوذ عند مثلى . ولكنى فعلته طلبًا للهدنة بينى وبين الزمان ، وإشفاقًا على الحاسدين من حسدٍ أكل صدورهم ، وعملاً بقول القائل :

ليس الخمولُ بعارٍ على امرئ ذى كمالِ
فليلةُ القدر تَخْفَى وتلك خيرُ الليالى

كذلك كان يحدثنى ذلك النبيه عن آلامه . فهل تغبط بعدها نبيهًا على عيشه ، وتتطلع إلى الدخول فيما يخرج عن الطوق ؟ ألم تر إلى فريق الفلاسفة كيف أنه اختار العزلة ، ونفر من الشهرة ؟ هذا (إبيبكير) اليونانى يقول : استر حياتك ما استطعت .

قال صاحبى : لقد حبّبتَ إلىَّ عيش الخامل على ما فيه من غضاضة تلحق بالنفس وفتور يقع فى الهمة . وإن كان هذا شأنَ الضعيف من الناس ، فإنى أرانى قد خُلقت ضعيفًا ليس فى طوقى احتمالُ ما ذكرتَ من المصاعب . فلو أنه سلف لى من نباهة الذكر ما سلف لى من الخمول لقارنت بين الألم فى الحالين ، وحكمت بين الراجح والمرجوع من الكفتين . ولكن سلنى إن شئت عن آلام الخاملين أصورها لك تصويرًا يبلغ منك مبلغ العِيان .

قلت : مهما تأنقتَ فى التصوير ، وأبدعت فى التعبير ، فإن ذلك لا يكون شيئًا بجانب كلمة يقع بها فى عرضك سافل، رجاءَ أن يجتعل على سبك من حاسك يكيد لك ، أو معاصر ينفِس عليك . وها نحن أولاء قد بلغنا مكان الافتراق فمنى عليك السلام .

قال الراوى : ثم أخذ كل منا سمته إلى داره .

الليلة السابعة :

ولما كان الغدر ، وقد حان الموعد ، خرجت أطلب سطيحًا . فأخذت طريقى إليه ، ولم يسم لى فيه ما يلفت النظر . ولم يقع بصرى على حى أستصحبه . غير أنى لم أكد أبلغُ مكان اللقاء حتى تراءى لى إنسان لم أدر أخرج من الأرض أم هبط من السماء ، فتبينته فإذا هو غلام مراهق يتيمن الناظر بمشهده كأنه صور من نفس من ينظر إليه فدانيته وأنا أكبره لما ألقى الله عليه من الهيبة : وقد بهرنى جماله وأخذ منى حسنُ سمته . فما هو إلا أن رآنى حتى أقبل بوجهه علىّ ، وخاطبنى بلسان عربى ، قد خلَص من لوثة الأعرابية ، وسلم من لكنة الأعجمية. قال بعد أن حيانى ، وسكن إلىّ ودانانى : إن ولىّ الله يأذن لك أن تنطلق إلى هذه الحاضرة . وأنا ولده فكن منى بمنزلة العبد الصالح من ابن عمران . فقد أُذن لى أن أبرح الليلة الغار ، ومُدَّ لى فى أجل الرجوع حتى يلوح النهار . فقلت له وقد تحفظت ما استطعت من أن تبتدرنى سقطة فى الكلام فيعدَّها علىّ، فقد رأيت نفسى أمام عربىٍّ فى صدر الإسلام قد قوَّم التنزيلُ من لسانه . وامتزجت الفصاحة بمنطقه وبيانه : ألا أرى الليلةَ ولى الله وقد كانت بينى وبينه آية للقاء .

قال : إنه يتهيّأ للقاء الخالق ، وقد انقطع عن كلام المخلوق . ألا تذكر ما قال لك يوم ظفرت بلقائه «لقد كشفت لك عن مكانى وقد آن أوانى» قلت : ألا أتزود منه بنظرة ؟ قال فى غد إن شئت أعد الكرَّة ، فإنه موعود برؤيتك فى يوم خروجه من الدنيا . ثم أومأ إلىّ بالمسير فسرت كالمأخوذ ، ونفسى على غير ما أعهد ، كأنما مرت بها لمحة من تلك اللمحات التى تتصل فيها بعالم الملائك . وكنت كلما نظرت إلى ذلك الوجه المقسم وهو

يتألق بجانبى ، هممت بتصديق المقنع فيما يدعيه فى بدره ، وما يخيله للناس من ضروب سحره . فما زلت أسايره ، وما أكلمه هيبة وإجلالاً ، وقد كنت آليت ألا أبدأه بالكلام ، حتى عبرنا الجسر ، وقطعنا ما بين يديه من الطريق ، وقد هممنا أن نعطِف يَسرةً. قال صاحبى : أراك منذ صحبتك صامتَ اللسان ، وإن كنت ناطق الجَنان ، فما لك لا تُحدِّث ضيفك ؟

قلت : إنى رأيت فيما لا يغيب عنك من أدب المحاضرات ألا يكون كلام الصغير إلا جوابًا على سؤال الكبير . وقد ساورتنى منك هيبة ، فكرهت أن أبدأك بالكلام ، فتتنزلَ أمرى على الجرأة عليك . وقد قال الأستاذ الإمام رحمه الله : «العلم من علَّمك من أنت ممن معك» . وإنى لخليق ألاّ أخرج عن أفق القدر الذى حدّده لنفسى علمى بها ، فليس لى عنه متقدَّمٌ فأغرِّرَ بها ، ولا متأخَّرٌ فأغُضّ منها .

قال : إنى لأرى أناةً تُحمد ، وفضلاً لا يجحد . ولقد أكرمك ولى الله بحسن الثقة ، وأكرمنى بصحبتك أيها الأديب . فانطلق بى إلى تلك البقعة التى وقف الشيطان فى ساحتها يستقبل الزائر بابتسامة تستتر تحتها الويلات استتار النار فى العود ، ويُشيِّعُ المنقلِب عنها بنظرة لو كانت سهمًا لنفذت من صميم الجلمود . قالت : لعلك تعنى الأزبكية . قال : إى وأبيك فانطلق بى إليها . قلت : بأى الأندية تريد أن نبدأ ؟ قال : بأنفقها سوقًا ، وأكثرها فسوقًا . قلت : هذه المراقص المصرية ، والمخازى العصرية ! ثم هممنا بالعطف على إحداها فإذا بصاحبى يحُدّ النظر إلى إنسان يتعثر فى مشيِته ، يريد بناؤه أن ينقضَّ عند كل خطوة من خطواته لفرط هزاله ، وسوء حاله . عليه لباس قد أخذت منه الأجواء ، وتعاقب عليه الصيف والشتاء . وقد نم منه الظاهر على الباطن . فقرأت على وجهه سطور السأم وآيات الألم . فقلت : إنى أرى سيدى يُنعم النظر فى هذا الإنسان . ولعله قد داخلته رقة عليه قال : إى وأبيك . إن فى هذا الهيكل لنفسًا سجينة ، وإن فى ذلك الصدر لأسرارًا دفينة . فلو رأيت أن ندانيه فنستبطنّ أمره ، ونستطلعَ سره . قلت وقد جعلت أنعم فيه النظر : كأنى أعرف هذا الإنسان وإن تنكَّرت معارف وجهه ، وكادت تندرس معالم جسمه ، فما زلت أنفيه وأُثبتُه وهو مشغول عنى بقراءة صحيفة فى يده ، وقد غمره ما هو فيه من الحزن والأسى حتى

تحققته فناديتُه باسمه ، فرفع طرفه ودلَف إليّ مسلمًا وقال لى مغمغمًا : لا تقْذ عينك بالنظر إلى هذه الأسمال . فلولا مطاردة القوم لرأيتنى على غير تلك الحال . قلت وقد جال الدمع فى عينى جولة لم تخف عليه : لعلك لم تحفظ قول التهامى فى الدهر وهو يتقلب بين اليسر والعسر :

لا تحمد الدهرّ فى بأساء يكشفُها　　فلو طلبت دوام البـؤس لـم يدمِ
والدهرُ كـالطيف نُعماه وأبؤسـهُ　　عن غير قصـدٍ فلاَ تحمـدْ ولا تلُمِ

ثم التفتُّ إلى صاحبى وقلت له : هذا أحد من طوحت بهم يد السياسة الإنكليزية إلى مهاوى البؤس والشقـاء . فإن شئت أحـدثك فـإن له حديثًا يأكل الأحاديث . قال : ما أشوقنى إلى سماعه . ثم انتحينا ناحية وجلسنا وبدأ ذلك البائس يحدثنا :

اللهم إنى أعوذ بك من ثلاث : الموتِ الأحمر ، والرداءِ الأحمر ، والكتابِ الأحمر . قال صاحبى : على رِسْلك ، أما الموت الأحمر والرداء الأحمر فقد عرفناهما ، وفهمنا مغزاهما، فما عسى أن يكون ذلك الكتاب الأحمر ؟ قال : وضعه قائد الجيشين ، ورافعُ العلمين ، الحاكم بالإرادتين ووكيل الدولتين ، فاتحُ أم درمان ، وحاكم السودان ، وصاحب جزيرة أسوان ، رافع إرم ذاتِ العماد ، وقريع فرعون ذى الأوتاد ، واصلُ أعصاب الفيافى والقِفار ، بأعصاب المدائن والأمصار ، ساكنُ القصر ونابش القبر ، ناسف القبة، وسالب الجبة ، وهو المهدى ، رفات المهدى والجاعل قُبته مربِطًا للجياد ، ومسجَده ملعبًا لُحمُر الأجناد، الناقل تلك الكنوز والدفائنِ إلى تلك المصارف والخزائن . المغربىُّ الذى يستشفُّ أحشاء الخبايا بسحر السياسة وطِلّسمِ الفِراسة ، ويفكّ ما عليها من الأرصاد ، بدماء أبناء البلاد ، بعد تبخيرها ببخور التمويه ، تحت ملاءة الترفع والتنزيه . ذلك اللورد الكريم مخَضَ قانون دولته ، ثم استخلص من زبدته ذلك الكتابَ الأحمر ، وأضاف عليه – حاسبه الله – ما أضاف . وهو اليوم تجرى عليه الأحكام فى الجيش وإن لم يوقع عليه أمير ، ويشعر به وزير . وللجيش قانون آخر قد اشتملت عليه صدور القوم لا تدركه أبصارنا ، ولا تحيط به أوهامنا ، نقشته يد السياسة على صفحات تلك الصدور ، فلا يمسه إلا من مسَّ ترابُ تلك الجزيرة جثمانه ، ولا يراه إلا من رفعت يد الزلفى عنه الغطاء . ذلك قانون الإرادة .

فالويل لمن وقف وقفة المجرم أمام القانون الأحمر . ولويل ثم الويل لمن وقفها أمام قانون الإرادة ، ذلك الذى نفذت إرادته فى أصحاب الثورة السودانية وكاد يلحقهم – لولا دفاع الله – بإحدى الجزيرتين. وعلى ذكر الثورة سأتلو عليكما من حديث أصحابها. إنهم فتيةٌ ربهم أعلم بهم ، غُلبوا على أمرهم ، وأُخذوا بجريرة غيرهم ، وإنى أقص عليكما من أنباء الثورة ، فقد حضرت أولها ، وعلمت بآخرها .

صدرت مشيئة القائم بالأمر فى السودان بجمع ذخيرة البنادق من أيدى الجنود، فتساءل الناس عن هذا النبأ ، ومشى بعضهم إلى بعض وقد أرجفوا يومئذ بسقوط الوَزارة وانحراف الأمير عن القوم ، فكثر التأويل ، كما كثر القيل ، فتنبأت طائفة أن سبب هذه المشيئة هو التحرز والتوقى من انتقاض الجيش ، وقد نمى خبر خذلانهم فى أوليات الحرب الترنسفالية وظنت طائفة أخرى أن سببها هو ذلك الفتور الذى زعموا أنه واقع بين الأمير والقوم ، وقال ذوو الأسنان منهم : إنها محنة من محن السياسة يَبلون بها طاعة الجيش .

وقال صاحب الأمر – وقد أنهى إليه عيونُه أمر تماوج الجيش : إنما نفعل ذلك صونًا للذخيرة من الرطوبة ، وحرصًا عليها من الضياع . والمصرى من الجنود كخرفاءَ أصابت صوفًا ، لا يحسن القيام بحفظ ذخيرته . وقد علمتم حال الزنجى إذا ملكتْه سَوْرة الغضب فإنه حاضر الانتقام ، يغضبه أخوه لبادرة تبدرُ منه ، فلا يرى أهونَ عليه من الفتك به . وما أردنا بهم إلا رشداً .

ولما كان الليلُ ، واجتمع أحداث الضباط فى ناديهم ، وأخذوا يتحدثون فى أمر يومهم قال قائل منهم: أليس من الخطل أن تبقى هكذا الجنودُ ونحن فى بلد غير أمين ؟ وهذه دماء أعدائنا لا تزال غريضة ، وتلك أجسادهم تغدو عليها وتروح عنها جيوش العِقبان والرَّخَم ، وقد أكل الحقد صدور أهل البقعة ، وتغلغل الضِّغن فى نفوسهم وباتوا يرتقبون نهزة ينتهزونها ، وما أَحسبهم – وقد علموا اليوم بحالنا – إلا غادين على مبادأتنا لعلهم يثأرون . وكان بقرب ذلك النادى رهط يسترقون السمع ، ويتسقطون الخبر . وكانوا ممن بايعوا وشايعوا مع القوم ، فهم يعبدون الرداء الأحمر والفارس

الأصفر ، فلم يجدوا شيئًا يلقَوْن به صاحبهم هو أقرب زلفى من نقل ما سمعوه ، فاستَبقُوا بابه ، ورفعوا إليه الأمر على غير وجهه ، فوقع كلامهم فى نفسه ووعدهم خيرًا .

وبات يقلب طرفه فى أسطرلاب السياسة، ويحسب تقويم كواكب الرأى فى أفق الدهاء . وحدَث فى ليلته تلك أن فرقة من الجنود السودانية عصَفت برءوسها النخوة ، فعطفت على الذخيرة فارتدَّتها قسرًا ، ولما حاول كبيرهم أن يَثْنىَ عنها عِنانهم ، ويحول بينها وبينهم وفَّوه قسطه من الأذى ، وما زالوا به حتى رنَّحوه لطمًا ولكمًا .

فعظم الأمر على صاحب الأمر ، وكادت تنخلع شعبةُ مهجته هلعًا ، ويقطع نياطُ قلبه جزعًا ، وتمثل له شخص «واشنجتون» وفى يده علم الاستقلال وطار به الوهم إلى «لاديسميث» فانحلت منه الأوصال . ونسى أنه بين مصرى له ولى من الذل وزنجى على قلبه أكنَّةٌ من الجهل . وكذلك لم نجد له عزمًا . فجمع إليه نفرًا من قومه ، وشاورهم فى الأمر ، فأشاروا عليه بالتماسك ، وأن يتراءى للجنود فى هيئة المتفقد للشئون المستخف بالكوارث ، فخرج وهو مقلقل الشخص على جواده لا يصحبه حرسى ، ولا يماشيه أحد من قومه . وكان يكون معه عند كل جولة يجولها من خاصته من يقوم بتبليغ مشيئته وإمضاء أمره . فما زال يستقرئ الوجوه والأبصار ، وهو كلما مر بقوم تراصفت أقدامهم ، والتصقت أيديهم بجباههم ، وانتشرت على وجوههم طبقات من الخشوع ، حتى إذا صار بمكان الموقعة ، وقد طرح عن منكبه رداء الفزع نظر فإذا جيش من النسوة يموج بعضهن فى بعض وفى يد كل واحدة منهن هراوة فما هو إلا أن طلع عليهن حتى عطفن عليه يعبَسْن بها وجه جواده ، فأشفق أن يصيبه عنت منهن ، فلوى رأس جواده، وأخذ يحتثّه هربًا، وما زال يَرْكُضُه ملءَ فروجه حتى وصل إلى دار حكمه. فلما أمِنَ فى سربه أصدر مشيئة ثانية بإبقاء الذخيرة فى أيدى الجنود ، حتى يؤتى لهم بسواها من حديثة العهد بالوجود . وبعد أن كان سبب جمعها لوقايتها من الرطوبة وحفظها من الضياع ، أصبح لاستبدال غيرها بها من النافعة عند الدفاع .

فدعت مثنويةُ رأى الحاكم سوءَ ظن المحكوم ، حتى ذهبت الظنون مذاهبها ، وحتى قال أحد الجنود السودانية الكبيرة وهو يخطبهم ، ويدعوهم إلى الامتثال : ألم تعلم أن الله - سبحانه وتعالى - لم يخلق خلقًا ضعيفًا كان أو قويًا إلا جعل له من جمسه ما يدرأ به الأذى عن نفسه ؟ وهذه السمكة فى قاع البحر قد أنبَت لها فى ظهرها شوكة تدفع عنها بوادر الشر ، فكيف بى وأنا ليس لى ما أذود به الردى عن نفسى إلا تلك الآلة التى نزعتم روحها فأصبحت كالعصا ؟ وما أردتم بنا الخير ، ولكن على كيدنا تعملون .

وفى ذلك اليوم استدعى صاحب الأمر أصحاب ذلك النادى ، وقد طرح الأنفة السكسونية ، وتزحزح عن عرش الجبرية البريطانية ، وأخذ يروض نفسه على التخلق بأخلاق بنى الإنسان ، وقال لهم ، وقد مثَلوا بين يديه ، وما منهم إلا من استروح روائح الرفق من شمائله : لقد رُفع إلينا خبركم بالأمس وما خضتم فيه من الحديث ، فكدنا نُعجِّل العقاب لولا ما سبقت به شفاعة الحلم ، فأنتم وإن أخطأكم عاجلُ العقاب فلا يخطئكم آجله إذا عدتم لمثل فعلتكم التى فعلتم ، فاذهبوا طلقاءَ السن ، فلولا حداثتها لمثَّلنا بكم تمثيلاً . وإياكم وذكرَ السياسة ، فلستم من المنزلة التى يتناول أهلُها الكلام فيها . فانزعوا عن شياطين الصحف ؛ فهى إنما تزين لكم من العمياء ما لا تُحمد له مغبَّة ، ولا تغتبط عاقبة ، ولا يقوم بنفوسكم أن الكهرباء الفرنسية تسرى فى أعصاب أرض وطئتها قدم الإنجليزى ؛ فهى لها الجسم العازل ، والحد الفاصل ، فما غاب عنا أمركم ، ولكن سوف تعلمون من منا يحزّ الودجَ أسفًا ويقلب الكف ندمًا ، ويقول : يا ليتنى لم أتخذ مع الجهل سبيلاً ، ولقد كنتم فى ضلَّة فهديناكم ، وفى ذلة فأعززناكم . وما كان المصرى فى العز بأجملَ منه فى الذل ، فحسبكم ما سمعتم ، فما بعد اليوم إلا ما علمتم . فخرجوا وهم يحمدون الله على النجاة من مخالب العقاب .

وينقضى ذلك اليوم والأحرف البرقية تنبض بأسلاكها ، والرسائل بين السردار ونائبه تروح وتغدو على وجهها . وتملأ أنباء الثورة فؤاد السردار رعبًا ، فيقول فى نفسه : أفتنة فى الجيش ولما أقم بالأمر فيه غير أيام معدودات ؟ فيا سعد كتشنر كيف

تحولَتْ لى نحسًا ؟ فيخف إلى العميد فينفض إليه جملة الخبر ، ثم يستوزعه الرشاد فى العمل ، فيلقنه كلمات يلقى بها الأمير :

قد أخرجُوه بكره من سجيتـه والنارُ قد تُنْتَضَى من ناضر السَّلَمِ

فيصدق الطير ، ويعود السردار وهو يحمل ذلك الأمر العالى . وهنا تمنعنى هيبة الآمر عن التعرض لذكر ما جاء فى الأمر ؛ فالله عليم بذات الصدور .

كلّ ذلك وحركاتُ السياسة الإنكليزية تجرى فوق سكون الجيش ، وهو كأنه فوق جارية فى عَرض البحار نام ربّانُها ، وتولى الموجُ أمرها ، فما لبث أن توّج بها رأسَ الصخر . ثم جعلها سرًا فى جوف البحر . ولما ظفر السردار بمناه راغ روغة ، فإذا هو بالسودان وقد شمرت أيام عيد الفطر . فأمر بتجديدها وأن تحشر له جنوده من السودانيين والمصريين . ونادى من قِبَلِه المنادى : معشر الجنود ، كل من نابته ظلامة ، أو نزلت به شكاة فهذا باب السردار لا يحجبه عنكم حاجب . فطفق الضباط يتسابقون إلى بابه، وجعل يقابلهم على انفراد، وهو كلما خلا بأحدهم بالغ فى محاسنته ومصانعته؛ فلا يكلمه إلا ماء البشر يجول فى محياه . وكذلك انقضى اليوم والسردار ينثر عليهم بِدَرَ المواعيد ، فما خرجوا إلا ورءوسهم مملوءة بالأمانى وأيديهم بالآمال .

ولقد كان للنعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة فى كل حول يومان : يومٌ جعله للنعيم ، ويوم للبؤس ، فكان يحبو من يلقاه فى يوم نعيمه بما يجعله مكفىَّ المُؤنة طول حياته ، ويصيب على من يعثر به فى يوم بؤسه سوطًا من العذاب ، فأراد ملك السودان أن يجرى فى طريقة ذلك الجبار بإحياء سنته، ففعل شرواه، غير أنه زاد عليه، فجعل للنعيم شهرًا أو للبؤس شهرًا ، فمضى الأول منهما – وهو شهر النعيم – والجنود السودانية ترتع ، وتلعب ، والسردار يعطى ويهب ، وكبارُ الضباط تصبح وتمسى على الموائد ، والمصريون كأنهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ .

فإذا أيام النعيم ولّت ، وإذا أيام البؤس حلت ، وإذا الموائد رُفعت ، وإذا الصلاة قُطعتْ ، وإذا العهود نُكثتْ ، وإذا الصدور نفَثتْ . عَلِمَ المصرى أنه غلب على أمره ،

والزنجى أنهجنى على غيره ، وهنا يلوح هلالُ شهر البؤس يطالع فى صحيفة الأفق أسماء أولئك الذين تقاسَمَهم العزلُ والطردُ ، فلم تشرقْ شمس يومه الأول حتى أصبحت دار الولائم ساحة لانعقاد المحاكم ، وأمر السردار أن يكون التحقيق علنيًا بعد أن كان سريًا . وإليك بيانَ ما وقع فى السر والعلانية .

استقدم القائم بالأمر فى السودان قبل أن يروعه الأمر بالسفر إلى الترنسفال رجلاً من كبار الإنجليز وكانت الثورة إذ ذاك فى عنفوان شبابها . وقد بلغ الخطب أشُده – كما يزعمون – فولاه أمر التحقيق، وأمره أن يسلك فيه سبيلاً أخفى من السر، وأظلمَ من الكُفْر ، وقال له : لتكن عيونك فى نقل الخبر كنسيم السحر ، يَنقُل عن يانع الزهر ، وهو لا تدركه العيون ، ولا تحيط بمسراه الظنون ، وضع أمامك إبرة الخداع ؛ فهى لا تلبث أن تقتادك إلى الحقيقة ، ولا يَحْزُنْك اجتماعُ المصريين ؛ فالمصرىُّ والمصرىُّ كشعبتى المقراض ما اجتمعا على عمل إلا افترقا ، وليس التفريق بين أنامل اليد – وقد التصقت – بأيسر من التفريق بينهم وقد اجتمعوا ، ولا يغمُضْ عنك أن النَّثْرةَ من النقود تنثرُ ما فى رءوس الزنوج من الأفكار ، وأن التفريق عليهم يدعو إلى التفريق بينهم ، وليْجتمعْ فيك ما اجتمع فى الرمح من البأس واللين ، وليكنْ كلامُك كالنَّفَس فى كونَيْه : إن شئت لطّفت به الحار ، وإن شئت فالعكس ، ولتتخرق كفُّك بالنوال ؛ فقد ضَمنتْ ردَّه إلينا تلك المناجمُ الذهبية التى نحن فوقها الآن ، وادع إليك هؤلاء الزنوجَ وحدانًا ، واخل بهم كما يخلو الشيطان بالإنسان ، وكن كالدينار لتجتمع القلوب على الرغبة فيك ولا تنس كلمة «أرسطوطاليس» «للإسكندر» حين نصح له، فقال: واجمع بين بِدار لا خفَّة فيه وريث لا غفلةَ معه ، فخرج من عنده وهو يترسم ذلك الأثر ويقول : إن نفَعَنا الدهاءُ فاليومَ . ولما خلا بنفسه، وجمع إليه كيده أرسل خلف العيون ، فألقى عليهم كلمات يعملون بها ، ثم أخذ ينظر فى وجه الحيَل ، ويستنبط أمثلَ الطرق . وما زال يستمد قريحتَه حتى فتق له الذهن أن يبدأ باستمالة الجنود السودانية ، فجعل يدعوهم ليلاً على انفراد ، فإذا ظفر بأحدهم هشَّ له ، وأدنى مُتَّكأه ، وحادثه محادثة القرين ، وقد طرح عنه أبهة الرئاسة ، وجلس معه على بساطة المساواة ، حتى إذا سكنت نفسهُ إلى حديثه ، وعلم أنه خلبه بسياسته وكياسته ، طارحه حديث الثورة

وما كان منها ثم استرسل إلى ذكره أسبابها ، فقال : إن الأمى- حرسه الله - ليتسخّط عند سماع هذا النبأ . وهو اليوم واجد على الجيش لانتقاضه على أولياء الأمر فيه . وما غاب عنه أن أولئك المصريين الذين كفروا بنعمته كما كفروا بنعمة أبيه من قبل هم الذين استهووْكم بالأباطيل ، فما فعلوا ذلك إلا نكالاً بكم حين علموا أننا سنبلغ بكم أسمى المراتب ، فنجعل منكم الأمراء والحكام فى السودان ، ثم نمكّن لكم فى الأرض . وقد علمتم ما لنا من الفضل على الجنس الأسود ، فنحن الألى نزعنا عنه أطواق الرق والعبودية ، ونحن الأولى ساوينا بينه وبين الجنس الأبيض ، كما ساوى الربيع بين الليل والنهار . وما كنا لنعفو عنكم حتى تنكشف لنا بواطن الأمر ؛ فنعرف أولئك المصريين الذين نفخوا فى مناخركم ، فركبتم رءوسكم ، وطاوعتم أهواءكم ، حتى إذا أدرك الجزرُ بحر الهياج تسللوا عنكم، وخلفوكم بين السخط والعقاب. فاذكروا لنا أسماءهم ؛ لتنظروا كيف نمثّلُ بهم . واعلموا أنكم لا ترون بعد اليوم إلا خيراً ، ولا يرون إلا شراً ، وما مثلنا معكما إلا كمثل لعاب المزن : تصيب منه الأصداف فيكونُ درًّا ، وتصيب منه الصِّلال[1] فيحولُ سمًّا .

يقول ذلك والقدح لا يكادُ يُفرغُه الزنجى حتى يملأه الإنجليزى ، فإذا نال منه الحديث ، وأخذته الخمر استملاه أسماء أولئك الذين يزعم أنهم جروهم إلى عدم الانقياد ، فيملى عليه ما يحضره من تلك الأسماء ، ولا ذنب لأصحابها إلا أنها مرت بخاطر هذا الزنجى حين اضطره ذلك الإنكليزى . هذا ما كان يدور عليه فلك السياسة البريطانية مع الجنود السودانية . أما الضباط منهم فقد وجدوا السبيل إلى استمالتهم بالمواعيد . فكان إذا خلا بهم ذلك القُلَّبُ طارحهم ما أسلفنا من الحديث ، وزاد عليه ، فقال: وما كان لنا فى جمع الذخيرة من أرب سياسى كما وسوس لكم أولئك المصريون. ولو شئنا - لا شئنا - أن نوقع بكم لأمرنا بعمل مناورة حربية ، فأتلفنا فيها كل ما بأيديكم من الذخيرة ، وأنتم لا تشعرون . ولكنّ فلاناً هو الذى ساقه قائد العجلة إلى ركوب هذا الشطط فكان جزاؤه الخروجَ من الجيش. فقد أحفظ العميد، وأغضب الأمة ،

(١) الصلال : جمع صل «بكسر الصاد» : الحيات .

ونبّه نيامًا لم توقظهم رعودُ السياسة منذ ثمانيةَ عشرَ حولاً . على أننا سنردهم إلى سُبات لا يقظة معه ، بعد أن نبدد شمل الجيش فى أقطار السودان ، ولنجعلَنّ كل اثنين منهما كالمتوازيين فى مستوى واحد لا يلتقيان . ولسوف يعلمون مَنْ منا أكثرُ مالاً وأعزّ نفراً ، ثم يستمليه من تلك الأسماء ، فيملى عليه ما شاءت الخمر وشاء الأمل .

ولما اهتدى ذلك المحقق إلى ما لا تهتدى إليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب ، وجمع فى خريطته ما يربو على الثمانين اسمًا خفّ إلى كبيره وقد حمل ظلمًا . فوالذى علّم آدم الأسماء كلها، ما اشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبُه غيرُ مكذوب عليه. فقال له كبيره وقد نظر فى الأمر نظرة الحكيم : إنى لا أرى رأيك فى عقاب هؤلاء الثمانين ، وما جرّت الثورة العرابية إلى ما يقارب ذلك العدد . ولكنْ تضرب عليهم بالقداح فمن صادف النحسُ سهمَه حقّ عليه العقاب . ولا تجاوز تلك القداح أنامل الكفين عدًّا . فإذا فعلنا ذلك أمنًّا شر العاقبة ، وفزنا بالغاية من إرهابهم وما أحسبهم بعد ذلك إلا قد صدفت قلوبهم ، وانصرفت وجوههم عن بعضهم بعضًا . ومتى انتهى فصل العقاب عمدنا إلى النظر فى وجوه مطالبهم ، فأدخلنا بعض التعديل على قانون معاشهم ، وحبَوْنا بعضهم بالنياشين . فينسيهم ما هم فيه من السرور كلّ ما لحق بإخوانهم من الشرور . ولقد غضب الإسكندر يومًا على أحد جلسائه فأمر بإبعاده وتفريق ما له على أخصّائه ، فقيل له فى ذلك فقال : فرقت ماله على أحبابه لكيلا يشفعوا فيه . وكذلك كان رأى الحاكم العام فى إخواننا الذين سبقت لهم منه الحسنى ، وفى الألى حق عليهم منه العقاب .

خمدت جمرة الثورة التى كان يحدِمها الوهم ، وسكن بحر الهياج ، ووقف فلَكُ العصيان ، وعادت أجرام السياسة إلى الدوران ، ورُجِم الثائرون بشهب من العذاب ، فمن يَثُرْ اليومَ يجدْ له شهابًا رصداً . وهدأ زئير الأسد البريطانى ، وأصبح حاكم السودان مبرود الغليل ، وحمِد العميد مغبّة الرأى ، وقام الواعد بوفاء الوعود ، فحلىَّ صدر الدجى بكواكب النياشين، وصدرت نشرة المكافآت وما لغير الزنجى فيها نصيب. وآن لنا أن نشرع فى ذكر أسباب الفتنة السودانية فقد علمتما ما كان من أدوارها .

لقد أراد الله أن تمتد الثورة من كوخ حقير كما امتد الطوفان من التَّنُّور . وسببها كلمة خرجت من ذلك الكوخ ، فحملتها الريح إلى آذان الجنود السودانية : كلمةٌ لأمةٍ كانت تحت جندى من الزنوج ، جاءها زوجها عشاءً ، فسألته عن أمر يومه ، فذكر لها حديث الذخيرة ، فقالت له : وما عسى أن تكون حالكم إذا صبّحكم العدوّ أو مسّاكم ، فلقد أصبحنا سواسيةً فى العجز ، وبات الرجال والنساء كأسنان القوارح :

فليت لى بك زوجًا إن أشرت له   هذا العـدوّ أتى أصـلاه نيـرانًا

تلك هى الكلمة التى مارت لها جزيرة القوم ، واهتز العرش البريطانى ، وطار نوم حاكم السودان ، ومرت أمام حوادث حرب الاستقلال مرور الصور المتحركة . تلك هى الكلمة التى اجتمع لها البرلمان ، وقرر تخفيض الجيش ، وحكم على كل مصرى فيه بسوء العيش . ولقد كنتُ أحد أولئك الذين ضُرِبَ عليهم بالقداح . وهأنذا وليس وراء ما بى من سوء الحال غاية ، ولو لم أكن متخرجًا فى المدرسة الحربية لكفانى العلم ذلّة الفقر والسؤال ، ولكننى خرجتُ منها كأنى المعنى بقول من قال :

الجهلُ شخصٌ ينادى فوقَ قامته   لا تسأل الرَّبع ما فى الربع من أحدِ

فلقد لبثت فى الجيش مع من فيه بضع سنين ، فصبرنا على ما لا يصبر على بعضه كل أولئك الذين سُخروا لبناء الأهرام وإقامة البرابى ، وما باتت الإنس والجن مطوية الضمير على الطاعة لسليمان كما باتت تلك الجنود المصرية لرؤسائها الإنكليزية . نعم ، ولا لاقى جيشُ الإسكندر فى فتوحاته ، ولا جيشُ نابليونَ فى غزواته بعضَ ما لاقته هذه الفئة المصرية فى الأقطار السودانية . فلو حاول الإنجليز وصول الكرة الأرضية بإحدى السيارات بمد السكك الحديدية لما وجدوا من يصابُرهم على هذا العمل غير ذلك الجيش؛ فلقد استفرغوا جهدهم لصيرورة الجيش إلى الحال التى تراها، فتمكنوا فيه من النفوس ، وحكموا على الضمائر ، فلم تخطئْهم وساوسُ الصدور ، ولم تفتهم خطرات الأفكار .

دخلوا مصر وفى جيشها من هم أولو سابقة فى الفضل وخصيص فى العلم ومن حنّكته السن ، وغذته التجربة ، وخبطته الحروب : فكنت ترى فيهم المهندس الماهر ،

والكيماوى الباهر ، والمحيط بفن الحرب وعلم التكتيك ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرقونا ، فأشفقوا أن يكون هؤلاء أمام سياستهم صفًا صلدًا ، فزحزحوهم عن أماكنهم ، حتى أصبح الجيش عطلاً من كل رجل ركين ، ثم نظروا فإذا المدارس الحربية تغذو أشبال تلك الأسود لبان العلوم والمعارف ، فهالهم أمرُها ، وأسرعوا فى سلبها كنز علومها ، وتجريدها من حلى فضائلها ، حتى أصبحت كالأخيذة السلبية ، ثم يتّموها[١] أساتذتها . وأراد ربك فأمست وهى أشبه شىء بمصانع الدجاج : يدخل فيها التلميذ ، فلا يسلخ ستة أشهر حتى يغدو وعلى جنبه سيف صقيل ، فهو يومَ دخل فيها مثله يوم خرج منها ، لا يزيد علمه فى الحالين عن يوم خروجه من بطن أمه . وما كانت قوة التصوير الشمسى بأسرعَ فى أخذ الصور من تلك المدرسة فى تهيئة التلامذة للدخول فى الجيش .

فأصبحَتْ بفضل القوم كما ترى . وقد جمدَتْ فيها روح العلوم ونضبَت سيول المعارف ، وأقفرت غرفها من نجباء التلامذة . وقام ينعق فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك ، وبات يطلبها كل فَدْمٍ[٢] وجاهل كما تطلب البوم الضيعة الخرِبة .

يمشى الكبير من الإنجليز فى معسكر الجنود السودانية ، فيعثر بأولادهم وهم يلعقون فضلات الطعام، وكأنهم وقعوا على تمرة الغراب، فيقف عليهم ، ويتفرس فيهم ، ثم يختار من تدركه السعادة منهم، فيقذفه بمنجنيق إرادته على أسوار المدرسة الحربية. فلا يحولُ الحَوْلُ حتى ترده إليه وعلى كتفه نجمان من نجوم النحوس ، فيغدو اليوم حاكمًا على من كان يلتمس فضلات طعامهم بالأمس . وربما كان فيهم عمه وأبوه .

والسعدُ يدرك أقوامًا فيرفعُهُم وقد يُنال إلى أن تَعبُدَ الحَجَرا

ويمرّ ذلك الكبير من الإنجليز على الجنود وهم على مصافهم قيام ، فيروقه منظر أحدهم ، ويعجبه حسن سمته . وما هى إلا لفتة منه إلى كاتم سره ، حتى يُمسىَ ذلك

---

(١) اليتم : فقدان الأب ، ويتمه بالتشديد : جعله يتيما ، وهو يتعدى لمفعولين .

(٢) الفدم : الغبى .

الجندى تلميذاً . فلا يُهلّ بالمدرسة شهراً حتى يوافى إخوانه من الجنود وهو يجر سيفاً لولا الغمد[1] يمسكه لسال خجلاً .

شكا ضابط مصرى إلى كبيره – وهو يحاوره – من سوء العيش، وجفوة الرؤساء، وكثرة الإتعاب ، وقلة الأعطية ، فأجابه الإنجليزى – وقد أمال سالفته تيهاً ، وثنى عطفه كبراً: إذا أصبح السردار وقد أراد أن يملأ غرف المدرسة الحربية وفناءها من التلامذة، ألا تتم له تلك الإرادة ؟ قال المصرى: بلى، فلا يكلفه ذلك غير النشر فى إحدى الصحف حتى تتواقع التلامذة على بابها تواقع القطا على المنهل العذب . قال الإنجليزى : لهذا أنتم فيما أنتم فيه من البلاء ؛ فهو إن يشأ يذهبْكم ويأتِ بخلق جديد . ولو عاف المصريون ورود هذا المورد ، وانصرفَتْ وجوههم عن ذلك الباب ، وعزفت نفوسهم على الولوج فيه لأصبحتم من الإعزاز بحيث نحن الآن ، ولكن أنىَّ يكون لكم ذلك وما فيكم إلا من هو معنىٌّ بقول ذلك الشاعر الجاهلى :

لحا الله صُعلوكًا مناه وهمُّهُ ... من العيش أن يَلقى لبَوسًا ومطعَمًا

لذلك تكسرت فى المصرى الأظافر ، وبات مهضوم الجانب ، غير مرعيِّ الجناب ، يعتوره الذل والخور ، وتأخذه سوء القالة ، وهو كأنه العمر : كلما مر به يوم لحق به النقص .

ينظر المصرى إلى الإنجليزى وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة ، فيكُبره رهبة وإجلالاً ، ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه الإنجليزى بتلك النظارة – وقد عكسها – فيُصغره استخفافاً بشأنه ، ويطيل عتاب الخلق الذى فطره على شكله وصورته ، ومنحه نعمة التنفس فى جو يتنفس الإنجليزى فيه ، وهو إن خاطبه خاطبه بلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق ، أو بإشارة يخالطها الجبروت ، ويزدهيها البطر . هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط . أما الكبار منهم : كبار الرتب والأجسام

---

(١) يشير إلى قول أبى العلاء :

يذيب الرعب منه كل عضب ... فلولا الغمد يمسكه لسالا

لا كبار النفوس والأحلام ، فحالهم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم ؛ فلقد سقاهم ساقى السياسة الإنجليزية كئوساً من منقوع الرعب ؛ فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث ، حتى إذا صدر له أمره بشىء كاد يخرج من ظله سرعة لإمضاء ذلك الأمر ، فهو إلى إجابة داعيهم أسرع من الصدى ، وهو على حفظ أمره أحرص من «الفنوغراف» على حفظ الصوت !!

اللهم إن العيش مع الأبيضين[1] وإن أبردا العظام ، أروح للنفس من عيش ضباطنا العظام ! تراهم وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم ، فيروقك ما ترى . ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء ، أفئدة هواء !!

فليت سيوفهم كانت عصيًا وليت نجومَهم كانت رُجومًا

قال صاحبى وهو مقبل عليه : إنى أراك موتوراً ، فلا بدع إذا بالغت فى النعى على القوم فيما يذهبون إليه من ضروب سياستهم .

قال البائس : وما عسى أن تقول إذا حدثتك عن حياة الضابط الإنجليزى فى الجيش المصرى ؟

يهبط أحدهم مصر فما هو إلا أن يشم نسيمها ، حتى يقابله الأمر بمنصب فى جيشها .

فإذا سما من رتبة المأمور إلى رتبة الآمر ، وأصبح عطاؤه الذى كان لا يتجاوز أيام الأسبوع عداً وقد تجاوز أيام الشهر ، ونقلتْه كيمياء القوة من معدِن يُرغبُ عنه إلى معدن يُرغبُ فيه ، وقذفت به يد الطمع من مناجم الفحم إلى كنوز الذهب ، وهبّت ريحُ سعوده ، ونسىَ جلود جدوده نظر إلى المصرى تلك النظرة التى أسلفنا وصفها . وقد جعلوا ثواباً لمن يتعلم العربية منهم فى وقت وجيز ، فترى قادمهم يصطفى بعض التراجمة أو المتزلفين من الضباط ؛ فيأخذ عنهم مبادئ اللغة ، ولا يبدأ فيها إلا بحفظ

(١) يشير إلى قول الراجز
الأبيضان أبردا عظامى الماء والفت بلا إدام

كلمات الهجر والفُحش . فإذا وعى منها كلمة ، وأراد استعمالها فيما وضعت له أسرع إلى المصرى ، فجبهه بها عن غير ذنب ، فتخرج من فيه وهى كأنها بعض حجارة المنجنيق . فإذا أنَّ لصدمتها ذلك المسكين أوسعه سبًا باللغة الإنجليزية . كذلك نصيبُ كل مصرى يخاطبه الإنجليزى بالعربية ، ولم يفهم مقصده لتعذر النطق عليه ، أو لعزوب الكلام عنه، أو لإيراده على طريقة النطق الإنجليزى ، فينطقه بلسان يرتضخ إنجليزية ، وحلقٍ كأنه يقىء . ولقد مررتُ ببعضهم وهو يكاد يقطر غضبًا ، وينشق غيظًا ، وأمامه مصرى قد انفجر فى وجهه بركان الغضب الإنجليزى ، فبحثت فى الأمر فإذا الإنجليزى حديثُ العهد باللغة .

والويل لمن يقع تحت سيطرة الإنجليزى قافلاً من الهند ، فإن رِجلهَ إلى لكز من يخاطبه أسرعُ من لسانه إلى سبه .

ومن لم يرَ نعيم الدنيا أو يرزقْ عيش التَّرَف ، فليقدم الجيش ، وينظرْ الإنجليزى فى لين عيشه ، ورخاء باله بين مبتسم زمانه ، وعز سلطانه . إذا صاح ابتدرت صيحتَهُ الألوف ، وإذا مشى قامت إجلالاً له الصفوف ، وإذا لبس القلنسوة كانت لها فى النفوس رهبةُ التاج ، وإذا غضب تقطعت لخوف بطشه الأوداج :

أ أفريدوتُ فى التاج	أم الإسكندر الثانى
أم الرجعةُ قد عادَتْ	إلينا بسليمانِ

يهب من نومه ، فيترامى الخدم على خدمته كلٌّ فى شأنه الذى نُصب له . فإذا قضى لبانته من مأكله ومشربه وملبسه . قُدِّم له الجواد ، فاستوى عليه ، ومضى متباطئًا إلى حيث الجنودُ مصطفةٌ للتدريب غيرَ مبالٍ بانتظار تلك المئات ، ولا بما يلحق بهم من السأم والملل إذا تأخر أوان تجليه عليهم إلى وقت الضحا ، وهم يرتقبونه والليل والصبح خيطان . فإذا صار بحيث تراه العيون سجدت السيوف ، وقامت البنادق ، وخفتت الأصوات ، وجمَدت الشخوص ، وسكنت الأنفاس ، كسكون النسيم إجلالاً للقادم ، ورهبةً للمقبل ، وما أسعدهم إذا أجاب على كل هذا بإشارة من رأسه ، أو من يده . ثم يخترق الصفوف بجواده بهيئة المتفقد ، وخلفه أكبر ضابط مصرى يكتب عنه ما

يملى عليه من ملاحظاته . ثم يَركُض جواده ملءَ فروجه إلى ملعب الكرة ، بعد أن يرسم لمن ينتدبه مكانه خطة التدريب فى غيابه .

ومن رآه وهو عائد من ملعبه يجر خلفه الصولجان ، وقد أخذ منه الجهد ، ظنه منقلبًا من أحد مواقع البوير غبَّ عراك وصدام ، وتعانُقٍ والتحام ، وروغ وإقدام ، قد رنحه الضرب ، وأثملته الحرب . يجر من ورائه رمحًا قد جمَد عليه النجيع[1] بعد ما سالت النفوس .

وتحين ساعة عودته إلى مقر حكمه ، فيغيِّر من زيه ، بعد أن يقطع صدر يومه ، على مائدة الصباح . ثم يوافى ديوان نهيه وأمره ، ومظهر علو قدره ، فيتربع فى دست جلاله . فما سليمان على بساطه ، ولا كسره فى إيوانه ، بأكثر جلالاً فى الصدور ، ولا أشد رهبة فى النفوس . فإذا قعد للمظالم والأخذ للمظلوم من الظالم ؛ فهنا لا تسل عن الميل والإجحاف ، وسل عن العدل والإنصاف . والويل للمصرى يَستعدى عليه الزنجى الحاكمَ الإنجليزى ، فإنه مدفوع به إلى أقصى درجات العقاب ، قبل أن يعلم الأسباب ، فأى مصرى لا يفتأ يضرع إلى الله أن يصبغ لون جلده ، بسواد جَدِّه[2] ، ليخطو إلى السعادة هذه الخطوة ، ويحظى عند القوم بتلكم الحظوة .

والإنجليزى فى الجيش مشغوف بحب الأسود من الألوان ، عامل بقول الشاعر الحكيم :

وما كل وجهٍ أبيضٍ بمبارك ولا كلُّ جفنٍ ضيقٍ بنجيبِ

ولو أنه انقلب إلى بلاده فى عهد الحرب البويرية ، لرأى ما يروق لعينه فيها من تلك الخرق السوداء ، خرق الحداد التى تتجمل بها الأذرع هناك . وقلما ترى العين ذراعًا غفلاً منها منذ كانت الحروب الترنسفالية . فليسأل الله دوام تلك الحروب ليدوم عليه وعلى أمته سوادها . وهذا أديم الليل فليقُدُّوا منه ما استطاعوا إذا أعوزهم النسيجُ وعزت الألوان !.

---

(١) النجيع : الدم .

(٢) جده : حظه .

ثم يعودُ إلى داره ، فينغمس فى حوض من الماء ، فإذا تم ابترداه فيه تحول عنه إلى المائدة ، حتى إذا امتلأ عمد إلى مجلس الشراب ، واسترسل فيما هو فيه إلى قبيل تطفيل الشمس . ثم يفزع إلى بارودته فيحتقبها ، وينطلق للتصيد فى الأودية والغابات ، وخلفه الكلب والخادم ، ولا يُعقّب حتى يلوح سُهيَل .

هذا كل ما يفعله الإنجليزى فى يومه ، وهذه عيشته وتلك حالته . أما الجندى الأشقر ، صاحب الرداء الأحمر ، والعيش الأخضر ، والطالع الأزهر ، فعيشته أعجب ، وسيرته أطرب . يؤتى به من جيشه ، وهو من عامة الجند فيه عاطلُ الذراع ، خفيف المتاع . فإذا قدِم مصر ليلاً أبى أن تشرق عليه شمسها حتى يكون رئيسًا لمكتب إفرنجي ، يعنو لإمرته كل من فيه من مترجم وكاتب . ثم تسيل له أودية الميزانية بالعطاء ، وتُفتحُ أبواب الخزائن ، فيمنحُ من النقود ما شاءت القوة ، ومن النفوذ ما شاءت السياسة ، حتى يصبح محل الثقة ، وموضع السر ، ومحور الأشغال ، وقطبَ التنقلات ، ومركز التغيرات . فلا يبرم الحاكم الإنجليزى أمرًا دون استشارته . فإذا دخل فيه العُجْب ، وغلب على نفسه الزهو ، نظر إلى المصرى تلك النظرةَ التى أسلفنا نعْتَها . فتتقاطرُ على بابه فئات المتزلفين ، وأرباب الحاجات ، فمن كان له به دخل أو خاصة كان السعيدَ المحبوبَ ، ومن صلى لغير تلك القبلة كان الطريد المجفوَّ .

وأعرف واحدًا منهم قد استطرد به جواد السعادة ، حتى أصبح قومندانًا لحملة الجيش ، وآخر قد سماه به سلّم العز حتى أصبح من السردار قاب قوسين أو أدنى . وهو اليوم بالسردارية واضع إحدى قدميه على العسكرية ، والأخرى على الملكية ، تجرى على سن قلمه أرزاقهم ، وتدور على طَرَف لسانه تنقلاتهم .

قال الراوى : ثم سكت قليلاً ، واستأنف الحديث قائلاً : ولو أننى حدثتك عن ذيل الثورة وما كان فيها من أمر الخائنين منا لأضفت إلى عَجبَك من تغطرس الرؤساء استياءك من تدابر المرءوسين .

قال صاحبى : وما عسى أن يكون ذلك الذيل ؟ قال البائس : مخزيةٌ أتى بها مصرى . وماذا أقول فيه والزمان أكثر منه وفاءً بالعهود ؟ ! خرج من الثورة خروج

القدح المنيح[1] ، فكبر عليه الأمر ، وقد كان ليث كتيبة الجواسيس ، على يده خربت تلك البيوت فى شهر البؤس ، وبيده فُتحت تلك الزجاجات فى شهر النعيم . وهو أول من طرق الباب على كبيره ، وخبره بما سمع وما رأى ، وأول من دخل فى نسبة القوم . فكانوا إذا ذكروه وأعماله قالوا : ما رأينا غراباً أشبه بغراب من هذا بنا ! قال فى نفسه : لقد زجَرتْ يدُ القدر طيرى بالنحوس ، ونسى القوم ما قدَّمت يداى ! وما كان أشبهنى بالعافية تذكر عند المرض ، حتى إذا زالت عوارض السقم نسى صاحبها ذلك الذكر . فوالذى جعل إبليس من المنظَرين لآتينّ عملاً تأنف الحفظة أن تكتبه علىّ ، ولأعقدن عقدة تُحل لها العزائم . فما حقد الخصيان على الفحول ، بأبرى للصدور من حقدى على هؤلاء الذين فازوا بنعمة المكافآت دونى .

ودخل بيت كبير الجيش ، وهو ظالم لنفسه قال : أحطتُ بما لم تُحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، منذ حوْل دعانى سلفك ، وقد نمى إليه أن جماعة من المصريين ممن ينظرون لكم على غير الجميل ، قد قاموا بتأسيس جمعية وطنية تحت كبير من ولد إسماعيل باتت تظلله القلوب ، وتحرسه الخواطر . قاموا بتأسيسها منذ خمسة أعوام ، وأخذوا فى الدعوة إليها ، حتى اتسعت هالتها ، وهالنى أمرها ، ثم أمرنى بالغوص على أسرارها ، والوقوف على أمرها ، فقمت بتنفيذ مشيئته . وما زلت أخالط الضباط ، وأنا فى لباس من الرياء والتظاهر ، حتى ظفرت بصديق قد أنس إلى صحبتى ، وسكن إلى مودتى . فأكثرت من مسايرته ومجاملته ، وسرت أطارحه حديث الوطن ، وأبتهل إلى الله ، ودموع الخداع تتناثر على خدى . وما زلت به حتى سلَلْت نفسه ، واختلست لُبّه ، فشفّتْ لى سرائره، وأحطت علماً بما فى قرارة نفسه ، وتناولت ما وراء ضميره ، فعلمت أنه فرد من أفراد تلك الجمعيـــة ، فاسترشدته فأرشدنى . وما كاد يستقر فى نفسى هذا العلم حتى غدوت لا ألوى على شىء ، فطرقت بابها ، وساعدنى الجَدُّ فغشّى الله أبصارهم ، وطمس بصائرهم . فأفسحوا لى بينهم مكاناً ، وأقسمت لهم يميناً . وما زلت بهم حتى استفرغت أسرارهم ، واستبطنت أمورهم ، ووقفت على ورقة

---

(١) القدح المنيح فى الميسر قدح لا سهم له .

التراسل بينهم . ما هى إلا أن سقطت فى يدى ، حتى تمنيت لو مسخنى الله طائراً ، فطرت لساعتى ، ووقعت فى حجر ذلك الكبير . ولما أقبل الليل فى لون صحيفتى ، رغت روغة فإذا أنا أمامه . فرفعتُ إليه كل ما وصلَتْ يدى إليه من أخبارهم ، فسر حتى عجز عن مداراة سروره .

وحال الحول ولم أعلم شيئًا عن أحوالها ، وكأنه طوى كشحًا عنها ، وتثاقلت أنا الآخر عن تعهدها ، حتى وقعت حادثة الذخيرة ، فقلت فى نفسى ما لهذه الحادثة بد من سبب . فأطلت البحث ، فما زال يقتادنى ، حتى وقف بى على باب تلك الجمعية . وأكبر ظنى اليوم أنها أم لتلك الحوادث ، فصحت عزيمتى على لقائك وإطلاعك على باطن الأمر ، حتى تحتاط له ، ولا زلتَ صاحب النظر الأعلى فى الأمور .

وخرج من عنده وما أدرى كيف لم تغُرْ به الأرض ، ولم ترجُمْه السماء . ولولا أننى أعلم ما أعدّ الله لو فى لوّاحة[1] البشر من آجل العقاب لعجبت من حلم الله . فسبحان من وسع حلمه كل شيء. فلقد أجَّل عقاب هذا الأثيم إلى يوم لا تنفعه فيه شفاعة العميد ، ولا تغنى عنه أساطيل القوم شيئًا ، يوم يسبَحُ معهم فى بحر من العرق ، كما يسبح اليوم فى بحر من الغرور .

قال الراوى: ثم أمسك عن الكلام فقال صاحبى : حسبك ما ذكرت من أمر القوم ، فإنى أراك تهم بذكر ما ينبغى أن يدرج فى أثناء النسيان . فإن كنت لا تزال تُعاظم الناس بمصيبتك ، فهؤلاء أهل دنشواى قد نسخ ما نزل بهم من العذاب كل ما سلف من أعمال القوم منذ حرقوا «جان دارك» إلى يوم أصلَوْا أهل الأزهر النار ، وألقوا بمقاليد الأمر إلى هذا المستشار . فما تلك بيمينك أيها الموتور ؟ قال : «صحيفة المؤيد» ولقد أبرد غليلى ما كتب صاحبها اليوم عن تلك الحادثة النكيرة .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى وصف جهنم ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ أى مغيرة لألوان الجلود .

السياسة الضعيفة العنيفة

يستغرب القراءُ أن نجمع بين هذين الوصفين لموصوف واحد ؛ لما يظهر من أن العنف يكون مع القوة ، وهى لا توجد مع الضعف فى شىء غير متعدد ولو بالاعتبار .

أما نحن فنقول : إن العنف قد يكون مظهراً كبيراً من مظاهر الضعف ، خصوصاً فى سياسة الأمم وحكمها . كصفة الكبرياء للمتكبر فإنها لا تكون فى الشخص إلا حيثما يذهب شىء من فضائله ومزاياه ، فيخل الكبر بهذا الفرع ليكمل صاحبهُ علاءً فى زعمه .

وخذ الشراسة مثلاً فى بعض الناس ، فإنها توجد حيثما يعوز المرء شىء من مزايا حسن النظر ، وضبط النفس ، وسعة الصدر ، فتحل الشراسة محله . ولذلك تجد أضيق الناس صدوراً من يسُب غيره ، وأقلَّهم مقدرةً على الإقناع الخطابى من يصيح فى وجه محدثه ؛ ليحمله على قبول رأيه .

كذلك العنف وقوة البطش فى حكم الأمم يحل محل حسن السياسة وقدْر المسئولية قدرها فى كل عمل . وقلما ترى سياسيًا محنكًا قادراً على تصريف الحوادث بالحسنى والاستنتاج منها بقدر ما تعطيه مقدماتها إلا كان عادلاً حليمًا بعيداً عن فعال الظالمين.

لا نذهب بالقارئ بعيداً بضرب الأمثال عن الموضوع الذى نحن بصدده فهذه مصر يدير دفّة سياستها وإداراتها المحتلون من الإنكليز منذ ربع قرن ، وهم يقبلونها على كل وجه من وجوه النظام ، محواً وإثباتًا ، وتبديلاً وتعديلاً ، ورفعًا ووضعًا ، فلم تكن أمة ألين عريكة وأطوع فى يد العامل منها . تشكر حسن الصنيع ، وتصبر على الإساءة . ولو كان "اللورد كرومر" فى غير مصر لمجّ السياسة ، وملَّ أن يقيم فى قطر

واحد مثل هذا الزمن الطويل ، حتى قيل : إنه فضّل مراراً أن يكون قنصلاً جنرالاً فى مصر عن أن يكون سفيراً لدولته فى أعظم العواصم الأوروبية . بل فضّل هذه الوظيفة على أن يكون عضواً فى وزارة الأحرار . ولو شاء ذلك لحُفظ له مركزه فى الوزارة الحاضرة .

وما ذلك إلا لأنه فى مصر يعمل كالملك المطلق الإرادة لا يشوّش عليه مشوّش من المراقبات الشديدة ، ولا ينغّص عليه منغِّص من الحوادث المزعجة . قضى كل هذا الزمن طيب الخاطر ، هادئ البال ، قرير العين بهذا السلطان القوى الذى يدير به دولاب الحكومة المصرية . وقد لقى من الأمة مهاداً طرياً ، ومن أمير البلاد مسالمة مرضية ، ومن الوزارة استسلاماً ليست العبودية أوفى منها فى العبد لسيده .

ولكن اللورد فى حكومته كان ككل حاكم مطلق يحتاج إلى الأعوان الذين يساعدونه . ومن عادة الملوك أن يختاروا فى كل دوْر من أدوار حياتهم الأعوان الذين يوافقون الظروف . ففى دوْرٍ كان مع اللورد كرومر أعوان مثل "الجنرال غرنفيل" فى الحربية و"الكولونيل منكريف" فى الأشغال و"السير سكوت" فى الحقانية و"السير إدجار فنسنت" أو "بالمر" و"ملنر" أو "غورست" فى المالية ثم الداخلية . وفى دور كان معه المستر "ماتشل" فى الداخلية والمستر "كوربيت" فى المالية والمستر "دنلوب" فى المعارف وهلم جرا .

ولا خلاف فى أن هؤلاء يختلفون كفاءة ، كما أنهم يختلفون استقلالاً فى الرأى مع اللورد ، بل مما لا خلاف فيه أن أعوان جنابه فى هذا العهد كانوا فى وظائف مصرية صغيرة أو صغيرة جداً . ثم ترقّوْا بحسن عناية اللورد ، وعظيم رعايته ، فله عليهم يد الفضل ، أكثر مما لهم عليه من يد المعونة الكبرى !

والزمن الذى كان "السير سكوت" لا يقبل كل رأى يشار عليه به من الوكالة الإنجليزية فى التشريع والقضاء ، ويقول : إن النظامات القضائية لا تحكى بناء القناطر وتشييد الجسور قد ذهب بذهابه . وجاء الزمن الذى يضع فيه أساس الإدارة الداخلية فى البلاد كلها ، ويقول بضرورة الانقلاب العام ، وإحلال العنف فيها محل

العدل مَنْ كان قبل بضع سنوات ضابطًا عسكريًا صغيرًا يؤدى وظيفة عسكرية محضة!!

نحن لا نطعن على كفاءة عامل ، ولكن نقول بالإجمال : إن الذين يتولون إدارة البلاد الآن أعوانًا للورد كرومر تنقصهم تجارب كثيرة ، وخبرة كبيرة بأحوال البلاد ؛ حتى يكونوا بعد ذلك منظمين مصلحين ! ولا يمكن أن يكون اللورد عاملاً بذاته فى كل مصلحة ، لأن المراقبة العامة تَشْغله عن المراقبة الخاصة . فإذا حدثتْ حادثة غيرُ منتظرة فى البلاد ، حالت بينهم قلةُ الخبرة وبين تكييفها بحقيقتها ، فأعطَوْها غير حكمها وبنَوْا على حدوثها تغييرًا وتبديلاً فى النظامات ، قد يَبْعدان بها عن محجة الصواب بعدًا شاسعًا . وكلما سأل جناب اللورد واحدًا من أولئك الأعوان عن سبب حادث ما أجابه بقدر ما يعلم بالرأى الفطير ، فأمره بناء عليه بما يأمر به الطبيبُ ممرضًا يخطئ فى أعراض سير المرض والطبيب غير مسئول !

فالبلاد سائرة والحالة هذه بآراء أولئك الأعوان على غير خبرة كافية منهم ، وبالأوامر المطاعة من جناب "اللورد كرومر" .

وحيث اختلفت حواسّ السمع والبصر والبيان اختلفت نتائج الحكم على الأشياء .

هذا هو سبب الاختباط الحاصل الآن فى إدارة البلاد . وعيوب هذه الإدارة تزداد وضوحًا يومًا بعد يوم . فيوجد فى عناصر السياسة المصرية الآن فراغٌ كبير من حسن النظر والحكمة هو الذى يراد سدُّه بالعنف والخروج عن منهج الدستور الذى تُحكم به البلاد ، ومن سوء الحظ أن هذا الدستور وُجد ناقصًا فى ذاته نقصًا يقولون إن طبيعة البلاد اقتضته . واللورد كرومر فى هذا المعنى فلسفة طويلة عريضة فى عدة أبواب من تقريره الأخير ، حكم فيها حكمًا قاسيًا على الأمة ، واستعدادها للنظامات الدستورية الكاملة .

وأضفْ إلى ذلك الاختباط وسائط شتى تُحيط بالوكالة الإنجليزية ، وكبار موظفى الإنكليز ، جعلت همها تأويل كلّ حادث فى مصر بما يوسّعُ مسافة الخلف بينهم وبين

المصريين ، وتحريف كل كلمة تُكتبُ فى الصحف المصرية بما يسوء سمعَهُ حتى تبقى وظيفتهم على الدوام مصدر نعمة وخير .

فلو وُجد محلّلون كيماويون سياسيون خبيرون يحلّلون عناصر الحوادث التى تحصل فى مصر ، ويكون لها سوء تأثير عند المحتلين تحليلاً حقيقيًا . يَردّون به كلّ جوهر إلى أصله ، وكل معلول إلى علته ، وكلّ نتيجة إلى مقدّماتها ، ولو وُجد من الإنجليز فى وظائفهم من لا يخدعهم تحريف المحرّفين . والمحتلون أكثر الناس انخداعًا بزخارف المموّهين كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده ، مفتى الديار المصرية سابقًا ، لما انعكست آية ما بين أبناء البلاد وأولئك المسيطرين .

انعكست تلك الآيةُ إلى حدّ أن يظُنوا أن حادثة دنشواى أثر من آثار التعصب الدينى القائم الآن بين المصريين والأوروبيين . وهو ظن باطل إن لم يكن خطأً مقصودًا بالذات لتخفيف شناعة ما فعله رجال الاحتلال فى هذه الحادثة لدى الرأى العام الإنجليزى .

والقارئ لما نشرناه اليوم نقلاً عن "جريدة التيمس" يرى كيف كان مركز ناظر الخارجية حرجًا فى البرلمان وهو يُسألُ عن نقط كيفية تنفيذ الحكم على الصورة الفظيعة التى حصل بها ، فلا يجد له جوابًا سوى أن يعد بالجواب فيما بعد على هذه النقط . سألوه هل حقيقةً كان تنفيذ الحكم جهارًا نهارًا على مرأى من أهل المحكوم عليهم نساءً ورجالاً ، سألوه : هل حقيقةً كان تنفيذ الحكم بكيفية أن يُشنق المحكوم عليه بالإعدام ، ثم يبقى معلقًا على مرأى من بقية المحكوم عليهم به وبالجلد حتى يجلد اثنان؟ ، سألوه : هل حقيقةً كان الشنقُ والجلد على مرأى من الأهل يبكون ، والنساء يندُبن ويُعْولن ، سألوه : هل كان التنفيذ بواسطة الكابتن "مشتل" مستشار الداخلية (لأنه لا يزال برتبة كابتن فى الجيش الإنجليزى) وقد وصفوه وصفًا مُهينًا جدًا كما يرى القراء فى محضر جلسة البرلمان المنشور اليوم نقلاً عن "التيمس" .

سألوه أشياء من هذا القبيل ، فكان لا يستطيع أن يجيب بالإيجاب ، وهو يعلم أنّ كلّ ما سألوه إياه واقع لا ريب فيه . وكان كلّ ما يقدر عليه فى هذا الموقف الحرج أن

يعد بالجواب ريثما تأتيه التفصيلات الوافية فى ذلك . ولو أجابهم بالإيجاب فى ذلك الموقف لساءت حالة الوزارة ، وساء حال كبار المحتلين فى مصر بما لا يعلم إلا الله نتيجته .

على أن "اللورد كرومر" وجد من هذا المضيق الخطر فرجًا له ولوزير الخارجية فى جلسة تالية، فاتهم الأمة المصرية كلها بالتعصب الدينى على الأوروبيين. وقال : إن عمل الحكومة المصرية فى حادثة "دنشواى" كلها كان عملاً استثنائيًا إخمادًا لثورة خفية فى الطبقة النازلة من الأمة . وهدد مصر بمعاملات جائرة ربما اضطُرَّت لها الحكومة اضطرارًا . وكان هذا ختام فصول الرواية فى البرلمان الذى ترجّح عنده الآن أن الأمة المصرية كلها أثيمة مجرمة لا أهل دنشواى وحدهم ، وأن مركز الحكومة المصرية يحفّ بالأخطار الهائلة إن لم يطلق لها السّراح للنهاية فى استعمال كل ما تريد استعماله عند الحاجة مخالفًا للدستور ولطرائق الأمم المتمدنة .

ما الذى أوجب "اللورد كرومر" أن يدافع عن نفسه وعن بقية أعوانه فى البرلمان بهذا السلاح الخطر المضر بمصر وأهلها .

ما الذى أوجب القائمين بإدارة مصر الآن أن يلجئوا إلى هذا العنف المودى بأهليها اتهامًا .

ما الذى اضطر ناظر الخارجية أن يهدد الأمة المصرية فى مستقبلها مثل هذا التهديد .

أوجب ذلك كله ضعف فى سياسة القوم يحاولون سد فراغه بهذا العنف الشديد !

ولكن حنانيك أيها اللورد الكريم ، وعطفًا أيها العامل المصلح ، الذى ما عهدناه يريد لمصر غير الخير والفلاح ! إنصافًا أيها الرجل الشريف النزيه الذى لا يرضيه أن تضحى مصلحة أمة شكورة تعرف الجميل لصانعه ولا تنساه – أن يخدعك عجزُ أعوانك ، فتحكم خطأً على أمة كتبت صحف تاريخها فيك بيضاء ، فتعكسها آية انتقام لا محل له منك بما تجره عليها من الويل والثبور فى مصير الأمور " .

ولما انتهى من القراءة قال صاحبى : لقد أحسن الكاتب ، وأصاب الناقد ، فغمز بقلمه مكامن الضعف من تلك السياسة ، وحسبُنا الساعة ما سمعناه ، على أننى لا أرى رأيَهُ فى النعى على هؤلاء المحتلين فيما يذهبون إليه من مذاهبهم فى ضروب الاستعمار وفنون الاستثمار . إنهم دخلوا فى أرض أصابوا فيها أنعامًا سائمة فاكتسحوها ، وقُطعانًا سارحة فاغتنموها . ولو أنهم أصابوا نفوسًا تشعر وأعصابًا تُحس ، لما بلغوا بها المبلغ الذى تراه .

أرأيتك كيف يجمُلُ بهم - وهم أبطال السياسة وفُرسان الدهاء - أن يوقظوا بأيديهم هؤلاء النيام ؟ أو يحرّكوا بقوة العلم هذه الأصنام ؟ فمن الذى يقف بعدوه على سبيل الرشاد ؟ أو يمهّدُ لأسيره طريق الفكاك ؟ إنما تملك ذلك شمائل الأنبياء ، وخلال الأصفياء ، لا فرق عندهم بين العباد ، فى سبيل الهداية والإرشاد . قرأت فى قاموس وضعه أحد الحكماء من شعراء فارس ألبس فيه الحكمة ثوب الهزل، لترغب فيه العامة ، ولا ترغب عنه الحامّة والخاصة . فكان مما استوقف نظرتى ، ولفت فكرتى ، قوله فى تفسير لفظة النبى : إنه المحب لأعدائه ، وإنك لا تجد فيما أعلن بين هذا الناس ، مهما اختلف القياس ، من يحب عدوه ويرجو له الهداية ، اللهم إلا تلك الطائفة التى اصطفاها الله فنزهها عن الأغراض. وطهرّها من الأحقاد. والقوم ليسوا - بحمد الله - من تلك الطبقة ، حتى نحسن الظن بأفعالهم ، ونريدهم على أن يعملوا على صلاح عدوهم ، فلا تعَضنّهم بأنياب الملام . ودعنا الساعة من ذكر السياسة ، فإننى أخشى أن ترتفع أذيالُ الظلام قبل أن نقضى اللّبانة من رؤية تلك المراقص .

ثم ودعناه وعطفنا على المرقص ، فما هو إلا أن أحلّنا حتى نظرنا فإذا امرأة نَصَف (١) ، قد تبذّلت فى لباسها حتى خرج بها التبذل عن أفق الحياء ، تكاد تتزايل من فرط التمايل أعضاؤها ، وينعقد من شدة التهييف خصرها . فهى تلتوى التواء الحية الرقطاء ، وتضطرب اضطراب السمكة حيل بينها وبين الماء . فأجال صاحبى

---

(١) فى منتصف العمر .

نظـرةً فى أنحـاء المرقص ألَمَّتْ بجميـع ما فيه . ثم دعـانى إلى النهوض فنهضت . وما كدنا نجاوز الباب حتى أنشأ يحدثنى فقال ، وهو يخافت من صوته : إنى نظرت فما كـاد يرتدُّ إلىّ طرفى حتى ألمت بجميع مـا يقع بين تلك الجدران من أسرار هذه المخازى العصرية . قلت : ومـا عسى أن يكون قد كشف لك منهـا فى هذه اللمحة اليسيرة والنظرة القصيـرة ؟ فقال : رُبَّ نظرةٍ عجلى تنقطع دونها سـوابق الأفكار ، وتتكشف أمامها غوامضُ الأسرار .

نظرت فى تلك الصفوف فلم ألمح إلا رءوسًا مـصريةً ، وأزياءً شـرقـيـة ، ثم نظرت فإذا الذى يحمل المدام ، ويقف موقف الغلام ، لا يخـرج رأسـه عـن أفق تلك الرءوس . ثم تنقلت بالنظر إلى الناقر على الدّف ، والنافخ فى القصب ، وحاضن العود ، وحامل المبذل [١] ، وصفعـان [٢] القوم ، فإذا كلّ أولئك من أولئك . ثم أسرعت باللمح إلى تلك النسوة المتبذلات ، فإذا جميعهن من المصريات ، فأحزننى الحال ، وزادنى حزنًا أن فهب أنّ المصرى قد أعياه أمرُ النزوع عن تلك الشهوات ، أفلا يعرض له فكر الانتفاع بما يقع وراءهـا من المنافع واسترداد هذ المال الضـائع ؟ عـجبت به أيذهب هو بالإثم ، ويذهب بـالمنفـعـة سـواه ؟ فـمـاضـرّه - قـاتله الله - لو ضم تلك إلى ذاك ، فـقـام بعـمل الرومى ، وخرجَ من جدَث هذا الجمود ، ونفض عنه غبار ذلك الخمول ؟

قلت: لقد أصبت مـواقع الرأى. ولكن الذين تطول ذلك أيديهم من أبناء وادى النيل، ليشمخون بأنوفـهم عزّةً عن معالجته ، لأنهم يرون أن العار كلّ العار فى النزول بالنفس إلى تلك المنزلة . وسـيدى يعلم - نفـعنا الله بعلمـه - أن هؤلاء المصـريين - وإن تقلبت بهم أحـوال غيـر جميلة ، فسُلبوا من الهمة بقدر مـا رزقـوا من الخمـول - لا يزالون يحفظون فى ثنايا النفوس بقية من شمَم الآباء، ويخفون فى قرارتـها صُبابةً [٣] من ذلك

---

(١) المبذل : الثوب الخلق .

(٢) صفعان : يطلق على الرجل الذى يصفع على قفاه . ولعله يريد بهذا وذاك من يتخذون سخرية فى الحفلات لإضحاك الجمهور .

(٣) صبابة : بقية قليلة .

الإباء . ولذلك ترى المصرى كائنًا من كان ، يؤثر حبس ماله عن استثماره والانتفاع به فى أمثال هذه المخازى . فسلوته على ما أرى قد أصبحت فى الحرص على حياة تلك الذكرى فى نفسه . فإنك لا تجد فى خلق الله من يسرّك مطلومًا من غيره ، ويُرضيك ظالمًا لنفسه ، اللهم إلا هذا المصرى المسكين . على أن سيدى – حفظه الله – قد نظر إلى الأمر نظرة عمرانية فعزّ عليه أن يرى المصرى مأكولاً غير آكل . وقد ألمّ صاحب المنار الأغر بما نحن فيه فكتب فى ذلك وأبدع .

وقال صلى الله عليه وسلم : "لعن الله شارب الخمر ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها" . وقد احتمل أكثر المسلمين فى مصر كل هذه اللّعنات إلا اللعنة الأخيرة ، فإنهم حمَّلوها للأجانب ، وأعطوهم أجرة حملها الملايين من الجنيهات والألوف من الفدادين !!

قال صاحبى : ألا ترى أننى كأنى نظرت إلى ما كتب بلحظ الغيب . وهذه أمة الفرنسيس – وهى أعرق الأمم مدنيةً ، وأقدمها حضارةً – لا يزال يرى فيها الرائى من المخازى العصرية أضعاف ما يجده فى أمة النيل . ولكن أفرادًا منها قد انبروا إلى التقاف ما تطوح به أيدى المستهترين فى مهاوى تلك المخازى ، فلا يكاد يخطئهم دينارٌ أو يُفلتهم درهمٌ ، وقلَّ أن يذهب الغريب فى بلادهم بغير الصدأ من تلك النقود .

قلت : لقد أجمع المشتغلون بعلوم الاقتصاد على أنه ينبغى أن تترك الأعمال لأربابها . فإذا نظروا إنسانًا مضطلعًا بعمل من الأعمال ، أو نابغًا فيه ، تركوا له أمر الاشتغال به لينتفع وينفع علموا أن الرومى لا يجارى فى حسن القيام بشئون المنتديات والمراقص ، وأنه لا يبارى فى الصبر على احتمال ما هو فيه فأفسحوا له فى بلادهم مكانًا ، وكانوا له عونًا على انتشار صناعته .

هذه "باريز" على تسابق أهلها وتناحرهم فى شئون الحياة لا تزال ترى فى هَنًّا(١) وثمَّ منها . أماكن للأورام بديعة النظام ، لا يزاحمهم فيها مزاحم ، اللهم إلا نفر من

---

(١) هَنًّا وثمَّ : اسما إشارة للمكان .

أهلها ، قد أودعت فيهم طبيعة الاستعداد الرومى فشاركوهم فى صناعتهم ، وصابروهم على احتمال ذلها .

قال صاحبى : كان يكون ذلك شبيهًا بالحق فى أمم الشرق لو أنهم تركوا مالا يضطلعون به ، وأخذوا فيما فطرو عليه من الاستعداد بالقيام به . ولكنهم تركوا كل شىء وزعموا أنهم عنه عاجزون . ظنوا بهذا الغربى الكمال ، فألبسوه ثوب الإجلال ، وغلوا أيديهم عن تناول ما يطمح إليه نظره ، وحبسوا أفكارهم عن السَّبح فيما يسبح فيه فكره . قلت : إنى أرى مولاى قد قتل شئوننا بحثًا فليس لى فيها ما أقول .

ومرّتْ بنا فترة ونحن سكوت ، حتى إذا صرنا أمام قصر فسيح من قصور الأغنياء قد خيمَّ عليه الدْيجور (١) وسكن سكون القبور ، نظر إلىَّ صاحبى نظرة أدركت مغزاها ، فقلت : إنه قصرُ لغنىٍّ همه الجمعُ ، وشيمته المنع ، فهو لا يخشى المعرّة ، ولا يعرف سبيل المبرَّة . وقد بلغ من حرصه على الدانق والحبة أنه إذا أغلس (٢) استصبح فى داره بالنجوم . لذلك لا ترى فى فنائها قنديلاً ، ولا يعرف الطارق إلى بابها سبيلاً .

فلو يستطيعُ لتقتيره تنفس من مُنْخُرٍ واحد (٣)

على أنه قد أفنى ثلاث عمائم ألوانًا، فوقف على أبواب الفناء ، وهمَّ سراج حياته بالانطفاء .

قال صاحبى : عجبت لهذه الحكومات تُسرع بالحجر على السفهاء من المبذرين ، وتتثاقل عن الحجر على هؤلاء المبخلين ! قيل لعمر بن الخطاب : قد جمع فلانٌ مالاً . فقال : وهل جمع له أيامًا ؟ ويلى على هذا الغنى تُنفقُ من عمره الأيامُ ، وتهدمُ من بناء

---

(١) الظلام الحالك .

(٢) أغلس : دخل فى الغلس وهو الظلام .

(٣) البيت لابن الرومى ، وقبله :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباقٍ ولا خالدِ

هيكله الليالى ، فتسْهُلُ عليه النفقة من عمره ، وتعزُّ عليه النفقة من ماله . ولو أنصفت الحكومات لسارعت بالحجر على أمثال هذا الغنى البخيل .

قلت : ليت المشرّعين الذين يتفننون فى أساليب ما يضعون يقفون لمحة أمام هؤلاء الأغنياء ليعلموا أن الشرائع التى وضعتها يد البشر لا تزال فى حاجة إلى الكمال .

قال الرواى : ثم ساد بيننا السكوت . ونمرّ بدارٍ قد سطت عليها غياهب الليل ، وخيَّم تحت سمائها الذلّ والويل . فيقول لى صاحبى : لمن هذه ؟ قلت : هى لرجل كان مكفىَّ المَئونة فى دهره ، مستور المعيشة فى عمره . فأبى إلا المتاجرة فيما يخرج عن الطوق ، فأكل الطمع منه رأس المال ، وردّه إلى ما ترى من سوء الحال ! .

قال صاحبى : لقد نظرت فى سواد هذه الأمة ، فلم أجد إلا أحد رجلين : رجلاً رُكِّب فى طبيعته حبُّ العمل ، ورُكِّز فى طباعه التهور فى كل ما يأخذ فيه ، وهو لا يملك إلا مائةً من الذهب. يرمى بنفسه فى غمار الاتجار بما يخرج عن طوقه، فيسوقه التهور إلى الاستدانة وتوسيع هالة عمله ، فلا يلبث أن تذهب بمائته المقاضاة [1] . ورجُلاً بُنى على الحرص ، وفُطر على الخمول ، وهو يملك الألوف فيدعوه الحرص إلى حبسها ، ويقعد به الخمول عن استثمارها ، فلا هو ينتفع بألوفه ، ولا الناس تنتفع بوجوده .

ثم حانت منه التفاتة إلى السماء ، فإذا الظلمةُ تنجلى عن أطرافها ، انجلاء الخضاب عن القذال[2] الأشيب. فصاح بى: على رسلك أيها الصاحب، فلقد أفْجَرْنا[3]. ألا تنظر بربك إلى الأفق وقد نظم الفجر حواشيه ، فوضح للعين ما قال فيه صاحب هذا التشبيه :

وقد رفع الفجر الظلام كأنهُ   ظليمٌ [4] على بيضٍ تكشَّف جانبهْ

(١) أى التقاضى أمام المحاكم .

(٢) القذال : القفا .

(٣) أفجرنا : دخلنا فى الفجر .

(٤) الظليم : ذكر النعام .

فانطلق بنا إلى بيت من بيوت الله، نقضى فيه الصلاة . فانطلقنا إلى مسجد قريب قضينْا فيه صلاتنا . ولم نبرحه حتى برِحت الشمس خدرها . فقلت له : أعزم سيدى على الرجوع إلى أبيه ؟ أم على الأخذ فيما كنا بالأمس فيه ؟ قال : إنى ليحزُننى أن أعود قبل أن أرى أسواق هذه الحاضرة ، وأقف على شيء من عاداتها . قلت : لله أبوك ! فما عدَوْتَ ما فى النفس . ثم أخذنا طريقنا إلى الغورية ، وتباطأت فى السير ريثما يتعالى النهار ، وتبتدئ الحركة فى الأسواق . وكنتُ كلما حدثته فى شىء يبهرَنى واسع علمه . فما سألته عن أمر إلا أجابنى ، فظننت أنه لا يحسن سواه . فما زلنا كذلك حتى بلغنا المكان الذى نقصده . وكان يومنا هذا طليعةً لموسمٍ من مواسم العام عند المصريين . فماجت بهم الطرقات ، وغصّت حوانيت التجر بالمساومين ، فأشرق وجه صاحبى سروراً ، وتألق بشراً ، حين ظفر بضالَّته وأصاب مشهداً من مشاهد المجتمع البشرىّ ، تُحشَدُ فيه طبقات الناس ، فيجد الناقد السبيل إلى نقد العادات والأخلاق ، التى يثيرها احتكاكُ ذات الصدور ، ويُبرزها تبادل ذات اليد . فيجتلى منها الباحث فى علوم الأخلاق ما يجتلى . حتى إذا انقلب عن موقف إشراقه ، وموطن تأمله، انقلب مبرود الغليل ، جمَّ فوائد الاطلاع ، عزيز جانب الإقناع . فما لبث صاحبى أن رمى بنفسه فى غمار هذا الزحام ، وتعقبته : أكاتفُ [١] مرة ، وأزورُّ [٢] أخرى ، حتى خلصنا إلى مرقب يمكّننا من الإشراف . ثم أخذنا نتأمل فى سواد هذا الناس . فإذا التجار منتشرون على أبواب الحوانيت ، وإذا السلع معروضة للمساومة . وقد جعل كلٌّ يبالغ فى تنفيق سلعته بضروب التمليق ، وصنوف التزويق . فكان التاجر لا يمر به مارّ إلا جذب بطرف ردائه ، وأراده على الابتياع من حانوته مزيِّنًا له حسن سلَعه ، مُلحًا عليه بالرجاء ، مُقْسمًا له بكل مُحْرِجةٍ من الأيمان ، أنه ما دعاه إلى ابتياعه لا يوجد عند غيره ، وأنه إن فاته الظفر به ، فقد فاته الحظّ ، وأخطأه التوفيق .

---

(١) كاتفه : وضع كتفه بجانب كتفه .

(٢) ازورّ : ابتعد .

وكان كيسهم، إذا ظفر بفَدْم[١] من أفدام الريف، حطَّ عليه بأنواع الدهاء، ثم واثقه على أن يُطرفه بأنفس ما عنده، حتى يثلُج[٢] الرجل إلى قومه . فإذا علم أنه سكن إليه ، بهره بطائفة من ألفاظ الثناء ، قد خزنها فى رأسه ، وادخرها لوقتها . فلا يكاد المسكين يُفيقُ من نشوة الفرح بما سمع من الإطراء ، حتى يعاجله الخبيثُ بتعليق سلعةٍ فى عنقه ، مشفوعةٍ بأخرى فوق رأسه ، معزّزةٍ بثالثة تحت إبطه . فلا يبرح الحانوت حتى تبرح الدراهم مخبأها . فيخرج وقد انتفخت أوداجه [٣] من كثرة هذا النفاق وهبط كيسه من فرط ذلك الإنفاق .

وآخر قد تخلّت عنه العناية، ونام عنه الجَدُّ ، يمر به الصيدُ فلا يحسنُ إلقاء الحب، لما ابتلىَ به من حب الصدق ، وكراهة تزويق الكلام . فيقف سَراة [٤] يومه يستقبل من أولئك الأفدام ، وهم يلؤمون فى المساومة ، ويشتطونُّ فى الطلب ، ويتعنتون فى توسُّم السلع ، حتى إذا قلبوا أحشاء الحانوت قلبًا ، خرجوا كما دخلوا ، لأنهم لم يأنسوا فى رب الحانوت ، ما اعتادوا أن يسمعوا من صُنوف التّمليق .

قال الراوى : ولبثنا فى مرقبنا هذا حتى سامتنا الشمس ، ووجدنا مس الهجير ، فأومأ صاحبى إلىّ بالسير . فتسلّلنا من تلك الجموع حتى انتهينا إلى مكان قد حُجبتْ شمسهُ، وأُطلق سراحُ نسيمه، فهاج فينا رَوْحُه شجون الحديث ، فأنشأ صاحبى يقول :

حُكى أنّ أحد الملوك ارتأى أن يفتتح مدينتين على حدود مُلكه . فكاشف فى ذلك أحد وزرائه – وكان حكيمًا مدربًا – فضرب الوزير برأيه فيما أفضى به إليه الملكُ ، ثم قال له : إذا رأى الملك – أيده الله – قبل المخاطرة بالمال والرجال أن نعلم علم القوم ، فنخرج فى سرٍّ من الناس . فإذا خالطناهم ، وعرفنا أوزان رجالهم ، ومقياس أخلاقهم،

---

(١) الفدم : الغبى .

(٢) ثلج يثلج من بابى نصر وفرح : اطمأن يطمئن .

(٣) الأوداج: عروق فى العنق .

(٤) سراة يوم : معظمه .

هيّأنا لهم على قدر ما نرى منهم . فأخذ الملك برأى الوزير . وانطلق اثناهما فى زِىٍّ العامة ، حتى بلغا إحدى المدينتين فى ضحوة من النهار . فعمدا إلى سوقها الكبرى ، وعطفا على حانوت هناك قد نظمت فيه صنوف الأقمشة . فجلسا إلى ربه وطلبا إليه عرْض سلعة سمّياها له . فقال لهما التاجر : لقد كان فى يدى شىء كثير مما تطلبان ، ولكنه نفد منذ اليوم ، وأظنكما لا تصيبان منه فى غير ذلك الحانوت . وأشار لهما إلى مكان فى زاوية من السوق ، فلم يأخذا بإشارته . وعمدا إلى تاجر آخر ، فكان نصيبُهما منه نصيبَهما من الأول . فقصدا ثالثًا فكذاك ، فعرجا على رابع فكذاك . وما زالا يتنقلان فى الحوانيت ، ولا يظفران من أربابها بغير تلك الإشارة حتى ضاق الملك ذرعًا . فكر راجعًا إلى أول من لقياه وقال له : ما لنا كلما عطفنا على أحد من تجّاركم ، وأردناه على ابتياع سلعة من سلعه أبى علينا البيع ، وصرفنا عنه ، بربك ألا ما صدقتنا خبر تلك الإشارة . قال التاجر : أما وقد أقسمت فاعلم أن صاحب الحانوت الذى حاولت صرفكما إليه قد مرت به ثلاثة أيام لم يطرقه فيها طارقٌ بخابئة خير ، ولم يُفتح عليه بشىء من الرزق . وقد أدر الله لأهل السوق أخلاف [1] الأرزاق ، فكرهوا أن يُصبح صاحبهم ويمسى ، وهو على غير حالهم من التيسير ؛ لذلك تراهم يُلطفونه بالطُّرَّاق ، لعله يصيب ما يُصلح به حاله ويقوتُ عيالَه .

قال الملك : بارك الله فيكم وعليكم . ثم أسرع إلى ذلك الرجل ، فابتاع من سلعة وِقْرَ بعير ، حتى كاد يأتى على ما فى الحانوت . وتركه وقد أنساه ربحُ يومه ما مرّ من كساد تلك الأيام .

قال الراوى : ولما خلا الملك بوزيره قال له : ما الذى وقفت عليه من أحوال القوم؟ قال الوزير : إنّ من لبِسَهم على ظواهرهم راقه منهم ذلك الأدب ، وأعجبته تلك المصافاةُ . ومن استبطن أمورهم ، وقف منهم على مرءوة لا تكون فى غير الرجال ، وقناعة لا تسكنُ فى غير النفوس العالية . يكسو ذلك منهم حسنُ الاتحاد ، ويزينه

---

(١) أخلاف جمع خلف : ضرع الناقة ونحوها .

الإيثار ، ولا أحسبنا بالغين منهم ما نريد حتى نركب الصعاب ، ونقاسيَ العذاب ، على أن سكان هذه المدينة لا يربو عددهم على عشرة الآلاف .

ثم انطلقا إلى الثانية : فإذا بها تموج بسكّانها ، فوقفا في سوقها الكبرى ، وقفة كان فيها الغنَاء عن كل شيء . كُشف لهما من أخلاق القوم ، ما كشف لنا اليوم من أخلاق أهل هذه الحاضرة . فآنسا منهم الأثرة [١] مكان الإيثار ، والتدابر مكان التكافل ، فلم يلبثا أن كرّا راجعين . وما هي إلا دورةٌ من دورات الفلك حتى خفقت راية ذلك الفاتح على أسوار تلك المدينة . وامتنعت عليه الصغيرة حتى همَّ بالانصراف عنها ، لولا حيلةٌ دبرها الوزير فكان فيها الفتح .

ذلك مَثَلُ المدينتين . فانظر إلى أهل هذا البلد ، واعلم أنهم يتناصرون ولكنْ على التخاذل ، ويتعاونون ولكن على تسويد الغريب [٢] . فهم لا يملكون لأنفسهم إلا الضرّ ، حتى أوشك أن يصحّ فيهم قول كاتبهم الكبير [٣] – عفا الله عنه – : "هذا بلد لا يخاف المرء فيه إلا من نفسه" . وطيب الله ثرى فقيد الإسلام الأستاذ الإمام ، فقد سمعت عنه كلمة من مأثور القول أفرَغتْها الحكمةُ في قالب الاختبار: "هذه الأمة حياتها في موتها". قلت : وعلى ذكره – رحمه الله – أروي لك عنه ما يكشف عن اعتقاده الراسخ في أفراد هذه الأمة : صحبته مرة في إحدى روْحاته إلى عين شمس . وكانت لي عليه دالَّةٌ ترفع عني مئونة الاحتشام . وكنت أتبسّطُ معه على الحديث . فكان مما ذكر لي في هذه الليلة أنه ألقى إليه كتاب كتبه صاحبهُ وإبليسُ جاثم بين كتفيه ، ينذره فيه بالقتل ، ويتوعده بالاغتيال . ذكر لي ذلك كمن يذكر نبأ من الأنباء التي يسوقها الحديث ، فلم ألمح على وجهه ما ينمُّ عما وقع في نفسه من أثر ذلك الكتاب . ثم خاض في غير ما أخذ فيه ، حتى انتهينا إلى طريق مقفر ، قامت على عِطْفيه طائفة من النخيل . وكان

---

(١) الأثرة والإيثار ضدان : الأول تفضيل النفس على الغير ، والثاني تفضيل الغير على النفس .

(٢) تسويده : جعله سيداً .

(٣) المرحوم إبراهيم المويلحي .

لابد لنا من ركوب ذلك الطريق للوصول إلى الدار . فسرينا فيه تحت الليل ، والظلمةُ تقبض البصر ، وتدعو فى كل خطوة إلى الحذر . فقلت له وهو يخوض فى أحشاء الظلام : ألا يخشى مولاى – حرسه الله – أن يقوم صاحب الكتاب بالوفاء ، فيكمُن له فى لقمة (١) من لقم هذا الطريق ، ويبلغ منه ما بلغ أبو لؤلؤة (٢) من الفاروق، فيُطعن الإسلام طعنةً ثانية ، تذهب بهذه البقية الباقية ؟! فنظر إلىّ نظرة لمعَتْ فى تلك الظلمة لمعانًا ، ساورتنى منه الهيبة ، وقال لى : "أين يُذهبُ بك يا بنى ؟ تالله إنى لأهنئ نفسى إذا وجدتُ فى هذه الأمة من يقدر أن يقول لى أخطأت فى وجهى ، فكيف بى إذا وجدتُ من يقوى على رفع يده لقتلى ؟

ذلك كان اعتقاده فى أمة وادى النيل ، ولم يكن – رحمه الله – منفردًا بهذا الرأى، فقد سمعت غير واحد من الحكماء والأدباء يبالغون فى وصف ما نحن فيه ، حتى وعيت عن بعضهم كلمة ما درى صاحبُها بأىّ درّة رَمىَ : "لقد نزلت هذه لأمة منزلة من الخمول هبطت بها إلى مصافّ العجماوات ، حتى خشيتُ أن يخطئها البعث فى يوم البعث" . فما ظنك يا سيدى بأمة أصبح بعضها يخشى عليها ألاَّ تحشر مع الأمم ؟ اللهم إن هذا منتهى أمد الخذلان . موتٌ فى الدنيا وموت فى الآخرة . ثم قمنا إلى مسجد فقضينا فيه الصلاة ، وعطفنا بعده على مطعم ، فتناولنا ما نمسكُ به الرّمق(٣)، وأستأنفنا المسير . وبينا نحن فى طريق "عابدين" إذا لفيف من التلاميذ يهرولون وهم من أمرهم على عجَل ، وإذا لفيفٌ آخر على آثارهم . فقال لى صاحبى : مالى أراهم يُسرعون وإلى أين هم ذاهبون ؟ قلت : إنهم يؤُمُّون الاحتفال الذى تقيمه نظارة المعارف للألعاب فتتسابق فيه التلاميذ تسابق الجياد ، ويتبارون فى الألعاب الرياضية كما يقولون ! وهو احتفال يشهدُه عميد الدولة الإنكليزية ، ويتأنق فى تزيينه بطل رجال

---

(١) لقم الطريق : نواحيه .

(٢) أبو لؤلؤة هو الفارسى الذى اغتال عمر بن الخطاب .

(٣) الرمق : بقية الروح .

الإنجليز مستشار المعارف المصرية . ذلك الذى أبْلى البلاء الحسن فى قتل النفوس واستحياء الجسوم ، وجعل الجوائز السنية لكل سابق فى هذا المضمار . لذلك ترى نُظار المدارس لا همّ لهم فى غير تعهد الأشباح . والويلُ لمن يعثر به الجَدّ فى يوم ذلك المهْرجان . فلا تفوز تلاميذه بجوائز الامتحان . ولقد بلغ من ولوع المستشار برؤية هذا المشهد أنه يستقدم التلاميذ من أطراف البلاد ، فيجمع تلميذ رأس التين بتلميذ عابدين، والطالب فى أسوان بمثله فى حلوان ، وحكومة البلاد تقوم بالنفقات ، على هذه الملاعب وتلك التنقلات ! قال صاحبى ، وهو ملق بسمعه إلىّ ومقبل بوجهه علىّ : لقد أحسن القوم صنعًا فيما يحتفون به من ذلك . ولا أحسبهم إلا مبالغين فى الاحتفاء بتعهّد الأرواح ، بعد تعهّد الأشباح ، فيحسنون جوائز الناجح فى العلوم ، حتى يصحّ ما يتمثلون به من قولهم : "العقل السليم فى الجسم السليم" . قلت : لو كان ذلك كذلك لوجدنا سبيلاً إلى مزاحمة الأحياء ، وبسط كل رجاء ، فى اضطراب جسده وإسعاف ذات غيبه ! . ولكنهم قضوا على أحد هذين السليمين ، فاهتموا ببناء أسوار الأبدان . اهتمامهم بإقامة الخزّان ، وارتفاع الأطيان ، ومحوا آثار تلك الاحتفالات ، التى كانت تقام بمدارس الحكومة على نفقة الحكومة ، يشهدها عزيز مر فى حملَة عرشه ، ورجال دولته ، وسروات [1] أمته ، ويُلطفون فيها الفائز ، بكل سنيّة من الجوائز . فكان الطالب فى ذلك العهد يرصدُ هذا اليومَ المشهود ، ويرتقب حلوله ، وهو منكمش فى الدرس ، مقبل على التحصيل ، مكبٌ على التشمير فى أحد فروع العلم الذى يميل بطبعه إلى النبوغ فيه . حتى إذا حلَّ يوم فخاره بين أترابه ، استقبله على عِدَةٍ ، فيدخل فيه دخول المقدام الجسور ، ويخرج منه خروج الفاتح المنصور .

قال صاحبى : إذا صح أنهم يحتفون بالأشباح دون الأرواح ، فقد أحسنوا القيام بالواجب . فإنما هم أعداءٌ لكم ، وما رأيت قبلكم من طلب من عدوه صلاح حاله . فلا حياة لهذه الأمة إذا هى لم تستمدّ حياتها من سوادها ، فيقوم من أغنيائها من

---

(١) سروات : أشراف .

يُنعم النظر فى صلاح شئونها . بربك هل رأيت غنيًا من هؤلاء الأغنياء أصبح وقد خصّص شطرًا من دخله لنصرة العلم ؟ فما لكم تُنحون باللائمة على رجال الاحتلال ، وأنتم أصل ما أنتم فيه من البلاء ؟ أو ليس حسبكم منهم أنهم لا يضربون على يدىْ عامل ؟ فما عساهم أن يصنعوا بكم إذا قام لفيفٌ من أغنيائكم ، وتساندوا بأموالهم على تأسيس كلية ؟ أو ما عساهم أن يصنعوا بكم إذا خصّص هؤلاء الأغنياء جوائز للفائزين فى العلوم ، وأرصدوا جِعالات لكل بارع فى صنوف التأليف ، أو معرِّب لتلك التصانيف التى ضاقت بها رحاب المغرب ، وأقفرت منها مكاتب المشرق ؟ ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ قلت : لقد صدق الذى قال : "إنما تصلح هذه الحكومة على ظلمها ، لتلك الأمة على نومها" .

ثم أردت الترويح عن نفسى بالخوض فى غير تلك الأحاديث ، فقلت له : ما الذى يراه سيدى بشأن تلك "الشركة السودانية" التى خفق لها العلمان ، على أطلال أم درمان ؟ فالتفت إلىّ مبتسمًا وقال :

وقف شريكان ، شرقى وغربى ، أمام المرآة وفى يد الغربى قطعة من الذهب ، فقال له شريكه الشرقى – وقد تلطف – : ألا تعطينى قسمى من تلك التى بيدك ؟ فقال الغربى : أما وقد أردت القسمة فاعلم أن التى بيدى هى لى ، وتلك التى تراها فى المرآة هى قسمك ونصيبك . ذلك مثلكم مع القوم فى "شركة السودان" . قال الراوى : فندمت على هذا السؤال الذى أضفتُ به همًا إلى همومى . ثم عزمت فى نفسى على الخروج من دائرة الكلام على السياسة، والدخول فى باب المحاضرات الأدبية. فقلتُ له: ألا أحدّث سيدى بأحسن ما ورد على سمعى من الحديث ، قال : ألطفْنا بما عندك . قلت : سكر أحدُ ملوك الفرس ذات ليلة ، وأحسبُهُ قمبيزًا . فسأل جلساؤه – وقد علت الخمرة ذؤابته – : أيُّنا خيرٌ أنا أم أبى ؟ فكلهم تزلف إليه بتفضيله على والده ، إلا جليسًا بينهم يقال له قارون . وكان أكرمهم عليه ، وأكثر توفيقًا لديه ، فإنه قال له : بل أبوك خيرٌ منك ، فغضب الملك حتى خافه الجليس على نفسه فعطف قائلاً : فضّلت أباك لأنك كنت عنده وليس عندك اليوم من هو مثلك .

وقد وقع لى ما وقع لهذا الجليس ، وركبت ذلك المركب الذى يرمى بصاحبه إلى مواطن الشرور . قال صاحبى : وكيف كان ذلك ؟ قلت : جلست مرة على مائدة أحد الكبراء من رجال الإنجليز فى الجيش، وأنا إذ ذاك ضابط صغير. وكانت ليلة وداع لعظيم من عظماء القواد فى الجيش المصرى انطوت ترى رأيه فيه ؟ قال : ومن ذا الذى يخالفه فيما يرتئيه؟ وقد نطق حقًا ، ونظم صدقًا . قال : وأين أنت من القوم ؟ قال : من أولئك الذى نقموا الرضا على العهدين ، ولم يحمدوا مغبة الحُكْمين : عهد الدولة التركية ، وعهد الدولة الإنجليزية ؛ ففى أولهما فاضت المظالم ، وغاضت الأموال . وفى ثانيهما أخصبتْ الأرض وأجدبَت الرجال . قال : وهل أنت فى خفض من العيش ؟ أجاب : لا أشكو بحمد الله عسرًا ، ولا أرجو يسرًا إنما أنا أتفيأ ظل هذا البيت العربى ، لذلك الشاعر الأبى :

مذبذبُ الرزق لا فقرٌ ولا جدةٌ   حظٌ لعمرك لم يحمُقْ ولم يَكِسِ (١)

قال : وأين مكانك من العلم ، وأين منك منزلةُ الحلم ؟ قال حسبى أنى من تلاميذ حكيم الإسلام ، الأستاذ الإمام طيب الله ثراه ، وجعل النعيم مثواه . قال : إنى لأرى رأيًا حصيفًا ، وأسمع قولاً شريفًا ، فمن أى تلاميذه تكون ؛ فقد سمعنا أنهم فريقان : فريقٌ قد اختصّه بسياسته . وفريق قد اختصه بعلمه ، وقد أثنى عليهما العميد ، وتنبأ لهما بالطالع السعيد ، قال : لا علم لى بما تقول . فلقد كنت ألصق الناس بالإمام ، أغشى داره ، وأرد أنهاره ، وألتقط ثماره . فما سمعته يخوض فى ذكر السياسة - قبحها الله - ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحرًا من آياته . وينتقل بنا بين مناطق الأفهام ، ومنازل الأحلام . ويسمو بأنفسنا إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق ، وكان ربما ساقه الحديث إلى ذكر أحوال هذا المجتمع البشرى ؛ فأفاض فى شئون الاجتماع وحاج (٢) العمران ، ووقف بنا على أسرار الحياة . ولم يزل ذاك همّه

(١) من الكيس : مضارع «كاس» المجزوم .
(٢) مفرده حاجة : اسم جنس جمعى .

– رحمه الله – يُلقى فى الأزهر دروس التفسير ، وفى داره دروس الحكمة ، حتى مضى لسبيله ، فإن كانوا يسمون تلاميذه أحزابًا ، ويقسمون تعاليمه أبوابًا ، فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة التقدّم والعمران . على أنه كان من أشدّ الناس تبرمًا بالسياسة وأهلها ، حتى أعلن براءته من الالتصاق بها ، فقال عنها فى كتاب الإسلام والنصرانية ما قال .

لكنه يحتك بها ما دعت إلى ذلك الحاجة ، ويرصُدُ حركاتها رصدًا ، ويصدُّ غاراتها صدًا ، خشية أن تقطع على العلم سبيله، أو أن تقف عثرةً فى طريق الفضيلة ، ولولا ذلك لقطعت عليه سلك أمانيه ، وحالت بينه وبين ما كان يبتغيه . فكم تلطف فى ابتزاز قواها ، وتحامى جهده طريق أذاها ؛ حتى إذا ظفر بطلبته ، وفاز برغبته ، واستمد منها ما شاء تحت حماية الإفتاء . عطف على العلم بذلك الإمداد ، ورد عليه ما سلبت يدُ الاستبداد . ولعله أوهم العميد بيقظة حزب جديد ليرد عاديته ، ويُفسد عليه سياسته ، فى مصادرة العلم ، ومصارعة الحلم . أما ترى بربك أثر ذلك فى المدارس ، وما عبثت به يد ذلك السائس ؟

ولولا أن الإمام مادَّهم حبل الوداد ، وجاذبَهم فضلَ النصح والإرشاد ، لأصابه ما أصاب حكيمَ الأفغان ، وقُضِىَ على هذه الأمة بالحرمان . فلقد كان يغدو على الوكالة ، ويروح عنها ليدفعَ عنا شرّةَ القوم ، ويصلحَ ما يُفسدهُ أهلُ الدسائس . فكم زحزح عنا حادثًا ، ودفع كارثًا . ولو كان حيًا يوم دارَ الفلَكُ لنا بالنحوس فى دِنْشَوایَ – لرأيتَ غير الذى رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوتُ العميد ، بذلك التهديد والوعيد . ولما نزع إلى كتابة ذلك التقرير ، الذى جاء أبلغَ ما تُملى الضغينة على الموتور . فكان فيه كثيرَ جُموحِ اليراع ، ضعيفَ جانب الإقناع ، كأنه يكتب مقالة خياليّةً إلى مجلة سياسية ، وَقَفَ فيها وقفةَ المدافع عن نفسه !!

لحق النبىّ عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى ، فارتدت طائفة من جُفاة العرب ، وكادوا يفتنون الناس لولا حكمةُ الصديق ، وعزمةُ الفاروق ، فما غضّ أمرُ الردة من شرف النبوة ، ولا نال من عصمة الرسالة ، ولبث الإسلام إسلامًا . ومات الأستاذ

الإمام – رحمه الله – فصبأ بعض حزبه كما يدّعون ، وأستغفر الله لهم مما يقولون ، فما غض ذلك من كرامة حكيم الإسلام ، ولا مسّ من سيرة ذلك الإمام .

أراد بعضُ مريديه أن يُغنى غَناه ، وأن يفعل شَرواه [1] ، فى التوفيق بين صوالح القوم وصوالحنا . فرمى بنفسه فى أحضانهم ، وليست له مكانةُ الإمام من نفوسهم ، ولا منزلتهُ من قلوبهم ، فقصر ولا بدع ، وأخفق ولا عجب ! فإن الفراغ الذى تركه الإمام لا يَشغلهُ الألوف من أولئك الذين يرفعون العقيرة بالصياح ، وينعَوْن عليه مذهبَه فى الإصلاح. ولما ظهر ذلك المريدُ بمظهر الاتصال بالقوم أنكر الناسُ منه ذلك ، فطارت حوله الشبهاتُ ، وانبسطت فيه الألسُنُ ، وأخذته سهام الأقلام . على أنه وإن أخطأه التوفيق فى عمله فما أخطأه حسن القصد ، ولا جازته سلامة الطوية . فوَجد بعضُ المرائين السبيلَ إلى تشويه سمعة الإمام بعد موته ، وبالغوا فى ذم حزبه ، وزادهم ضغنًا أن قرءوا فى تقرير العميد ما قرءوا . وظنوا أن هناك حزبًا يعمل . ولو أراد الله خيرًا لهذه الأمة، لسخّر لها من تلاميذ الإمام، من يقوم بالدعوة إلى التئام ذلك الحزب ، الذى أودع فيه الإمام من أسرار حكمته ، ما كشف لهم عن حقيقة المصير الذى أصبحنا نُساقُ إليه سوقًا أعجلَنَا عن النظر فى أمورنا ، فأمسينا أتباعًا لكل ناعق !!

قال صاحبى – وقد هاله ما سمعه – : أكان يكون بين ظهرانيكم أمثالُ أولئك الأمناء على تعاليم ذلك الحكيم، ولا تتعلقون بأذيالهم ؟ على أنى لا أرى فيكم إلا ناعيًا عليهم ، مشهرًا بهم ، فإن كنت لم تكذِبنى القولَ فتلاميذ الإمام حقيقون باللوم ؛ لأنهم يعلمون الحق ولا يدعُون إليه . علمـوا أن لا حياة لهذه الأمة بغير « الجامعة » فما لهم لا يواصلون قرع أنوف الأغنياء بالمواعظ ، ويوالون الصياح بطلب تأسيسها ، فتلقى أصواتهم بالنداء فى أنحاء القطر ؟ ولكنهم سكتوا !! اللهم إلا شاعرًا منهم قد قرض قصيدة ، أو قاضيًا قد حبّر مقالة فى سبيل «الجامعة»، دَرَج كلاهما فى أثناء النسيان . فجمد الأغنياء عن البذل لجمود أولئك الوعّاظ عن الكلام . وتدفّقوا فى إنشاء الكتاتيب

(١) شرواه : مثله .

حين ساقتهم الحكومة إلى ذلك . ولو علموا أن انتشارَ التعليم الناقص شرٌّ على الناس من بقاء الجهل لما بذلوا فى سبيله ما بذلوا ، فكان مثلهم فى ذلك كمن يحاول النجاة من أنياب النمر ؛ ليقع تحت براثن الليث ؛ لأنهم إنما يستبدلون بانتشار الكتاتيب داء الجهل ولكن بداء الغرور[1] !!

فسبيل الإصلاح أن يُنشأ الكتَّاب وتبنى «الجامعة» فى وقت معًا ، حتى إذا أخرج الأول نصفَ إنسان ، أطلعت الثانيةُ إنسانًا كاملاً . فتكفّل هذا الكاملُ بصلاح ذلك الناقص . فتتماسكُ الأمة ويكثر فيها الدعاةُ إلى الخير . فليس بينهما وبين الحاية إلا أن يُخرجَ لها العلم الصحيح رجالاً يقودون الأفكارَ ، ويسلكون بها سبيلَ الرقيّ . ومَنْ رأى أن هذه الأمة لا تنهض إلا بتعليم مجموعها وتهذيب أفرادها فقد أخطأ مواقعَ الرأى ؛ فكم نهضَتْ أمة بفرد ، وأُسّست دعائمُ دولة على عزائم آحاد وُفُّرا قسطهم من العلم الصحيح ، وأخذوا نصيبهم من الإقدام !!

وقد انصرف الناس إلى الصياح بطلب انتشار العلم، ونَسُوا أن ذلك لا يغنى عنهم شيئًا إذا أعوزَتهمْ تربيةُ القادة ، وعزّهم بناء الزعماء . فأعلم أن بناءة الرجال لا تكون إلا فى «بناء الجامعة» .

قال الأديب، وهل يكفى العلمُ وحده لصلاحنا ونحن على ما ترى من الخُلق والدين؟ فُسوقٌ عن أمر الكتاب ، وطاعةٌ للهوى ، فلا وازعَ من الدين ، ولا زاجرَ من الخُلُق ؟! فإذا تزعزعت العقيدة ، ولم يطمئن الطبع قلّ أن ينجَحَ فى الناس علاجُ العلماء ، أو تأخذَهم صيحةُ الخطباء !!

قال صاحبى : صدقتَ . ولكن ما تراه أنت خطبًا كبيرًا ، لم يكن فى نظر الحكمة إلا أمرًا يسيرًا ، وإنى ذاكرٌ لك دواء هذا الداء . وهو أيسر مما فى نفسك . فلا تُنزلْ أمرى معك على المزاح . ولا يصغُرنّ فى عينيك مأتى ما أُلقى عليك . فرب مؤرب[2] من

---

(١) لعله يريد أن يقول : لأنهم بانتشار الكتاتيب إنما يستبدلون بداء الجهل داء الغرور .

(٢) الأربة : العقدة ، والمؤرَّب : المعقد .

العُقَد ضلّت حلّه الحكماء، واهتدت إليه خطرة من الفكر يَرمى بها أحدُ العامة، وتغفلُ عنها عقول الخاصّة. ولعلك إذا سمعت أن الدواء الناجعَ، والعلاج النافعَ لا يحتاج إلى مقدمات طويلة، أو فلسفة جليلة، أصغرتَ ما كنتَ تُكبرُ، واستنزرتَ ما كنت تستغزر. فاعلم أنه إذا أُقفلت أبوابُ المنتديات، وأُطفئت أنوارُ الحانات قبل منصف من الليل، انحرف عنكم جارف هذا السيل.

هذه «لندرة» لا تكاد ترى فى حوانيتها ساهراً، ولا تجد فى طُرُقاتها عابراً إذا انقضى الثلث الأول من دولة الظلام. وتلك «فينا» يجمع فيها الليل بين الجفون والكرى، ويحول الظلام بين الأرجل والسُّرى. فإذا شبّ الليل أو كاد سكنت حركة العباد، فما لكم لا تأخذون أنفسكم بتقليد تلك الخلائق، وقد ائتمروا بأوامر الخالق؛ وما لكم لا ترجعون إلى الفطرة البشرية أو تخضعُون لنواميسِ السنة الكونية، فتجمعوا فى ذلك بين الدنيا والدين، ولا تعقُّوا أوامر الكتاب المبين. يا ويلكم! أحيَيْتم لياليَ العمر بالآثام، وأمَتمُّ أيامه بالمنام، فعكستم الفطرة. ولا بدع إذا عُكست آمالُكم وخابت أعمالُكم. خذوا مضاجعَكم إذا طرّ شارب الظلام، واهجروها إذا تنفس الصباح، ففى ذلك صحة لأبدانكم وسلامة لأديانكم.

إذا شئت أن تعرف ما وراء ذلك من المنافع فإنى أَعُدُّ لك منها ولا أعدِّدُها[١]: منها الرجوع إلى المعيشة المنزلية، التى انحلّت بزوالها روابطُ الأهل والأقارب، ويبس ما بين البيوتات. فتناكرَ الأخوَان، وتدابرَ الجارانِ وأقفرت المنازل من أُنس السّمَر، وألفَ الناسُ الجلوسَ فى المنتديات، حتى إنهم ليُوحشون فى ديارهم، لقلة زُوّارهم، وأصبح المرء فى داره حاضراً كالغائب، مُقيماً كالنازح، يَعلم من حال البعيد عنه، ما لا يَعلم من حال القريب منه!!

---

(١) نظر فى هذه الفقرة إلى بيت المتنبى:

له أياد إلىَّ سابقة   أعد منها ولا أعددها

ومنها اجتياز العقبات التى أقامتها المنتدياتُ والحاناتُ فى سبيل الاجتماعات . كان المصريون فى العهد الذى نُسمّيه اليوم بعهد الظلام يجتمعون فى الدور ، ويتزاورون فى القصور . وكان سَراتُهم[١] وذوو اليسار منهم يجلسون فى بيوتهم للسّمر ، فيغشاها العالم ، ويؤمها الكاتب ، ويقصدها التاجر ، وينتجعها الأديب ، فتجرى بينهم الأحاديثُ ، وتقوم سوق المناقشات . يحدث الحادثُ فيخوضون فى ذكره ، وتنزل النازلة فيجمعهم الألم على العمل على إزالتها . وتُطل رءوسُ المشروعات ؛ فلا يفتَئُون معارفَها ، حتى يقتلوا شئونَها بحثًا ، ويقفوا على وقائعها جدالاً . وينزلُ بأحدهم المكروهُ ، فلا يزالون يتلطّفون بالسعى له ، حتى يأخذوا بيده ، وينهضوا به من عثرته . عَقدت بينهم الزياراتُ ، عُرَا المودّات ، فتراهم وهم كأنهم أهل بيت واحد ، يألم الجار للجار ، ويأخذُ الناهضُ بيد ذى العثار . بربك هل نهضت أُمةٌ بغير إدمان المجْتَمعات ؟ وهل أخصبَتْ مودّةٌ إذا هى لم يتعهدها أهلها بالزيارات ؟ لقد جار فى حُكمه من قضى على المصريين باستحالة الاتفاق ، وجعل تلك الكلمةَ التى رمى بها حكيمُ الأفغان[٢] أساسًا لحكمه ، فصرفه التقليد عن النظر إليها بعين عقله . فمن أين للمصريين أن يتفقوا إذا هم لم يجتمعوا ؟

ومنها اقتصادُ المال . وأنت ترى أن هذه السّتةَ الأفدنة[٣] تكاد تبلَعُ ما تُخرجهُ أرض وادى النيل من الخيرات . ولا يغرّنّك ما تَرى فى عاصمة الفرنسيس ، فإن أهلها من الأكياس الذين يَصلون سهَرَ الليل بالنهار لاصطياد الذهب، ولكنْ من جيب الغريب. ونحن إنما نفعل ذلك ليذهبَ الغريبُ بأموالنا . ويسْخَرَ من جهّالنا .

---

(١) سراتهم : أشرافهم .

(٢) لعلها الكلمة المأثورة : «اتفقوا على ألا يتفقوا» .

(٣) يقصد بستة الأفدنة حديقة الأزبكية مثابة الملاهى والمراقص .

البـؤســـاء

(الجزآن : الأول والثانى)

تأليف : فـيكتـور هيـجـو
ترجمة : محمدحافظ إبراهيم

المحتــويات

إهداء إلى الأستاذ الإمام 261

كلمة فى التعريب 263

كلمة للمعرّب فى المؤلف 267

كلمة للمؤلف فى البؤس 271

الجـزء الأول

الفصل الأول : جان فالجان 275

الفصل الثانى : فانتــين 305

كلمة فى سريرة الإنسان 365

الجـزء الثـانى

الفصل الثالث : عاصفة تحت جمجمة 369

الفصل الرابع : ألوان الألم فى النوم 389

إهداء إلى الأستاذ الإمام

إنك موئل البائس ، ومرجع اليأس .. وهذا الكتاب - أيدك الله - قد ألم بعيش البائسين، وحياة اليائسين. وضعه صاحبه تذكرة لولاة الأمور، وسماه: كتاب «البؤساء»، وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة : (الرحمة فوق العدل) ..

وقد عنيت بتعريبه ، لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أرفعه إلى مقامك الأسنى ورأيك الأعلى ، لأجمع فى ذلك بين خلال ثلاث : أولاها التيمن باسمك والتشرف بالانتماء إليك ، وثانيتها ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب إلى الرجل الذى يعرف مهر الكلام ، ومقدار كد الأفهام ، وثالثتها امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية بإهداء ما وضعه حكيم المغرب إلى حكيم المشرق ..

فليتقدم سيدى إلى فتاه بقبوله ، والله المسئول أن يحفظه للدنيا والدين ، وأن يساعدنى على إتمام تعريبه للقارئين .

كلمة فى التعريب

هذا كتاب «البؤساء» ، وهو خير ما أخرج الناس فى هذا العهد ، وضعه صاحبه وهو بائس ، وعرّبه معرّبه وهو بائس فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة ، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه ، وعربه كاتب هذه الأسطر وهو فى بلواه ..

ولولا أننى أشرف بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم ، لما وصل مبلغ علمى إلى مبلغ علمه ، ولما سبح يراعى فى قطرة من سيول قلمه . ولو أن لى قلما من أعواد أشجار الجنة ، وصحيفة من صحف إبراهيم وموسى ، وقد تلقتنى البلاغة من كل جهة بفضلها ، فسموت إلى لباب مصاصها ، وأخذت منها حاجتى ، لما حدثتنى النفس بتعريب ذلك الكتاب ، لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء ..

فلقد كنت أنظر فيه نظرة المنجم فى الميقات ، وأستوزع الله بيان تلك المعجزات ، حتى إذا نفذ الفكر إلى ما وراء سطوره ، واهتدى الخاطر إلى مكامن حكمه ، دعوت أم اللغات ، وعملت على التوفيق بين هذه الغادة الشرقية وتلك الفتاة الغربية ، عمدت إلى مد صلة النسب بين الغادتين اللتين انتهت إليهما بلاغة العرب وبلاغة الإفرنج ، فإذا شمست أحداهما وازورّ جانبها ، أغريت بها سلطان العقل ، فلا يزال بها يروضها كما يروض الراكب المطية الصعبة ، حتى تسكن إلى أختها وترتاح إلى جوارها . ولم تزل تلك حالى : أدخل بينهما دخول المرود بين الجفن والجفن ، وأمشى بينهما مشية الحكيم فى الصلح بين القوم والقوم ، حتى ائتلف الذوقان وامتزج الروحان ، وضمت شمسيهما طفاوة ، واحتوت بدريهما هالة ، وخلعت الأولى على الثانية جلالها ، وأعارتها الثانية نضارتها وجمالها ، وأصبحت تلك المعانى الإفرنجية بعد أن صقلها اللسان المبين ، وجندرها الذوق الشرقى ، وهى تسكن فى هذه المعانى العربية .

ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شيء من مؤلفات ذلك الحكيم ، وهم أحوج الناس إلى معرفة أسرار الحياة والانتفاع بمثل ذلك الفكر ، الذى كنت بينا أراه يسابح الأجرام فى أفلاكها إذا هو يدارج النمال فى مدابها ، وبينا ألمحه بين ذروة العلم وشرفة القصر ، إذا هو بين قاع البحر وعميق النهر .. فكم أفلت من هجيرة واختبأ فى خميلة ، فمن تلهب جمرة القيظ فى صميم القائلة ، إلى تراوح النجم فى الروضة ، ومن التردد بين زفير العاشق وحرقته ، إلى التمشى بين نفس الحبيب وريقته .

ولا يزال الكتاب فى كل أمة يلتمسون أن يعقل عنهم ما ألهموا أن يدخلوه فى مؤلفاتهم من الحكم والأمثال ، فيصدحون عنها الشرور بأقلامهم كما يصدح[1] المطر ، ويستهبطون الحكمة من سمائها فيسكنونها بين سطورهم ، وينشدون لذلك الأمثال فينثرونها فيما يتخيرونه من الأقاصيص التى تدعو إلى العظة ، وتصفح النفوس عن ركوب سبل الغواية .

ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذى أعانى تعريبه اليوم، فلقد قص عليه صاحبه أحسن القصص ، فكان مثله فيه كما قال عن نفسه : مثل المنجم الذهبى لا تصل الأيدى إلى تبره حتى تكاد تحصى ثراه عدا .

وقد خار الله لى أن أعربه ، فاستعنته فأعانني ، واستهديته فهدانى ، وسلخت اثنى عشر هلالا فى تعريب تلك الصفحات التى ترونها اليوم . وحاولت أن أصل بها تلك الرحم ، التى قطعتها يد الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال ، الذين تجردوا لتعريب أساطير الأولين فوفوها قسطها من الإتقان ، وألبسوها من البهجة لباساً ترضاه اللغة ويرضاه أبناؤها .

---

(١) أخرجها مثلا. وكان من وساوس العرب - إذا خشوا سقوط المطر - أن يعمد أحدهم إلى خيمته أو عطفه ، فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها ، رجاء أن يخطئ المطر فى سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة . وقد كانت هذه الصدحة مما استعان به المتنبى على تأييد دعواه فى النبوة .

أرأيتك أيها الناظر فى كتاب كليلة ودمنة ؟ أكان يقوم وأنت تذوق حلو تركيبه ، وتستمرئ لذة أسلوبه ، أن عبد الله ابن المقفع قد عرّبه عن الفارسية ، لو لم يصل خبر ذلك إليك ؟ فسقيا لتلك الأقلام التى عربت فأعربت ، وسطرت فأعجبت وواها لهذه اللغة التى أصبحت بين أعجمى ينادى بوأدها ، وعربى يعمل على كيدها ..

ومن نظر فى بطون تلك الكتب التى تترجم اليوم ، رأى هذه الغادة الشرقية وهى على فراش موتها تندب خدرا قد ابتذلته الأقلام ، وسترا قد هتكته الأوهام ، وقد فتحوا لها فى بطون هذه الكتب قبورا ، وخاطوا لها من تلك الصحف أكفانا ، وهيأوا من هذه الأقلام أعواداً ، وما هو إلا أن يثنى ذلك الغربى بدعوته حتى يسرع إلى جنازتها أهلها وذوو قرابتها ..

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر ، ونسمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر ، اللهم إن هذا خذلان منك فأدركنا برحمتك وهيئ لنا من أمرنا رشدا ..

أيكون بين أبناء اللسان العربى مثل من أرى اليوم من فحول البلاغة وملوك الكلام، وأنا لا أعرف من هذه الزهور قديمها وحديثها غير أسماء معدودات ، ولا أكاد أجيد وصف قصر من القصور أو آلة من الآلات ، ومخترع من المخترعات إلا ما وقع تحت نظر العرب فى تلك الجزيرة الجرداء ، وما سمت إليه حضارتهم فى عهد الدولة الأندلسية ؟

أى رجل كان صاحب كتاب البؤساء ، وأى غيث سقاه ، وجو حواه ، حتى أدخل فى لغته من الكلمات ما يخطئه العد ، ووقف فى وجوه المعارضين فيها وقفة البسفور فى وجوه الطامعين فى هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أوليس رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد ؟

تباركت أسماؤك اللهم .. أيدعى البعير – وهو ذلك المركب الخشن – بهذه الأسماء التى تضيق عنها بطون الكتب وهذه مراكب البخار والكهرباء لا نكاد نجد لأسمائها

مرادفا فى هذه اللغة ؟ فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه :

الأبيضان أبردا عظامى المـاء والفت بلا إدام(١)

وهو فوق راحلة طالع على قتب يكاد يدمى عجانه تحت شمس لا تكاد تأكل ظلها فى مفازة .

تمشى الرياح بها حيرى مولهة حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

إذا أردته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فأرهف بالقول وسرد من الوصف ما يبلغ حد الإعجاز ، وأردتنا على أن نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخوان ، ونتبوأ أريكة «الأوتومبيل» تحت ذلك الظل الظليل ، فى مخارف(٢) ضفاف النيل على فراش وثير ، ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك المركب الذلول الذى لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا أمامك موقف الحائر لا نعرف له اسما يدل على مسماه ، ولا مرادفا فى اللغة يؤدى معناه ؟

فخذوا أيها القادرون على الإصلاح بيد اللغة ، وانظروا كم أدخل فيها آباؤكم الأولون من كلمة فارسية .

وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم إليه . وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منهما آمنين .

---

(١) تقول العرب : الأبيضان عن الماء والفت ، والأحمران عن اللحم والخمر .

(٢) جمع مخرف وهو المتنزه .

كلمة للمعرّب فى المؤلف

ولد «هيجو» والقرن الغابر صبى فى مهده لم يدرج من حجر أمه ، ولم يفرق بين أمسه ويومه ، فاصطحبا طفلين ثم افترقا ، وضرب الدهر بينهما بضرباته فالتقيا شيخين فانيين فإذا الأول سيد القرون ، وإذا الثانى نادرة البطون ، هذا يمشى على قدمين من ليل ونهار ، ويطير بجناحين من كهرباء وبخار ، وذلك يتوكأ على عصوين من عظة واعتبار ، ويرتدى بثوبين من حكمة واختبار ، وقد جلس الأول على سرير دولة الأيام ، وأخذ الثانى بصولجان دولة الأقلام ، فالتقت دولة العجب ، بدولة الأدب ، واجتمعت بدائع الاختراع ، ببدائع اليراع ، فاخضل ظل هاتين الدولتين ، وامتد من المغربين إلى المشرقين ، فظل الناس بين نعيم الحرية ونعيم المدنية .

سبحانك اللهم ، هل كانت تعقل هذه الذرات -- وهى فى عالم السديم – أن سيرتقى بها الحال إلى العيش فى هذا النعيم ؟ فتبارك الله الذى علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم .

ولد هيجو واللغة الفرنسوية بمنزلة بين الضعف والحاجة، والقوم بين أسر التقليد ، وذل التقييد ، والأدب لم يبق منه إلا الذماء ، فأنبته أبوه نباتا حسنا ، فما كاد يشهد ستة عشر ربيعا حتى تحركت نفسه إلى معالجة الشعر فقرض قصيدة دار لها فلك البلاغة ، ورددها لسان الكون ، رفعها إلى المجمع العلمى فاهتزت جوانبه عجبا ، وكادت تطير أعضاؤه طربا ، ولولا أنه كشف عن سره ، وأوضح عن بيان عمره ، لأجزلوا ثوابه ، ورفعوا جنابه ، ولكنهم قارنوا بين شعره ، وعمره ، فاستنزروا أيامه واستغزروا بيانه ، فظنوا أنه يسخر منهم ، فلم يجيزوه ألا يسيرا . وهبت بعد ذلك رياح سعوده ، فأخذ بناصية القوافى ، وتنازل له سلطان الخيال فسبح فى ملكوته ما شاء الفكر ،

وما زال يتنقل فى تلك العوالم الخيالية حتى نودى به أميرا على دولتى النظيم والنثير ، وشجر بينه وبين جماعة الشعراء الخلاف ، فرأوا الحفاظ والتمسيك للقديم ، ورأى غير ذلك ، فلم يزل بهم يصابرهم ويطاولهم حتى ظهر عليهم ، ورفع للشعر منارا أطلت منه الحقيقة بجلالها ، وأشرفت منه الطبيعة بجمالها .

ولما صدع قيود الشعر ، وأطلق سراحه من سجن التقييد وقد وقف إذ ذاك على أبواب الثلاثين من عمره ، نظر فإذا فن التمثيل يتضاءل تحت أستار الملاعب ، تضاؤل الحسناء تحت الأطمار ، لأخذ رجاله بأسباب التقليد ، وترسمهم أثر الرومان واليونان فيما وضعوه من الأقاصيص التى تمثل أدوار تلك الأزمان الغابرة ، ورأى أن الواضعين فيه لم يجيئوا بما ينقع الغلة ، فانبرى إلى منازلة أولئك المقلدين ، وقامت بينهما حرب عقدت عجاجها الأقلام ، وأدارت رحاها الأفهام فما زال يكر عليهم بجيوش البيان ، وكتائب البرهان ، حتى خضعوا لقلمه ، وساروا تحت علمه .

ولاحت بعد ذلك تباشير الإصلاح فى سماء الأدب ، وظهر كتابه الذى سماه نتردام دوبارى **Noter Dame de Paris** فطلع على الناس طلوع القمر على المدلج الحائر ، حشرت له فيه اللغة جنودها من الألفاظ والمعانى ، فاستعرضها صفا صفا ، وتفقدها حرفا حرفا ، ثم أبرزها إلى ميدان التحرير على أحسن تعبئة وأكمل نظام ، وقد وفق بين قلبها وجناحيها كما يوفق القائد الخبير .

ولما قضى من الأدب لبانته، وأخذ من الشعر حاجته ، هجر الشعر إلى السياسة ، وما هى إلا جولة من جولات الفكر حتى دعته السياسة إلى مواصلة الشعر ، ليوضح لها سبيل استهواء الأفئدة ، واستبطان الضمائر ، ويكون طليعتها فى اكتشاف ما يستكن فى قرارة النفس وخلجات الفؤاد .

وبلغ هيجو من السياسة كوكبها(١) ، فركب سفين الحرية عرض بحارها ، فما زالت توفى به من بحر إلى بحر ، وترمى به من عبر إلى عبر ، وهو على ظهرها يطالع

(١) كوكب الشيء معظمه .

فى أفق الدهاء صحيفة الرجاء، وقد وضع أمامه إبرة الأمل، وجعل وجهته قطب العمل ، حتى بلّغته شاطئ آماله ، وحمد مغبة أعماله .

وما كاد يتنسم الإفرنس نسيم الحرية حتى هبت ريح الاستبداد من رقادها ، وصفت من جوانب العرش المالك ، فاحتملت هيجو على أكتافها واندفعت به ، حتى إذا بلغت سماء بروكسل عاصمة البلجيك ألقت به هناك فى منفاه الجديد .

فنزل الرجل متماسكا لم يعتره الدهش ، ولم يتطرق إلى عزمه الخمول ، غادر باريس وقد أقسم أن لا يهبطها أو يهبط عرش الملك فيها ، وبرت يمينه .. فإنه لم يطأ أرضها حتى وطئتها بوادر خيل الألمان فى حرب السبعين .

ولبث هيجو فى منفاه، وكانت أيامه فيه أخصب أيام حياته فأسلس العنان لفكره ، وأوسع المجال لقلمه ، فوضع كتابه الذى سماه «نابليون الصغير» ، ونظم بعده كتاب «العقوبات» فنال فيه من نابليون الثالث ما لم ينله منه زوال ملكه ، وكان عليه أشد غضاضة من تسليم سيفه إلى يديد عدوه فى يوم خذلانه .

وجاء ذلك الكتاب مثال ما يملى الحق على القريحة ، وتوحى الموجدة إلى اليراع ، ووضع بعده كتاب «المشاهدات» وكتاب «البؤساء» الذى نعربه اليوم ، وكم له غيرها من مؤلفات جليلة ، ومنظومات بديعة ، منها ما صنعه فى صباه «كأوراق الخريف» «وأناشيد الشفق» ، ومنها ما وضعه بعد عودته إلى الوطن ككتاب «العام الأسود» ، ومات هيجو وهو نادرة الفلك ، وواحد عطارد .

كلمة للمؤلف فى البؤس

مثل البائس الذى سجلته يد المقادير فى سجل العناء ، وطوحت به فى ظلمات هذا الوجود ، فمضى يتخبط فى ديجور الحياة ، يؤمه النحس ، ويمشى على أثره الشقاء ، تلعب به الأيام لعب النكباء بالعود ويدب فى نفسه اليأس دبيب الآجال فى الأعمار ، كمثل الغريق ظفر به البحر الهائج فى يوم ريح صرصر عاتية ، فلبث معلقا فى خبط من الأرجل تحت شقى مقص الفناء ، يفتح له الوهم بين كل موجتين قبرا ، ويمد له الخوف بين كل قطرتين بحرا ، يطفو به القدر ويرسب به القضاء ، فتلتقفه الموجة بعد الموجة ، وتلتقمه اللجة بعد اللجة ، وقد درجه البحر فى كفن من الزبد ، وحمله على نعش من الماء فوق أعناق أمواج كالجبال ، تعلو به تارة إلى مجرى الأفلاك ، وتسفل به أخرى إلى مسبح الأسماك، حنق عليه الماء والهواء ، وزهدت فى وجوده الأرض والسماء ، وكلما هم بالاستسلام للموت أدركه الحرص على البقاء فجعل يجالد تلك الأمواج الثائرة ، ويصارع ذلك الجبار العنيد ، حتى إذا نزح التعب قواه ، طواه البحر فى جوفه طى السر فى الفؤاد : ذلك مثل البائس فى هذه الحياة الدنيا .

أما ذلك المجتمع الإنسانى فمثله كالسفين أخذت فى ذلك الخضم مجراها ، فانحطت عليها الأعاصير واصطلحت عليها الأنواء ، وألقت بها فى تلك اللجج التى تضل فيها الظنون والأوهام سبيل النجاة ، يدنو منها القضاء فيفرق ، ويسبح فيها الخيال فيغرق ، إذا تدجت فهى ليالى الشقاء ، وإذا ثارت فهى براكين الماء . ألقى بهذه الجارية تيار الماء والهواء ، إلى حيث هذا الغريق تصافحه رسل الحمام ، فجعل يدعوها إليه مرة بالنداء وأخرى بالإيماء ، لتستل حياته من يد الأجل . وكلما صاح ذهبت بصيحته هوج الرياح ، أو أشار قام بينه وبينها سد من الأمواج ، فهى لا تسمع نداءه ، ولا تنظر إيماءه ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

الجـــزء الأول

الفصل الأول

جـــان فالجـــان

أشرف على مدينة (دينى) رجل يضرب فى الأرض على قدميه فدخلها وقد مال ميزان[1] النهار واكتهل اليوم الأول من شهر أكتوبر سنة ١٨١٥ وكان قد ركب نعليه عامة يومه فما أدركها حتى أخذ منه الجهد وأعياه النصب وأمله طول الشقة[2] وحتى ملكه الجوع ونال منه الظمأ وجمع فى منظره بين تعب الحياة وتعب السفر فكانت النظرة إليه تدعو إلى الريبة فيه . لذلك ما نظره أحد من سكان تلك المدينة ومرت به خلجة شك فى أمره .

وكان ربعة فى الرجال بادنا[3] شديد الحول يضرب لونه إلى السمرة طويل شعر اللحية قصير شعر الرأس لقرب عهدها بالمقراض نيفت أعوامه على الأربعين ، عليه أسمال بالية وبيده عصا وقد احتقب[4] خرجا ملأه بحاجه ولباناته .

دخلها وهو أشعث أغبر ، وقد انتشرت على أديم وجهه طبقة نسجتها يد السفر من خيوط الشمس وطلتها بطلاء من العرق والغبار فسار فيها وقد أنكره كل من رآه – وكذلك ينكر ابن السبيل – وأخذ سمته إلى دار المشيخة ، فمضى[5] قدما فى إحدى

---

(١) مالت الشمس إلى الغرب .

(٢) السفر الطويل .

(٣) ذو البدن السمين .

(٤) أى حمل .

(٥) أى سار إلى الأمام .

سبلها ، حتى إذا قطعها عطف يسرة وعرج على تلك الدار ولبث فيها بعض ساعة ، وخرج فمر بجندى فحياه فصعر[١] الجندى خده وتثاقل فى رد تحيته ، فمضى الرجل فى طريقه ونظر الجندى يترسم[٢] مواقع أقدامه ، حتى غاب عنه سواده .

ولعله كان قادما من الجنوب – فلقد طلع على تلك المدينة من ذلك السبيل الذى ركبه نابليون الأول قافلا من (كان) إلى (باريس) منذ سبعة أهلة – وكأنه منذ أصبح ما تبلغ[٣] فما هو إلا أن أفلت من دار المشيخة حتى تيمم النزل ، فلما دلف[٤] إلى حيث يطبخ ألفى رب النزل هناك ، فسأله رب النزل وقد أحس بقدومه وإن لم يمد إليه بصره: «ما سؤل الطارق؟» فقال الرجل : «أكلة ونومة» ، قال : «لك سؤلك» ثم التفت إليه فما كاد يأخذه نظره حتى أخذه الشك فيه فعطف قائلا : «أوتصل يدك إلى وفاء حق ما تطلب ؟» فضرب الرجل بيده إلى جيبه وأخرج كيسا فهزه حتى أسمعه وسوسة[٥] ما بداخله ، وجلس إلى النار يصطليها – وقد كان مقرورا[٦] وولى ظهره الباب . وجعل رب النزل يخالسه النظر فى الجيئة والذهوب ، والرجل غافل عنه ينكت الأرض بعود فى يده حتى كاد يأتى عليه[٧] الجوع فصاح بصاحبه : «أما آن أن إكل وليس هنا من هو أحوج منى إلى الطعام وما لى بد من تناول ما أمسك به النفس ؟» فقال له رب النزل : «إنى ليحزننى أن تنصرف عنى وأنت طاو ، فلقد سبقك إلى شراء ما ترى قوم نزلوا بنا منذ اليوم ، وما منهم إلا من هو أحرص منك على الطعام» فقال الرجل : «لن أبرح الأرض حتى أصيب ما أتبلّغ به ، فلقد سايرت الشمس من شروقها إلى غروبها وقضيت يومى طاويا وما بلغت هذا المكان حتى أدمى السير قدمى ، ومن العجز أن أبتغى عنه حولا» . فقال له صاحبه وهو يحاوره : «لقد بالغت فى محاسنتك كى لا

---

(١) شمخ بأنفه وتكبر .

(٢) ترسم الأثر اقتفاه .

(٣) تبلغ أكل الخبز .

(٤) دلف مشى .

(٥) يقال وسوسة الحلى ووسوسة الدراهم صوتها .

(٦) المقرور الذى أصابه القر وهو البرد .

(٧) أتى عليه أى أهلكه .

أجبهك[١] بالرد ، وكرهت أن أجمع عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع فأبيت إلا الإصرار فاغرب عنى أيها الرجل ولا تلحف[٢] فى السؤال فأنا أعلم بك منك ولو شئت لزدتك فقد زهدنى فيك ما أقرأ عنك فى تلك الرقعة التى تراها بيدى وصاحبها لا تغيب عنه وساوس صدرك وإنك لقريب العهد به ، ذلك رب الدار التى عرجت عليها حين أحلتك المدينة فاذهب غير معقب وحسبك ما سمعت يا جان فالجان» فعالج الرجل الكلام فاستعصى عليه لفرط الدهش ، فأهوى بيده إلى متاعه فاحتمله وخرج يتعثر فى ذيل الخيبة ، وركب الطريق الأكبر ومضى على وجهه يقتاده القضاء والقدر .

ولو أنه نظر وراءه لرأى بباب النزل قوما تكاد تنهبه أبصارهم ، وما منهم إلا من قاف[٣] أثره بنظرة من الشك ولكن الرجل لم يلتفت فقلما يسكن البائس الحزين إلى تلك اللفتة التى تريه النحس على عقبيه ، فواصل السير وقد أنساه طريف الحزن تالد التعب ، ولكنه ما لبث أن تنبه فيه هاجع الجوع ، فأشفق أن يدهمه الظلام قبل أن يبلغ مكانا يعصمه من القرة[٤] ويذود عنه الطوى ، فما زال يتيامن ويتياسر حتى لمح ضوءا فقصده فإذا هو على باب نزل حقير فوقف أمامه وهو يكبره ، الجوع يدفعه والخوف يمنعه ، حتى صحت عزيمته على الولوج فلما صار بصحن الدار وبصر به ربها ، صاح من الطارق ؟ فقال الرجل ، عابر يطلب قوتا وكنا ، ودخل حيث يسمع الصوت فوجد قوما جلوسا ينتظرون نضج الطعام ، وشم ريح القتار فكادت تثب أحشاؤه إلى القدر ، فقال له صاحبه : «دونك النار فاصطل ريثما ينضج الطعام» . فانتحى ناحيتها وجلس إليها ومد أمامها قدمين أدماهما التعب .

وما كاد يحتويه هذا المكان حتى احتوى الشك من فيه فقد نظروا رجلا ترتسم على وجهه آلام الحياة مطرقا حزينا إذا أمررت عليه النظر إمرارا رأيت فيه سهولة السطيع ، وإذا أدمنته فيه تبينت فيه الجفاء .

---

(١) جبهه بالرد واجهه به .

(٢) ألحف فى السؤال أى ألح .

(٣) قاف بمعنى اقتفى .

(٤) القرة البرد .

وكان بين أولئك الجلوس رجل قد بصر به ضحوة النهار وقد ركب الطريق بين (براسكاس واسكابلون) فرابه أمره حين دنا منه وهو فارس فطلب إليه ذلك البائس أن يردفه لينفس عنه كرب السير فكان جوابه أن استحث جواده هربا من شر تلك الطلعة وقد أراد الله أن يكون ذلك الفارس بين أولئك القوم الذين كانوا بباب النزل الأول وقوفا يشيعون ذلك الطريد بنظرات تقعد همة (الفوتوغرافيا) عن تصوير ما فيها من الاستخفاف والازدراء وبين أولئك الجلوس الذين رابهم أمره فى النزل الثانى ، فأومأ إلى رب النزل فلما دنا منه همس فى أذنه بكلمات ملأته نفورا من ذلك القادم فانفتل إليه ، وقال له : «ما كان أخلقك بالتحول عن هذا المكان» فأجابه الرجل : «أو قد علمت بحادثة ذلك النزل ؟» قال : «نعم وسنشفعها بأختها» فاستقبل الرجل الباب ولما صار بالطريق إذا هو بصبية يرجمونه بالمدر وقد تعقبوه منذ هبط المدينة ، فخشى أن يصيبه عنت منهم إن هو تغافل عنهم ، فأشار إليهم بعصاه يوهمهم بالأذى ، فنفروا عنه نفور القطا ، فانطلق حتى إذا صار أمام السجن خطر له أن يأوى إليه ليلته وقال لن أجمع على نفسى بين الجوع والسهاد ولقد أرانى إلى الراحة أجوع منى إلى الطعام وهذا جو خليق أن يهلكنى قره ولن أعدم أن أجد فى هذا السجن مكانا يعصمنى منه .

فلما تمكن منه هذا الخاطر طرق الباب فقال السجان : «من الطارق؟» قال : «غريب لا مندوحة له عن الالتجاء إلى السجن» قال: «ومتى كان السجن دارا للضيافة ؟ فإن كنت أمسيت وقد أعياك الأمر فهذا باب اقتراف الجرائم لا يزال مفتوحا وهو لا يلبث إن ولجت فيه أن يقتادك إلى هنا» فانصرف الرجل مخذولا وليس وراء ما به من البؤس غاية ، وتغلغل فى المدينة فمر فى طريق ضيق على عطفيه حديقتان عليهما سياج وفى وسط إحداهما دار صغيرة تعلو الأرض بطبقة ، بإحدى نوافذها سراج يضىء الليل فما هو إلا أن رآه حتى أسرع إليه فلما بلغه نظر من تلك النافذة فإذا رب الدار بين زوجه وولده وهو أهنأ ما يكون بالا ، فقال أستضيفهم فلعلى أن أصادف منهم جانبا رحيما ، ثم خفض من جزعه ونقر بأصبعه على زجاج النافذة نقرة الجبان ، فلم يسر إليهم الصوت ، فخلع عن منكبيه رداء الفزع ونقر نقرة مطمئنة ، فقالت المرأة لزوجها : «كأنى أسمع نقراً على زجاج النافذة» فتسمعا جميعا فسرى إليهما الصوت فقام

الرجل إلى السراج فحمله واستقبل الباب ففتحه فأخذ بصره رجلا تذعر منه الأبالسة، فقال رب الدار : «من الذى أرى ؟» قال : «غريب يستضيفك ولك الحكم فى الأجر» ، فقال له وقد دب الشك فيه : «إن كنت ذا مال كما تزعم فهذه الفنادق فما منعك أن تغشاها ؟»، قال: «غشيتها فلم أجد فيها مكانا» فقال له وقد تملكه الشك : «إن ما تقول لشبيه بالباطل وليس هذا بإبان المواسم ، وإنى لأرى رجلا غير ميمون الطلعة ولقد راعنى منك ما يروع المرء من قاتله وكأنى أسمع صوته يقطر منه الدم وأكبر ظنى أنك ذلك الرجل» فقال له : «لا تعجل فى الحكم على ما ليس لك به علم ، فما أنا إلا ابن السبيل قطعت فى يومى اثنى عشر فرسخا وقد أجهدنى الكد وأنصب بدنى التعب وأخذ منى الطوى ، فهل لك فى أن تسعفنى بكسرة من الزاد ولك أجر المحسنين ، فإن لم تفعل ، فشربة من الماء ؟» فقال : «بل شربة من حميم» وأغلق فى وجهه الباب ، فوقف الرجل وقد كاد يأتى عليه اليأس لولا أن بصر فى ضوء الشفق بشىء شبيه بالكوخ فى وسط الحديقة المجاورة لذلك البيت فقال : «ما لهذا الكوخ بد من ساكن ولكنى آتيه فلعلى أجده خاليا فأئنى فيه دولة الظلام وأستجن[1] فيه من ذلك البلاء المتساقط» فقصده فإذا هو وجار[2] لكلب وقد غاب عنه صاحبه ، فانبطح فيه الرجل على وجهه واستحالت عليه الحركة لضيق المكان ، وكان متاعه لا يزال على ظهره ولم تقو يده على إزالته لفرط ما ناله من الأين والنصب ، فلبث قطعا من الليل وليس به حراك حتى إذا أمله حمل ما على ظهره عمد إلى نزعه فأخذ يعالجه بيده ، وإنه ليفعل ذلك إذ فاجأه رب الوجار ، فتسلل الرجل من مكانه وغادره لذلك القادم وأشفق أن يثير غضبه بتثاقله عن الخروج فينشب فيه أنيابه وهو فى ذلك المضيق لا يستطيع دفعا عن نفسه ، وخرج من البستان وهو أشد ما يكون جزعا من الحياة شريدا يطويه البرد وينشره الطوى ، تعذر عليه حتى الوصول إلى السجون وعزت عليه حتى مراقد الكلاب .

---

(١) استجن أى استتر .

(٢) الوجار الجحر .

فلما صار فى الطريق قال : «لقد قصدت الفنادق فذادونى عنها – فالتجأت إلى السجن فكذاك ، فاستضفت الناس فكذاك ، ولقد زهدت فىّ حتى الكلاب ، فليس لى إلا التحول عن هذه المدينة» .

ثم سار مقنع الرأس كاسف البال واستقبل الفضاء وكان ليله بهيما ضرير النجم شديد القر ساقط النواحى متهم الصباح فانطلق حتى إذا بلغ مزرعة حديثة العهد بالحصد رفع رأسه ومد بصره فإذا ظلمات يقصر فيها قاب العين ، وقد زاد فى ظلام الليل ما تلبد فى سمائه من تلك السحب الكثيفة فكانت السماء أشد ظلمة من الأرض . فانقلب الرجل على عقبيه وأم المدينة وكانت ذات سور وأبواب فرأى الأبواب وقد أغلقت فحاول التسور فأعياه الأمر ، فما زال يطوف بالسور حتى عثر على ثغرة فيه فانحدر منها إلى المدينة ، ومضى على وجهه تترامى به الطرقات وتتقاذف به الأزقة حتى مر ببيعة فوجد على بابها مقعداً من الحجر فسقط عليه لا يعى من فرط التعب واضطجع عليه . وما كاد يحتويه ذلك المضجع حتى خرجت من تلك البيعة امرأة صالحة فقالت له وقد رأته ممددا كالجذع : «ما خطبك أيها النائم ؟» فقال لها : «وهل يدعو ما أنا فيه إلى السؤال ألا ترين أنى أنام ؟» فقالت له وقد أخذتها رأفة عليه : «أتفترش الصخر ؟» قال : «مر بى تسعة عشر حولا ولا أفترش غير الأخشاب ، وأنا الليلة أفترش الصخور ولولا أننى صفر اليدين لاكتريت لى مكانا . على أننى طرقت الأبواب فلم أظفر بكريم» فقالت : «هل أدلك على بيت ما طرقه قبلك طارق وجبه بالرد ؟» ، وأشارت له إلى بيت صغير على كثب منه فأخذ الرجل سمته إليه .

* * *

وكان هذا البيت لعابد بمدينة (دينى) وقد أفرد له المؤلف فى صدر الكتاب باب قصره على ذكره ومناقبه ، ومبلغ ما فيه أن الرجل مسماح كريم عفيف الإزار طاهر المهد سريرته فى بياض صحيفته فعال للخير مناع للشر ، وكان يقطن هذا البيت مع أخت له على خلق كريم وهى امرأة نصف لا عجوز شمطاء ولا فتاة هيفاء وكانت لهما خادم من ذوات الأسنان تعد من العمر ستين عاما .

وبينا كان الرجل آخذا طريقه إلى ذلك البيت كانت الخادم تحدث مولاتها :

«لقد هبط المدينة رجل مريب ما رآه أحد إلا وذعر من رؤيته وقد مشى بحديثه الكبير والصغير فورد الأندية وولج الأخبية وأجمع الناس على وجوب التحرز منه حين نظروا فى وجهه سيما الفتك والشرور فلا ينجلى هذا الليل إلا عنَّ حادث جلل وها هو يطوف تحت راية الليل فى الأزقة والطرقات حتى إذا عن له صيد أو آنس من أحد غرة وثب عليه فسلبه نفسه ومتاعه ولا آمن ونحن فى هذا البيت أن يصول علينا الذئب صولته ، ولا أظن تهاون العسس فى الأمور إلى هذا الحد إلا لما أمسكه حاكم البلد فى نفسه من الضغينة على رئيس الشرطة ، وما وقره رئيس الشرطة فى صدره من الموجدة على ذلك الحاكم يحاول كلاهما إلقاء تبعة الحوادث على صاحبه ، ولقد وجب على كل من له مسكة من العقل أن يقيم من نفسه حارسا على نفسه حتى تنحسر فترة الشقاق بينهما وأنا غادية إلى السوق لشراء مزلاج[1] لهذا الباب وداعية أحد النجارين لإصلاح عضادته» .

وإنها لتحدثها كذلك إذ دخل سيدها وقد ألمّ بطرف من الحديث ، فنظر إليها نظرة المستطلع ، وسألها سؤال المستخبر : «لقد وعيت طرفا من حديثك فما عسى أن تكون تلك النازلة التى توشك أن تحل بنا ؟» فاندفعت الخادم تحدث مولاها بما تعلمه من أمر ذلك الرجل ، وكلما آنست منه ارتياحا إلى حديثها تغلغلت فى الإغراق واسترسلت فى المغالاة وقالت : «ولقد عود مولاى طراقه على الدخول فى هذا البيت قبل الاستئذان ، وقد علموا منه ذلك فهم يغشونه بالليل والنهار ولا يكلفهم ذلك غير دفع هذا الباب !» وما كادت تنتهى من مقالتها حتى سمعوا طرقا فقال العابد : «أتيت أهلا أيها الطارق» فاندفع الباب بعنف ولاح رجل على عتبة الدار وأخذ يخطو إلى صحنها بقدم مطمئنة وصدر لا يبرحه القلب . وإن عهدنا بهذا القادم لقريب ، فما هو إلا أن تراءى حتى

---

(١) الترباس عند العامة .

كادت تنقطع نياط قلب الخادم من الهلع ، فهمت بالصياح فخانها الصوت فلبثت فاغرة الفم غائبة الرشد . أما الأخت فقد حفز الخوف أحشاءها حفزا فنظرت إلى أخيها فإذا هو مثلوج الصدر جليد القلب رابط الجأش طلق المحيا ، فثاب إليها رشدها وعاودها السكون ومرت كأن لم تكن تلك الجازعة الهلوع ، وأما ذلك الرجل ، فقد وقف فى صحن الدار وأنشأ يقول :

«إننى مجرم طويت فى السجن رداء شبابى ، وسلخت فيه مائة وثمانين شهراً حتى استوفيت عمر العقاب ، ولم تشرق علىّ شمس الحرية إلا منذ أيام أربعة ، فهبطت تلك المدينة وقد شمر النهار ، فقصدت الفنادق ، فحالت بينى وبينها تلك الورقة الصفراء التى يحملها حديث العهد بمغادرة السجون ، فطرقت الأبواب فلم أصادف رجلا كريما ولا قلبا رحيما . فقلت آوى إلى السجن ، فأنا أقرب الناس عهدا به فنهرنى السجان ، فدلفت إلى وجار كلب فطاردنى حتى طردنى ، فقلت أنطلق إلى الفضاء فأنام تحت حراسة النجوم ، فتقنعت بالسحاب وكأنها عافت النظر إلى تلك الطلعة المنحوسة . وأشفقت من سقوط المطر ، فعدت معقبا إلى المدينة ، ولم أصب من رحمة فى الأرض ولا فى السماء ، فحالت بينى وبينها الأبواب حين بلغتها ، فما زلت أطوف بالسور حتى ظفرت بصدع فيه وانحدرت منه إلى المدينة وهمت على وجهى فى الطرقات حتى مررت ببيعة فإذا على بابها مقعد من الحجر فانطرحت عليه ، وإنى لكذلك إذ مرت بى امرأة من الصالحات فنفضت إليها جملة الحال ، فأرشدتنى إلى هذه الدار ، وها أنذا قد بلغتها . ولقد عودنى الشقاء على أن أجتزئ بالشربة وأكتفى بالكسرة ، فهل أنا مصيب عندكم ما أمسك به النفس ؟ فلقد ظللت يومى طاويا وقطعت اثنى عشر فرسخا وأنا راكب هذين النعلين، فإن فعلتم – وما أظنكم تفعلون – فلكم ما تشاءون من الأجر، فإنى على الدفع قدير !» .

فنظر العابد إلى الخادم ، وقال لها : « هيئى له مكانا على المائدة» ، ثم أخذ يحد البصر على ذلك الرجل ، كمن يحاول أن يستشف ما فى قرارة نفسه ، فمضى الرجل قدما حتى اقترب من السراج وضرب بيده إلى جيبه فانتزع منه تلك الورقة الصفراء (إجازة الإطلاق) وكأنه لم يصدق أذنه لقرب عهدها بسماع غير الذى سمعت ،

فالتفت إلى العابد ، وقال له : «دونك الورقة التى ما صحبتنى إلى مكان إلا سبقنى النحس إليه وإنى لأتلو عليك ما فيها فقد تعلمت القراءة فى مدرسة السجن» .

وأخذ يتلوها :

«أنا جان فالجان مجرم أطلق سراحه بعد أن لبث فى السجن تسعة عشر حولا ، قضى خمسة منها قصاصا على السرقة ، وقطع الباقى جزاء معالجته الفرار من السجن مرارا وإنه لفتّاك جسور» .

ثم قال :

«لذلك ترانى ما حللت فى مكان إلا وأنكرنى من فيه وأوجس خيفة منى فياليت شعرى أكذلك تكون معى أم أنت من المحسنين ؟» .

فنظر العبد إلى الخادم وقال لها : «مهّدى له سريرا» وخاطب الرجل قائلا : «نزلت رحبا فاجلس إلى هذه النار واصطل وما هى إلا لحظة حتى يحضر الطعام فإذا فرغت من تناوله أخذت مضجعك فى ذلك السرير» . فصدق الرجل فى هذه المرة أذنيه وأشرقت أسارير وجهه وسرى عنه ما كان فيه من الغم ، وخرج به فرط السرور إلى الهذيان فجعل يقول : «أسرر وحشيّة وغطاء وما لجنبى عهد بها منذ تسعة عشر حولا ؟ ولقد كان قائما بنفسى أن لا أرى منك غير الذى رأيت من أصحاب الفنادق ، فما بالك تبالغ فى محاسنتى كأنى بعض بنى الإنسان ولقد كنت أنهر الساعة كما تنهر الكلاب ، فما أرق شمائلك أيها الرجل فتالله لأضاعفنّ لك الأجر . فيا ترى ما اسم هذا النزل وكم ينبغى أن أدفع ؟» .

فقال العابد : «إن الذى يؤويك لم يكن بنزل كما تزعم ، ولكنه بيت ذلك الذى يخاطبك» فقال الرجل : «لقد خيم الحزن على بصرى فلم ألمح إشارتك التى تحملها ولعلك عابد بتلك البيعة القريبة ، فلا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، فأنت حقيق بمؤاساة البؤساء» .

ثم رد الرجل ورقته الصفراء إلى جيبه ، وألقى على الأرض متاعه وأسند إلى الحائط عصاه وانتحى ناحية النار وجعل يقول : «ولا إخالك تكلفنى على ذلك أجرا» . فأجابه صاحبه وهو يحاوره : «لا بل فاحفظ عليك دراهمك فلسنا فى حاجة إلى شيء منها» .

وكره العابد الخوض معه فى مثل هذا الحديث فحول مجراه قائلا : «ولعلك يا سيدى مقرور ، فإن ليلتنا باردة الهواء» فتمشى السرور فى قلب الرجل حينما استأذنت تلك الكلمة على سمعه ، وتنزهت لها روحه من داخل الجسد ، وأصابت منه تلك اللفظة (سيدى) موقع الماء من ذى الغلة الصادى .

ولا يزال المصاب فى شرفه على ظمأ إلى نهلة من موارد الاحترام ، حتى إذا ظفر بها أصبح مبرود الغليل .

وانتقل العابد من حديثه إلى مخاطبة الخادم فقال : «أرى سراجنا مريض الفتيلة ضئيل النور» . فألمت بقصده وأسرعت إلى مخدع نومه وعادت تحمل شمعدانين من فضة ووضعتهما على المائدة .

فقال الرجل للعابد : «لقد أكرمتنى الكرامة كلها وحادثتنى محادثة القرين وجلست معى على بساطة المساواة ، على أنى لم أكتمك شيئًا من أمرى وعندى أن ما فعلت معى لكثير على مثلى» فقال العابد : «لم تكن الدار بدارى ، ولكنها دار للمسيح ولا يسأل هذا الباب داخله كائنًا من كان عن اسمه ، ولكن يسأله عن ألمه وأنت رجل قد أضر بك الألم ونال منك الجوع والظمأ ، فالتجأت إلى تلك الدار وليس لى فى ذلك من فضل ، وإنما الفضل لله فهيا إلى المائدة فقد حضر الطعام» .

فأخذ الرجل عليها مجلسه وجلس إليه العابد يؤاكله ويؤنسه حتى فرغ من أكله وحانت ساعة الانصراف إلى النوم فأخذ بيده إلى المضجع الذى هيأه له ومر فى طريقه على حجرة العابد ، فنظر فيها نظرة ألمت بجميع ما بداخلها وحين بلغ به رب الدار مضجعه حياه وهم بالانصراف ، فتعلق به الرجل ، وزمهر فى وجهه بعينين ثمّ إنساناهما عما كان يخفيه فى قرارة نفسه من الغدر ، فقال له وقد شبك ذراعيه ووقف

أمامه وقفة تمشى لها القلوب فى الصدور : «وما يؤمنك أن لا أنالك بسوء وقد جعلتنى بحيث لا يحول بينى وبين الفتك بك حائل ؟» . فأجابه العابد : «ومتى أغنى الحذر عن المرء شيئًا وهذا أمر قد فرغ الله منه ؟» .

ثم غادره وانكفأ إلى مخدعه ولم يلتفت إليه . وبعد أن قضى فيه صلاته تحول عنه إلى البستان وأخذ يطوف فى نواحيه وهو يتأمل فى نظام الفلك وقدرة الصانع ويطلق الفكر فى تلك الأشياء المستسرة فى ضمير الدجى .

أما الرجل فما صدق أن يتوارى عنه حتى أهوى إلى السراج فأطفأه وانطرح على ذلك السرير ، وليس به حراك وغط فى نومه ، وما كاد ينصرم من عمر الليل نصفه حتى انقلب العابد إلى مخدعه وأخذ مضجعه فيه ونام ولم تبق فى هذه الدار عين ولم يأخذ النوم بمعاقد أجفانها . ولما اكتهل الليل أو كاد تيقظ الضيف من نومه !

* * *

وقد آن أن نسطر للقراء تاريخ ذلك الرجل :

كان جان فالجان من أسرة رقيقة الحال تعمل فى الأرض ببلدة (برى) وكان أبوه يشذب الشجر ، ولم تكن له حرفة سواها فتربى هذا البائس فى معهد الجهل، فلم يجلس إلى مؤدب ولا معلم ولم يرتضع بلبان العلوم والمعارف فمر قدما جهولا. ولما يفع ورث عن أبيه تلك الحرفة وكان طويل التفكير عن غير حزن، وفقد أبويه وهو صغير فماتت أمه محمومة ومات على أثرها أبوه .. هوى من رأس شجرة كان يشذبها فدق عنقه ، فاحتضنته أخته وكان لها سبعة من البنين والبنات فلم يزل مكفى المئونة عندها حتى مات زوجها وليس بين ولدها كاسب وأكبرهم يومئذ فى الثامنة من عمره فلم ير جان فالجان بدًّا من القيام بمعاش أخته وأولادها فجعل يعمل لبطنه وبطونهم ويكدح فى طلب الرزق وأجره فى أيام موسم حرفته لا يزيد على ثمانية عشر صلديا ، فإذا انقضت تلك الأيام انطلق إلى جماعة الحاصدين فى المزارع فأصاب رزقا له ولأهل بيته . وما زال يكافح الأيام ويناضل البؤس وهو لا تصل يده

إلا إلى ما تدعو إليه الحاجة لحفظ الحياة حتى نزلت بهم سنة من السنين حبس شتاؤها الناس عن الخروج فى طلب وجوه الرزق ، فأملق الرجل إملاقا شديدا ونزلت به الضائقة وحضره العوز ، فأمسوا ذات ليلة ولم يجدوا ما به يتبلغون ، فصاحت تلك السبعة الأطفال من ألم الجوع ، والتصقت بطونهم بالظهور من فرط الطوى . فكبر الأمر على جان فالجان وغادر الدار وخرج هائما على وجهه يطلب لهم ما يقتاتون به فمر بخباز قد أغلق حانوته وتهيأ للنوم فى مخدع له بداخلها، وكان بابها من زجاج وخلفه حواجز من الحديد ينفذ من أثنائها الساعد فوقف أمامه ونظر من زجاج الباب فإذا رغفان الخبز على قيد ذراع منه ، وذكر أمه الغلمة فساقه قائد الاضطرار إلى ارتكاب جريمة السرقة لأجل أن ينتزعهم من مخالب الجوع ، فصدع الزجاج بقبضته وأهوى بيده إلى الخبز. وإنه ليحاول اختلاسه إذ أدركه الخباز وقد تنبه من نومه مذعورا على دويّ تلك الصدمة ، فتخبل الرجل فى أمره وطرح الخبز وأخذ يعدو طلبا للنجاة. وطفق يعدو والخباز على أعقابه حتى لحق به وتعلق بأثوابه وقد خدشه الزجاج فى يده وساعده خدوشا كانت هى الشهود على جريرته ، فسيق إلى المحاكمة ، وكان كلفا بالصيد فى الغابات مدمنا لحمل بارودته ، فلما قبضوا عليه ، وكان محتقبا لها ، شبه لهم أنه بعض خطفة الصيادين وهم قوم قد مقتهم الشعب لوهم دينى رسخ فى عقيدته يلحقهم بقطاع السبيل ، لذلك وفوا هذا البائس قسطه من الأذى وزجوا به فى السجن خمس سنين !

وفى اليوم الذى نودى فيه بنصر ديمونتبوت كان جان فالجان يرسف فى قيوده وقد سلكوه مع رفقة له فى سلسلة طويلة الذراع . ساروا به إلى سجن تولون وقلبه يقطر حزنا على هؤلاء الذين خلفهم بعده لا ترعاهم عين ولا تواسيهم يد ولما وصل إلى السجن ألبسوه ملابس المجرمين ولم يبق له أثر من ماضيه حتى اسمه فقد محته يد الشقاء وأصبح لا يدعى بغير نمرة ٢٤٦٠١ .

ولا يعلم إلا الله ما الذى حل بعده بتلك الأرملة وأولادها وقد خلفهم على مدرجة من سيول الحوادث يعبث الجوع بأحشائهم ويلعب اليأس بأرواحهم وليس لهم من معين ولا نصير وقد ركب كل منهم رأسه وهام على وجهه من فرط الجوع وتغلغل فى ظلمات

هذا الوجود ولحق بمن ابتلعتهم تلك الظلمات من البؤساء وتشتتوا فى البلاد وجر عليهم الدهر ذيل النسيان فنسيهم . حتى ذلك السجين فى سجنه أنساه إياهم كر الغداة ومر العشى ، وتتابع البلاء وتوالى الشقاء ولم يجر على لسانه ذكر أخته فى أيام بؤسه وما ذكرها غير مرة وقد نقل إليه بعضهم طرفا من خبرها بعد أن لبث فى السجن بضع سنين لا يعلم من أمرها شيئا ، نقل إليه أنه رآها بمدينة باريس تساكن البؤس فى دار ولم يبق لها من أولادها غير واحد وقد انقطعت إلى العمل فى إحدى المطابع فنظرها وهى مبكرة إليها وفى يدها ولدها وقد بلغ الرابع من عمره ، وكانت فى دار المطبعة مدرسة للأطفال فأدخلت فيها ذلك اليتيم فهى تغدو به كل يوم إليها وتتركه فى فناء الدار حتى تحين ساعة الدرس ، وكانت تنطلق لمزاولة العمل فى المطبعة قبل هذا الحين بساعة ، فيلبث ذلك اليتيم فى فناء الدار وحيدا فينزوى فى ركن من أركانها وينكمش تحت ذيل الانكسار ، وطالما شاهده من مر به وهو يقضقض من البرد وفى عينيه كسل الكرى وقد تأخذ حارس الباب الشفقة عليه فيدعوه إلى كنه حتى يفتح باب المدرسة .

هذه هى المرة التى سمع فيها بذكر أخته وآلمته ذكرى تلك الأنفس التى كان يحبها ولكنه ما لبث أن عاد إلى حاله من النسيان فقد كان فى قلبه جرح لفراقهم وقد اندمل ذلك الجرح لطول العهد واشتغاله بما هو فيه من العذاب والشقاء .

وما كاد يطوى أجل السنة الرابعة حتى وقف عليه الدور فى الهروب ، فأفلت من السجن وقد أعانه رفاقه على ذلك وكانوا قد تمالأوا فيما بينهم على الفرار بالتعاقب، ولما ظن نفسه ناجيا لبث يومين هائما فى فضاء تلك الحرية الموهومة لا يهتدى إلى سبيل .

ولم يستمرئ ذلك البائس لذة الإطلاق والحرية ، ومتى كان حرا من بات مقلقل الشخص ، مروع العين ، منزعج الضمير ، طاوى الحشا يفرق من الفىء ، ويفزع من لا شىء ، يخيفه الليل تسطو غياهبه فتنسج على بصره غشاوة تمنعه عن التحرز من الواقع فيما عساه أن يكون قد مد له من الشراك ، ويزعجه النهار يغرى بها الرقباء ويهدى إليه العيون ؟ فهو ما مر به طير إلا وفزع ، ولا نبحه كلب إلا وجزع ، ولا دقت

ساعة ولم يدق لها قلبه ، ولا لاح شبح ولم يطر له لبه ، فإذا أغفى سلت عليه سيوفها الأحلام ، وإذا تيقظ راشت إليه سهامها الأوهام.

فما زال يذوب فرقا بين تلك الهواجس والوساوس حتى سلمه ظلام الليل إلى ظلام السجون غرثان ظمآن لم يصب فى يوميه كسرة من الخبز ولا شربة من الماء وقد امتدت أعوام سجنه إلى ثمانية بعد خمسة فدخل السجن وثوب شقائه قشيب جديد بعد أن كان خلقا رديما ، وقد كان غادره ولم تبق له فيه إلا سنة واحدة وعاد إليه وقد ولدت له تلك السنة ثلاثا .

وما زال يعالج الهروب فلا يسرح الفرصة إذا عرضت ولا يحجم عن الدور إذا آن، وهو كلما ظن أنه تاج أدركه عثار الجد فرده إلى السجن ومد فى أجل بقائه فيه حتى قطع على تلك الحال تسعة عشر حولا .

وخرج من السجن، وهو كالحجر الصلد ، لا تنال منه النوائب ولا تأخذ منه الآلام ، بعد أن كان ذلك الرعديد الهلوع ، دخل فيه وهو بادى اليأس جزوع ، وخرج منه وهو كظيم .

* * *

وما كان جان فالجان خبيثا ولكنه كان فدمًا جهولا على أنه ما لبث أن تلقن فى مدرسة الدهر العليا دروسا ألحقته بمصاف الحكماء قام بتهذيبه فيها أساتذة الأيام والليالى فعلمه القيد السكون ، وعلمته الأغلال الصبر كيف يكون ، وأرشده فرع العصا إلى الاستقامة ، وسقاه التعب والنصب مرارة الندامة ، وانتزعت مضاجع الخشب من جنبيه ذلك الطمع ، وصهرت حرارة الشمس ما كان فى نفسه من الجشع فجلس إلى نفسه يحاسبها ، وجرد من نفسه حكما على نفسه ، وجعل ينظر إلى ماضيه نظرة الحكيم العاقل ، إلى ضلالة الأحمق الجاهل ، فعلم أنه أتى أمرا نكرا، وأن ما نابه من القصاص لخليق أن يحل به . وقال فى نفسه لقد كانت لى مندوحة عن السرقة

فلو أنى سألت الناس هذا الخبز لما أبوا على إعطاءه ، ولو أنى أخذت بالأناة فى الأمر لوجدت لى منصرفا عن ارتكاب هذا العار ، إما بالسؤال وإن كان ذلا ، وإما بالعمل وإن كان عزيزا ، ولكنى تعجلت وكان الأخلق بى أن أعتصم بحبل الصبر.

فمن النزر أن يموت المرء جوعا على أنه ما خلق إلا ليعيش بين السعادة والشقاء، فإن كان نصيبه فى الحياة الألم كان حقيقا باحتماله وإن عظم ، فما كل ألم يكون للموت رائدا .

فلقد عققت نفسى وعققت تلك الأرملة وأولادها وحاولت الفرار من وجه البؤس فواجهت العار ، وإنى وإن زلت بى القدم فلست بأول الخاطئين ، فهذا سبيل كل مضطر عديم ولا أزال أرى أنهم نظروا إلى هذا الجرم من غير وجهه فأكبروا الفعل وأفرطوا فى العقاب وأخذوا جانب شريعتهم فى القصاص ولم يأخذوا جانب المجرم فى الرحمة ونظروا فى ميزان حكمهم إلى كفة الجزاء ولم ينظروا فى كفة العفو عند التوبة .

فلسوف يسألونك عن تلك الحظوظ التى رموا بها فى مجرى النحوس ، وتلك الأنفس التى ألقوا بها فى يد البؤس والشقاء .

وإنى لا أرى مقارنة بين الضرر الذى لحق بصاحب الخبز وبين الضرر الذى نزل بى من وراء ذلك الحكم ، فإنه وإن لم يأت من طريق الظلم فقد جاء من طريق القسوة والإفراط .

وكان جان فالجان يحاكم نفسه وهو واجد على تلك الهيئة الحاكمة وقد أخرجه حنقه عن حد الرشد ، ولقد يكون الحنق جنونا .

وما ظنك أيها القارئ برجل لم يصب من ذلك المجتمع الإنسانى خيرا ولم يأنس منه غير هذا الوجه العبوس الذى كان يكمن فى أثناء ذلك العدل الموهوم ؟ فهو ما دنا منه دان إلا ليدنى إليه أذاه ولامسه إنسان إلا ليمسه منه الضر ، ولا طرقت أذنه بعد موت أبويه كلمة تستروح منها روائح الرفق ولا وقع عليه نظر تمازجه الرحمة .

فما زالت تهادى به الخطوب وتقاذف به الآلام وهو يتململ على سيال البلوى حتى أيـقن أن الحياة حرب وأنه وحده هو المهـزوم فيها ، وأن ليس ما يعـتد به من السلاح غير ما أمسكه فى نفسه من الحقد على العالم بأسره ، فهو سلاحه الذى أعده لمناوأة الأيام ومنـازلة الأنام وكان يشحذه فى أيام سجنه ويبالغ فى الحرص عليه، وقد رأى أن قوة ذلك السلاح لا تكـون إلا فى قـوة الذكاء ، فعمد إلى الدخول فى مدرسة السجن وقد تفتق العلـوم بعض الأذهـان إلى استنباط وسائل الأذى وطرق الانتقام.

وبعد أن فرغ من الحكم على نفـسه وعلى العالم بأسره انتقل إلى الحكم على تلك القوة التى دفعت هذا العالم إلى فعل الشر وكان بقاؤه فى السجن تلك المدة الطويلة وهو يرزح تحت أثـقال الهموم يسمو بنفسه آنا إلى السماء ويهبط بها آنا إلى الأرض، فيرى عن يمينه نور اليقين وعن يساره ظلام الشك . ولم يكن ذلك الرجـل خبيـثا عند دخوله إلى السجن ولكنه أحس بسريان الخبث فى نفسـه حين جلس للحكم على هيئة العالم وشعر بدبيب الكفر فى قلبه حين جلس للحكم على تلك القوة السماوية .

وهنا يجب أن يقف بنا التـأمل برهة ونتـسـاءل : هل يدخل فى باب الإمكان أن يخرج الإنسان من طباعه دفعة واحدة ، فيخالف غريزته ويناقض نحيزته ، ويتحول عن جبلته وينزع عن سجيته .

وهل لبنى البشر سلطان على النفوس يحولها عن الفطرة التى جبلت عليها، فيرد منها إلى الخيانة ما فطر منها على الطيبة .

وهل يرتبط شقاء الحظوظ وعثار الجدود بفساد النفـوس فإذا حمق حظ المرء، ولجّ به عثار جده خبثت نفسه وساءت فعاله .

وهل يخضع القلب لسلطان الحوادث خضـوع الأعضاء فتدعوه إلى الانكماش أمامها كما يدعو العبء الثقيل الظهور إلى الانحناء ، وهل لا يوجد فى نفوس البشر نور سماوى لا يذهب بسنائه الشك ولا تطمسه الضلالة ، فيبقى ساطعا فى تلك النفوس يلوح منه نور اليقين وتنبعث منه أشعة الهدى .

تلك أسئلة يدرك الحكماء عندها الحصر ويعجز الباحث فى علم الأعضاء عن الإجابة على أخيرها ، فلو أنه نظر جان فالجان وهو فى سجن تولون ، وقد وافت ساعة الراحة من عناء الأشغال ، فانتقل من ألم الجسم إلى ألم الفكر لرأى رجلا يقطر حزنا ويذوب كمدا ، يزدهيه الصمت ويغوص به الفكر فى بحار من التأمل ، أنشبت فيه الشرائع أظفار الظلم فجعل ينظر إلى العالم بعين الحقد والحرد ، وأخرجته المدنية عن حد الرحمة فجعل ينظر إلى السماء بعين السخط.

ورأى مريضا داؤه فى النفس لا فى الجسد ، وقدعز عليه الشفاء . ولوقف عمله عند حد التوجع له ، ولصرف نظره عن تلك القروح التى تسكن فى هذه النفس المجروحة بسهم الشرائع الجائرة .

ولرأى رأى ذلك الفيلسوف (دانتى) فعمد إلى محو كلمة الأمل التى رسمتها يد القدر على جباه البشر .

وياليت شعرى أكان يحس ذلك البائس بذلك الوجدان الذى نحس به له ، وهل سمت مداركه إلى معرفة كنه ذلك الشقاء الذى أتيح له .

ولما حانت ساعة إطلاقه من القيود ورن فى أذنه قولهم له إنك حر منذ اليوم ، دبت فى نفسه الحياة وشعر بأشعة من الأمل تمحو من ظلام ذلك اليأس الذى سكن فى نفسه منذ تسعة عشر حولا ، ولكنه ما لبث أن عاودته نزوات الألم حين علم أن إطلاقه سيكون مشفوعا بتلك الورقة الصفراء وانقبض لتلك الجولة من الفكر وجه أمله ، وأيقن أنه لا زال فى قيد لا تصل يده إلى صدعه ، وأن هذا الحكم قد وكل به زبانية من العذاب، فهو فى أسر السجون مثله فى تلك الحرية الموهومة لا تزال تكلؤه عين البؤس والشقاء .

وأخذ يفكر بعد ذلك فى الثروة التى جمعها أيام محنته مما كان يصيبه من الأجور على عمله فى السجون ، فظن أنه أصبح ربا لثلثمائة وثلاثين غرشا ونسى أن أيام العطلة من كل أحد وما يلتحق بها من أيام المواسم قد قرضت من رأس ماله ستة وتسعين غرشا فلم يطرح من حسابه ذلك القدر العظيم ، ولا تسل عما حل بنفسه من الجزع حين ألم بهذا الخسار وذلك الغبن المبين .

وفى اليوم التالى ليوم تسريحه من السجن مر بمدينة (كراس) على معمل للزهور به قوم يعملون وكانوا فى فقر إلى المعونة لعدم الفسحة فى الوقت وطلب سرعة الإنجاز فى العمل فعرض على رب المعمل نفسه فألحقه بأولئك العملة .

وكان جان فالجان لا يعرف التعب ولا يأنف الملال فعكف يعمل بخبرة ومهارة وسأل فى أثناء ذلك عن الأجر الذى يصيبه العامل فى يومه فقالوا له ثلاثون صلديا ، ولكن رب المعلم لم ينقده على عمله غير النصف حين علم أنه يحمل تلك الورقة الصفراء.

فقال جان فالجان فى نفسه تلك هى الخطوة الأولى فى سبيل هذه الحياة الجديدة ، وهذا كله ببركة تلك الورقة الصفراء ، فلعنة الله على كل ذى لون أصفر غير الذهب لأنى وإن كنت قد نجوت من السجن فلا أظن نفسى ناجيا من جور ذلك الحكم .

هذا ما حل به من الغبن فى مدينة كراس ، ولم ينس القارئ ما أصابه فى مدينة دينى .

* * *

ولما كان السحر تيقظ الضيف من نومه ، أيقظه لين الفراش ونعومة الملمس ، وقطع غراره ذلك السرير الذى لم يكن له به عهد منذ عشرين حولا وقد حن جنباه إلى مضاجع الخشب واشتاق رأسه تلك الوسادة من القش وكان قد هجع ثلثا من الليل فسرى عنه التعب فهب وقد عاوده النشاط وكانت عادته أن لا يهجع إلا قطعا من الليل فلما تنبه أخذ ينظر يمنة ثم يسرة ثم أهوى رأسه إلى الوسادة وجعل يعالج النوم من جديد .

ومن قضى يومه بين الألم والاضطراب ثم أخذ مضجعه بعد ذلك كان النوم إلى الحلول بمقلته أسرع منه إلى سواه ، ولكنه إذا تيقظ فلما يجد النوم إلى عينه سبيلا .

كذلك كان جان فالجان، فقد استعصى عليه النوم وأدركه الأرق وانتابته الهواجس والأفكار وجعل ينتقل به سيال الفكر من مكان إلى مكان وقد مرت أمامه تلك الحوادث الغابرة مرور الصور المتحركة ، وهو كلما نزلت برأسه فكرة أدركتها على الأثر أختها فلا تفتأ تطاردها حتى تغلبها على مكانها ، فما زال رأسه مسرحا لسوانح الأفكار وميدانا لسوابق الأوهام حتى نزل به فكر فألقى فيه عصا التسيار وأقسم لا يبرح أرجاءه وكان مبعثه من تلك الأوانى الفضية التى لمحها ذلك الشقى على مائدة العابد عند تناول العشاء ، ولمح الخادم وهى تضعها فى أحد الأركان من مخدع نومه على مقربة من سريره .

فسولت له نفسه أن يذهب بها وقد قومها بضعف ما كان يمتلكه يومئذ من المال وكلما حاول أن يثنى عنانه عن ركوب طريق العار أبى طمعه ألا يقف به على رأس ذلك الطريق فلبث ساعة وهو يحارب تلك العزيمة ويكافح شيطان هذه النفس الخبيثة ، حتى تغلب عليه الطمع وزين له الشيطان اختلاس تلك الأوانى فثار من مرقده وهم بمزاولة ذلك العمل .

ثم عاوده التردد فجلس على سريره وهو من نفسه فى حرب عوان ومد يده فتحسس متاعه والتمسه فى الظلام فمسح عليه بيده وقد كان على قيد ذراع منه . ومن رآه وهو على هذه الحال فى جوف تلك الحجرة تحت أستار ذلك الظلام رأى رجلا خرج به فرط التأمل عن حد الشعور بما حوله وقرأ على وجهه سطورا من الشؤم رسمتها عليه يد الشر الذى كان يجول فى نفسه .

ولولا أن دقت ساعة الحائط فانتشلته من قرار تلك اللجة التى نزل إلى قاعها غواص الفكر ، للبث كذلك حتى الصباح .

فثار من مكانه وخلع نعليه وكان لم يخلعهما عند النوم والتمس عصاه واحتقب متاعه وتهيأ للعمل وأخذ سمته إلى مخدع العابد وعلق أنفاسه وأخرس صوت أقدامه ومشى على أطراف أصابعه حتى إذا بلغ الباب تسمع فلم يسمع شيئا فدفعه بطرف البنان وهو أشد ما يكون احتراسا كأنه هرة تحاول غشيان ذلك المكان فلان له الباب ودار على عقبه بحركة لم يسر إلى السمع صوت لها .

فلبث غير بعيد ودفعه دفعة ثانية كان فيها أشد جرأة منه فى الأولى فازداد لينا حتى فتح له طريقا يسع مروره لولا منضدة من الخشب كانت معرضة فيه، قد دعته إلى طلب الزيادة فى انفراجه .

فألم جان فالجان بحرج الموقف ولم ير بدا من الإقدام فدفع الباب مرة ثالثة أشد من أختها وكان الباب على ظمأ إلى قطرات من الزيت ، فصر لتلك الصدمة صريرا، دوى له فى هذه الظلمة صوت خافت فاحتوته الرعدة وكادت تقف ضربات قلبه من الهلع ولبث كمن أخذته الصيحة وقد نفخ فى الصور ، ومثل له الفزع ذلك الباب وقد تحول إلى كلب عقور رابه سواد مقبل فجعل ينبح نبيحا يكفى لإيقاظ أهل الكهف ، فكيف بأهل ذلك البيت ، وظن أنه لا محالة هالك ، وخال عروقه وهى تنبض فى صفحتيه مطارق تطرق الحديد وأن أنفاسه تصفر تصفير الرياح فى بطون الكهوف والمغاور، وأن ذلك الباب قد زلزل الأرض زلزالها فزعزع أركان المنزل وأن هذا الصوت النكير قد أنذر الناس بالكبسة ، فما هو إلا أن يتنبه العابد وهاتان المرأتان حتى يقع فى قبضة العسس فيعيدوه إلى سيرته الأولى .

ولبث حيث كان لا يقدر على الحركة وهو كأنه بعض الأنصاب حتى سكت عنه الروع ورأى الأمر أيسر مما كان فى نفسه فمد بصره داخل الحجرة ، فإذا العابد يغط فى نومه ، وأصغى بأذنيه ، فإذا الدار فى سكون الرموس .

فخفض من جزعه ودعا إليه الإقدام وخطا خطوة فإذا هو داخل الحجرة فجعل ينقل أقدامه باحتراس كراهة أن يصطدم بشىء من الأثاث . وإنه ليختلس الخطى إذ برز القمر من وراء غمامة كانت تغشاه ورمى جرمه على تلك الحجرة فأثارها فنظر جان فالجان نفسه على قيد شبر من سرير ذلك النائم .

وكأن الطبيعة لم تزحزح هذا النقاب عن وجه القمر فى تلك القشرة إلا لتوضح لعيون الكون عمل ذلك الجانى لعله يذكر أو يخشى فلقد كان القمر منذ زمن لا يتعدى شطر الساعة مقنعا بغمامة سوداء وقد انجلت عنه فى اللحظة التى أوشك فيها أن يعثر هذا الشقى بأعواد السرير .

ومن رأى ذلك المضطجع على فراشه ، رأى رجلا قد قام على رأسه حارسان من المهابة والجلال يتألق في وجهه نور اليقين ويجول في محياه ماء البشر وترتسم على وجهه آيات الرضا والقبول ، وتكتسى شفتاه بابتسامة الأمل الفسيح ، ويتأرج من أردانه ريح التواكل .

وقد راع هذا الواقف جلال ذلك الموقف فجعل ينظر بعين الإكبار إلى ذلك الجسد الذى سكن فيه التقى ، وتلك الروح التى باتت تسنح في عالم الأسرار وتسبح فى ذلك الملكوت السماوى .

وكانت لله مشيئة فى ذلك الراقد ، فقد أفاض عليه من أنوار الهدى ومنحه من آيات المهابة والجلال ما جعله مهيبا فى اليقظة والمنام لذلك كان جان فالجان وهو مقيد فى مكانه يقيد من الخشية ينظر إليه وقد تمشت العظة فى نفسه وامتلأت عينه جمالا وأفعم صدره جلالا .

ولا يعلم إلا الله ما كان يمتزج بأجزاء نفسه من الانفعال وهو يدمن النظر إلى ذلك الراقد الذى تنتشر على وجهه طبقة من النور السماوى تمازجها نفثة من الروح الإلهى الذى أنار الله به بصيرته وأضاء سريرته فتلألأ فى وجهه ، والوجه مرآة الضمير .

وزادت بهجة البدر فى بهجة ذلك النائم فكان يراه جان فالجان فى نور فوق نور ولم يزل واقفا فى مكانه ولم يحول بصره عنه ، وما شك من رآه فى أنه يتردد بين أن يهوى بعصاه إلى تلك الجمجمة فيشجها أو يهوى بفمه إلى تلك اليد فيقبلها .

كل ذلك والعابد غارق فى نوم لم تقطعه عليه تلك النظرات المريبة حتى حانت من جان فالجان التفاتة فرأى الصليب وهو باسط ذراعيه وكأنه يومئ إلى أحدهما بالوقاية وإلى الثانى بالمغفرة ، فأغرته تلك اللفتة إلى الإسراع فى العمل .

فاندفع يمشى إلى الأمام حتى وقف عند تلك الأوانى الفضية وهى فى سفطها فتناوله ورجع أدراجه ومر بجانب السرير بقدم مطمئنة وجأش رابط ، حتى إذا جاوز

الباب انحدر إلى الحديقة فألقى بالسقط على الأرض بعد أن نقل إلى خرجه ما كان فيه وتسور الحائط ونجا بنفسه وخرج مع البازى عليه سواد .

ولما توفى الليل هب العابد من نومه وخرج يجول فى حديقته وكانت تلك عادته عند كل صباح فلمح الخادم وهى تهرول إليه وتنادى : « أيعلم مولاى تولى الله حراسته أين سقط الأوانى الفضية ؟» .

فأشار العابد إليه وكان مطروحا على مقربة منه ، وقال لها : « أليس هو هذا ؟». قالت : « كأنه هو ولكن أين أوانيه ؟ » . قال : «هذا ما لست أدرى» . فصاحت الخادم : « كان الذى خفت أن يكون فلقد فقدت تلك الأوانى وأكبر ظنى أن ذلك الرجل الذى غشينا بالأمس هو الذى ذهب بها » .

ثم طفقت تجرى إلى حجرة الرجل وعادت على الأثر وهى تقول : «نعم ذهب بها فلا بورك له فيها» ، ولاحت منها التفاتة فرأت آثار أقدامه مطبوعة على أرض البستان ، فجعلت تترسمها بالنظر حتى انتهت بها إلى إحدى زواياه فشاهدت آثار تسلقه على الحائط ، فقالت : « من هنا أخذ طريقه ومن هنا ظهر الحائط » .

وما زالت تبدى وتعيد وسيدها صامت اللسان وما زاد على أن قال : « ومتى كنا نحن أصحابا لتلك الأوانى ؟ ألم تكن هى من نصيب الفقراء وقد حبسناها عنهم ؟ ولقد أصاب الرجل فى فعلته فإن هو إلا بعضهم وقد وقف به نصيبه عليها ، فلا تجزعى فليس فى الأمر ما يدعو إلى الجزع وهذه أوانى القصدير أو صحاف الخزف تكفينا مؤنة الأسف على ضياعها » .

ثم غادرها وانكفأ إلى حجرته وما كادت تحتويه حتى سمع طرقا على الباب ، فقال : « أتيت أهلا أيها الطارق » فانفتح الباب وظهر على عتبة الدار ثلاثة من الرجال قد أخذوا بخناق رابع بينهم !

فمد العابد بصره فإذا ثلاثتهم من الجند وإذا صاحبه بالأمس يكاد يذوب بينهم فرقا .

فقال لصاحبه وقد هبت من شمائله روائح الكرم : « لقد نسيت عند انصرافك عنا أن تقرن هذين الشمعدانين إلى تلك الأوانى الفضية، وأنت تعلم أنك ربهما منذ الأمس، وما أنساك أن تذكرهما إلا شيطان العجلة ، فخذهما فلعلك أن تصيب من ثمنهما ما تصلح به من شأنك !» .

ثم التفت إلى الجند، وقال لهم: «لقد آذيتمونى فى ضيفى. إنه خير مما تظنون».

والتفت بعدها إلى صاحبه ، فقال له والبشر يجول فى محياه : « إذا شئت زيارتنا منذ اليوم ، فلا تجعل طريقك على البستان فإن لك لمندوحة عن احتمال مشاق الصعود والهبوط ، وهذا بابنا لا يغلق فى وجه الطارق ، وما هى إلا أن تدفع الباب حتى تكون فى وسط الدار » . ولما تم انصراف القوم ، قال له : « لقد جعلت لى عهد الله أن تنفق ما أخذت فى رياضة نفسك على البر والتقوى فلا تنكث مع الله عهدك » . فلبث الرجل مبهوتا عند سماع ذكريات ذلك العهد الذى لم يأخذ على نفسه القيام به فقال له العابد: « اعلم أننى اشتريت نفسك بعد أن سللتها من يد الهلاك ثم وهبتها الله فلا تكن عليها من المسرفين » .

وخرج الرجل من المدينة كمن يحاول الفرار ومضى على وجهه تقاذف به الطرقات وتهادى به الحقول ولا يشعر لفرط ما نزل به أكان يقبل أو يدبر ولا يعلم أنه كان يضرب فى قطعة من الأرض لا يتعداها .

* * *

وهكذا قضى سراة يومه فى أودية التيه والضلال ولم يشعر بألم الجوع وإن كان لم يذق طعاما ، فسار وهو يكاد ينشق غيظا ولا يعلم إلا الله على أى شىء قد أمسك هذا الغيظ فى نفسه ولعله سرى إليه من ندامته على ماضيه أو من خذلانه فى حاضره. وكأنه كان يحس برقة قد أدركت فواده وأخذت تقرض من أطراف غلظته فتضعضع ذلك الظلم الغابر وأيدها فيه هذا الجد العاثر. وجعل يتساءل فى كل آن ما عساه أن يحل محلها ويؤثر العودة إلى السجون على البقاء على تلك الحال التى لا يعلم مأتاها .

كان على عطفى طريقه سياج تطل منها زهور قد أخطاتها أيدى الجناة فجعلت تهيج فيه ذكرى الصبا كلما تنسم منها ذلك الأرج الفياح الذى لم يكن له عهد به منذ ابتدأت أيام محنته .

وقد بلغت من نفسه تك الذكرى ما لم يبلغه البؤس والشقاء وكذلك قضى يومه على غير استواء .

ولما كان الأصيل وقد رسمت الشمس على سطح الأرض ظلال الحصى كان جان فالجان مضطجعًا فى جوف خضراء ليس فيها سواه وقد مر برأسها طريق معبد ينتهى بمدينة (دينى) تلك التى لاقى فيها صنوف الشقاء .

وأنه يفكر فى أمره وفى تلك الأسمال التى كانت مثار النفور لكل من يراه إذ أحس بوقع أقدام ، فاستوى جالسا فإذا هو يرى سوادا مقبلا فتبينه فإذا هو غلام يعد من العمر اثنتى عشرة سنة وهو يحتقب جرة له ويحمل حيوانا صغيرا جعله وسيلة لرزقه ، وقد شهد ما كان عليه من الأطمار البالية بعراقته فى الفاقة ، وهو يغنى بصوت رخيم ، ويلاعب الجو بقطع من الفضة كانت مبلغ ثروته فى حياته .

فإنه ليلهو بقذفها فى الجو والتقاطها إذ هوت كبراها إلى الأرض وأخذت تجرى على رأسها إلى حيث كان جان فالجان مستترا عن نظر ذلك الغلام خلف تلك العوأسج .

فما هى إلا انتهت إليه حتى كان أسرع من السهم فى ممره إلى الأرض وضع قدمه عليها ليحجبها عن نظر ربها الذى كان يحرص عليها حرص الموت على النفوس، ويترسم أثرها بنظر يكاد ينهبها وهى تجرى على الأرض نهبا .

ولما علم بمقرها وثب إليه فإذا هو يرى عنده رجلا ، فلم يأخذه الروع ولم يعتره الدهش .

وكان الطريق إذ ذاك خاليا من المارة ولا يسمع فى هذا الجو الفسيح إلا قطقطة[١] سرب من القطا يسبح فى الجو على قيد مرمى السهم .

---

(١) صوت لطير القطا .

فوقف الغلام فى وجه الرجل وقد ألقى الشرق[1] فى شعر رأسه سلوكا ذهبية ونشر على سحنة ذلك الفاتك طبقة تعلوها حمرة النجيع[2] ، وقال له بصوت يمازجه ارتياح الغلمة وسكينة الأبرياء: أين قطعتى؟ فمد الرجل بصره إليه وقال: «من أنت ؟» قال : «أنا (فرجى) الصغير» .

فانتهره الرجل ونكس رأسه وتصامم عن سماع كلامه وأخذ الأول يلحف فى السؤال والثانى يبالغ فى السكوت حتى ضاق الغلام ذرعا وأهوى إلى ذلك الشيخ وأخذ بمجامع طوقه وجعل يعالج تحويل قدمه عن تلك القطعة الفضية .

فزمهر الرجل فى وجهه ، ومد يده ليتلمس عصاه ، فأثارت تلك الحركة نخوة الغلام فأغلظ فى القول حتى أحفظ[3] ذلك الشيخ فثار من مكانه وإهابه يكاد يتمزق غيظا وصاح به : أن لم تنج بنفسك فلا نجوت بها بعد اليوم ! ».

فارتاع الغلام لوعيد ذلك الفاتك وأطلق للريح ساقيه وجعل يعدو ولا يلوى على شىء حتى غاب سواده وقد غابت الشمس .

ولبث الرجل فى مكانه حتى سطت عليه غياهب الظلام وهو غائص فى لجج من الأفكار وكأنه كان ينظر إلى أصل شجرة كانت هناك وقد وقف نظره عليها ولم يتحول، ولولا قشعريرة سرت إلى جسمه من قرة ذلك المساء لما عاد إلى نفسه من غيبوبة هذا الفكر الطويل ولما أحس بوخز القر ، هم بالتحول عن هذا المكان فأصلح عليه أثوابه وانحنى ليأخذ عصاه ، فأخذ نظره تلك القطعة الفضية وقد كادت تسوخ فى الأرض فاحتوته الهزة وجعل يغمغم ويهذى وكأن أجفانه قد شدت إلى تلك القطعة بأهدابها وكأنما هى ترميه بنظرات تخترق أحشاءه .

ومرت عليه فترة وهو على تلك الحال ثم أخذ يغالب اضطرابه حتى ثاب إليه السكون فاندفع إلى الأمام وانقض عليها انقضاض القضاء .

---

(١) بمعنى الشمس .

(٢) بمعنى الدم .

(٣) أغضب .

ولما صارت فى يده أخذ يستقرئ بنظره ذلك الفضاء ويدور بعينه فى أرجائه وما شك من رآه وهو على تلك الحال فى أنه ضار من الوحش يلتمس مريضا يستكن فيه على أنه ما كان يرى فى تلك الأنحاء إلا ضبابا قد أعاره الشفق لونه الوردى وقد مد الظلام على الأرض رواقا يقصر فيه قاب العين .

فشرع فى السرى وقد لبس الدجى وتغلغل فى هذا الفضاء وطفق يهرول فى مشيته وركب تلك الطريق التى نجا منها ذلك الغلام المغبون وما هو إلا أن خطا فيها بعض الخطوات حتى وقف بغتة ورقع عقيرته ينادى باسم ذلك الغلام رجاء أن يسمعه فينقلب إليه ، وكان يتسمع فلا يسمع شيئا فما زال يعدو ويصيح وقد ابتلع هذا الظلام شخصه ومزق ذلك السكون صوته حتى يئس من لحاقه .

ولو كان الغلام حيث يسمع ذلك الصوت النكير لما سكن إلى إجابته ولضاعف من عدوه وبالغ فى اختفائه طلبا للنجاة من غائلته .

وإن اليأس لينهب فؤاده نهبا إذ بصر بشبح يخوض فى أحشاء هذا الليل البهيم، فداناه فإذا به رجل يحمل شارة الرهبان وقد امتطى جوادا ، فاستوقفه وسأله بلهفة الحائر « ألم تعثر فى طريقك أيها الراهب بغلام صغير ؟ » فقال : « كلا » قال الرجل : «إنى أنشد غلاما فقيرا وأحسبه يدعى فرجى» قال : «لم أر أحدا» فضرب الرجل بيده إلى جيبه وانتزع منه قطعتين من الفضة وقال للراهب : «خذ هاتين وأنفقهما فى سبيل الله وفى مواساة ذوى المتربة وإننى أدعوك بالله أن تقودنى إلى السجن فأنا بعض المجرمين» فما كادت تستأذن هذه الكلمات على سمع الراهب حتى همز جواده فمر به مرور الطيف وغادر ذلك البائس فى مكانه وهو كأنه بعض الأنصاب. فلم تكن إلا لحظة حتى استأنف السرى وطفق يعدو ويصيح كأنه خولط فى عقله وجعل كلما مر بجذع أو شجرة مثل له الوهم أنه يرى إنسانا جاثما أو واقفا فيعطف عليه عقله عطفة المستخبر عن ذلك الغلام .

كذلك كانت حاله حتى بلغ مكانا تلتقى عنده سبل ثلاث وقد درج القمر من حجر أمه . فجعل يدعو باسم الغلام وصوته يذهب فى هذا الفضاء وقد انقطع عن إجابته كل شىء حتى الصدى فعجز عن التماسك وانحلت عزائمه وقد ناء به كلكل الفضاء فسقط على حجر هناك وقال وهو مكب برأسه على ركبتيه : « أشهد أنى بائس » !

وجال الدمع فى عينين لم يسبح إنسانهما فيه منذ عشرين عاما ، وكأنه كان ينبع من ذلك القلب الذى صدعته الخطوب .

* * *

خرج هذا الرجل من عند العابد وقد علمنا ما كان من أمره وأنه لم يكن له من نفسه ما يحاسبه على عمله .

فما وجدت العظات إلى قلبه سبيلا ، ولا كان لتلك الأخلاق الفاضلة سلطان على أخلاقه ، ولا وصل ذلك القول الكريم إلى فؤاده ، ولا ظفرت حكمة العابد بعلاج تلك النفس التى نفرت من الهدى نفارها من طبائع الأبرار ، وتحصنت فى معقل من الضلال لا تبلغه العظة، ولا تعمل فيه الزواجر وكانت رنة تلك العظات لا تزال تفتق طبلتى أذنيه. فى نفسه منها ما يقع ، فيبالغ فى صدها ، وتبالغ فى كيده ، حتى أوشكت أن تأتى على قوة الشر فيه ، وتستل من قرارة نفسه ذلك الحقد الكمين .

وقد بدأ يشعر فى هذه المرة بأن صفح العابد عن زلته كان طليعة لكتائب المقادير التى خذل أمامها عناده ، وأنه ليجنى على نفسه إن هو أبى إلا الإصرار على ذلك العناد والحفاظ والتمسيك لذلك الحقد الذى وقره فى صدره على جنس البشر ، وقد وجب عليه أن يخرج من تلك الحرب إما قاهرا أو مقهورا ، تلك الحرب التى قامت بين نفسين اتخذت من تقوى الله جندها ونفس جعلت حزب الشيطان حزبها .

ولما تعذر عليه المخرج وضاق به الأمر ثار من مكانه وأخذ يسرى على ضوء ذلك النور الذى أوشك أن ينير سريرته . ويا ليت شعرى هل كانت تعاوده إذ ذاك ذكرى تلك الليلة التى قضاها فى مدينة (دينى) وهل كان يسمع صوت ذلك الهاتف السماوى الذى بات ينذره بعقباه ويوكل له الخيار بين خلتين: إما نزوع عن الغواية فسمو إلى مقام الأبرار، وإما استرسال فى الضلالة فهبوط إلى قرار الفجار، ويوضح له سبيل الحياة بين أمرين: إما سعادة ذلك العابد ، وإما بؤس خير منه بؤس المصفد فى قاع السجون وسبيله فى الأولى أن يحلل بحرارة التوبة ما علق بأجزاء نفسه من بقايا ذلك الشر فيصبح ملكا نقيا ، وفى الثانية أن يلونها بحمأة الغى والضلال فيمسى طريدا شقيا .

* * *

وهنا نفتح المجال لتلك الأسئلة التى عرضناها على القارئ منذ العهد القريب ولا زلنا نقول إن الخطوب تفتق الأذهان ولكنا لا نعلم علم اليقين أكان لها أثر حتى اليوم فى فؤاد ذلك الرجل ولعلها كانت تحضره حين اضطرابه فتزيده حيرة وخبالا .

فلقد أحدث فى نفسه صنع الجميل على أثر خروجه من السجن وقرب عهده بالشقاء ما يحدثه الضوء الباهر وقد قرع عينا حديثة العهد بحالك الظالم .

ولما تجلت له تلك الحياة الجديدة فى أعلى مجاليها وتراءى له آتيها يرفل فى ثياب البهجة والبهاء ، أزعجه ذلك المرأى فلم يستطع عليه صبرا وقد بهر نور الفضيلة ذلك البائس فرد منه الطرف وهو كليل .

وما كان جان فالجان اليوم هو ذلك الغصوب الذى سلب الغلام قطعته بالأمس وغلبه على أمره ولا هو بصاحب تلك الفعلة الشنعاء .

وإنما صاحبها هو ذلك الحيوان المفترس الذى دفعته الفطرة الوحشية إلى ارتكابها بينما كانت نفسه تسبح فى سماء الحياة الجديدة التى أكبرتها .

فلقد فعل بالغلام ما فعل مسوقا بقوة الشر التى مزجتها بأجزاء نفسه مخالطته للأشرار فى أيام سجنه ولا يدرى أغيا كان يفعل أم رشادا .

وحين أنست عينه بذلك النور وسكنت نفسه إلى صحبة التقى وردت إلى طبعها رد الحسام إلى قرابه علم أنه أتى عظيما وارتكب جسيما فكادت تتزايل أعضاؤه رهبة وتسيل نفسه جزعا .

وفعلت به تلك الصدمة فعلها ومزقت ذلك الغشاء الذى نسجته على بصيرته أيدى الخطوب ، وفصلت فى نفسه بين الحق والباطل فعلت بالأول وسفلت بالثانى كأنها ذلك الجوهر الكشاف الذى يلقى به فى المزيج ليباعد بين أجزائه فتراه وهو يطفو ببعضها ويرسب ببعضها الآخر .

وقبل أن يلم بما ألم به أو يدرك مأتى تلك الحال التى وصل إليها طفق يجرى خلف ذلك الغلام ليرد إليه ما سلبه إياه حتى إذا يئس من لحاقه وقف ينظر إلى ماضيه فأنكرت نفسه نفسه .

أنكرت نفسه الجديدة تلك النفس التى صحبته منذ عشرين عاما ، وشبه له أنه فى عالم الأحلام ، وأنه يرى أمامه طيفا يمثل له إنسانا قد نحست طلعته ولؤمت غريزته وخبثت طينته ، قد قبض بيده على عصا وحمل على ظهره حقيبة السلب وقد كتبت يد البؤس على جبينه ذلك الاسم الممقوت (جان فالجان) .

وخرج به هول ذلك الموقف عن حد الإدراك فرسخ فى نفسه أنه يرى ذلك الشبح رأى العين وأنه يرى أمامه (جان فالجان) فجعل يقارن بينه وبين ما يرى وكأنه ينظر فى مرآة قد رق ماؤها .

وإنه ليجرع كأس الغضاضة من يد تلك المقارنة إذ لمح ضوءا سرى فى جوف ذلك الليل ، فحسبه للوهلة الأولى ضوء مصباح ، ولكنه ما لبث أن رآه ينمو ويتشكل فى صورة البشر حتى كمل إنسانا سويا ثم أخذ يدانيه شيئا فشيئا حتى تبين فيه وجه ذلك العابد وما هو إلا نور الفضيلة قد تمثل فى صورة ذلك الرجل الكريم .

فجعل ينظر بعين بصيرته إلى هذين التمثالين القائمين أمامه ويقف بنظره على العابد تارة وعلى (جان فالجان) تارة أخرى .

وبدأ يتضاءل أمام عينيه تمثال ذلك الجانى حتى انمحى رسمه وبقى العابد وحده فى ذلك الهيكل النورانى فراع الرجل جلال ذلك الموقف وتزاحمت دموع الرهبة فى عينيه على الخروج .

فما زال ينتحب انتحاب الطفل ويبكى بكاء الثكلى حتى سطع من خلال دموعه فجر الحقيقة وبزغت على أثره تلك الحياة الجديدة التى لم يستمرئ لها لذة قبل اليوم، وتراءت له صحيفة أعماله وقد سجلت فيها مخازيه ، فجعل يقرأ فيها سطور ماضيه فنظر جريمته الأولى وعلى يمينها التوبة والاستغفار وتمثلت له غلظة قلبه وفظاظة طباعه وذلك الانتقام الذى أضمره للناس فى يوم تسريحه .

ثم رأى كل ما اقترفه على العابد وما جناه على الغلام كل أولئك كان عليه مسطورا ووجد ما عمل حاضرا ولا يظلم ربك أحدا .

فسرى وهو مأخوذ بهذا الوجدان الجديد ولا يدرى له وجهة حتى إذا أفجر[١] وعاد إلى رشده رأى نفسه راكعا على عتبة ذلك العابد .

* * *

ذكرنا فى المقدمة ما كان لفكرة ذلك المؤلف من سرعة الانتقال وقلنا إنه بينما نراه يسابح الأجرام فى أفلاكها إذ هو يدارج النمال فى مدبها .

وقد سرت عدوى ذلك الانتقال من فكره إلى يراعه . فإنى لأعانى من تعريب ذلك الكتاب ما أعانى ، إذا به قد انتقل طفرا من سرد تلك العظات ، إلى الخوض فى السياسية .

ولا بدع فقد كان حامله كثير التطلع إلى فلك السياسة دائب الرصد لأجرامه ، مسلسل العنان لجواديه : فكره ، ويراعه .

فما كاد يأتى على ذلك الفصل السابق حتى تدفق فى سرد حوادث سنة ١٨١٥ فملأ صحيفتين بأسماء لم يجر لها ذكر من قبل ولن يكون لها حديث من بعد . فرأينا أن نغفل ذكرها وأحببنا أن يكون الكتاب غفلا من تلك الأحاديث المبتورة التى لم يكن لها أثر فى غير ذهن واضعها ، وأن يكون القارئ ليخرج من قراءتها وما فى يده شىء منها ما لم يكن ملما بحوادث تلك السنة واقفا على تاريخ هذه الأمة ، ومن لنا يمثل ذلك القارئ الخبير .

---

(١) أفجر الرجل إذا أدركه الفجر .

الفصل الثانى

فانتين

ولدت تلك البائسة فى قرية (مونتراى سيرمير) ولا تعرف لها أما ولا أبا ولا من يمت إليها بحبل القرابة ، ولا يعرف الناس من أمرها أكثر من ذلك . فوردت سجل العناء وأنظرتها الخطوب حتى بلغت سن الطفل الدارج ، وأنها لتدرج ذات يوم فى الطريق وهى تنتعل أديم الأرض[١] إذ مر بها بعض السابلة[٢] وسماها (بفانتين) ومن ثم أصبحت تدعى بذلك الاسم الذى أصابها كما كان يصيب ذلك المطر المنهمل جبينها .

ولما بلغت العاشرة من عمرها - ولا أدرى كيف بلغتها - خرجت تطلب وجوه الرزق وتلتمس أسباب القوت فى ضواحى تلك القرية .

فما زالت تكدح فى طلب العيش حتى يفعت أو كادت تيفع ، فعافت نفسها البقاء على تلك الحال ، وساقها قائد الاضطرار إلى الانزعاج عن الوطن ، فشخصت إلى باريس ، وألقت نفسها فى معترك تلك الحياة الجديدة ، فما زالت تعمل لبطنها ، وهى تطرق أبواب الارتزاق حتى ظمأ فؤادها إلى نهلة من موارد الغرام .

وكانت على جمال تولت عفة النفس حراسته ، وقد غنيت ببهجتها عن بهجة الحلل، أمهرها الحسن بما لم تمهر به أترابها، أمهرها بالنفيسين : العسجد فى شعرها واللؤلؤ فى ثغرها .

---

(١) بلا حذاء .

(٢) عابر السبيل .

فما زالت تطوف على تلك الموارد ورائدها الفؤاد ، حتى وقف بها على منهل قد رق ماؤه ، فإذا بها ترى فيه وجه ذلك الإنسان الذى غلبها على قلبها ، فأرضعها أفاويق الآمال ، وأرشفها رضاب الأماني ، حتى أخذت عفتها تتسلل قطرة قطرة ، وحتى جلس منها ذلك الخبيث مجلس الرجل من أهله .

وكانت فى مبدأ أمرها ، حيث كان الغرام طفلا والعفاف فتيا ، تغالب كيد ذلك الهوى ويغالبها ، وتجهد جهدها فى الميل عن ذلك الساحر ، ولكنها ما كانت تميل عنه أصبعا إلا لتميل إليه ميلا .

كذلك كانت حالها حتى أصبح الحب وقد غلبها على أمرها وسقطت بين ذراعى ذلك الأثيم فافترشها ما شاء .

ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء إذا لم تحصن نفسها ، وغادرها وهى جفن سلاح[1].

وكان لها صواحب ثلاث ، ولذلك الغادر أصحاب ثلاثة ، وقد جمع اللهو بين هذين الفريقين وضرب عليهما بالقداح ، فخرجت لكل واحد من فريق الرجال واحدة من فريق النساء .

وكان الرجال فى بلاد مختلفة وقد هبطوا باريز فى أيام العطلة السنوية .

وما كان ينصرم أجل تلك العطلة حتى انصرم حبل الوداد ، واختفى أولئك الأربعة فى يوم واحد .

وانفرط على أثر اختفائهم عقد التئام الفريق الثانى ، فبقيت فانتين وحدها بلا أنيس غير ذلك الجنين الذى كانت تحمله فى أحشائها ، فانقطعت عن الناس وانزوت فى بيت الأحزان ، وجعلت تعانى من ألم الفراق ما تعانى .

---

(١) حبلى .

وزكا حب ذلك الغائب فى فؤادها . وخرجت ذات يوم تستكتب الناس له كتابا تدعوه إليها ، وأبطأ خبره عنها ، فشفعت كتابها بثان وعززته بثالث .

وما زالت تستكتب الناس وترتقب الجواب ، حتى احتواها اليأس وبلغ منها القنوط، فأقبلت على نفسها تلومها وباتت تحز الودج[١] أسفا على حالها ، ووضعت حملها فإذا هو طفلة فسمتها (كوزيت).

وأقامت ما شاء الله حتى نزلت بها الضائقة وحضرها العوز ونضبت موارد الرزق .

وكانت لها فضلة مما كانت تتعجل به فى أيام لهوها ، فما زالت تنفق منها وتأكل مما كانت تصيبه من ثمنها ، حتى أمست وليس فى يدها ما تستعين به على سد حاجتها .

وقد زهدتها أيام قرب الحبيب لتوفر أسباب العيش وعدم الحاجة إلى العمل ، ففتر ذلك النشاط الذى ولدته فيها الضرورة ووهى العزم وقنى الحزم .

وأصبحت ترى الأرض فى ناظرها وهى أضيق من كفة الحابل[٢] ، فعزمت على التحول من باريس والعودة إلى مسقط رأسها ، وقالت : لعلى أجد هناك ما أصون به أديم هذا الوجه من الأخلاق وأستعين به على تربية هذه اليتيمة .

ولما صحت عزيمتها على ذلك جمعت إليها ما بقى من حاجتها وباعت فوفت مطالب الغرماء وحفظت بعض الدراهم ثم احتملت طفلتها وخرجت تمشى وحفظت بعض الدراهم ثم احتملت طفلتها وخرجت تمشى على استحياء وهى كاسفة البال سيئة الحال وليس وراء ما بها من الهم غاية .

---

(١) الودج عرق فى العنق ينتفخ عند الغضب ، والمراد شدة الندم.

(٢) كفة الحابل حبالة الصائد .

وتنكر لها كل شيء فودت بجدع الأنف لو أن ظهر الأرض من الإنس أعرى من سراة الأديم[1] . فسارت ولو رآها أقرب الناس عهدا بها لغابت عنه معرفتها لفرط ما نزل بها من الهزال ، واخترم جسمها من السقم ، وإن تكانت لا تزال عليها مسحة من ذلك الجمال الغابر .

* * *

أخذت طريقها إلى بلدتها وجعلت كلما أخذ منها التعب تنتحى ناحية من الطريق ، وتجلس ريثما تنفس عنها كرب المسير وتغذو طفلتها .

ونزل بصدرها نازل من السعال دعته الرضاعة إلى النزول بذلك الصدر الضعيف، فضاعف من وصبها وزاد من ألمها .. وما زالت ترمى بها المرامى حتى وقف بها السير على نزل[2] حقير بقرية (منتفرمى) كان قائما على رأس طريق يدعى بطريق الخبازين أسس فى صدر القرن الرابع عشر وزالت معالمه اليوم .

وكان هذا النزل لذئب من ذئاب الإنس يدعى «تيناردييه» وكانت من تحته ذئبة هى أحدّ الذئاب وأضراها تدعى باسمه وهما يقطنان مع أولادهما فى ذلك النزل.

ولعل ذلك الذئب كان ممن شهدوا موقعة (واترلو) فقد يرى الناظر بأعلى ذلك لوحا كبيرا قد نقشت عليه هذه الكلمات : « هلموا إلى جندى واترلو » .

ورسمت بأسفل اللوح صورة رجل يحمل على ظهره رجلا آخر عليه شارة القواد تلمع على كتفيه النجوم ويشرق فى أثوابه الدم ، وهما تحت جو أشبه الأشياء بجو المواقع ، عقد الدخان فوقه سماء مكفهرة الأرجاء .

---

(١) سراة ا لأديم ، ظهر الجلد ، والغرض ألا يكون فى الأرض إنسان .

(٢) النزل : الفندق .

وقد طرحت أمام ذلك الباب عجلة عاتية من تلك العجلات التى كانت تستخدم فى ذلك العهد لحمل الأثقال وجلب الأشجار من الغابات ، وكأنها لم تطرح فى ذلك المكان إلا لتصدأ أو لتزحم الطريق ، أو لتجعلها تلك الذئبة الضارية أرجوحة لوليدتيها.

وقد ستر الوحل أخشاب تلك العجلة وكسا الصدأ حديدها ، فأقامت فى الطريق وهى كأنها بعض أولئك الرؤساء الدينيين الذين قاموا عثرة فى سبيل الشرائع الغابرة.

واتفق أن وقفت (فانتين) على ذلك النزل حين كانت تلك الذئبة تلاعب طفلتيها، وقد وضعتهما فى الأرجوحة، وهما كأنهما قمران فى طفاوة[1] أو زهرتان فى كمام.

وكانتا متعانقتين فى هزة ذلك المهاد ، وصغراهما بين ذراعى كبراهما ، وقد سلخت الكبرى منهما ثلاثين شهرا، وأوشكت الصغرى أن تهل العشرين .

وجلست أمامهما على كثب منهما تتشارفهما وتتغنى بشىء من الكلام المقفى. وأنها لتشدو كذلك إذ وقفت فانتين على رأسها وقالت : « لعلك أم هاتين الزهرتين ؟ ». فلم تحر جوابا ولم تلتفت ولعلها لم تسمع صوت تلك السائلة ، فقد استطرد بها جواب الطرب فى ميدان الغناء . فعاودت فانتين السؤال بصوت كان خليقا بالوصول إلى مسمع تلك المندفعة فى غنائها . فالتفتت إليها ، فإذا هى ترى فتاة قد أنصب بدنها السير وكدها الهم والضير ، ونال منها البؤس وبلغ منها الشقاء . وقد كاد يمسح الحزن ما كان على وجهها من مسحة ذلك الجمال ، وأوشك أن يذهب البكاء بما كان كامنا فى محاجرها من ذلك السحر الحلال. فانتقلت حمرة وجنيتها إلى عينيها ، وهاجر سواد لحظها إلى حظها ، وامتد اصفرار شعرها إلى لونها ، ودب سقم جفنها إلى صدرها ، وسرى تحول خصرها إلى جسمها ، والتقى فى مآقيها دمع الحزن بدمع الدلال ، واجتمع فى قدها ذلك الهيف وذاك الهزال .

---

(١) الطفاوة دائرة القمر وهالة نوره . والكمام جمع كمامة وهى غطاء الزهرة .

وقد أدمى إدمان وخز الإبر سبابتها أيام كانت تخيط لتعيش، وذهب الفقر بزينتها، فليس عليها من الثياب غير ما يحصنها من البرد ويقيها الحر .

* * *

تلك فانتين التى كانت تقف على جمالها العيون ، ولو أنها تبتسم اليوم، لرأى الناظر ذلك اللؤلؤ المنظوم فى ثغرها، ولكن الحزن والشقاء لم يدعا للابتسام سبيلا إلى ذلك الثغر الذى كان منطبقا على ثناياه انطباق المحارة على الجوهرة .

وكانت تحمل على ظهرها تلك الحقيبة التى أودعتها كل ما تملك وتحمل بين ذراعيها طفلة سانجة الطرف عبلة[١] الساق وضاءة الجبين . لها من صدر أمها مهاد، ومن ذراعها وساد ، أخذ الكرى بمعاقد أجفانها ، فنامت نوما هنيئا بين ذراعين قد صيغتا من الشفقة وصدر قد صور من الحنان.

فقالت لها ربة المنزل وقد رفقت فى القول : « نعم هما ريحانتاى » ثم دعتها إلى الجلوس بجانبها على عتبة الدار ، وأنشأت تحدثها عن نفسها وعن بعلها ، وجعلت تحاسنها فى القول وتلين لها فى الكلام ، ولم يكن ذلك اللين من شأنها ولا تلك الرقة من طباعها ولكن ربما وجدت الرحمة مسربا إلى تلك الأفئدة الغليظة عند ذكر صغارها.

وكانت تلك المرأة شقراء اللون جهمة الوجه وهى فوق الطويلة ودون البادنة يزدهيها شىء من الخلاعة ، ويشوب لسانها نوع من التزويق ، شأن أرباب الفنادق، ولا أحسبها فى ذلك العهد إلا وقد جاوزت حد الثلاثين .

ولو أنها انتصبت قائمة لراع (فانتين) طول قامتها ولذهب بارتياحها وسكونها إلى محادثتها ، ولا بدع فإنها لم تكن إلا حرث جندى وفراشى وحشى[٢].

---

(١) عبلة الساق مفتولتها .

(٢) أى كانت زوجة جندى أو زوجة رجل متوحش .

ولما فرغت من حديثها ، أخذت فانتين تنفض إليها جملة حالها ، غير أنها كتمتها أمرها ، وألقت فى روعها أنها أرمل قد مات عنها بعلها . وأن الحرفة التى كانت تزاولها قد كسد سوقها فى باريز فغادرتها وخرجت تضرب الأرض رجاء أن تصيب رزقا لها ولطفلتها ، وأنها قضت عامة يومها وهى تعانى تعب السير على قدميها ، وأن ابنتها قد أخذت من ذلك التعب بنصيبها .

وما كادت تأتى على ذلك الحديث حتى انحنت على طفلتها تقبلها وتضمها إليها ، فانتبهت الطفلة لحرارة تلك القبلة ، وجعلت تدور فى هذا الفضاء بعينين قد جال فى إنسانيهما الوقار وكمنت فيهما السكينة ، وقد نم نظرها عن سر تلك الفطرة السليمة التى لم يكن مثلها بجانب منا ندعوه فينا بالفضيلة إلا كمثل السماء صفا أديمها بجانب الشفق شابته الشوائب ، وما يدريك لعلها كان يقوم بنفسها فى هذه الفترة أنها ملك من الملائك يطل من سماء عصمته على أعمال هذا الورى .

وما هى إلا جولة فكر حتى تغيرت حالها وجعلت تبتسم ابتسام الظافر وهمت بالانزلاق من حجر أمها مدفوعة بتلك الإرادة التى لا يقف فى سبيلها شىء عند أولئك الأطفال، وقد حاولت أمها أن تحبسها عن مقصدها فما استطاعت لها ردا . ولما صارت على الأرض أخذت تدب حتى انتهت حيث الأرجوحة والوليدتان ، فوقفت تنظر ، وكأنها تعجب مما ترى ، وقامت الأم إلى بنتيها فأنزلتهما إلى الأرض ، وقالت لثلاثتهن: هيا العبن جميعا . وربطت السن بينهن عرى الائتلاف فطفقن يمرحن ويلعبن وينكتن فى الأرض نكتا .

وكانت تلك القادمة الجديدة أكثرهن مهارة وأبرعهن يداً فى حفر تلك النكت.

وجلست ربة المنزل إلى فانتين تحادثها وتحاسنها وما زالت بها حتى خلبتها ، وأنست منها الارتياح إلى سماع حديثها ، فأقبلت عليها بوجهها وجعلت تسائلها عن بنتها وهى تخبرها .

وبينما تتحادث الأمان فى ناحية ، وتلعب الصغار فى ناحية أخرى برزت إحدى بنات الأرض من خدرها وخرجت تسعى من بعض تلك النكت، فراع الصغار منظر تلك الحشرة وجزعن لرؤيتها جزعا شديدا وأشفقن منها وقد ضمهن الخوف إلى بعضهن فتقاربن حتى التصقت جباههن واستولى عليهن الدهش جميعا .

وحانت من ربة النزل التفاتة فلمحتهن على تلك الحال وقد تجمعن ، فظنت ذلك لداعية الانعطاف والميل ، فقالت : لفانتين وهى تحدثها « ألا تنظرين إلى هؤليات الأخوات الثلاث ؟ ».

فوصلت تلك الكلمة إلى فؤاد فانتين قبل سمعها فأمسكت بذراع صاحبتها وقالت لها : « لقد كدت تلمين بما كان يقوم بنفسى منذ رأيتك ، فإنى قد عولت على مغادرة ابنتى بهذا النزل، أفلا تكفلينها ؟ ».

فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم ، وأشارت برأسها إشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول .

فقالت فانتين : « ولا أحسبك إلا ستعجبين من أمرى ، ولكن الحاجة تدعونى إلى ذلك ، فقد استحال علىَّ أن أجمع بين السعى وراء العمل وبين اصطحاب تلك الطفلة فأنا غادية إلى التماس بعض وجوه الرزق وتاركة (كوزيت) بين ذراعى أمها الجديدة وباعثة لك فى كل شهر بما يقوم بنفقتها ، وآخذة على نفسى القيام بدفع اثنى عشر درهما فى كل شهر لكفالتها فانظرى ماذا تأمرين » .

وما هى إلا أن انتهت من ذلك الحديث حتى سمعت فى صحن تلك الدار صوتا شبيها بصوت انفجار البارود وقائلا يقول لها : « أولى لك أيتها القادمة أن تدفعى أربعة عشر درهما ، وقد استحال غير ذلك » !

فقالت فانتين : « كذا فليكن » ، ثم نظرت إلى صاحبتها نظرة المستخبر عن صاحب ذلك الصوت ، فألمت تلك الذئبة بمقصدها ، فقالت : « إنه صوت زوجى وهو رب

النزل وصاحب الأمر والنهى فيه، فلا تجعلى له سبيلا إلى رفض ما تطلبين مهما اشتط فى الطلب وكلفك ذلك من المئونة » .

وقال الذى هى فى داره : « لن تقبل الكفالة ، أو تعجلى بدفع نفقة ستة أهلة ، وتتركى عندها من الثياب ما يدفع عنها البرد والحر » ، ثم لبث غير بعيد وخرج إليها باسطا يده فنقدته الدراهم وقضت عندهم سواد الليل .

ولما كان الفجر قامت فانتين فودعت طفلتها وخلفت تلك الحمامة فى وكر الصقور. وسارت ومدامعها تسابق خطواتها .

* * *

وما كادت تغادر ذلك النزل حتى غادرته الرحمة على أثرها وأصبحت (كوزيت) بين زوجين لو قسم ما فى فؤاديهما من الغلظة على أفئدة البشر لما وجدت الرحمة إلى القلوب سبيلا .

وقالت المرأة لزوجها : « ما لنا ولتلك القنبرة (وكذلك كانوا يدعونها) نغذوها ولا تعمل ؟ وإنى لأرى لديها من الثياب ما يقوم ثمنه بوفاء بعض ما أثقل كاهلنا من الديون ، فإن رأيت أن نجمع تلك الثياب ونبيعها ! » .

فقال الرجل : « ومن الرأى أن تعجلى ببيعها اليوم ، فإن غدا لموعد المقاضاة وليس فى أيدينا ما يسد مطالب الغرماء » .

وطلعت شمس الغد على تلك اليتيمة بالبؤس والشقاء فلبست ثياب الذل، وطرحت رداء الدل ، وكانت كلما شبت يوما شب معها البؤس عاما ، حتى أصبح الثرى مهادها والمدر وسادها ، وتبدلت من حضن أمها حضن التراب ومن لين ذراعها خشونة الجماد .

أين عين فانتين ترى ذلك الطمر[1] الذى تضل الإبر سبيلها فى شقوقه، وينتهى العد دون خروقه ، تضحى[2] فيه وتخصر[3] وتنطوى تحته وتنشر ، تبكر بكور الغراب إلى كنس الدار والفناء ، وتنطلق ، والصبح والليل خيطان ، إلى حمل الماء ، تنطلق إلى النهر والنهر بعيد ، وتستقبل القر والقر شديد ، وتقطع الطريق وهى طويلة ، وتحمل الجرة وهى ثقيلة ؟

أين عين فانتين ترى تلك اليتيمة وهى تحت الخوان تؤاكل الجرو والهرة ، وتلقف الكسرة بعد الكسرة ، وطعامها دون الهر وفوق الكلب (والهر ينتقى ما طاب ، والكلب يلتهم كل ما أصاب).

ولم تزل تلك القنبرة رهينة الألم والعذاب ، يعدون أنفاسها ، فإذا تنفست قالوا لها : « لقد أفسدت علينا الهواء » ويرقبون حركاتها ، فإذا تحركت قالوا لها : « لقد كدرت علينا صفو السكون » حتى ضؤل جسمها واضمحل رسمها .

ولؤم صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة من أمها ، فما زال يطلب المزيد حتى كلفه ذلك فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ، فكانت تعمل عامة اليوم ، وتجعل ما تصيبه من الأجر لتلك النفقة الفادحة .

وكأن الخبيث قد ألم بباطن الأمر ، فقال لامرأته ذات يوم : « إنى لأعلم من أمر فانتين ما لا تعلمين ، إن هى إلا بغىٌّ قد غلبت على أمرها وما جاءتها تلك الطفلة إلا من طريق السفاح .

---

(١) الثوب البالى .

(٢) يصيبها حر الضحى .

(٣) يصيبها البرد .

ولا أرى شيئا هو أصلح لحالنا من انتهاز هذه النهزة والتماس الزيادة فى النفقة لعلنا نصيب من وراء ذلك ما نوفى به الديون ، وإنى ليعرض لى أن فانتين لا ترى بدا من الإجابة رجاء أن يختفى أمرها ولا أحسبها إلا ستخضع خضوع المضطر !».

وسقطت الكتب على فانتين سقوط القضاء ، وكلها فى طلب الزيادة فى النفقة ووصف ذلك النعيم التى ترتع فيه طفلتها ، وكانوا كلما أفرطوا عليها فى العذاب بعثوا لأمها بما يسكن من نفسها حتى أرسلت لهم قوتا وكل ما تصل يدها إليه ، فصلح شأن أصحاب النزل ووفوا الديون وأصبحوا ببركة وجود (كوزيت) وكدح تلك الأرملة وهم فى سعة من الحال وبشاشة من العيش .

وما كان خبث نفسيهما وحده كافلا للسعادة فإن النزل قبل حلول (كوزيت) لم يكن شيئا مذكورا فحلت بحلولها البركة وبسم لهم ثغر الزمان.

ولبثت عندهم كوزيت ثلاث سنين تعانى من ألم الشقاء ما تعانى وهم يمرحون من وراء عذابها فى بحبوحة النعيم .

ولو قدمت فانتين بعد مرور تلك السنوات لتفقد حال طفلتها لأنكرت رؤيتها ، ولغابت عنها معرفتها لفرط ما نزل بها من البؤس وما نابها من الشقاء.

وكانوا يتحدثون فى تلك القرية بأمرها فيقولون إن أصحاب النزل على ما هم فيه من الكفاف وخشونة العيش يغشون طفلة لقيطة ويربونها احتسابا ، فنعم العمل ونعم الأجر والثواب .

وبعد أن غادرت فانتين طفلتها بذلك النزل كما قدمنا ركبت طريق قريتها التى ولدت فيها حتى إذا أشرفت عليها بعد الجهد والعناء نظرت فإذا القرية على غير ما تعهد ، تسيل بها أودية الرخاء ويبسم ثغر السعادة.

وقد قامت فيها المصانع وشيدت دور التجارة ، وأصبحت حركة الأشغال ، لدوام اتصالها وسرعة انتقالها ، وهى أشبه شىء بحركة الأرض . وكانت قد هجرتها منذ اثنتى عشرة سنة ، ولما عادت وأبصرت ما هى فيه من رخاء العيش وبشاشة الحال قالت فى نفسها : « لقد كانت سعادة هذا البلد بمقدار شقائى. فإنى ما كنت أهبط دركا فى مهاوى الشقاء حتى كان يعلو درجة فى مراقى الهناء ».

ولقد صدقت فانتين فى حديثها لنفسها فإن هذا البلد قد أدر الله لأهله أخلاف الرزق ، ودخلت فيه السعادة بدخول رجل هبطه عند انطواء أجل سنة ١٨١٥ تحت جنح من الدجى ، فكتم الليل أمره .

وشبت نار فى إحدى الدور عند قدوم ذلك الغريب ، فهب الناس لإطفائها . فاندس الرجل فى غمارهم وغامر بنفسه فى النار ، وكان أول المتوقعين عليها ، حتى استل من فمها طفلين أوشكا أن يبيتا رزقا لها وكانا لكبير الشرطة ، فأكبروا فعله ، وملأوا أذنيه حمدا وثناء ، ولم يسألوه عن إجازة المرور ، ولم تمر بهم خلجات من الشك فى أمره وإن كان غريبا .

وبقى مادلين(١) – وكذلك سمى نفسه – فى تلك القرية واتخذها وطنا له ، ولا يعلم أهلها من أمره غير ما كان يلوح على محياه من سيما الخير والصلاح . وكان قد وقف على أبواب الخمسين من عمره وأصبح كثير الإطراق كلفا بالعزلة ولم يكن يملك يوم هبط القرية غير دراهم معدودة ، فدخل فى مصنع للتجارة كان قائما هناك وأحسبه دخل فيه أجيرا ، فأقبلت دنياه – وناهيك إذا أقبلت – حتى أصبحت فضته ذهبا وأمسى تراب عمله تبراً .

ولم تكن إلا دورة من دورات الفلك حتى أصبح ربا لذلك المصنع . فأثرى الرجل إثراء يكاد يدفعه العقل لو لم يقع تحت العيان ، فأقام للأجراء دارا ، وشاد للأجيرات

---

(١) مادلين هو جان فالجان بطل الرواية .

أخرى ، وأجرى عليهما الأرزاق ، وفرش الحجرات بفاخر الأثاث ، وكان لا يدخل فى عمله غير الصالح من الرجال والصالحة من النساء . فاستقامت له الأمور وتقلبت به أحوال جميلة حتى أصبح ذا وفر كبير . فكانوا يقدرون ما أودع فى خزائن المصارف بخمسة وعشرين ألف قطعة ذهبية .

وما آلت إليه تلك الوفرة حتى أنفق مثيلها فى صالح الأعمال ومواساة البؤساء. وشاد فى القرية مدرسة للذكور وأخرى للإناث ، وأجرى عليهما الرواتب ، ووسع فى نطاق دار المرضى ، وكان لا ينهر سائلا ولا يرد عاملا .. فاختفى من تلك القرية أثر الشقاء ، فكنت إذا غشيت دارا رأيت من بها فى هناء ، وإذا طرقت حانوتا وجدت صاحبها فى رخاء .

كل ذلك كان بفضل الانكماش فى الأعمال ، وبركة الكسب من الحلال وما بلغ (مادلين) ذلك المبلغ الذى ترى إلا بطرح الأثر ومصارعة الجشع ...

ولقد بلغ به من حب الخير أن أقام ملجأ للعجزة وللمعدمين الذين أمسوا من سقط المتاع (ولا عهد لبلاد الفرنسيس قبل ذلك اليوم لمثله) . وجعل فى مصنعه خزينة لمساعدة عماله الذين أقعدهم الكبر وقطعتهم العاهة.

ولم يزل نجمه فى سعود ، وهمته فى صعود ، حتى نبه ذكره ، وعم خيره ونمى خبره إلى بيت الملك .

فارتاح الملك إلى سماع ما أنهوه إليه من أمره ، ورأى أن يجعل له ثوابا على ذلك العمل المبرور ، فأمر بإقامته شيخا على ذلك البلد .

ولما بلغته إرادة الملك بالغ فى الضراعة بالتماس الإقالة ، حتى أقالوه ، فعجب الناس من أمره ، فمنهم من أخذها عليه ، ومنهم من عدها له ، فقال قوم إنه النزق، وقال آخرون إنها القناعة .

وجرت حركات الدهر فوق تلك الحركة التجارية حتى اتسعت هالتها ، فجدد الملك إرادته بإقامة «مادلين» شيخا لبلده ، وجدد مادلين طلب الإعفاء . !.

كل ذلك والرجل تزداد نباهة ذكره ، ويسمو علو قدره ، حتى حيته العظماء ودعته الأندية العالية ، وحتى مشى إليه الكبير والصغير بالرجوع إلى الخضوع لتلك الإرادة، فأكره على ذلك المنصب إكراها .

وكان بعض سقاط القوم يبسطون فيه الألسن ، ولا يحفظون له غيبا ، فقالوا حينما رأوه يجمع فى أول أمره الأموال إنه تاجر يطلب الإثراء.

وقالوا حين رأوه يستثمر ما جمعه إن به لجشعا ، وزعموا حين بدت لهم منه كراهة الترف والظهور أنه لا يألف النعيم ولا يعرف قدر السعادة.

وحكموا حين بدا لهم منه رفض الدنيا أنه مائق يجمل به الفقر ولا يليق بوجهه الغنى .

* * *

ولبث «مادلين» فى يومه مثله فى أمسه لم يغير المنصب من نفسه ولم يلهه الاشتغال به عن الاشتغال بما هو فيه ، فبقى على عهدنا به من مداومة الإطراق ، وحب العزلة عن الناس .

فإذا رأيته رأيت شيخا آذن ليل شعره بالرحيل ، وقد لوحته الشمس ، وجال فى عينيه الوقار ، ولاحت عليه سحنة الفلاسفة .

وكان يجلس للنظر فى أمور الناس، فإذا فرغ من ذلك انكفأ إلى حجرته فقضى ليانته من مأكله ومشربه وانكب على مطالعة الكتب . وقد رأى أن يعوض ما فاته من تحصيل العلوم فى أيام صباه ، فعكف على الدرس فى أيام شيخوخته وإن كان الفقر قد منعه فى أوليات عمره من مزاولة التعلم ، فقد ساعده الغنى فى أخرياته على تناوله، ورأى من الكتب صدرا حليما ، وودا مقيما ، فسكن إلى صحبتها وارتاح إلى عشرتها .

وكان ينطلق إذا شمر النهار إلى المزارع والغابات ومعه آلة صيد قد اتقى الله فى استعمالها ، فما هاج بها غرابا ساقطا ولا غال طائرا لاقطا ، ولكنه كان يحملها لرد الغوائل ، فيصحبها فى وقت أمنه لتؤمنه فى وقت خوفه .

وكان مع ذلك ماهرا في التسديد ، حاذقا فى التصويب يصوت على الشيء ويرمي ، فيضع الرمية من الهدف حيث يشاء .

وهو فتي القوة ، قوى الساعد ، يرفع الجواد على كاهله ، ويمسك بذنب الفرس، ويخلد به إلى الأرض فيتحلحل إذا كان قويا ، ويقعى إذا كان ضعيفا ، ويستقبل الثور الهائج فيأخذه بقرنيه .

وهو على ما فيه من القوة والبأس ، رقيق القلب يجد من الألم لغيره ما يجده لنفسه، فما مرت به جنازة إلا وكان أول المشيعين لها ، ولا امتحن إنسان بمكروه إلا وكان أول المعزين له . وتراه عند انطلاقه إلى الجنائز يختلط بجماعة القسيسين فينوح نوحهم ، ويرتل ترتيلهم ، وكان نفسه تسبح فى غير هذا العالم وعينه تشخص لغير ما يدركه الحس ، وكأن أسلاكا من الإلهام الإلهى قد امتدت بين أذنيه وبين أسرار ذلك الأبد ، فجعل يلقى بسمعه إلى تلك الأصوات التى باتت تشدو بحزن على حفافى هاوية الفناء .

وكم من يد له على الفقراء وصنيعة مع البؤساء يغشى دورهم وهم غير شاهدين ، فيلقى لهم بالنقود تحت الوسائد وفوق الفراش ، ثم ينسل تحت الليل كراهة أن يرى، كأنه يرتكب إثما أو يعالج اختلاس شيء.

ويعود رب الدار ، فيرى فيها أثر (مادلين) فيظن اللصوص قد ارتقبوا غيبته فجاسوا خلال داره ، فلا يزال يتفقد حاله حتى يعثر بتلك النقود فيأخذها وهو يقول لقد أرادوا سلب نعمتى ولكن أبى الله إلا أن أسلبهم مالهم ، وما ذاك إلا لأمر نزل بهم فأذهلهم عنه .

وكذلك كان يجيء بالحسنة وقد كفى الفقير مئونة السؤال ووفر عليه غضاضة ذلك الموقف .. ولا تسل عند اللقاء عن طلاقة وجهه التى كانت تستتر تحتها هموم صدره وعن محاسنته للمعدمين . فهو كما يصفونه غنى لم يخرج به الغنى عن حد التواضع، وسعيد لم تقف به السعادة على التبسط والانشراح.

* * *

وفى أوائل سنة ١٨٢١ أجاب عابد (دينى) دعوة ربه وقد نيف على الثمانين من عمره، فنعته الصحف وطار خبر نعيه حتى وقع فى مسامع مادلين ، فوجد عليه وجدا شديدا وظهر من غده ، وعليه شارة الحداد . فتساءل الناس عن نبئه ومشى بعضهم إلى بعض وجعلوا يقولون لقد كنا فى ليل من الشك فى أمر هذا الرجل ، حتى أضاء لنا حسبه الوضاح ، فما هو إلا من تلك الأسرة الشريفة ، ولا ريب أن نسبه يتصل بذلك العابد التقى .

وأقاموا على ذلك اليقين أياما حتى تعرض له بعضهم بالسؤال فقال وقد أخذ عليه طريقه : « إنى أراك تحمل شارة الحداد منذ نعى الناعى عابد مدينة (دينى) فهل أنت ممن يمت إليه بحبل القرابة ؟».

فقال (مادلين) وقد كان ينطق الحزن فى أحشائه : « كلا، وإنما كنت فى أول أمرى خادما عنده !».

وكان العابد قبل موته قد كف بصره ، فلبث كذلك بضع سنين لا يجد ألما لفقدان نور البصر وقد بقى له نور البصيرة وبقيت أخته بجانبه لا تنحرف عن سراط طاعته، ولا تنفك عن ملازمته . فهى لا تريم عن مخدعه ، إلا لإمضاء أمره أو قضاء حاجته. وكانت تحرص على رضاه حرص المرء على حدقة عينه ، حتى رأى أنه قد استعاض عن عينه بعين ذلك القلب الذى بات لا يغفل عن رعايته .

ولبث ذلك البصير أميراً لدولة القلوب ، وكان يقول فى نفسه : لو تم الكمال لشىء فى هذه الحياة الدنيا ، لأوشك أمرى أن يتم كماله ، فإنى أرانى لا ينقصنى شىء من السعادة .

اللهم إنك إن كنت قد استرجعت منى هبة النظر ، فقد جعلت أفئدة من الناس تأوى إلىّ اللهم إن من آوت إليه الأفئدة ، كان خليقا أن يصبح حامدا ويمسى مشكورا.

وكذلك كان أمره فى أواخر أيامه ، وأخته لا تزال بجانبه يشاهدها قلبه ، وإن لم ترها عينه ، وتتحسس روحه روحها فى ظلمة هذه الدار الفانية حتى تعثر بها فتنجاب للقائهما تلك الظلمة ويبدو كوكب الصفاء.

نعم كذلك كان أمره حتى انتقل من نعيم دنياه إلى نعيم أخراه ، وبلغ خبر منعاه (مادلين) كما ذكرنا فوجد عليه موجدته ، وأقام على حزنه حتى انصرمت أيام الحداد.

* * *

وما زال الزمن يحلل من حقد مبغضيه ويستل الوساوس من صدورهم ، حتى أصبح وليس فى القرية من يرتاب فى أمره ، فسكنت إليه النفوس النافرة ، وعطفت عليه القلوب الصوادف ، وبات موضع الحاجة ، ومحل الأمل ، ومهبط الثقة ينتجعه المضطر ، ويستعدى به المظلوم على الظالم ، ويفد إليه المتخاصمان من الأطراف للمقاضاة فيصل بين المتقاطعين ، ويوفق بين المتدابرين ، ويحكم بالتوفيق ، فلا ينحرف عن الحق كأن قانون الطبيعة البشرية قد طبع فى نفسه ، فطالعه ضميره وانطلق به لسانه .

عطفت عليه القلوب الصوادف إلا قلبا واحدا كان يبالغ فى الميل عنه كلما بالغت قلوب الناس فى الميل إليه .

وكان هذا القلب فى صدر رجل من كبار الشرطة قد هبط تلك القرية منذ العهد القريب فشهد (مادلين) وهو فى مبتسم زمانه وعز سلطانه وقد استقر فى الذروة من الجاه وبلغ الغاية من الغنى فكان كلما مر به أحس بدبيب الكراهة فى نفسه بصورة قد أعجزه إدراك مأتاها .

ولا عجب فإن لبعض النفوس إشرافا على خافيات الأمور يولد فيها من الشعور الحقيقى ما تنبسط له مرة وتنقبض أخرى .

وهو كذلك الشعور الذى يقع أحيانا فى نفوس البشر فيحدث فيها عاطفة الميل أو النفور عند النظرة الأولى ، ويقف فيها موقف المستبد لا يخضع لسلطان العقل ، ولا يجيب نداء الضمير ، فيقاطع بينها ويباين بين طبائعها ويوحى إليها عند اللقاء ، فترى النفس التى ركبت فيها طبائع الكلب تركب نفرتها عند رؤية كل نفس قد ركزت فيها طبائع الهر.

أقول ذلك ولو كانت نفوسنا مما يقع تحت الحس لرأيت كل واحدة منها ممسكة بذراع أختها من نفوس تلك العجماوات .

ولعلمت أن لكل إنسان حيوانا يمثل طباعه ويكيف أطواره ولأدركت أن هذه الوحوش وتلك الأطيار لم تكن إلا تماثيل أعمالنا فمنها ما يمثل الفضيلة ومنها ما يمثل الرذيلة ، وهى وإن لم تدركها الأبصار قد علمت بوجودها النفوس إلهاما من الخالق الذى جعلها لها تذكرة واعتبارا .

أما الآن وقد سلمت معنا أيها القارئ أن لكل إنسان حيوانا يمثل طباعه ، فقد سهل علينا أن تمثل لك نفس ذلك الرجل الشرطى وأعنى به (جافير).

زعم بعضـهم أن الكلب إذا وقع على الذئبـة أولدها وأن الذئبـة تخـشى إن هى انتظـرته حتى يشب أن يعطف على صغارها فيغتالها فلذلك تنحى عليه وهو صغير.. فلو أننا جئنا بذلك الجرو ، وأسكناه فى هيكل بشرى لتبين فيـه القارئ شـخص (جافير).

ذلك هو الرجل الذى ما فتئ يتعقب (مادلين) ويسير على أثره مسير القضاء فى حجب الغيب ، فهو إذا لمحه ماشيا كاد بصره ينهب مواقع أقدامه ، وإذا سمعه محدثا كاد سمعه يختطف ألفاظه قبل أن تبرح فاه ، وكلما وقع تحت بصره قال فى نفسه : ترى أين نظرت هذا الرجل ؟.. وجعل يطالب الذاكرة كمن يحاول تذكار شىء درج فى أثناء النسيـان ، وينتهى بقوله : لن يغلبنى هذا الرجل على أمرى وإن بالغ فى إخفـاء أمره ..

وكان (جافير) مقيما بتلك القرية كبيرا لجماعة الجواسيس من الشرطة ، والشرطة كما تعلم قوم يعرفون بسيماهم تلوح بمعاطفهم مخائل السلطة ، وتهب من أردانهم ريح الخساسة وكذلك كان جافير ولكنه لم يكن خسيسا .

وكان مـولده بسجن النساء حيث كـانت أمه سـجينة ، وهى من هؤليات النسوة اللاتى يحترفن باستطلاع الحظوظ من أوراق اللعب ، وكان أبوه سجينا بسجن الرجال . فشب ابن السجينين فى حجر البؤس والشقاء ، ولما بلغ أشده نظر فرأى بينه وبين ذلك المجتمع الإنسانى سدا قد استحال عليه أن يجاوزه . وعلم أن هذا المجتمع لا ينبذ وراء ذلك السد إلا أحد رجلين : رجل ناصبه العداوة فعمل على كيده ، ورجل منحه الوداد فعمل لمناصحته .

وقد وجب أن يكون جافير أحد هذين الرجلين فشمست نفسه عن الأول ، وسكنت إلى الثانى ، فانتظم فى سلك رجال الشرطة وأخلص فى العمل وحرص على الطاعة حتى عهد إليه بأمر التفتيش ، وأصبح كبيرا لفرقة من الجواسيس .

وكان يمقت الأشرار مقتا شديدا ويتفانى فى الإيقاع بهم ، وإن كان هو من سلالتهم .

وقبل أن يسترسل بنا القلم فى تصوير خلق ذلك الرجل فقد رأينا أن نصور للقارئ خلقه فنقول :

كان جافير ذا سحنة خاصة به ، وكان له لحية قد أغرى الموسى ببعضها وحرص على استبقاء بعضها ، فأخصب عاليها وأجدب سافلها واستهلت ذراها عند العارضين، واكتثت أصولها عند العنفقة[١] وكان أفطس الأنف غائر المنخارين يخال الناظر إلى غئور منخريه وبروز شعر لحيته أنه يرى كهفين قد أقاما بين غابتين ، وكان إذا تبسم وقل أن يقع منه ذلك أراك ثغره أصول أنيابه ، فهو إذا ضحك فنمر ، وإذا غت[٢] من ضحكه فعقور اتخذت العبوسة مسكنا لها بين عينيه ، وأطلت النفرة من محاجره ، وستر شعر رأسه جبينه وحاجبيه .

* * *

ذاك خلق الرجل نصوره للقارئ وأما خلقه فقد كان قائما على خلتين كريمتين ، احترام السلطة الحاكمة ، ومقت المستخفين بها .

غير أن المغالاة فيهما قد خرجت به عن حد الاعتدال فأنكر الناس منه ذلك .

فكان يرى أن كل ما يقع من جرائم القتل والسلب داخل فى باب الاستخفاف بتلك السلطة ، ويسترسل فى الثقة بكل عامل فى الحكومة وزيرا كان أو حاجبا .

وينظر بعين النفور والبغضاء لكل من ولج باب المخالفة . وهو لم يقع منه ذلك الأمر فى حياته .

---

(١) شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .

(٢) غت الضحك أخفاه .

ويقول وهو يعتقد ما يقول إن القضاة بهم عصمة عن الزلل فهم لا يخطئون ، وأن رجال الحكومة لهم إشراف على الأمور فهم لا يخدعون . ويزعم أن التوبة لا تغسل الحوبة ، وأن المرء إذا أجرم مرة عاش دهره مجرما لا تنفعه الإنابة ولا يلوى بجريمته العقاب .

كذلك كان يبالغ فى الخلتين ولا يستثنى أحدا فى الحالتين وهو مع ما ذكرنا عنه وقور صبور كثير التفكير خاشع القلب عالى النفس مهيب فى العين قد أرصد حياته لشيئين لا ثالث لهما : السهر ، والمراقبة .

وكان يعمل على كمال اليقين من انتفاع الناس بعمله ويراقب الله فى ذلك العمل، ولا ينحرف شعرة عن أوامر الدين ونواهيه ، هو في حرفته كالراهب فى عبادته .

والويل ثم الويل لمن وقع فى مخالبه ولو كان من ذوى قرابته ، فإنه ليرد أباه فى السجن إذا قبض عليه وهو فار ، وليعارض فى رجوع أمه إلى بلدها إلا بعد انقضاء سجنها .

وإنه ليفعل ذلك وهو أروح ما يكون نفسا وأهدأ ما يكون ضميرا ظنا منه أنه إنما يرضى بذلك شريعة الأرض ولا يسخط شريعة السماء .

وكان عيشه بين التقشف والعزلة عن الناس فما صادفه إنسان مرة متراوضًا ، ولا لمح عليه أثر الترف والنعيم ، كأنه لم يخلق لغير الكد والعناء بين المراقبة والاختفاء.

وكنت إذا رأيته فى حين تجسسه رأيت رجلا قد غاب جبينه تحت قلنسوته ، واستترت عيناه تحت حاجبيه ، واختفت يداه تحت كميه ، وانزوت عصاه تحت ردائه ، حتى إذا عن له صياد أو سنحت له فرصة انتفض فظهر لك ما اختفى من أمره كأنما خرج من كمين أو وثب من ظلمة إلى نور .

قلنا إنه لا عيب فى ذلك الرجل غير تلك المغالاة ، فهو يغالى حتى فى معاملته لنفسه. اللهم إلا ساعات معدودة من أيام حياته ، كان يرى فيها نفسه راضية عن نفسه فيهون عليها بعض الشيء من تلك المعاملة .

وآية رضاه عنها أن يعمد إلى لفيفة من الطباق[١] فيشعلها وكان ذلك مبلغ ارتياحه لنفسه وغاية رضاه عن مغبة عمله .

ذلكم (جافير) ومن ذا الذى ينكر خطر (جافير) ؟ هو حرب المجرمين ، وفخ الهاربين ، وفضيحة المختفين ، إذا لفظ اسمه أمام أشد العتاة انقلب على عقبيه مذعورا ، وإذا لاح شبحه أمام أحد الفارين تقيد فى مكانه بقيد من الرهبة.

فويل لك يا (مادلين) من هذه العين التى تترسم أثرك ، وتلك الأذن التى تتسقط خبرك، ولا أحسبك إلا واجداً فى نفسك ما يجده لك ذلك الرجل فى نفسه .

فأنت بالذى فى قلبك عالم بما فى قلبه، وإن كنت قد تحفظت ما شئت ، وصابرت ما استطعت ، وتكلفت السكون عند لقائه وتحاميت طريق صحبته وجفائه ، وزكنت منه على مثل ما زكن منك ، وسألت ضميرك عنه بمقدار ما سأل ضميره عنك .

ولبثت تلك الحرب الخفية قائمة بين هاتين النفسين وكلما فتح جافير بابا من الدهاء أبطله عليه مادلين بقوة الصبر والجلد حتى تزعزعت عزيمة الأول ولزم بيته ثلاثة أيام، وكاد يأكل مقراض اليأس خيوط آماله ، وأوشك أن يعتقد بحلول الفشل فى مساعيه وأعماله .

واتفق ذات يوم أن خرج أحد سائقى العجلات ومعه عجلة يجرها جواد ، فانطلق بها فى طريق كثير الوحل، فغارت فيه قوائم الجواد وأكب لوجهه ، وسقطت فوقه

---

(١) المعروف الآن بالدخان أو التنباك .

العجلة، فبترت عظم ساقيه ، وانقلب السائق تحتها فاستقرت فوق صدره فجعل يستغيث ويستنجد وهو مشفق أن يبتلعه الوحل . فهب الناس لجهة الصوت ووقفوا ينظرون إليه ، ولا يقدم أحد على الأخذ بيده .

وأقبل (مادلين) مهرولا فنظر الرجل تحت العجلة يسوخ فى الطين شيئا فشيئا، وهو كلما اضطرب طلبا للخلاص كان اضطرابه مساعدا على وأده فى الطين حيا ، فأشار إليه مادلين بالسكون ثم التفت إلى الجماعة وقال : أيكم قوى العضل جليد القلب يدخل تحت تلك العجلة فيرفعها بظهره وأجره على ذلك خمسة ذهبا ؟ فوجم القوم جميعا، فقال مادلين : إنى أرى الوقت ضيقا وأرى أجل هذا الرجل أضيق منه فلا تخنسوا عن مساعدته ولمن يفعل ذلك منكم عشرة ذهبا وإن أبى إلا المزيد فعشرون.

وما كاد يأتى على تلك الكلمة حتى سمع من ورائه رجلا يقول : « إن القوم لا تنقصهم الإرادة ولكن تنقصهم القوة !» فالتفت مادلين ليرى القائل فإذا به جافير ، ولم يكن لمحه عند قدومه .

فحدق فيه جافير وعطف قائلا : « وليعلم سيدى الشيخ أنه ليس على ظهر الأرض من يقوى ظهره على رفع تلك العجلة ، اللهم إلا إذا كان من العمالقة أو من أولئك السجناء الذين قضوا شطرا من حياتهم فى سجن تولون !».

فغض مادلين من بصره واستشعر الخوف لأول مرة ، وعلم أن جافير لم يقل ذلك إلا تعريضا وتقريعا له ، ولكنه غالب نفسه حتى ملكها ، ثم التفت إلى الجماعة ليرى أيهم أقدم على هذا العمل ، ولما لم يجد معينا جثم على الأرض ، ولم تكن إلا جولة فكر، حتى رآه القوم تحت العجلة منبطحا على وجهه وقد حاول أن يجمع بين مرفقيه ويقرب بين ركبتيه ليعتمد عليها فى رفع تلك العجلة ، فعالج ذلك مرتين ولم يفلح فخفقت قلوب

الجماعة إشفاقا عليه ، وظنوا أنه لا محالة هالك ، فصاحوا به : أولى لك أن لا تطرح بنفسك ذلك المطرح من التغرير ، وإنا نناشدك الله أن تستبقى حياتك .

وقال له سائق العجلة وهو تحت كلكل الموت : إنى أدعوك بالله أن تنجو بنفسك ، فإنى ميت ولا عاصم اليوم من أمر الله .

كل ذلك ومادلين صامت لا ينبس ، والقوم باهتون من عمله ، والعجلة لا تنفك عن الهبوط حتى تعذر عليه الخلاص وانقطع خيط الأمل من نجاته .

وإن القوم ليحفز اليأس أحشاءهم وإذا بهم يرون العجلة وقد تحلحلت ، وجعلت تهتز فوق ذلك الطود الذى رسخ تحتها وأخذت تصعد بعد ذلك الهبوط وسمعوا صوتا قد بحّه[1] التعب يدعوهم إلى نجدته ويقول لهم : أعينونى بقوة فقد أمكننى الله منها .

وكان ذلك صوت مادلين فأوفض[2] القوم إليها ، وانتزعوها من مكانها ، وأفلت السائق من مخالب الموت ، والموت خزيان ينظر ، وكان هذا السائق يدعى (فوشلفان) وهو من أعداء مادلين الذين أكل الحقد صدورهم ونهش الحسد قلوبهم .

وقد كان فى أول أمره جنديا ثم صار تاجرا فأثرى ثم أملق حتى صار من سائقى العجلات . وكان يبيت وهو يتقلب على جنب الحرد[3] من الحسد كلما فكر فى مادلين وفيما صار إليه أمره من الثروة والجاه ، ويقول لنفسه : لقد قدم مادلين وأنا تاجر وهو أجير فأصبح بحيث يحسد وأمسيت بحيث أكمد .

---

(١) بح بتشديد الحاء من التعب .

(٢) أسرع القوم .

(٣) الحرد بفتح الحاء وكسر الراء المغيظ .

ومن هنا كان مبعث حقده عليه ومثار حسده له .

ولما سار مادلين من تحت العجلة بعد انزلاجها عن مكانها وهو باهت اللون ناضح الجسد ملطخ الثياب ممزقها تحامل (فوشلفان) حتى اقترب منه ، وانكب على ركبته يقبلها وجعل يدعو له .

كل ذلك والقوم يبكون من هول ما شهدوا وينظرون إلى ذلك الوجه الذى بانت فيه آثار الجهد والعناء ، ولاحت عليه سيما السرور والارتياح ، وجافير يكاد ينشق غيظا في مكانه ومادلين يلقى عليه نظرات مطمئنة ويلمحه لمحات معنوية .

ولما انقضى ذلك المشهد وذهب كل لوجهة أمر «مادلين» بفوشلفان فحمل إلى مصنعه وأفرد له فيه مكانا ووكل به اثنتين من الممرضات ، وأوصى بالعناية به وجعل يعوده طرفى النهار حتى أبل من مرضه .

ثم وجه إليه برقعة وقع له فيها بأربعين قطعة من الذهب وكتب بها أنه قد اشترى عجلته وجواده بهذا القدر من المال (وإن كان الجواد قد نفق على أثر سقوطه والعجلة قد تحطمت منذ ذلك اليوم).

ولما أبل فوشلفان من مرضه كان لا يزال يشكو بعض الألم بإحدى ركبتيه ، فحال ذلك بينه وبين الرجوع إلى حرفته ، فلذلك أقامه مادلين حارسا لبستان دير النساء بباريس .

وبعد تلك الحادثة بقليل وجهت الحكومة إلى مادلين ببراءة وظيفته . وكان جافير كلما لمحه حاملا لتلك الشارة التى تأذن له بالتصرف المطلق فى شئون وظيفته ، كادت تطير شظايا نفسه حسدا .

وشعر من نفسه بذلك الشعور الذى يقع فى نفس الكلب إذا وجد ريح الذئب مختفيا تحت ثياب ربه . ومن ثم جعل يتحامى طريقه ولا يلقاه إلا مكرها على لقائه .

فكان إذا لقيه لقيه لقاء المحتشم المستكين ، وإذا خاطبه خاطبه خطاب المتحفظ الرزين .

هذا ما كان من أمر جافير ومادلين . ولقد طال عليك أيها القارئ انتظار حديث فانتين وطال عليها الوقوف أمام تلك القرية .

قدمت فانتين بلدتها ، وما نسيت ما كان من أمرها ، فوقفت تنظر إليها ، وقد تنكر لها كل شىء ولم تر من تعرفه ولا من يعرفه فسارت تعروها دهشة الغريب حتى وقف بها نصيبها على باب مصنع مادلين فارتاحت لرؤية وجه ذلك الباب كأنما هى ترى وجه صديق لها ، وعرضت نفسها على رب المصنع ، فأمر بضمها إلى قسم النساء فكانت تصيب الكفاف من الرزق لجهلها بتلك الحرفة الجديدة ، وكان أجرها فى اليوم لا يتجاوز حد القوت ولكنها قد بلغت على كل حال مناها وأمست تعيش من كسب يدها . ففرحت بصيانتها لماء وجهها وحفاظها لعرضها وانكمشت فى العمل حتى برعت فيه ، وزادوا لها فى الأجر ، فأمكنها أن تكترى لها مكانا صغيرا وأن تبتاع بعض الأثاث بالقرض والنسيئة ، فبدأت بشراء مرآة كانت تنظر فيها عند كل صباح إلى نضرة شبابها فتطرب كلما تمثل لها عسجد شعرها وتراءى لؤلؤ ثغره ، وكادت تنسى هموم ماضيها ولم يعد لها من هم غير التفكير فى طفلتها وفيما سيكون أمرها فى مستقبل أيامها .

وكانت تحرص كل الحرص على إرسال النفقة فى حينها وتبالغ فى كتمان أمرها وتحتجز من الناس غاية الاحتجاز وتتحفظ من أن تسقط منها لفظة تشير إلى ذكر

«كوزيت» أو محل وجودها أو أن تخوض فى حديث يجر إلى ذكر الزواج، ولكن أبى النحس إلا أن يلازم طالعها فإنها كانت كلما أرادت إرسال النفقة إلى طفلتها فى كل شهر استدعت أحد الكتاب ، فاستكتبته كتابا إلى أصحاب النزل ، وذلك لجلهلها بالكتابة كما قدمنا ، فكانت تستدعيه عند قدوم الليل والليل أكتم للسر، فولد ذلك فى نفوس صواحبها بالمصنع بعض الشكوك ، ولفت أنظارهن إلى مراقبتها فجعلن يتحدثن فيما بينهن بأمرها ، ويقلن ما لهذه الرسائل بد من سبب ، وما بال هذا الكاتب لا يأتى إلا إذا أتى الليل ، وما بال فانتين كاسفة البال تنزوى فى طريقها عن الناس وتتحامى فى المصنع الاختلاط بنا .

ولا تعجب أيها القارئ فإن أشد الناس مراقبة للناس من كان أبعدهم نفعا من وراء تلك المراقبة ، فهو يراقب لغير نفع يجذبه أو مال يكسبه ، ولكنها غريزة فيه تثيرها الرغبة فى الوقوف على أحوال غيره ، فتراه ينفق المال ويستخدم الرجال ويمالئ كل من كانت له صلة بمن يراقبه من حاشيته وخدمه وأصحابه ، ويكد ذهنه وينتصب بدنه ويصرف النفيس من وقته فى تسقط الخبر وتلمس اللفظ ، ويجمع كيده لاستبطان الأمر ويرصد نفسه لاستطلاع السر ، فيخالط السوقة ويجالس أهل المنزلة التى هى دون منزلته فيعقد لهم مجالس الشراب وينفق عليهم ما يضن بإنفاق بعضه فى سبيل البر وطريق الخير ويكمن تحت الليل فى زوايا الطرقات لا يبالى بسقوط الجليد ولا يعبأ بوخز القر ، ويجلد على احتمال تلك المشاق حبا فى الاستطلاع ورغبة فى الاكتشاف ، حتى إذا ألمّ ببعض الأمر وانكشف له جانب السر ، جلس إلى أصحابه فى الأندية يحدثهم وهو يميل بسفالته تيها ، ويثنى عطفه كبرا كأنه قد اهتدى بأبحاثه تلك إلى اكتشاف سر من أسرار الكون .

كذلك كان حال فانتين مع تلك النسوة اللائى يعملن بذلك المصنع فإنهن قد أفرطن فى مراقبتها فعددن أنفاسها ورقبن حركاتها وذهبن مع الظنون فى أمرها . لمحنها مرة

وقد وقف الدمع فى عينها موقف الحائر فانتحت ناحية من المكان وجعلت تمسحه فى خفية فتغامزن عليها بالعيون وأصبح الشك عندهن يقينا ولم يكن علم الله بكاؤها إلا لذكرى طفلتها وما كان منها مع ذلك الرجل الذى غلبها على أمرها . وما زلن يوالين البحث حتى اهتدين إلى معرفة العنوان الذى تكتب به، واجتمعن بذلك الكاتب الذى كانت تستخدمه فى الكتابة ، فانطلقن به إلى إحدى الحانات ، وكان الرجل خفيف الحال مدمنا للراح يبيع ما فى فؤاده من السر بكأس الخمر ، فحططن عليه بالشراب حتى استفرغن ما عنده من أسرار تلك الكتب ، فعلمن أن « لفانتين » طفلة وأنها غادرتها بنزل فى قرية (منتفرمى) وما يكتفين بما وصل إليهن من ذلك العلم ، بل بعثن منهن رسولا يرى الطفلة رأى العين ، وكان هذا الرسول شيخة من ذوات الأسنان نسجت الشيخوخة على وجهها طبقة من التشويه ، فزاد ذلك فى دمامة خلقتها وكان زوجها راهبا قد فر من أحد الأديرة فتزوج بها ثم مات عنها منذ زمن طويل فلبثت بعده أرملا إلى هذا العهد ، وكانت تعيش من فضلة قد بقيت لها .

تلك (مدام فيكتريان) التى كانت رسولهن إلى قرية «منتفرمى » وهى التى قالت لهن عند عودتها : لقد أزلت الشك باليقين ورأيت الطفلة رأى العين وأنفقت على ذلك مئة وأربعين قرشا .

* * *

واستغرقت تلك المؤامرة زمنا طويلا حتى استوفت «فانتين» عمر العام وهى بذلك المصنع . وفى ذات يوم دخلت عليها كبيرة دار الأجيرات فناولتها مائتى قرش، وقالت لها إن رب المصنع يأمرك بالتحول عن هذا المكان وإن أحسنت إلى نفسك فلا تسكنى القرية بعد اليوم .

فجمدت «فانتين» فى مكانها وحاولت الكلام فخانها الصوت ونظرت إلى وجه التى تحدثها فلم تلمح فيه للعطف مجالا فخرجت تمشى على استحياء وهى أسوأ ما تكون حالا،

وكان ذلك فى الشهر الذى لؤم فيه صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة منها فانكفأت إلى حجرتها وجلست تفكر فيما سيئول إليه أمرها، وكانوا قد أشاروا عليها بمواجهة الشيخ «مادلين» لتنفض إليه جملة حالها لعلها أن تصيب منه قلبا رحيما، فمنعها الحياء من ذلك، وقالت فى نفسها لقد أمر بإبعادى لأنه عادل وجاد على بمائتى قرش لأنه كريم، وما عسى أن يفعل الرجل معى أكثر من ذلك وقد وقع فى نفسه ما أنهى إليه من أمرى ؟

وكان «مادلين» بريئا من ذنبها ولم يكن من عادته الدخول إلى دار الأجيرات فلم يشرف على أعمالهن، وقد عهد بذلك إلى واحدة منهن عرف فيها الاستقامة وصفاء السريرة فأقامها رقيبة على الأجيرات ومنحها التصرف المطلق فى أمورهن. وكانت تلك المرأة بمنزلة من الأمانة والرفق فى العمل وإسداء المعروف ولكنها لم تبلغ المرتبة التى إذا عرف أهلها بوجود الذنب ذكروا العفو عن المذنب فهى التى باشرت التحقيق فى أمر «فانتين» وهى التى حكمت عليها وقامت بإمضاء ذلك الحكم وطلبت من مادلين التصديق عليه .

كل ذلك يجرى بالمصنع فى قسم النساء ومادلين لا يعلم منه شيئا، ولا عجب فإن مثل هذا الرجل من أصحاب النفوس الزكية والقلوب النقية يتركون النظر فى شئونهم إلى من يرون فيه الإخلاص ولا يحاسبونه يوما ما يأتيه من ذلك العمل .

* * *

ولما غادرت فانتين المصنع على أثر تلك المؤامرة لم تر بدا من البقاء فى القرية لأنها قد ابتاعت آثار منزلها بالقرض والنسبة ، وقد بلغ التاجر ما نزل بها فأنذرها بسوء العاقبة إن هى غادرت القرية قبل وفاء دينه، وكذلك كان حالها مع ربة المنزل الذى استأجرت فيه قاعتها. على أنها قد قسمت بينهما ما أحسن به عليها مادلين واستمهلتهما فى المقاضاة فيما تبقى عليها وردّت إلى التاجر بعض ذلك الأثاث وحفظت منه ما لم تر بدا من حفظه وعوّلت على العمل، فطرقت جميع الأبواب والتمست أن

تكون خادما بأحدها، فلم يكن نصيبها غير الرد والإعراض، فعادت إلى منزلها تتعثر فى ذيول الخيبة، وما زالت تطالب فكرتها فى استنباط عمل تعيش من ورائه، حتى فتق لها الذهن أن تعاود حرفة الخياطة، فكانت تخيط الأقمصة لعساكر الحرس فتصيب فى يومها اثنى عشر صلديا تحفظ عشرة منها لنفقة (كوزيت) وتنفق اثنين فى إحراز مسكة الحوباء[١].

وكانت تساكنها بتلك الدار عجوز من البائسات قد مارست صنوف الشقاء، وتقلبت بها أحوال العسر والمتربة فجعلت فانتين تجلس إليها فى كل يوم وتأخذ عنها دروس العيش فى الخلة[٢] والضيق.

وليعلم القارئ أن وراء العيش القليل منزلة أخرى، وهى العيش من لا شىء وأن هؤلاء البؤساء الذين شبوا وشابوا بين شظف العيش ونكد الحياة لهم فنون وأساليب فى الانتفاع باليسير من المال فتراهم يتلمسون من وراء الدانق منافع عديدة ويقضون بالسحتوت الواحد حاجات متنوعة.

ولقد أصبحت فانتين بفضل تلك الدروس بارعة فى فن الحياة فاستغنت عن النار فى الشتاء وعن اللحوم فى الطعام وعرفت كيف تجعل من ثوبها غطاءها ومن غطائها ثوبها، وأدركت كيف تقتصد ضوء شمعتها فتأخذ طعامها على ضوء الشفق أو على أشعة النور الذى ينفذ من طاق جارها وكانت تقول لجارتها وهى تحدثها: «إنى لأقضى عامة النهار وثلثى الليل وأنا أخيط، فأكاد أصيب بذلك ما أتبلغ به من الخبز اليسير، وإنى بحمد الله حزينة القلب كسيرة الخاطر ومن كان حاله كحالى من الهم، كان خليقا أن لا يتناول غير القليل من الزاد، فأنا أتبلغ بذلك الخبز اليسير وأئتدم بهذا الهم الكثير، وأجد منها غذاء أمسك به النفس، وأحفظ به الحياة»!

وفى تلك الضائقة التى يخرج احتمالها عن طاقة البشر كانت تمر بفانتين ذكرى طفلتها، فتجد لذلك سرورا لا يعادله عندها شىء فيدعوها الشوق إليها إلى طلب

---

(١) الحوباء النفس.

(٢) الخلة بفتح الخاء الحاجة.

استحضارها من ذلك النزل ولكنها تراجع نفسها بقولها : «أى ذنب جنته تلك الصغيرة حتى يقضى عليها أن تشاطرنى هذا البؤس، وهب أن هذا الذى أنا فيه لم يكن بؤسا فمن أين لى نفقة الطريق ووفاء ما علىّ من الديون لأصحاب النزل حتى أستخلصها من أيديهم ؟ إن هذا الأمل بعيد» .

وكانت تلك المرأة التى علمتها دروس الحياة من ذوات النفوس العالية، وأهل العفة والقناعة تسدى المعرفة إلى الفقير والغنى، وتفعل الخير لأجل الخير، ولا تعلم من الكتابة غير رسم إمضائها وتقول إن الله موجد ولا تعرف غير ذلك. وكم من فضائل كامنة فى نفوس أمثال هؤلاء الذين نزل بهم الدهر إلى الحضيض ستعلو بهم ذات يوم إلى عنان السماء، فإن لكل يوم غدا .

ولبثت فانتين كثيرة الخجل شديدة الحياء من نظر الناس إليها، وهى على تلك الصورة من خفة الحال ومظهر العوز والاحتياج، فلزمت بيتها زمنا طويلا، وكانت إذا دعتها الحاجة للخروج لابتياع شىء أو قضاء أمر مشت فى الطريق وهى كاسفة البال تود لو ساخت بها الأرض لتختفى عن أنظار المارة، وكانت تشعر كأنهم يترسمون بالنظر مواقع أقدامها ويشيرون بالأصابع إلى رث ثيابها، فتغض من نظرها، وتحث قدميها للهروب من تلك النظرات التى اخترقت إهابها وأدمت فؤادها. ولو كانت تلك البائسة بباريس لما لفتت إليها نظرا ولا استوقفت ناظرا ولأرخت عليها ظلمة الفقر سدولا تحجبها عن العيون، ولكن فى أمثال تلك القرى الصغيرة قل أن يجد الناس ما يشغلهم عن مراقبة الناس .

ومرت على فانتين ثلاثة أهلة وهى تروض نفسها على احتمال ذلك الازدراء كما راضتها على احتمال مرارة الشقاء حتى نضب ماء الحياء من وجهها وزال ذلك الشعور من نفسها ، وصارت تمشى فى الطريق وهى طارحة رداء الخجل لا تبالى بتلك النظرات ولا تحفل بهذه اللفتات، وكانت تلازم ثغرها ابتسامة الله أعلم بما يمتزج بها من غضاضة الحياة، وتنأى بجانبها عن الناس شامخة الأنف عالية الرأس .

وكانت كلما لمحتها مدام (فيكتريان) حاسبها الله وهى تمرح فى قد[١] تلك الخلة والضيق ، وتمشى هذه المشية فى الطريق، حمدت مغبة عملها وأثنت على نفسها إذ حالت بين تلك البائسة وبين الهناء وردتها بفضل سعايتها إلى ذلك الشقاء، ومن الناس من لا يجد سروره إلا فى ألم غيره .

نفوس فطرت على الشر فلا يصفو لها مورد السعادة ما لم تشبه شائبة من الأذى .

* * *

قلنا إن فانتين كانت تقضى عامة النهار وثلثى الليل وهى عاكفة على العمل فلم تزل تلك حالها حتى أوهن الإفراط من عزمها وزاد فى ذلك السعال الذى كان جالسا فى صدرها فاشتدت بها الضائقة اشتدادا يغرب معه الصبر ولكنها كلما مشطت عند الصباح شعرها بذلك المشط الذى أسقط الدهر أسنانه، فكان أشبه الأشياء بثغر الأدرد[٢] فنظرت جمال فرعها المرسل إرسال الحرير، اختلست رقدة من عين الدهر ومدت يدها لمصافحة السرور .

وكانت قد خرجت من المصنع فى أخريات الشتاء فانصرم الشتاء وانطوى على أثره الصيف ودار الفلك دورته، فإذا الشتاء التالى يقرع باب فانتين قرعا ينذرها بيوم قصير وجو مطير وضباب مقيم وأفق مظلم ونهار يعثر صباحه بمسائه، وليل يجهل أوله آخره وشمس رمداء، وسماء مكفهرة الأرجاء، وعيش كثير المئونة، وفصل هو حرب الفقير وهلاك الضعيف، يقل فيه العمل وتكثر النفقة فتطلب المعدة الغذاء والجسم الرداء، ويتلمس المقرور النار ويضيق بصاحب الكفاف رحب الدار .

فصل يحول الأفئدة إلى صخور، ويرد السائل إلى جماد قد دهم فانتين وهى بين الخلة[٣] والقلة فزاد فى دينها وكساد حرفتها، فسقطت عليها مطالب الغرماء سقوط

(١) القد هو القدر، والقامة .

(٢) درد الرجل ذهبت أسنانه، فهو أدرد

(٣) بين الحاجة والجدب .

القضاء ، وألح صاحب النزل قاتله الله فى طلب النفقة والتماس الزيادة فيها حتى زهدت فانتين فى حياتها وحبب إليها قرب يومها .

وجاءها منه ذات يوم كتاب يذكر فيه أن ابنتها أصبحت عارية الجسد، وأنها إن لم تتداركها بإرسال أربعين قرشا لابتياع لباس لها، فهى هالكة لا محالة. فوقع ذلك الكتاب فى نفس فانتين وأحزنها طول يومها، ولما كان المساء انطلقت إلى حانوت حلاق، فوقفت أمامه ونزعت ذلك المشط الذى كان يمسك شعرها، فانسدل على ظهرها وستر أردافها، فصاح الحلاق : لله ما أجمل ذلك الشعر! فقالت فانتين : «انظر كم تدفع من الثمن إذا بعتكه» قال : «أربعون قرشا» قالت : «عجل بقصه» فقام الرجل إلى مقصه، وأهوى به على شعرها وأعطاها الثمن فاشترت به لساعتها لباسا وبعثت به إلى طفلتها. فساء ذلك صاحب النزل وأغضبه لأنه كان يطمع فى الدراهم لا فى اللباس. فأعطاه إلى إحدى بنتيه وبقيت كوزيت فى جلدها تقضقض من البرد وترتعد من الجليد، كل ذلك وأمها تظن أنها باتت تمرح فى ذلك الكساء الجديد، ولا علم لها بما تقاسيه من ذلك الألم الشديد .

* * *

وكانت فانتين كلما أحست بألم فراق شعرها، وجدت لذلك بعض العزاء لأنها لم تفقد ذلك الشعر إلا لتحفظ حياة تلك الطفلة .

وتمر بها ساعات تذكر فيها حسن شعرها فينقبض صدرها ويمتلئ حقدا على ما يحيط بها ويمتد ذلك الحقد حتى يتناول (مادلين) ذلك الذى كانت تشاطر الناس محبته بالأمس، وقد أصبح اليوم من أبغض الناس إليها لكثرة ما سمعت من أنه هو الذى أمر بإبعادها، وأنه أصل شقائها وسبب بلائها .

وكانت كلما مرت أمام ذلك المصنع تكلفت السرور والابتسام وجعلت تغنى غناء رخى البال رضى الحال توهم بذلك أهل المصنع أنها اليوم أنعم بالا منها بالأمس ، وما

خفى عن أصحاب المصنع أمرها فقد قالت إحدى عجائز الأجيرات حين لمحت فانتين وهى على تلك الحال : «ويل لهذه الفتاة من سوء المصير» .

وما زال الشقاء يجر على فانتين الشقاء حتى حدثت نفسها أن تتخذ لها عشيقا جديدا، وقررت أن يكون أول من تلقاه فى طريقها كائنا من كان. فوقف نصيبها على موسيقار، رقيق الحال غليظ القلب عاطل يتكفف، وسائل يستكف لا يعرف العشق ولا يفقه معنى المداعبة، فطارحته فانتين حديث الغرام فلم تره يحن إلى شىء من ذلك، على أنه ما لبث أن هجرها بعد أن ضربها ونهرها .

فخلا فؤادها من كل حب إلا حب طفلتها، فأنت تراها فى ظلمة ذلك اليأس كنجمة تلمع فى سماء آمالها، نقول «آمالها» لأنها كانت تخلو بنفسها فتحدثها بتلك الآمال التى تلوح لها بوارقها فى جو الخيال .

ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لأطاقت حمله، وكلن صاحب النزل كان يزيد فى ألمها ويروعها كل يوم بطلب جديد كتب لها أن ابنتها مريضة محمومة، وأنها إن لم تسارع بإرسال قطعتين من الذهب لوقايتها وعلاجها فإنه يخشى عليها عادية الموت. لا تسل عما حل بها حين أخذ نظرها ذلك الكتاب فقد خرج بها من الألم عن حد الإدراك، فجعلت تضحك وتهذى، وخرجت تطفر فى الطريق طفر الأطفال، وتضحك ضحك الأبله المعتوه وتقول لنفسها : «قطعتان من الذهب .. اللهم غفرانك .. إن هؤلاء القوم لا يعقلون! ..» .

ولم تزل كذلك حتى وقفت على لفيف من الناس قد التفوا حول طبيب الأسنان وتنقيتها ونزع المتآكل من الأضراس وغير ذلك. فاندست فانتين فى غمارهم وهى لا تزال على ذهولها تضحك ولا تعى، فصاح الطبيب حين لمح لؤلؤ ثغرها : «أتبيعيننى أيتها الفتاة ثنيتيك بقطعتين من الذهب» قالت فانتين : «وما الثنيتان أيها الطبيب ؟» قال : «هاتان اللؤلؤتان اللتان تلمعان بمقدم ثغرك» فصاحت فانتين : «غفرانك اللهم إن هذا لهو الضلال المبين»، وكانت بجوارها عجوز درداء[1] تسمع كلام الطبيب فقالت تكلم نفسها : «قطعتان من العظم بقطعتين من الذهب ؟ لله ما أسعد تلك الفتاة!». على أن

---

(١) سقطت أسنانها .

فانتين لم تكد تسمع كلام ذلك الطبيب حتى رجعت أدراجها وقد سترت لؤلؤ ثغرها بمرجان شفتيها ووضعت أصبعيها فى أذنيها كى لا يصل كلامه إلى سمعها ، وهو مع ذلك يصيح فى أثرها: «أيتها الحسناء تمهلى فى الأمر واستوزعى فؤادك يلهمك القبول، واعلمى أنك لم تغبنى فيما عرضناه عليك من الثمن فإذا كان المساء فأغضينا بدارنا بمكان كذا» . فوقع كلامه فى أذنها برغم أصابعها، وزاد فى نفورها، فانطلقت حتى إذا بلغت دارها عطفت على جارتها العجوز، وهى أشد ما تكون غيظا، فأخبرتها خبر الطبيب وما كان منه، وقالت : «لقد بعنا الشعر لأنه يعود فينمو، ولكن ما حيلتنا فى الأسنان ومفقودها كما تعلمين لا يعود وهى حلية الثغر ونقطة دائرة الجمال»، ثم غادرتها وانكفأت إلى حجرتها، وعكفت على خياطتها ولم تكد تستقر فى مكانها حتى ندرت الإبرة من يمينها، فقامت مسرعة إلى ذلك الكتاب المشئوم وأعادت قراءته ورجعت إلى جارتها تسائلها عن معنى تلك الحمى ونتائجها، فقالت لها : «إنها مرض من الأمراض يعترى الكبير والصغير وهو اليوم أكثر وقوعا فى الأطفال» فقالت فانتين : «وهل يجر هذا المرض إلى القبر؟» فقالت : «نعم يجر إلى القبر إذا تخلت عن المريض العناية» فخرجت فانتين من عندها وقرأت الكتاب مرة ثالثة ولبثت بقية يومها نهبا للهواجس. ولما توفى الليل النهار رآها بعضهم وقد أخذت طريقها إلى دار ذلك الطبيب، فانتزع اللؤلؤتين وحباها بالقطعتين. ودخلت جارتها فى صباح الغد مبكرة إليها فألفتها جالسة فوق سريرها وهى شاحبة اللون، ساهية الطرف، تنطق بوجهها آثار السهر، ويدل تضعضع حالها على أثر نزاع قام بينها وبين ليل كان أطول من شعرها، وأسود من حظها، وعلى القرب منها شمعدان قد فنيت شمعته، وخلفت على جوانبه شباكا من دموع أسالها اللهيب وجمدها القر .

وتقف جارتها أمام ذلك المنظر الذى يقطع نياط القلوب جزعا وتنادى : «ويلى عليك أيتها البائسة تشعلين الشمعة كلها فى ليلة واحدة فما عسى يكون قد نزل بك من الأمر، ومالى أراك كأنك قد انتفضت من كفن أو أفلت من ظلمة رمس!» فالتفتت إليها فانتين وقد أهرمتها تلك الليلة الماضية، فأخذت من سباتها وبلغت منها ما لم يبلغه كبر الغداة ومر العشى عشرة أعوام كاملة، فتقول لها : «ليس بى بحمد الله من شىء، ومن هو أولى براحة البال منى ؟ قد أمكننى الله من إنقاذ طفلتى من يد الموت بهذا الذهب».

وتنظر جارتها وهج الذهب بجانبها، فتصيح : «اللهم إنها ثروة، فمن أين لك هذا، وقد عهدتك بالأمس لا تعرفين وجه الفضة؟ » ، فتبسم فانتين ابتسامة تنم عن لعاب دام قد لوث ركني شفتيها وثغرة مظلمة في وسط ذلك الثغر المضيء، فتعلم جارتها كما علم القارئ أن تلك الثغرة المظلمة هي مكان تينك اللؤلؤتين .

* * *

وانطوى خداع صاحب النزل (برئت منه المروءة) على فانتين، فوجهت إليه بطلبته ولم تكن طفلتها مريضة كما يرجف، ولكنه شرك قد مده لاصطياد دراهمها حتى سلبها عسجد شعرها، ولؤلؤ ثغرها، وأصبحت عطلا من الحلي والجمال، فكسرت تلك المرآة التي كانت تجد في النطر إليها بعض الهناء أيام صحبتها شعرها، وتحولت عن قاعتها بالطبقة الثانية إلى قاعة أخرى بسطح المنزل قد أعدت لسكنى البائسين، وكانت ذات سقف مسنم يرتكز وجهاه على وجه الأرض إذا دخل فيها ساكنها البائس انحنى تحت سقفها انحناءه تحت أثقال العيش وأعباء الحياة .

ولم تكن تشتمل على غير خشبة قد طرحت على الأرض وخلقة(١) كانت تسميها غطاء، وكرسي قد نزع تقادم العهد أحشاءه، وجرة كنت ترى الماء فيها تارة سائلا وأخرى جليدا، وزهرية قد جف طينها وذبل زهرها، وفتاة قد نزعت نقاب الحياء وعافت زينة النساء تخرج في الطريق وعليها ثوب خلق رديم ممزق الأديم قد أهملت رتق فتوقه، وأغفلت سد خروقه. وما أدري أكان ذلك لضيق في وقتها ولعدم اعتناء منها بأمرها، وهي تنتعل حذاء قد كشر عن نابه، تحت جورب قد نصل عن خضابه يحيط بخصرها نطاق بال مرقع، يكاد إذا تنفست فيه يتقطع وتنكفئ إلى غرفتها وقد بضع الهم من فؤادها بضعة ، وعبست الخيبة في وجه أملها، واشتد الأمر وضاق، وتقابلت حلقات الوثاق، وسطا عليها سعالها سطوة الجبار، ولزمها ملازمة غرمائها بالليل

(١) قطعة قماش بالية .

والنهار، فتقضى فحمة الظلام، منفرة المنام سميرة الآلام، حاضرة الدموع غائبة الهجوع، وتفنى شمعة النهار بين وخز الإبر ووكز الفكر وقد قدر عليها الله الرزق فأجراه لها من سم خياطها، وهبطت أسعار الأجور فنزل أجرها فى اليوم من اثنى عشر صلديا إلى تسعة فاستحال عليها إمساك الرمق بهذا القدر اليسير. على أن طفلتها وحدها كانت تكلفها فوق ذلك، ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لقلنا خطب يهون، ولكن صاحب النزل قد خرج عن أفق الاعتدال فأرسل يطلب منها أربع قطع ذهبية ويقول لها فى كتابه : «لقد عنينا بأمر طفلتك وصبرنا منك على ما تعلمين فإن لم تسارعى بإرسال هذا القدر من المال نبذنا (كوزيت) بالعراء ، وطرحنا بها فى مساقط القضاء، فهى أن أخطأها برد الشتاء، فليس يخطئها نازل البلاء، ولقد أبلت اليوم من مرضها، ولكنه إبلال يعقبه الموت إن فاتك فى أمرها الفوت» .

فما الجرح ينكأ به الجرح بأوجع فى نفس الجريح من ذلك الكتاب فى نفس فانتين، فإنها قالت بعد تلاوته: «اللهم إنك تعلم أننى بعت الشعر والأسنان بيعة وكس، وصبرت حتى ملنى الصبر، وقد كانت لى صبابة عيش تكفينى السؤال فما زالت ترتشف منها الحاجات حتى أنضبتها، اللهم لم يبق إلا العرض، وقد أمست تساومنى فيه الأيام، فلا راد لقضائك، ولا مذهب من ورائك»...!

* * *

أبى قدر الله إلا أن تمزق الفاقة ثوب ذلك العفاف وأن لا تركب فانتين غير سبيل الخسارة، فابتذلت خدرها، وباعت عرضها، وعرض منها البؤس على هذا المجتمع الإنسانى أمة فاشتراها. عرضها عليه فى سوق الألم فابتاعها بكسرة من الزاد، وكان فيها من الزاهدين، فأف لتلك المدنية غلبت الناس على أمرهم، وزادت فى أسرهم. ولا زلنا نسمع على هذه المدينة آيات المدح والثناء، وتطن فى آذاننا أصوات المرجفين فى أنحاء البلاد، برفع الرق والاستعباد، عن رقاب العباد. أين كتاب السيد المسيح وأين ما جاء فيه من الحكم الصريح؟. طليتم وجه مدنيتكم بطلاء من كلماته، وأفرغتم فؤادها من حكمه وعظاته، فتناول حكمه منكم الظواهر، ووقف عن تناول ما

فى السرائر .. أوهمتم الناس بانطواء أجل الرق، وفاتكم أنه وإن خف حمله عن أعناق الرجال، فقد باتت تنوء بثقله أعناق النساء.

تملق المرأة فتجوع وتعرى، فتركن إلى الصبر والتجمل فيضيق عن ذلك ضعفها، فتفزع إلى السعى وراء الرزق من أشرف وجوهه فيقعد بها الدهر، فتبيع الناس نفسها، فيتنافسون فى المساومة، حتى إذا أظفروه بامتلاك تلك النفس المعروضة فى سوق الشقاء، سجلوا عليهم فعلتها تلك فى باب الزناء، وتغاضوا عن تسجيلها فى باب الرق وهو بها أحق وهى به ألصق.

ويل للمرأة من الرجل يسترقها. وما يدريه ما المرأة. هى وعاء النسل وظرف الحمل، هى زينة الحياة، وزهرة الجناة، هى بيت الجمال وموطن الدلال. هى مسكن الضعف ومهبط العطف، فبالله ما أكثر مخازى الرجال ذلك مثل فانتين فى ابتذالها لخدرها بعد أن نزلت من المكروه منزلة ينقطع العقل عن تقديرها ويجمد الذهن عن تصويرها، وبعد أن أنذرها الدهر بالانسلاخ عن هيئة العالم وأنذرها العالم بالخروج عن دائرة الوجود، فتسكعت فى الضلالة وتبسطت على الإثم، وتمرغت فى حمأة الغى، فخوى هيكلها من روح الشعور، وكتب اليأس على لوح صدرها المثلوج وقول ذلك الحكيم: «لا رغبة ولا رهبة»، فأصبحت لا تخشى نازلا، وأمست لا ترجو نائلا، وباتت لا تبالى لأنها ما انتفعت بأن تبالى.

مر بها زمن وهى تصابر القضاء، وتنازع الشقاء، وتعانق الخطوب وتصافح الكروب، وتصبر على ذلك صبرا، كان أشبه بعدم المبالاة من الحمام بالمنام، فلم تنتفع بصبرها، ولم تخرج من عسرها، فما عساها تحذر اليوم وهى كالإسفنجة سكن الماء أحشاءها وغمر أنحاءها سيان إن طاف بها المحيط أو سقط عليها الندى!.

* * *

توجد بعامة القرى الصغيرة، وخاصة القرية التى تسكنها اليوم (فانتين) طبقة من نشء الشبان العاطلين الذين يعيشون من وراء دخلهم السنوى، وإن أحدهم ليظهر بين

أهل القرية بمظهر من الترف والنعيم لن يبلغه ساكن بارين، أو ينفق أضعاف ما ينفق ذلك القروى، وقد جمعت هذه الطبقة فى قريتنا تلك من أمثال هؤلاء العاطلين عددا كبيرا فتراهم يجلسون فى صدور المجالس، وقد نفخ شيطان العظمة فى معاطسهم، فجعلوا يتفاخرون بما ملكت أيمانهم : فمن تياه بكثرة رجاله، ومن مدل بوفرة ماله، ومن معجب بحسن سمعته وهندامه، ومن مولع بالتفنن فى أساليب كلامه : يتحرش أحدهم برجال الشرطة فيحفظهم بتعنته حتى يجر الأمر إلى المشاجرة، فيقال فلان لا يعبأ برجال الحكومة، وينطلق الآخر إلى التصيد والاقتناص كى ينوه بذكره فيقال انطلق النبيل إلى الصيد ومنهم من يتورن[1] ويتزين فهو أين خطر تأرج المكان بعطره واشتغل الناس بذكره، ومنهم مدمن الخمر ومدمن الجلوس فى الأندية حيث يفد السائحون .

نعم وفيهم المتغالى فى التقليد ، والمولع بالجديد، والذى لا يرى نفسه ظريفا إلا إذا قاد خلفه كلبا وازدرى بنوع النساء، فتأنق فى التعريض بهن واستهتر فى تقريعهن .

وكان الظرفاء فى هذا العهد يغالون فى البزة ويتأنقون فى الزى، وشارتهم يومئذ أردية زيتونية اللون مفضضة الأزرار، وأحذية تحيط بأعقابها أهلة من الحديد وبكل منها مهماز للجواد شأن الفرسان وعلى رءوسهم قبعات عالية البنيان كزة الأطراف، فوق شعر جعد كثيف، وبأيديهم عصى غليظة كأنها الجذوع. دع الشوارب الطوال، والزيق المرتفع، ومنديل الرقبة المرسل على الصدر .

أذكر من بين تلك الطبقة المفتونة شابا لم ينظر مدى عمره سماء باريز ولم يبرح دهره أرض تلك القرية - نشأ بين أفراد تلك الطبقة ففعل شرواهم وذهب مذاهبهم، وكان مثله كمثلهم : دخل قليل وعقل يسير، وسفه يوازنهما، ونزق يعادلهما .

اتفق أن وقف ذلك المغرور ذات ليلة أمام أحد الأندية وفى فمه لفيفة من الطباق، وقد انتشرت على وجه الأرض طبقة من البرد وتمر أمامه فانتين وهى عارية الأكتاف، وعليها ثوب قصير تتجمل به النساء فى المراقص، وكانت تلك عادتها منذ نصف عام .

---

(١) تورن أى تعطر فأسرف فى التعطر .

تعتمد الليل وتركب ذلك الطريق، فتقبل فيه وتدبر بعض ساعة كأنها حرسى يحفظ السبيل، أو جندى أذنب فكان عقابه السير فقو ذلك الجليد جيئة وذهوبا، ويتعمد ذلك المغرور كلما مرت أمامه إغاظتها ويتحرى إهانتها فيعبس وجهها بكسفة من دخان لفيفته ويرسل عليها شواظا من الإهانة والسباب فيقول : ما أبشع هذا الوجه وما أخلق حامل ذلك الثغر الأدرد بالانزواء عن أعين الناس، وتسمع فانتين ما يقول وكأنها لا تسمع فتنطلق فى طريقها وتواصل سيرها فيه قبالا وإدبارا، وهو فى مكانه يكاد يقطر غيظا .

ويحركه ذات مرة سكونها، فينطلق خلفها انطلاق الذئب خلف الفريسة، وهو يغت من ضحك المغيظ ويدانيها، فيهوى بيده إلى الأرض، فيقبض قبضة من البرد وينقض عليها فيدسه بين ثوبها وظهرها، وينتشر البرد من ملتقى الكتفين إلى مستدق الصلب، فتزأر فانتين زئير اللبؤة، وتنفتل انفتال النمر، وتنشب أظافرها فى وجهه، وهى تصيح من فرط الألم بصوت قد صحله إدمان الخمر وأبحه الحزن، ويفزع الناس لجهة الصوت فرادى وثنى ، فيرون رجلا عارى الرأس يضطرب فى يد امرأة مسلوبة الشعر والشعور والرجل يحرص على الانفلات والمرأة تحرص على إمساكه، وقد رنحته لطما ولكما وأتحفته بأنواع السباب والشتائم، فلم تبق فى اللغة كلمة تشير إلى بذاءة أو لفظة تدل على لعنة إلا ورمته بها من ذلك الثغر الأدرد .

ويقف الناس حولهما صفوفا وهم بين ضاحك وصارخ ومصفّق بيديه، وكلهم يتساءلون عن مثار تلك المعركة القائمة، ويبرز من تلك الصفوف رجل طويل القامة، فيجذب المرأة من نطاقها، ويصيح بها : «انطلقى على أثرى». وترفع فانتين عينها وترى شخص (جافير) فيخفت صوتها وتصفر أحداقها وتتزايل أعضاؤها وتمشى خلفه بين الذلة والانكسار، وينتهز الشاب تلك النهزة فيختفى وينقضى ذلك المشهد سار جافير يخترق الصفوف وعلى أثره فانتين وأخذ سمته إلى مخفر الشرطة، فلما بلغه أمر بالباب ففتح وبالشمعة فأوقدت وانتزع من جيبه ورقة وأنشأ فيها يسطر، وانزوت فانتين فى أحد الأركان كالكلبة راعها مروع، ووقف حول المخفر بعض المولعين بحب الاطلاع ممن شهدوا الحادثة وجعلوا يشرئبون بأعناقهم من وراء النافذة رجاء أن يلموا بجانب الأمر.

وكانت شريعة ذلك العهد تقضى بوضع تلك الطبقة من النساء تحت التصرف المطلق لرجال الشرطة، فهم يلعبون بهن ما شاء الهوى، ويصادرونهن فى حرفتهن

المنكودة وحريتهن الموهمة فأكب جافير على الكتاب وهو أشد ما يكون غيظا وما نسى القارئ ما كان من وصف أخلاق ذلك الرجل الذى ما نم قط ظاهره على باطنه ولا وجد التأثر إلى نفسه سبيلا، ولكنه قد غلب فى هذه الفترة على أمره فلاحت بوجهه ملامح الانفعال فأجمع كيده ومثل أمامه مدى سلطته، ونفث فى يراعه سم غيظه، فكان يكتب وحنقه فى عنفوان شبابه وجرم تلك البغى يتجسم أمام عينيه، حتى إذا فرغ من كتابته وتوقيعه نادى بثلاثة من الشرطة وأمرهم أن يقودوا فانتين إلى السجن، وقال لها : «ستلبثين هناك ستة أشهر»

فارتعدت فرائصها وهمت بالنهوض فخانها العزم فترامت تزحف بجسمها على بلاط قد طلته نعال الشرطة بطلاء من الوحل، وجعلت تضرع إليه وتستدر رحمته وتقول : «ستة أشهر؟ اللهم غفرا. إن فى ذلك لهلاكا لطفلة ليس لها سواى من عائل، فاتق الله فى ضعفى وراقبه فى حياة تلك الطفلة، ولو أنك ألممت بمبدأ الأمر لتضاءل فى عينيك منهاه، فاصرف نظرك تلقاء ظلامتى فإن كنت قد أجرمت بعدها فعلىّ إجرامى، وإنى لأستعدى بك على ذلك الشاب الذى وترنى على غير معرفة منى به - لمحنى أسبهل[1] فى الطريق فجعل يتحرش بى وأنا أصابره حتى إذا أعياه الأمر عمد إلى قبضة من البرد فدسها بين ثوبى وظهرى على غفلة منى، فوجدت لذلك ألما أخرجنى عن حد الرشد، ففعلت به ما فعلت، وأنا بمنزلة بين الألم والذهول - وما ظنك أيها الحاكم العادل بامرأة مريضة يباغتها مباغت بمثل ذلك الأذى تحت هذا الليل فى هذا الشتاء؟ أتراها كانت تحلم أم تطيش؟ فإن كان بعض الطيش قد أدركنى، فإنما وقع ذلك لفرط الألم، وضعف التحمل .

ألا شاهد ممن وقفوا على الحقيقة يأتى فيظهر يراعتى؟. ألا يعود ذلك الشاب الذى اختفى ، فأعتذر إليه من فعلى، وإن كان هو البادى بالإساءة؟ .. ألا منقذ لى من هذا السجن الذى سيجر إلى طرد طفلتى من النزل، فتموت تحت العراء؟ فيا ليت شعرى كيف أغذوها، وأنا لا أكسب فى السجن نصف ما قرره أصحاب النزل لقوتها؟ فلك الله

(١) اسبهل أى أقبل وأدبر فى الطريق لغير شىء وهو ما يسميه العامة «ضرب بلطة» .

أيتها الطفلة المنكودة ولى الله من بائسة نزل بها العسر إلى تلك المنزلة من الحياة. فوالله ما كان هذا الفحش من أمرى، ولكن هى الحاجة ترمى بصاحبها إلى مرامى الهلاك، فلا تفرط علينا وكن من الراحمين».

تقول ذلك بصوت خنقه البكاء وأنفاس قطعها الشهيق. كأنها محتضر قد أخذه النزع، وهى عارية العنق مفتولة اليدين وقد أشرق محياها إشراقا ظهرت معه فى أعلى مجالى الجمال – ولا بدع فإن الآلام إذا بلغت مداها انبعث من أثنائها نور سماوى وانبسط على وجوه أصحابها فبدلها تبديلا .

ولما فرغت من ضراعتها تماسكت حتى أمكنها النهوض، ثم دنت منه فقبّلت طرف ردائه. ولو أنها ضرعت كذلك إلى رجل قد قد من حجر الصوان قلبه ذاب لها رأفة، ولكنها قد صادفت رجلا بلا قلب، فهو لا يعطفه التوسل، ولا ينال منه التذلل .

أوتدرى أيها القارئ ماذا كان جوابه لها بعد الذى سطرناه تحت نظرك؟ كان جوابه أن قال لها : «لقد وعيت حديثك فانطلقى إلى السجن فبه حكمت عليك، وقد استحال غير ما حكمت، فلو أن ذلك الديان يتجلى اليوم لفصل القضاء لما قضى عليك بغير ما قضيت » .

قال ذلك ثم ولاها ظهره فجمدت فى مكانها وتحرك الجند. وإنهم ليهمون بجرها وما تصل أيديهم إليها، إذ وثب من جانب المخفر الأيمن رجل ملثم فحسر عن لثامه وصاح بهم : «مكانكم أيها الجند!» فمد جافير بصره، فإذا به يرى مادلين، فحياه تحية الكاره لرؤيته وقال بصوت الكاظم لغيظه : «عفوا سيدى الشيخ» . وما وقعت تلك الكلمة فى سمع فانتين حتى انتفضت فى مكانها فدفعت عنها الجند مهرولة إلى مادلين، ولما تبينت وجهه صاحت به وهى تغرق فى الضحك: «أهذا هو أنت؟» ثم بصقت فى وجهه وانقلبت إلى مكانها، فمسح مادلين وجهه وقال لجافير : «خل أيها المفتش سبيل هذه المرأة» .

كل ذلك يجرى وجافير ينظر وهو متهم لنظره ويسمع وهو مكذب لسمعه، وقد قرعت نفسه قارعتان ذهبت أولاهما بصوابه وفلت الأخرى غرب إرادته، فلبث فى مكانه برهة أعوزه فيها النطق وافترست طائر حلمه الدهشة والذهول – نظر امرأة تبصق فى

وجه شيخ جليل والمرأة من البغايا والرجل من أولى الأمر فاتهم للوهلة الأولى نظره وشهد بعد ذلك الرجل يمسح وجهه وهو أروح ما يكون بالا، ويأمر بإخلاء سبيل تلك المرأة فلم يصدق سمعه ولم تكن فانتين أقل ذهولا منه، فإنها لم تكد تسمع قول مادلين حتى دنت إلى الباب وجعلت تعالج فتحه وتتهيأ للخروج، وهى تقول كمن يكلم نفسه :

– أيسرحوننى فلا أسجن ؟ ومن ذا الذى يستطيع ذلك ولقد سمعت بأذنى الأمر بالسجن. ووعيت ما سمعت؟ فلئن كنت قد طرق سمعى بعده أمر بالإفراج فقد كذبتنى الأذن، اللهم إلا اذا كان جافير هو الآمر، أما ذلك الشيخ المريب فليس له من الأمر شىء، وما أدرى ما الذى حداه إلى الحضور، أو ما كفاه طردى من مصنعه وخروجى عن أفق العفة والصيانة وهبوطى إلى تلك المنزلة؟ ولقد كنت أعمل فى مصنعه، فأصيب رزقى بين العفة والكفاف، فأبى إلا أن يكون أداة للسعاية بى، فأخرجنى حين لا موئل ولا وجه للرزق، وحملنى بظلمه على ركوب تلك الطريق. ويعلم الله أنى ركبتها وأنا كارهة لركوبها، ولكنها سبيل مضطر عديم، ولولا ما حملنى أصحاب النزل من الديون واشتطاطهم فى طلب النفقة لتلك الطفلة ، وكساد الحرفة التى أزاولها، لتماسكت وإن زعزعنى الدهر، وبالغت فى تطفيف قوتى الأيام والليالى .

ويسمع مادلين شكواها فيضرب بيده إلى جيبه وينتزع منه كيسه. ويجده خاليا، فيرده إلى مكانه ويقول لها : «خبرينى كم مبلغ ديونك أيتها الفتاة؟» فتقول له : «إليك عنى أيها الرجل فلست بمحدثة معك ذكرا» ثم تلتفت إلى جافير فتحاسنه فى الخطاب، وتنتقص أمامه من قدر مادلين، وتشرح له سواد مغبتها إن هو أصر على حكمه وتستنزل عفوه، وتعوذ به من عقابه، وتنتهى بقولها :« ولا أحسبك بعد الذى عرفت من أمرى إلا غافرا زلتى متجاوزا عن خطيئتى» ثم تولى إلى الباب وتضع يدها على غلقه .

وتوقظ تلك الحركة جافير فيعود إلي نفسه ويخرج من جمود كان فى أثنائه كالصنم، ويصيح بالجند بصوت تمازجه نغمة القادر: «يا ويلكم ! أتفلت هذه الفاجرة من أيديكم وأنتم لا تشعرون ؟ ومن ذا الذى أمركم بتسريحها بعد أن أمرتكم بسجنها؟ يا ويلكم ! ردوها فلتقضين فى السجن أيامها رغم المعارضين!»

وكان مادلين مصغيا كل الإصغاء لما دار بينهما من الحديث، فالتفت إلى جافير، وقال له : «اعلم أيها المفتش أنى أنا الذى آمر بتسريح هذه المرأة، فلا سبيل لك عليها منذ الساعة، فإنى مررت بمكان الحادثة بعد انصرافكم، وتسقطت الخبر فأخبرنى بعض من شهد المبدأ والنهاية أن ذلك الفتى هو البادئ بالإساءة، ولولا تهاون الشرطة لكان هو الحقيقى بموقف هذه الفتاة » .

فقال جافير وهو يتكلف الكظم لغيظه ويغالب اضطراب نفسه : « إن تسريحها ليدخل فى باب الاستحالة ، فإنها أهانت فتى شريفا وآذت شيخا جليلا، فلئن كانت قد أعذرت فى الأولى فما عسى يكون عذرها فى الثانية؟»

قال مادلين : «أما عن الأولى فقد صدقتك الخبر، وأما عن الثانية فإن الأمر لمختص بى، والعقاب متعلق بإرادتى، فإما عفوا بعد وإما جزاء؟! »

قال جافير : « عفوا يا سيدى إن الأمر لا يقتصر على شخصك، ولكنه يتناول العدل كله، وبمثل هذا العمل وأشباهه ينكس العدل رأسه ويخترم سياج الشريعة»

قال مادلين : «اعلم أن العدل نوعان : عدل يجرى به الوجدان، وعدل تجرى به الشريعة. ومن كان صادق الوجدان، كان خليقا بالتوفيق إلى سبيل الحق. ولقد وفقنى الله إلى استبطان أمر هذه الفتاة، وألهمنى الوجدان براءتها. فلا يستطردن بك جواد العناد فى سبيل إيذائها، فإنك لن تنالها بسوء وأنا من الشاهدين» .

قال : «إنى لأرانى غير قادر على فهم ما أسمع وما أرى» !

قال : «فلتكن قادرا على الخضوع والتسليم».. !

قال : «إنى لأخضع للواجب وهو يدفعنى إلى وجوب الإصرار على سجن هذه الفتاة ستة أشهر» !

قال : «بل يدفعك إلى إخلاء سبيلها، فلا تسجن يوما واحدا» .

قال جافير : « أما وقد وقفت بى عند حد اليأس من إقناعك، فإنى لا أرى بدا من الانحراف عن صراط الطاعة، ولا يكبرن عليك أمر مخالفتى إياك، فإنى لأمادك حبل

المقاومة فى شأن هذه البغى، وما وقع لى قبل اليوم أن أقاوم مشيئة الرئيس . ولكن إلمامى بواقعة الحال وتثبتى من الأمر ودخول الحادثة فى دائرة اختصاص الشرطة التى أنا كبيرها - كل أولئك يدفعنى إلى سجن هذه الفتاة» !

وما كاد ينتهى من قولته حتى تقطب وجه مادلين بعد ذلك الانبساط وهبت من شمائله روائح السلطة فقال له بصوت سبقته إلى مخارجه الخشونة وامتزجت بأجزائه الحدة : «لقد أسمعتنى أن الحادثة تدخل فى دائرة اختصاص الشرطة التى أنت كبيرها . وأسمعك الساعة أن المادة التاسعة وأخواتها الحادية عشرة والخامسة عشرة والسادسة بعد الستين من قانون العقوبات، تقضى بأن أكون القاضى المطلق. فبناء على صريح تلك المواد أحكم ببراءة فانتين وأمر بتسريحها .

« وأزيدك بى علما وأذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ فهون على نفسك وابرح هذا المكان فحسبك ما سمعت » .

فاستقبل جافير هذه الضربة الأخيرة بصدر رحيب كما يستقبل الباسل من الجنود أسنة الرماح وانحنى حتى كاد يقابل الأرض بوجهه، وخرج وما ينظر ما بين يديه غمًّا. ومر (بفانتين) فالتصقت بعضادة الباب لتخلى له السبيل، ولبثت فى مكانها، كأنها بعض الأنصاب، وذهلت وحق لها أن تذهل لمنظر تلك المعركة التى قامت بين رجلين علقت بأذيال الأول نجاتها وكمن تحت رداء الثانى هلاكها - هذا يصعد إلى مراقى الهناء، وذلك ينزل بها إلى درك الشقاء وهى بينهما كالأكرة إذا قذف بها الثانى بها إلى ظلمة اليأس، ردها الأول إلى نور الأمل. كأن أحدهما ملك يكلؤها، وثانيهما شيطان يحاول أن يتخبطها بمس منه. وقد أنزل الله النصر على الملك فكان من الظافرين .

وعجيب أن يكون هذا الملك هو ذلك الشيخ الذى استرسلت فانتين فى كراهته وظنته أصل شقائها ، وسبب بلائها. على أنها ما لبثت بعد الذى قد رأته من محاسنته لها وعطفه عليها وتحريه سرورها بتسريحها ووقوفه فى وجه جافير تلك الوقفة التى قطعت على إرادته السبيل أن أخذت تحاسب نفسها وتقول : «لى الويل لشد ما كنت أنفر من ذلك الرجل، وأحمل ضب الضغن وأعزو إلى فعله سوء ما وصل إليه أمرى من

الفحش والتبذل ولقد وترته الساعة وترة يضيق عنها الحلم فصفح وهو قادر على غير الصفح، ولم يفتر نشاطه عن الذود عنى والمناضلة دونى. فلا أحسبنى بعد ذلك إلا واهمة فى أمره جاهلة مقدار خطره - أوليس الذى قد غلب جافير على أمره بقادر على أن يحول بلفظ منه بينى وبين الهناء، فأموت فى السجن حزينة، وتموت بموتى تلك الطفلة اليتيمة؟ اللهم إن هذا هو الخلق الكريم وتلك هى النفس الزكية »

كذلك كانت تحاسب نفسها وحقدها يتحلل فى صدرها ووجدها يستل من قرارة نفسها ذلك النفور الذى سكن فيها، حتى أصبح النفور ميلا والبغض حبا، حتى أدركتها الندامة على سالف فعلها وسوء ظنها بذلك الشيخ الجليل، فكاد يأتى على نفسها الخجل والحياء .

* * *

ولما برح جافير موقفه الحرج التفت مادلين إلى فانتين وقال لها وهو يغيض من عبرته، ويخفى من حسرته: «لقد وعيت ما تقولين وما كنت أعلم شيئا من أمرك، فما منعك أن تنفضى إلينا جملة حالك يوم أنذروك بالخروج من المصنع؟ ولو فعلت لأنصفناك . ولكن أبى الله إلا أن يجرى القدر بما شاء، فأنت منذ اليوم مكفية المئونة بى، فإنى كافلك وجامع بينك وبين طفلتك ورادك إلى طاعة الله بحفاظك على عرضك، وموف ديونك وبالغ بك أقصى ما تودين من العيش فلا تبخعى(١) نفسك أسفا على أثر ماضيك، فإن صح ما تقولين ولا إخالك إلا صادقة فيه، فإنك لم تخدشى وجه العفاف، ولم تعقى الفضيلة، وما كنت أمام ذلك المطلع على الأفئدة إلا طاهرة الذيل عفيفة الإزار» .

وما انتهى مادلين من قولته حتى تمثل لها مستقبل حياتها، فرأت جنة يميس فيها النعيم وتجرى من تحتها أنهار السعادة، ورأت نفسها وسط تلك الجنة تتبوأ مقاعد العفاف، وتتكئ على أرائك الصيانة وبجانبها طفلتها الوحيدة .

---

(١) أى لا تهلكى نفسك

وتزاحمت على نفسها جيوش الأمانى فخرج بها السرور عن حد الإدراك وترامت على يد مادلين تقبلها، ثم غابت عن الوجود فأمر بها مادلين، فحملت إلى دار المرضى التى أقامها بجوار داره. فأنيمت فيها، وأوصى بالعناية بها وانصرف إلى عمله .

وكانت الحمى تتمشى فى عظام تلك المغبونة فى نفسها فمر بها قطع من الليل وهى تهذى وتصيح ، ثم أخذها النوم فنامت حتى أظهر[1] النهار أو كاد، وشعرت عند يقظتها كأنها تسمع بجانب سريرها ترديد أنفاس، فكشفت جانب الستار، فإذا هى ترى مادلين باسطا ذراعيه شاخصا ببصره كالراهب المتبتل يضرع إلى شىء فوق رأسه، فأرسلت بصرها حيث يرسل بصره ، فعلمت أنه يضرع إلى صليب كان معلقا بأعلى الحائط فأكبرت رؤيته، وظهر لها فى هذا الموقف، كأنه هيكل من النور عليه حلة من التقى فكرهت أن تقطع عليه صلاته وأمسكت برهة، ثم قالت له بصوت يكاد يخفيه الحياء : «ما الذى يصنع سيدى هناك؟» فأجابها وهو يومئ إلى الصليب : «جئت أصلى لذلك الشهيد فى السماء». ولو أنصف لقال : «لتلك الشهيدة فى الأرض» .

وكان مادلين منذ الليلة الغابرة لا ينفك عن تعهدها والسؤال عنها فما يستقر فى حجرته إلا ريثما يعود لتنسيم أخبارها فبات بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها، ولا ينصرم عمرها، وانتابته الهواجس فما احتواه مضجع ولا التقى له جفن بجفن .

* * *

وننتقل بالقارئ من حجرة مادلين إلى حجرة جافير، فيرى رجلا قد أقامه الحقد، وأقعده الحرد[2]، يكاد ينشق غيظا ويقطر غضبا على أثر تلك الضربة التى تلقاها بصدره الرحيب فى مخفر الشرطة، ويراه وهو ينفث نفثة المصدور، ويململ تململ الموتور قد أمسك يراعا وأنشأ يسطر كل ما أملت عليه الموجدة وأوحى إليه الضغن .

---

(١) أظهر النهار إذا كان وقت الظهيرة .

(٢) الغضب الشديد .

وفى صباح تلك الليلة بكر جافير إلى صندوق البريد، فوضع فيه بيده ذلك الكتاب الذى سطره بحجرته، وعنوان غلافه إلى كبير الشرطة بباريس .

وما قرأ هذا العنوان قارئ وكان ممن يعرفون جافير وكتابته، إلا تنبأ أن الكتاب لا يشتمل على غير التماس الإقالة على أثر حادثة الأمس .

ولما استنار مادلين دفائن (فانتين) وعلم بحقيقة أمرها، وألم بأطراف تلك المؤامرة التى كانت سببا فى خروجها من المصنع ونزولها إلى تلك المنزلة من الحياة ، سارع بإرسال كتاب إلى أصحاب النزل يطلب فيه إشخاص (كوزيت) ووجه إليهم بقدر من المال يبلغ مثلى ما كانوا يطالبونها وأنذرهم بمرض الوالدة ولزوم المسارعة بإحضار الولد .

* * *

وسقط هذا الكتاب على صاحب النزل سقوط الندى، فقال لزوجه وهو يتهلل فرحا :

لقد در ضرع تلك البقرة العجفاء (يعنى فانتين)، وأكبر ظنى أنها ترتع اليوم فى ربيع عشق جديد فمن العجز تسريح هذه الفرصة، وما لنا لا نمسك الطفلة حتى نحتلب رسل ذلك الضرع. وهذا كتاب عاشقها الجديد ينطق عن ولع سطوره جداول يجرى فيها الكسب وتسيل السعادة، فاحرصى منذ اليوم على تلك القنبرة، واحذرى أن تطير فإن فى إمساكها إطلاقا لأرزاقنا» ، ثم قام إلى دفتر، فزور فيه كل ما زعم أنه أنفقه على (كوزيت) من أجر الطبيب، وثمن الدواء، وما زال يرصد الخبيث من أرقام الحساب ما يملى عليها الطمع، حتى نيف مجموع ما سطر على مبلغ ما أرسل مادلين وفى اليوم التالى وجه مادلين إلى أصحاب النزل بمبلغ آخر وطلب إليهم المسارعة بإرسال الطفلة فقال الرجل لزوجه : «ألم أنبئك بما سيكون من أمرهم، إذا نحن أحسنا حفظ هذا الكنز الثمين، فانظرى كيف لم يجد له عزما على الانتظار فثنى بإرسال النقود قبل أن نجيبه على كتابه، فلنمسكن الطفلة حتى حين» !

وكانت فانتين لا تزال على فراش المرض ينطفئ سراج حياتها شيئا فشيئا، ويدنو منها الموت يوما يوما، وقد أثارت تلك القبضة من البرد دفين دائها القديم، ففتك السعال بصدرها فتكا كاد يهدم جدرانه، ولولا تعلقها برؤية طفلتها للقيت ربها منذ حين .

وما خفى على الطبيب أمرها، فإنه أنذر مادلين بقرب أجلها وقال له : «إنى أراها هامة اليوم أو غد، فإن كان لها ولد ، فلا تحولوا بينهما وعجلوا باستدعائه إن كان من الغائبين، فإنكم لا تفرغون من ذلك حتى تفرغ من نفسها» فجزع مادلين جزعا شديدا، وأشفق أن تموت الوالدة، قبل أن ترى الولد، فقام لساعته إلى ورقة وكتب فيها إلى أصحاب النزل عن لسان فانتين يقول :

«إذا أتاكم رسولى حامل هذا، فادفعوا إليه (كوزيت) وهو يدفع لكم تلك الديون التى تزعمون مطالبتى بها » .

وأرتئى أن يكون هو الرسول إلى أصحاب النزل فوضع الكتاب فى جيبه وضحت عزيمته على السفر. فبكر من غده إلى دار حكمه، وجلس لإنجاز شغله وأراد أن لا يترك وراءه من خدمة الحكومة ما يشغله عن خدمة فانتين فتسلف الأعمال، وأنجز فى يومه ما يطالبه به الغد .

وإنه ليتصفح الأوراق وينظر فى الشئون إذ جرت جوار بالنحوس، وعدت عواد بالشرور، ووقع فى حساب القدر ما لم يقع فى حساب مادلين، فقيل له إن جافير بالباب يطلب الإذن بالدخول. فوالله ما لفظ أمامه هذا الاسم حتى مرت به خلجة من الشك تمازجها نزوة من الألم فتطير، وتضعضعت حاله وكاد يعجز عن المداراة، ولكنه رد النفس على مكروهها فاستقرت، وأذن لجافير بالدخول، وكان إذ ذاك جالسا بقرب المدفأة ينظر فى أوراق محاضر المخالفات ويعلق عليها ما شاء تعليقه .

ودخل جافير فوقف وسلم سلام الخاشع المستكين. ولبث واقفا وراء ظهر مادلين صامت اللسان ساكن الشخص ينتظر الإذن بالكلام.. كل ذلك ومادلين لم يرفع بصره، ولم يحرك جسمه كأنه لا يشعر بوجود ذلك الواقف ولو أن أحد أولئك الذين أوتوا علم السحنة يأتى الساعة وينظر إلى جافير وهو راسخ فى مكانه، وكان يكون من المخالطين له، والواقفين على أسرار طبائعه، والعالمين بتقلبات هذا المخلوق الذى بينا نراه فى

لباس الجندى المحارب، إذ هو فى ثياب الزاهد الراهب، لركن عند رؤيته، وتفرس فى مخائل سحنته أن هذا الجاسوس الصادق والناقل الأمين، قد نزل به نازل وحالت بينه وبين نفسه حوائل، وقال لأمر ما وقف عدو مادلين أمامه وقفة المستسلم المسكين، وعهدى به يتحين له الفرصة ويتمنى الغصة .

* * *

وفى الواقع كانت سحنة جافير تنم عما فى ضميره فما مر بخلجان قلبه شىء ولا سرى بقرارة نفسه وسواس، إلا وشفت عنه سحنته كما يشف الزجاج عن الماء .

قلنا إنه دخل على مادلين فسلم منحنيا ووقف محتشما وما زال واقفا خلفه موقف الجندى فى صفوف النظام لا تنبعث له جارحة ولا تطرف عين، وقد فارقت محاجره تلك النفرة وانجابت عنها ظلمة الشك، فامتزج بأشعة بصره نور الإخلاص وجال فى محياه ماء الخشوع، ونطقت ملامح وجهه عن صبر لم تشبه مرارة، وسكون لم تعره كلفة، حتى التفت إليه مادلين فرأى رجلا تبدو عيه سيما الانكسار، وتقرأ فى عينيه آية الحزن، قد احتشم احتشام الجندى أمام القائد، والمجرم بين يدى القاضى، فقال له : «ما خطبك أيها المفتش؟»

فلبث جافير برهة وهو صامت كأنه يدعو إليه حصاته، ثم اندفع قائلا بصوت تسمع فيه رنة من الحزن تشوبها عزة من الشمم :

جئت أنهى إلى سيدى خبر جريمة قد وقعت منذ اليوم. قال مادلين : «وما عسى أن تكون تلك الجريمة؟»

قال : «إن أحد عمال الحكومة الأدنياء قد رمى بعض سراة القضاة فى شرفه، وطعن عليه فى سمعته ، فدفعنى الواجب إلى رفع الأمر إليك». قال : «أتعلم من هما ...؟»

قال : «ما أعلمنى بهما. أما المقترف فأنا، وأما المقترف عليه فأنت»

وما وقع فى سمع مادلين الخبر حتى وقع فى نفسه شىء من الضجر، فتململ فى مكانه ، واندفع جافير فى حديثه فقال :

- إنى لأطلب إليك رفع أمرى إلى الحكومة لأنال من عقابها ما يكفر عن خطيئتى، ولا تعجبن لعدم التماسى الإقالة، فإننى إن فعلت ذلك خرجت خروجا. ولا يلحقنى معه العار. ولكننى خليق بأن أنزل منزلة المجرم الأثيم فأخرج ملوما مدحورا .

«ولقد كنت معى بالأمس غائب اللين حاضر الجفاء، وأنت من الحق أعزل، فلتكنه معى اليوم وأنت شاكر سلاح الحق ثاو بحسن الفضيلة» .

قال مادلين : «لقد جعلتنى بحيث أرى أنك أتيت عظيما وارتكبت جسيما ولا أذكر بينى وبينك أمرا يدعوك إلى قول ما أسمع منذ اليوم، ولقد أطلت فى اتهامك لنفسك، وبالغت فى وصف إجرامك فما عسى تكون تلك الفعلة التى تزعم أنك فعلتها؟»

قال جافير : «رميتك فى شرفك وخدشت وجه سمعتك فالتمست من كبير الشرطة بباريس إمساكك وسجنك. وذكرت له فى شقة رفعتها إليه أنك مجرم قديم، وأنك ضالة الشرطة التى تنشدها منذ حين، ولقد كتبت ما كتبت وقسطى ممتلئ من المرة[1] الصفراء، وغضى يفور فوران المرجل على أثر حادثة تلك البغى التى غلبتنى عليها، ووقفت دونها تلك الوقفة التى قطعت على إرادتى السبيل» .

* * *

ويرجف قلب مادلين عند سماع قوله (مجرم قديم) ولكنه يتماسك. واستطرد جافير فى حديثه فقال : «وما حملنى على اتهامك أيها الشيخ إلا آيات شهدتها وعلامات تحققتها : رأيتك شديد العضل قوى الساعد سديد الرماية إذا رميت، ولمحت بأحد فخذيك فدغا، وقت تبينت منك الأولى يوم العجلة، وما نسيت ما كان من دخولك

(١) المرة بكسر الميم وتشديد الراء مادة الصفراء التى توجد فى مرارة الإنسان .

تحتها، وإنقاذك حياة ذلك الشيخ الفانى، وتحققت الثانية بتتبع آثارك وتسقط أخبارك وشهدت الثالثة فى مشيتك، فألقى فى روعى أنك (جان فالجان)».

وتسقط شعبة من مهجة مادلين لذكر ذلك الاسم ويندر[١] من أنامله اليراع الذى يمسكه فيقول وهو يغالب اضطرابه : «ومن هو ذلك الرجل؟». فيجيبه جافير «هو أحد أولئك الشطار الذين يعيثون فى الأرض، ولقد رأيته منذ عشرين حولا فى سجن تولون، وهو أشبه الناس بك، ثم زعموا أنه بعد انصرام أيام سجنه عالج السرقة فى بيت أحد العباد، وجنى فى الطريق على غلام صغير، فاغتصب منه ما أدرى أى شىء، ثم إنه اختفى بعد ذلك، فجدت الشرطة فى طلبه، وجد فى اختفائه حتى إذا شجر بينى وبينك الخصام فى أمر (فانتين) وخرجت من موقفى أمامك بذلك الخذلان، حملنى الغيظ منك على أخذك بهذا الرجل، ومثل لى الحنق أنك جان فالجان وكانت تلك الآيات التى ذكرتها لك من أكبر البواعث على اتهامك فلا تكن من الراحمين» .

قال مادلين وهو يبتسم ابتسامة الله أعلم بما يكمن فى أثنائها من المضض : «وماذا كان جوابهم على كتابك؟»

قال : «كان جوابهم على كتابى أن رمونى بالنزق والجنون وحسبونى محمقا، ولقد أصابوا فى رأيهم فىّ كما أصبت عين الخطأ فى رأيى فيك» .

قال : «لقد أحسنوا فىّ جوابهم، وأحسنت فى رجوعك عن وساوسك». قال : «وأعجب من ذلك أن الشرطة قد أمسكت طريدها وعثرت على ضالتها، ووقع جان فالجان فى قبضة الحكومة وهو اليوم بالسجن ينتظر حلول العقاب» .

فأخذت مادلين الرعدة وصاح من فرط ما به، وما يريد أن يصيح : «وكيف كان ذلك؟» .

قال : «قبضوا عليه وقد ظهر حائطا بإحدى الحدائق، واقتضب فرعا من التفاح، فسيق إلى المخفر والفرع لا يزال فى يده، ثم أودعوه سجن الاحتياط، وكادت تختفى حاله فلا تدخل جريمته تلك فى غير باب العقاب التأديبى ، لولا أن أراد الله له سوء العاقبة .

(١) ندر الشىء سقط يندر اليراع من أنامله يسقط .

«فاتفق أن سجن الاحتياط هذا كان عتيق البناء يريد أن ينقض على من فيه، فأمر قاضى التحقيق بتحويل أهله إلى السجن العام، وكان بذلك السجن رجل من أهل التشطر الذين شبوا وشابوا فى أعماق السجون، قد أكل سجن تولون شطرا من عمره وأوشك هذا السجن أن يأكل شطره الثانى - شهدوا منه فى آخر أيامه شيئا من الاستقامة، وحسن السيرة، فأقاموه سجانا ولما جىء بأهل سجن الاحتياط ولمح بينهم سارق العود صاح به :«ألا ترى أنى أعرفك أيها الرجل ؟ ألست جان فالجان رفيقى بالأمس فى سجن تولون؟ »

فقال الرجل : «اتق الله يا أخى .. فما أنا بصاحبك الذى ذكرت وإنما أنا (شاماتيو) .. »

ثم ظهرت عليه الحيرة وعراه الدهش وتظاهر بالبله والجمود - وقد يحسن أمثال هؤلاء أنواع المكر والخداع - فبعث كلام السجان الشك فى نفوس الشرطة ففحصوا عن أمره وراجعوا لوح أعماله فاهتدوا إلى معرفة الأرض التى نبت فيها، والحرفة التى كان يزاولها، فإذا هو مشذب للشجر قد اختفى أثره وانقرضت أسرته وكان آخر عهد الناس به فى قرية (فافيرول) وأجهدت الشرطة نفسها فى الوقوف على أثر تلك الأسرة فلم تفلح فعمدوا إلى البحث عمن كان معه فى السجن فى ذلك العهد فعثروا على اثنين ممن حكم عليهم بالخلود فى السجون، فأشخصوهما إلى حيث يوجد، فلم يلبثا أن عرفاه كما عرفه ذلك السجان .

«وصادفت الشكوى التى رفعتها بشأنك فراعهم منى هذا الأمر فكتبوا إلى ما كتبوا ورمونى بالنزق والتسرع، فكبر علىّ الأمر وقلت فى نفسى لعلهم خدعوا فى أمر هذا الرجل فتالله لأذهبن لأراه رأى العين، فرغت روغة فإذا أنا هناك فنظرت جان فالجان ورأيت نفس الرجل الذى شهدته فى سجن تولون منذ عشرين حولا ولم يعد عندى مجال للشك ولا مسرب للوسواس، وعلمت أنى جنيت عليك جناية يضيق عنها العفو، فلو أننى كنت موفقا فى العمل وكنت أنت مكان ذلك الرجل لسجل عليك الخلود فى السجن. وإنك لتعلم كيف يكون عقاب العائد إلى الجريمة وخاصة إن كان من أولئك المراقبين » .

قال مادلين وهو يتعلل بالتشاغل بالنظر فى بعض الأوراق ويقهر نفسه على التجلد والثبات: «ما لنا ولهذا الحديث فإن بنا من الاشتغال بشئوننا ما لا نفرغ معه إلى الاشتغال بأمر الغير - اذهب يا جافير إلى فلانة التى تبيع الخضر بزاوية المكان الفلانى، ومرها أن ترفع ظلامتها إلينا»، ثم أمره بأوامر أخر، فقال جافير : «وددت لو كانت لى فى الوقت فسحة، فأقوم بإمضاء أمرك فإنى على عزم الرحيل فى هذا المساء لأشهد غدا مع الشاهدين، فإن غدا اليوم سيكون له ما بعده يبرم فيه أمر جان فالجان، ويعلو الحق على الباطل وتفلت الناس من شرك ذلك الشيطان الرجيم».

فاسود فى عين مادلين ما بينه وبين جافير وقال وهو يتكلف السكينة : «أفى غد يخاصمون هذا الرجل ؟» قال : «نعم». قال : وكم يمتد أجل ذلك الخصام؟» . قال : يوم أو بعض يوم». قال : «حسبك». ثم أذن له بالخروج فلبث جافير فى مكانه وقال : إنى لأطلب إليك الاقتصاص منى» .

فرفع مادلين رأيه وقال : «إنى أرى فيك حصافة وأرى لك عقلا ومن كان مثلك كان حقيقا بالتكريم، وكان سبيله أن يعان على أمره، وأن يؤخذ بيده فى زلته، فلقد عن لنا أن نقرك فى وظيفتك ورأينا أن الأمر أيسر مما فى نفسك، فدع عنك هذا الإغراق فى الطلب واستغفر لذنبك إن كنت من الخاطئين». فرفع إليه جافير طرفا قد جال فى إنسانه الإخلاص ونطق عما يكمن فى نفسه من الوجدان. وقال بصوت قد استمد السكون من جأشه، واستعار الرقة من شعوره: «إننى لمجرم حقيق أن يؤخذ بجريرته، فلا أرى فىّ موضعا للسماح». قال مادلين : «إن كنت قد أجرمت فما وقع إجرامك على غيرى وما كان لأحد أن يخاصمك وأنا من الصافحين» .

قال : «عجبت لمثلك كيف يصفح عن مثلى، وقد حاولت الإيقاع بك وعملت على كيدك وسلب نعمتك، فخنت الاستقامة وعققت الفضيلة وأحفظت العدل، ولو أننى فعلت ذلك عن غير رغبة فى الانتقام لوجدت لنفسى السبيل إلى جميل العذر وقلت إنى شرطى، وللشرطى أن يشتبه ولا تثريب عليه إذا أخطأه التوفيق، ولكننى فعلته متعمدا ورميتك متقصدا، وإنى أشهد أننى كنت دانى القسوة نائى الرحمة لا أعرف التجاوز

عن الخطيئة ولا أعرض تلبيب[1] كل من انحرف قيد أنملة عن صراط الشريعة، فكيف أرضى اليوم لنفسى ما كنت آباه بالأمس على غيرها.. ونفسى كما تعلم أكثر النفوس حرمة علىّ، وأولاهن منى بحسن المناصحة.. أرأيتك كيف يجمل بى أن أنصب بدنى فى سبيل إصلاح الغير، وأنام عن تقويم ما أراه لنفسى من الاعوجاج؟ إنى إذن لمن الظالمين ! .

« على أنى لا أود أن يخرج بك كرم طباعك عن سبيل السداد، فأنتصر منك بك، كما انتصرت بك تلك البغى من ذلك الشاب. ولا نلبث على هذا القياس أن تشتبه علينا الأمور فيختلط السيد بالمسود والعبد بالمعبود فكن ماشئت رءوفا بالعباد، واجمع إلى تلك الرأفة صحبة العدل ، فإن فى ذلك ردعا للنفوس، وعزا للشريعة وخذنى بإقرارى ولا تطمع مجرما فى غير العقاب، فلكم كنت أقول لنفسى وهى تجد فى طلب الظالمين : جدى أيتها النفس فو الذى أنت بيده لئن انحرفت شعرة عن سواء السبيل لأكونن بك أول الموقعين » !

قال مادلين وقد فعلت به تلك الكلمات فعلها: «سننظر فى أمرك» ثم مد يده للسلام. فتقهقر جافير وهو يقول : «عزيز علىّ أن تصافح يدك الكريمة تلك اليد الأثيمة »، ثم ركع أمامه خاشعا واستقبل الباب. ولما بلغه انفتل إليه ثانيا وقال : «سأقوم بشئون وظيفتى حتى يأتى الخلف» . ثم ولى وجهه وغادر مادلين فى مكانه يلقى بسمعه إلى وقع تلك الخطوات المطمئنة .

لم تكن تلك الحوادث التى نسطرها للقارئ الكريم بواضحة الأثر فى القرية التى وقعت فيها، ولكن بعض ما علق بالأذهان من حدوثها قد ترك لها شبه الذكر فى النفوس .

فلو أننا أغفلنا ذكرها لخرج الكتاب، وفيه من الفراغ ما نلام معه على عدم الإتيان بما يسده، فها نحن أولاء نذكر ما وصل إلى علمنا من خبر ذلك الأثر، وإن كان فيه بعض ما لا يحتمل الوقوع، ولكنا نثبته هنا إرادة الوصول إلى الحقيقة .

---

(١) أخذه بتلبيبه : جره .

ذهب مادلين إلى فانتين يعودها، فى عصر اليوم الذى وقع له فى صباحه مع جافير ما وقع، وكان من عادته أن يغشاها فى حجرتها فوقف فى هذه المرة، وسأل عنها قبل الدخول ممن كانت تمرضها وكان ببابها اثنتان من الممرضات الراهبات تدعى إحداهما (بربيتى) والأخرى (سمبليس) وكانت الأولى من سكان الأطراف بالريف، ثم أصبحت راهبة لا لرغبة فى الزهد أو نزوع إلى خدمة الدين، ولكن لمجرد الاحتراف بما تصيب منه الرزق، فدخلت فى بيت الله دخول الخادم فى بيت المخدوم، واحترفت بذلك كما تحترف سواها من النساء بحرفة الطبخ، ولم يدعها الوجود فى الدير إلى فوق ما كانت عليه من الخشونة والتقشف بطبعها، شأن سكان الأطراف الذين لا يعرفون الترف ولا يألفون النعيم، ومن قارن بين حالة الراهب وعيش الفقير وجد بين تقشف الأول وخشونة الثانى نسبا قريبا وصلة غير مقطوعة، فلو شاء الناسك أن يصبح راعياً وأراد الراعى أن يمسى ناسكا لوجد كلاهما إلى قصده سبيلا ممهدا وما هو إلا أن يدخل أحدهما فى ثوب صاحبه .

وكانت تلك الراهبة شديدة القبض على دينها ذات لون يضرب إلى الحمرة وإقدام فى الأمور، وصلاح فى العمل، دائمة التسبيح كثيرة الترتيل وحشية اللهجة، وكان بأخلاقها بعض الشدة فهى جافية الطبع تغلظ القول للمريض، وتمزج له الأدوية بتلاوة الأوراد والأدعية، وتدعو للمحتضر دعاء يمترج به الغضب كأنها تستعجله قبل حينه بما يرجمه فمها من ذلك الدعاء ،

* * *

أما الثانية فكانت ذات لون يغلب عليه البياض، فهى بجانب أختها كالشمعة بجانب الذبالة، ولقد وفق (فانسان دى بول) إلى وصف الراهبات فى تلك الكلمة التى جمعت بين عزة الحرية وذلة العبودية، قال :

«التواضع قناعهن، وخوف الله شعارهن، والطاعة حرزهن، قد اتخذن البيع للتهجد، ودور المرض للتعبد، وللمخاوف الطرقات، وللرياضة الحجرات» .

ذكرنا تلك الكلمة الجامعة فى سياق الحديث عند ذكر (سمبليس) ونزيد عليها فنقول :

يقف الناظر إلى تلك العذراء موقف الذاهل إذا سأله عن عمرها سائل، فقد كتم وجهها سر ماضيها. ولم يشأ أن ينم على آيتها فلم تنطق ملامحه على أثر لزوال الشباب، ولا عن خبر لقدوم الهرم. وهى قليلة الاكتراث، كثيرة الأناة، قد جمعت فى طباعها بين اللين والجفاء، فإنها لتلين حتى يكاد يعقدها العاقد، وتشتد حتى يخافها المعاند .. كثيرة الصمت، قليلة تزويق الكلام. تكره الفضول فى الحديث، فلا تنطق إلا بمقدار، وتحب الصدق حبا بغض إليها الكذب فى الجد والمزاح .

* * *

تلك هى صفات (سمبليس) وما كتبنا غير ما أملاه علينا لسان فضلها، وقد اشتهرت بذلك فى عالم الدين، حتى ضرب أحد الرؤساء بصدقها المثل فى كتاب بعث به إلى رفيق له فقال :

إنه ليجرى على لسان أكثرنا تقى، وأبعدنا عن المظنة شىء من الكذب، فيحمل منه ذلك على سبق اللسان بما لم يجر به الوجدان - ولا يدخل فى باب الإمكان أن تسقط من (سمبليس) سقطة من هذا النوع، فتكذب فى شىء كائنا ما كان، فإنها تعتقد أن الذى يمين فى الصغيرة، لا يلبث أن يستطرد به جواد المين فى الكبيرة، وتزعم أن الكذب من أسماء الشيطان، فهو عندها أحد اثنين : إما إبليس، وإما الكذب .

فلعل ذلك البياض الذى نراه بوجهها هو أثر ما أودعه الله من النور فى سريرتها، سريرة لو تمثلت لك أيها القارئ، لرأيت لوحا من البلور لا يعلق به الذر ولا يقف عليه الغبار، تلك هى الراهبة التى كانت تمرض فانتين وتبالغ فى محاسنتها وهى التى أوصاها مادلين بالعناية بها، وسألها عنها قبل الدخول فى هذه المرة ولما غادرها ودخل على فانتين وجدها ترتقب رؤيته ارتقاب المقرور شروق الشمس، فقالت حين لمحته وهى تغالب كبد الحمى ويغالبها: «أين كوزيت؟» . فقال وهو يبتسم : «إنها قادمة على

الأثـر» ثـم جلـس عنـدهـا يلاطـفها حتى استوفى عمر الساعة. وكانت لا تلوح بوجهه وهـو يحـادثهـا سيمـا الارتياح لما وقع فى نفسـه من كلام الطبيب الذى كـان ينذره بقرب حينها .

* * *

ولما قضى لبانته من النظر إليها انكفأ إلى حجرته، فتناول قلمه، وخط به فى ورقة بعض الأرقام، ثم خرج وأخذ سمته إلى دار رجل يكرى الخيل والعجلات فغشيه فى منزله وطلب إليه أن يكريه جوادا أصيلا، فقال الرجل : «وما تصنع به؟» قال : «أطوى عليه عشرين فرسخا» .

قال : «إنها لشقة طويلة فعلك تبتغيه مشدودا فى عجلة؟». قال : «نعم». قال : «وكم يكون ثواؤك بعد الوصول؟». قال : «ربما تجشمت السفر فى اليوم التالى». قال : «لتطوى فى الجيئة ما طويت فى الذهاب؟». قال : «نعم». قال : «إن عندى جوادا كهمك أيها السيد وهو الأبلق الصغير، وقد كان صعب الشكيمة لا يستقر فوق منكبيه راكب ولا يدانيه إنسان، فما زلت به حتى رضت جماحه وأسلست قياده فهو اليوم يسابق الأفكار إلى المقاصد، ولكنه يرغب عن السرج، وينزع إلى الجر فمن شاء أن ينتفع به فليرغب عن ظهره إلى جره» .

قال مادلين : «أتراه يحسن العدو ويطيل الشوط .

قال : «إنه لينهب المسافة التى تريد قطعها نهبا ويطويها خببا، ولا يجد لذلك تعبا. على شريطة أن تنفس عنه فى أثناء ذلك بعض التنفيس، وأن يكون معك من يشارفه عند أخذ علوفته ليرد عنه غارة أولئكم الخدام بالنزلات، وأن لا تحمل معك فى العجلة شيئا ثقيلا ودع رفق القائد الذى يقوده وعنايتك بالإشراف عليه. وأما أجره فى اليوم فلا ينقص عن ثلاثين فرنكا. وذلك سواء فى السفر والإقامة .

قال مادلين : «قبلنا شرائطك، فابعث به غدا عند تنفس الصباح» ثم ألقى إليه ثلاث قطع من الذهب. وقال : «هاك أجره ليومين» وخرج من عنده، ولكنه ما لبث أن عقب إليه

وسـأله قائلا: كم تقدر ثمن العجلة والجواد إذا ساومك فيـهما مساوم؟». قـال : «أتنوى ابتيـاعهمـا؟». قـال :«بل أريد أن أقف على الثمن خشـية الطوارق فى الطريق». قـال : «أربع وعشرون قطعـة من الذهب». قـال : «هاكهـا» ثم خـرج ولم يـعقب، ولبث صـاحب الجواد فى مكانه يحز الودج أسفـا على مـا فاته من طلب المضـاعـفة فى الثمن، وجـعل يقول : «ليتنى طلبت إليه أكثر من ذلك القدر، فإنى لأجحد منه ريح الاضطرار، ولكنها فرصة عرضت فسرحتها عنى بوادر العجلة» .

* * *

ذهب مـادلين إلى مـخدعه فلبث فيـه بعض سـاعة، ثم أخـذ مضـجعه ونام وشبـاب الظلمـاء فى عنفوان. وكـان له صراف يقطن فى حجرة بأسفل مـخدعه، فلمـا انتصف الليل أو كاد شعر هذا الصراف بحركة فوق رأسه قد قطعت عليه نومه، فاستيقظ وجعل يتسمع فسرى إليه صـوت وقع لأقدام تقبل، وتدبر فى الحجرة التى فوقه، فتبينها فإذا هى أقدام سيدة، ومـا وقع له قبل الليلـة أن يسمع فى حجرة مـادلين حركة قبل الصبـاح، فـعجب لوقوع ذلك فى مثل هـذه السـاعـة من الليل، وقـال لـعلهـا لأرق نزل به، وزاد فى عجبه أن سمع صريرا بأدراج الدولاب، فاستوى فى سريره قـاعدا وطرد من عينيه ما علق بهمـا من كسل النعاس ونظر من النافـذة فلمح على الجـدار الذى يقابله انعكاس أشعة فترسمـهـا بالنظر، فإذا هـى مـرسلة من طاق الحجرة التى لسيده، فـأدمن إليـهـا النظر، فـألفاها حمراء تضطرب على الجدار اضطرابا كـأنما كـان مـصدر انبعاثهـا نـارا تشب لا سراجا يضىء .

وكـانت لا تلوح بها صـورة ولا يتراءى فيها خيال، فعلم أن زجـاج النافـذة التى باتت تنبعث منها كـان مرفوعا، ولما تحقق ذلك أهوى برأسـه إلى الوسادة، وجعل يعـالج النوم من جديد فـاستغرق هزيعـا من الليل، ثم تنبه فإذا هو يسمع وقع تلك الأقدام المطمئنة ويرى تلك الأشعة ولكنهـا قد عرتهـا الصفـرة وعراهـا السـكون، فـأيقن فى هـذه المرة أنهـا لم تكن منعكسة عن غير ضوء السراج .

وإليك أيها القارئ مـا وقع منذ الليلة فى حجرة مـادلين . ومـا لنا لا نقول فى حجرة (جان فالجان). ومـا غاب عنك أننا لا نعنى بهذين العلمين إلا مسمى واحدا .

كلمة فى سريرة الإنسان

نظرنا قبل اليوم نظرة فى مرآة تلك السريرة ثم صورنا للبصر ما لمحته عين البصيرة. وها نحن أولاء ننظر الثانية، وإن كان من وراء ذلك هزة للنفس ورجفة للفؤاد يقف أحدكم على شاطئ البحر المحيط، فتكبره عينه، وتعظمه نفسه فإذا انتقل بنظره إلى المساء أصغرت عينيه البحر وأكبرت نفسه المساء وإنه ليتضاءل فى عينه المشهدان، ويصغر فى نفسه الكونان إذا ما نظر بعين الوجدان فى مرآة سريرة الإنسان فإنك لا تجد مشهدا يحرك النفوس وتقف دونه مدارك الأفهام كذلك المشهد، فهو إذا أضاء ذهب سناؤه بالبصر وإذا أدجى أعيت ظلمته الفكر، وقل أن تستقر فيه عين البصيرة على شيء تلم بكنهه، أو تخترق حجاب سره لامتداد أمده وفرط غموضه فلو أنك حاولت وصفا لأدنى سرائر البشر، وعمدت فى ذلك إلى قرض الشعر والاستعانة بالخيال لأعوزك الوصف وأعجزك الوصول. اللهم إلا إذا نزعت إلى جمع ما قيل من القصائد والأناشيد منذ خط القلم إلى أوان العدم ، وأذبت الجميع فى بودقة الفكر، ثم استللت منها سبيكة شعرية يتناول حسنها ما وراء النفوس، ويجلو رونقها صدأ الخواطر .

فالسريرة هى ميدان الشهوات، ومهبط المخزيات، بل قارورة الغرور، وتنور الأحلام، وموطن المطامع، ومسرح الأباطيل، ألا ترى أنك لو ظفرت بأحدنا وقد لاحت عليه سيما التفكر والانشغال، ثم نظرت فى صورته كنت ممن يكشف لهم الغطاء عما يجول فى قراراة النفس، وخلجان الفؤاد، أما كنت ترى تحت ذلك السكون العميق حربا قائمة وخيالات مشتبكة ؟!

نعم إنه ليتمثل لعينك فى ضمير هذا الفؤاد ويتراءى لك بين دفتى ذلك الحيزوم ما سطره (هومير) وذكره ميلتون، وتوهمه (دانتى). ولقد طال بنا الوقوف أيها القارئ على ذلك المشهد العظيم، ونحن نتهيب طرقه ونكبر الدخول فيه، ولكنا سننشد منه، ونقدم على فتحه، وموعدنا الجزء الثانى إن شاء الله تعالى .

الجزء الثانى

الفصل الثالث

عاصفة تحت جمجمة
أو "فورة"

قدمنا بين يدى القارئ ما كان من أمر (جان فالجان منذ ابتز ذلك الغلام قطعته الفضية ، وقد رأى كيف حال [١] هذا الرجل إلى رجل آخر ، وكيف فعلت فى نفسه كلمات العابد أفاعيلها فاختطفته إلى المعبود ، وأخرجته من مسلاخ [٢] الشرة [٣] والضغينة ، وأسكنته فى إهاب من الفضيلة .

بدأ بالمبالغة فى الاختفاء والتنكر ، وثنى ببيع تلك الآنية الفضية ولم يبق منها على غير الشمعدانين [٤] . ولعله أبقى عليهما ذكرة لذلك الصنيع .

وجعل ينسل فى سر [٥] من الناس من قرية إلى قرية حتى مسح أرض فرنسا ، ودوخ بها كل مكان وألقى عصاه بقرية (منتراى سيرمير) وأدر الله له أخلاف [٦] الرزق فأثرى ، ثم مكن لنفسه حتى جعلها بمنجاة من المطاردة .

ولبث ما شاء الله يرى أن السعادة فى يقظة الضمير ، فكان كلما بضع [٧] الندم على ماضيه من فؤاده بضعة شعر فى نفسه بوفر تلك السعادة ، ولقد تكلفت حسنات الشطر الثانى من حياته بغسل حوبات [٨] الشطر الأول.

---

(١) تحول .
(٢) جلد
(٣) الشر
(٤) فارسى معرب
(٥) أى خفاء
(٦) الثدى للمرأة والأطباء للكلبة والاخلاف للناقة
(٧) قطع
(٨) الحوبة الذنب .

وكان رأسه مضطربًا لفكرتين لا ثالثة لهما : أن يخفى اسمه وأن يقف حياته على الفرار من المخلوق والرجوع إلى الخالق . وقد امتزجت هاتان الفكرتان بعقله امتزاجًا حتى حالتا إلى شيء واحد ، أصبح له السلطان المطلق على إرادته ، فاستقرتا فى قرارة نفسه وتناولتا ما وراء وجدانه ، فهما اللتان دعتاه إلى الانزواء فلبى ، وإلى البر فمضى ، وإلى التقشف فأطاع .

وتمر به لمحات يقع فيها بينهما العراك فتدفعه الأولى إلى أمر وتثنيه الثانية عنه ، ولكنه ما كان يحجم لمحة عن إيثار ثانيتهما على أولاهما ، فهو يؤثر الفضيلة وإن جرت إلى هتك ستره ، على طمأنينة نفسه وثلوج صدره فى اختفاء أمره .

ألم تر إليه كيف غامر بنفسه يوم العجلة فأنقذ (فوشلفان) و(جافير) يلقى عليه نظرات تكاد تخرق شغاف قلبه ، وكيف لبس الحداد على العابد ، وإن طارت حوله فى ذلك الشبهات .

فقد قام بنفسه أن أول فرض عليه إنما يجب القيام به لغير شخصه . على أنه لم يشهد مشهدًا لهذا العراك كان أشد هولاً وأعظم مراسًا من ذلك الذى مر به حين دخل عليه (جافير) ولفظ أمامه ذلك الاسم الذى درج فى أثناء النسيان ، فاضطربت له نفسه من داخل الجسد استخذى عند سماعه وعجب لذلك الجد الذى لا يفارقه العثار ، وهجم عليه أمر فانحنى انحناء الدوحة تدانيها العاصفة أو الجندى يتهيأ للاقتحام . وهم وهو ينصت لـ (جافير) أن يطرح رداء التنكر ، ويطير إلى ذلك السجن الذى أودعوه (جان ماتيو) فيقتلعه منه ويحل محله ، ولكنه لم يلبث أن عاودته الأثرة ، فأكبر هذه النزعة النبيلة ، وتراجع أمام تلك البطولة .

ولو كان ممن تزكو [(١)] عنده العوارف لزكت عنده عارفة العابد ، ولغيرت منه تلك السنون التى طواها بين الزهد والتوبة ، ولغبر [(٢)] يمشى قدمًا بقدم مطمئنة وصدر مثلوج إلى تلك الهاوية المفتوحة أمامه فهناك عند قرارها قد ألقيت مفاتيح الجنة التى كان ينشدها .

---

(١) زكت العارفة أى أثمر الجميل.

(٢) مضى

نعم كان الأخلق به أن يكون ذلك الرجل ، ولكنه لم يكنه . وإليك ما كان يجول فى نواحى نفسه .

غمره عند الوهلة الأولى شعور المحافظة على النفس ، فخفض من جزعه وتصام عن نداء ضميره وأهاب [١] بحلمه حتى إذا ثاب إليه أضمر فى نفسه وهو ينظر إلى (جافير) أن يتلوم [٢] بعض التلوم فى الحكم على مصيره .

ولبث سراة [٣] يومه وعلى ظاهره من السكون طلاء وفى باطنه من الجزع صلاء [٤] فلم يفكر فى ذات غيبه [٥] ولا فى الأخذ بالحيطة مما عسى أن ينزل به من العوادى. ولا بدع فقد تخونه الحزم وقرعه (جافير) بقارعة أطارت صوابه وزلزلت أركان نفسه وكان مبلغ علمه بحالته أن أصبح تحت كلكل كارثة لا يدرى متى تفلته .

* * *

انكفأ إلى حجرة (فانتين) يعودها وجلس على مقربة من فراش آلامها وأطال الجلوس، فقد كان على نية سفر لا يعرف أمده . وعلى أنها نية مبهمة لم يضرب فيها رأيًا ولم يستشر عزمًا ، فقد مرت به الفكر أبابيل [٦] وهو لفرط خياله ، لا يكاد يميز بين صورها .

وما أدرى أكانت به نفسه أم كان به ذلك السجين أم تلك المحتضرة أم وليدتها المنبوذة بذلك النزل ، فكان يقول فى نفسه ما ضرنى ألا أريم [٧] مكانى فأرقب مواقع القضاء فى الحادث وأنا وادع لا تسمو إلىّ الخطوب ولا تلتفت الظنون ، وهذه عجلة (سكوفير) تحت يدى فمتى أحسست الشر ركبت عليها النجاة .

---

(١) صاح

(٢) يتأنى

(٣) طول

(٤) الصلاء النار

(٥) ذات الغيب المستقبل .

(٦) جماعات .

(٧) أبرح .

حضر بعد ذلك وقت طعامه فأصاب منه إصابة مقدرة . ثم دخل مخدعه وهو مذهوب به ، فخلا إلى نفسه وأنعم التفكير وجعل يقلب وجوه الرأى فتعاظمه الأمر وأخذت عليه أفواه السبل وسدت مسارح النجاة .

ساورته المخاوف وفاعته [1] الأوهام ، فقام إلى الباب فاستوثق منه وإلى المزلاج فأثبته حتى ظن أنه فى مأمن من الطارق والطارئ ، ثم أقام خلفه المتاريس طلباً للمزيد فى الأمن وأطفأ السراج لأنه لم يكن يسكن إلى النور ثم قال فى نفسه ألا أزال مرئياً (عن أى عين يا ترى كان يريد أن يتوارى) ؟ .

يا ويله ! إن ذلك الذى كان يجد فى الفرار منه ويقيم فى طريقه الحوائل ويستنجد بالظلام مازال معه فى حجرة واحدة .

ذلك هو ضميره وتلك هى عينه .

ولعله كان يعالج خدعة نفسه حين ظن أنه كان فى عزلة وأمن ، وأن الباب والمزلاج يحولان بينه وبين ما يخشى . فجمع أشتات نفسه حتى خال أنه صار جميع [2] الفؤاد ثم عصب رأسه بيديه واعتمد بمرفقيه على منضدة كانت أمامه وأنشأ يحدث نفسه :

– أين أنا ؟ وما عسى أن يكون ما أنه فيه ؟ ترى هل كذبتنى العين حين رأت (جافير) ؟ وهل خاننى السمع حين أفرغ فيه اسم ذلك الرجل (جان متيو) ؟ أتراه آمناً فى سربى ، وأرانى اليوم فى قلق لا أدرى متى ينطوى أجله .

فانظر على أى سيال من الألم قد بات يتململ هذا البائس الذى ضاق محيط عقله عن جولات تلك الأفكار التى تدافعت فى رأسه كالأمواج حتى إنه ليدفعها عنه باليدين. وكان يحاول أن ينتزع من كل أولئك يقينا يجد له برداً على قلبه ، ولكنه لم ينتزع غير الحيرة والمضض .

(١) فعلت فعل الأفعلى .

(٢) غير متفرق الفؤاد .

وكاد يلتهب رأسه فقام إلى النافذة ففتحها ونظر إلى السماء ، فإذا بها ضريرة النجم (١) ساقطة النواحى (٢) فعاد وارتمى على مقعده .

ومر به قط من الليل وهو على تلك الحال ، ثم أطافت برأسه صور مبهمة أخذت تتجمع وتتبين حتى لفتت إليها تأمله فلمحها بعين الحقيقة لمحة ألمت ببعض أطرافها فعاد إلى نفسه بعض الشيء ، وبدأ يشهد على نفسه أن الحالة التى نزل إليها إنما هى من صنع يده - حال حقيقة باللوم لا يلابسها المرىء (٣) ولا يستقر عليها العيوف .

ومن نظر فى أمر هذا البائس ، وقر فى نفسه أنه على زهده وتقشفه لم يأت حتى الساعة شيئًا مذكورًا ، اللهم إلا ذلك الثقب الذى ثقبه ووأد فيه اسمه ، وود لو نسجت عليه الأيام طبقات من النسيان لا ينفذ إليها شعاع من الذكرى فكان إذا خطر له أن سيأتى يوم يذكر فيه هذا الاسم ذاكر ، نسف ذلك الخاطر نفسه فى نهاره ، ونزف أنفاسه فى ليله ، وأغرى به سهاداً تقض (٤) عليه معه المضاجع ، وتطارحه الوساوس. ولطالما كان يقول لنفسه إن هذا اليوم إذا أوفى عليه ليذهبن بما يحيط به من راحة ونعيم ، حتى إنه ليشفق أن يذهب بتلك النفس الجديدة التى ربها (٥) بالتقوى وتعهدها بالإحسان .

نعم لقد غمر هذا الفكر شعوره ، وشغل أرجاء نفسه ، فلو أن قائلاً قال له : أن هذا اليوم لا بد آت وأن تلك الكلمة (جان فالجان) لابد أن تثب من مكمنها ، وتتراءى أمامك فى هيكل نورانى يهتك ستار الظلمة الذى أسدلته على نفسه ، فإذا جاءك هذا اليوم فلا تبتئس به ، فلن يضيرك أن تسمع ذلك الاسم فإنه سيرفع منك ، ولا يهولنك أن ترى ذلك النور فإنه سيزيد فى الظلمة التى تنشدها ، ولا ذلك الستار الممزق فإنه سيكون أكتم لسرك ، ولا ذلك الزلزال المروع فإنه سيصبح أدعم لبنائك ، فاكشف عن

---

(١) يحجبها السحاب .

(٢) شديدة الظلمة .

(٣) ذو المروءة .

(٤) تمتلئ عليه قضا وقضيضًا ، أى حصى .

(٥) ربها بمعنى رباها .

حياتك تبلغ مناك من كتمان أمرك ، وقف أمام طيف (جان فالجان) وقفة تخرج منها أنبل نفساً ، وأنبه ذكرا وأجمل أمراً .

لو أن قائلاً قال له ذلك ، لنأى عنه بجانبه ، ولظن أنه يعالج المستحيل ، على أن الذى كان يظنه داخلاً فى باب الاستحالة قد دخل فى باب الإمكان ، وجرت به الأقدار فوقع أخذ حلمه يتكشف رويداً رويداً وأخذ هو يزداد علماً بحقيقة أمره .

خيل إليه أنه قد أفاق من خفقة – وما أدرى من أى خفقة أفاق – وأنه قد رأى نفسه ينزلق فى جوف الليل على منحدر قد وقف به على حفاف [١] هاوية ، وأنه قد حاول أن ينحرف عنها ، فأثبته الخوف وقيده الوهم ، وأنه قد رأى تحت راية ذلك الليل خلقًا [٢] أراد أن يتبينه فتنكرت له معارفه حتى أنكره ، فألقى فى روعه أن الأقدار قد شبه لها ذلك الخلق فظنته (جان فالجان) فأخذته به وساقته ظلما إلى تلك الهاوية التى لم يكن لها بد من أحد رجلين : إما هو ، وإما ذلك المأخوذ به ، فعجز عن المقاومة وترك الأقدار تجرى على أذلالها [٣] .

ولما تجلى له نور الحقيقة أنشأ يصارح نفسه ويقول إن مكانى فى السجن لا يزال بحمد الله خاليًا يطالعنى منذ ذهب بورقة ذلك الغلام ، وإنى لأشعر كأن قوة باطنة تسوقنى إليه فهو مدركى وإن أمعنت فى الهرب ، ولشد ما يرمضنى [٤] أن يقيموا فيه بديلاً منى ، وإن هو إلا عاثر قد رمى به نحس طالعه فى أيديهم ، فأخذوه بى فأصبحت بفضل ذلك آمنًا فى سربى ، فأنا مقيم هناك فى لباس (جان ماتيو) وأنا مقيم هنا فى لباس (مادلين) ولكن أيسعنى فى مروءتى أن أترك هذا البائس يدفن فى السجن كما تدفن التوابيت دفنًا لا قيام معه ، ولكن تحت جنادل الخزى والعار ؟ . أم كيف يجمل بى أن أتدلى هنا فى النعم ، وهو يتدلى هناك فى النقم ؟ ! .

---

(١) أى حافة .

(٢) مخلوقًا .

(٣) تجرى فى أعنتها .

(٤) يقيمنى على الرمضاء .

وعلى أثر ذلك تحركت نفسه حركة يقعد عنها الوصف ، حركة لا تمر بنفس الحى فى مدى حياته غير مرات معدودات فقد اختلجت سريرته اختلاجًا بعث ما كان كامنًا فى فؤاده من الهواجس ، وقع ذلك على أثر مزيج قد جمع فى نفسه من الفرح واليأس والازدراء . تلك هى إحدى ضحكات السرائر .

قام بعد ذلك إلى المصباح فأضاءه من جديد وطرح عن منكبيه رداء الفزع ، فلما سكت عنه الروع ، قال لنفسه ما لى أرانى على غير استواء وأنا بمنجاة من المكروه ؟ . وكنت أفرق [1] من طريق واحد طالما قدرت أن تدهمنى منه الدواهى ، ولكنه قد سد بحمد الله فأصبح (جافير) لا يجد إلىّ سبيلاً وأصبحت فى مأمن من شر ذلك الرجل الذى ركبت فيه غريزة كلب الصيد ، فكم وقفته على أثرى حتى كاد يكشف عن أمرى - على أنها قد خانته هذه المرة فجرته على أثر غيرى ، فلينقلب على عقبيه وليشتغل به عنى ، وليدعنى أستروح روائح الأمن ، فقد طال عهدى بها . وليقبض على (جان فالجانه) الجديد وليبرح المدينة متى شاء فكل أولئك لم أكن عنه مسئولاً ، فحسبى ما كابدت من ألم وعانيت من جزع ، فلو أن رائيًا رآنى الساعة لما شك فى أنى قريب عهد بالإفاقة من سقم ، أو بالإفلات من براثن حادث .

وإذا تأنقت الأقدار فى مكروه ذلك الإنسان فتلك مشيئتها . وأنّى للمرء أن يدفع القدر عن غيره إذا هو أعجزه أن يدفعه عن نفسه ، وأنى لا أرى مبررًا لما كنت فيه من الجزع ، فإن الأمل الذى كنت أتنسمه طوال السنين ، والشىء الذى كان يملأ على أحلامى قد ظفرت به ، ذلك هو الأمن وهو بغيتى ، فمالى لا أشكر الله على تلك النعمة ، فلعله قد ارتاح [2] لى وتقبل منى ، وأراد أن أجرى فى طريقى ، فقد أخذت نفسى بصحبة الفضيلة ، ورددتها إلى التقى حتى قرت ، ورضتها على البر حتى سكنت ، فكيف أنسى يوم دخلت على ذلك العابد فنفضت إليه جملة ما مر بى ، فأفرغ فى أذنى كلمات وعيتها حتى الموت ، فلأمضين على هذا السنن فتلك مشيئة الله ، صحت عزيمته

---

(١) أخاف .

(٢) أى غفر لى .

على ذلك بعد أن سكن خلجان سريرته ، وبعد أن كاد يستل خيط نخاعه من طول ما ساءل نفسه وفكر .

* * *

لبث غير بعيد ثم قام يتمشى فى مخدعه وما شاع فى نفسه سرور ، ولا قر له قرار كما كان يتوقع أن يكون . وما هى إلا بعض الخطوات حتى عاوده ما كان فيه .

والفكر كالبحر . فمن استطاع أن يرد البحر عن العود إلى شاطئه استطاع أن يرد الفكر عن العود إلى مناطه . وعلة البحر فى ذلك يعرفها الملاح وهى المد والجزر ، وعلة الفكر يعرفها المذنب وهى الندم .. فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط ! .

نعم عاد إلى ما كان فيه من حوار نفسه ، فكان هو المناجى . وكان هو المصغى . وكم حاول ألا يكونهما . ولكن قوة باطنة ساقته سوقًا ، وألحت عليه بوحيها : أن فكر فى ذلك الذى سيق إلى الموت قبل اليوم بألفى سنة ! وقبل أن نجرى بك شوطًا بعيدًا أيها القارئ ، يجمل بك أن تصبر قليلاً على الإسهاب فى أمر لم نر بدا من بسطه :

من المألوف أن يناجى المرء نفسه . وليس بين أهل الفكر من لم يطعم [(١)] تلك المناجاة - وإنها لسر من أجمل الأسرار وأخفاها ينتقل فيها الحديث من الفكر إلى السريرة ، ثم ترده السريرة إلى الفكر ، فإذا علمت هذا حلا لك أن تفهم الأسلوب الذى طال ترديده فى هذا الباب من قولنا : «ثم قال - ثم صاح - قال لنفسه - كلم نفسه - صاح فى باطنه» . وصيحة الباطن لا تقطع سكوت الظاهر ، فقد تقع ضجة فى الباطن يتناول الكلام فيها كل ما فى الجسم من عضو وجانحة غير الفم .

تلك حقيقة من حقائق النفس وإن لم يقع عليها الحس أن يدركها اللمس .

---

(١) يذق .

تساءل أين هو من الأمر ؟ وما عسى أن يكون ذلك العزم الذى اعتزمه ؟ فأقر فى نفسه أن كل ما أصر عليه إنما هو باطل وأن الاستسلام للقدر فى هذا الموطن لمن إحدى الكبر وكبر عليه أن يدع ذلك القدر فى وهمه ، وأولئك الناس فى ضلالتهم ، وهاله أن يجمد عن الحق وهم فى الباطل يتدفقون . ورسخ فى اعتقاده أن السكوت فى مثل هذه المواطن إنما هو اشتراك فى الإثم ، وأن الإحجام عن المفاداة ، خليق أن ينزل به إلى أحط منازل الآثام.

منذ سنين ثمان لم يذق ذلك المسكين طعم هذه المرارة ، فتزلزلت نيته التى نواها وجلس إلى نفسه يحاسبها وهو أقسى ما يكون ، وجعل يقول : "إن لكل حى غاية يعمل على إدراك مداها . وقد كانت لى غاية أرى أنى قد بلغتها ، فلم أخفق مرة فى التنكير وخدعة الشرطة ، ولكنها غاية خاوية من روح الفضيلة ، أمن أجلها يا ترى فعلت ما فعلت ؟ لقد كان خيراً لى أن أعمل على بلوغ المقصد الأسمى فأنجو بالروح لا بالجسد ، وأنزل منازل الأبرار . فلن أعق نفسى بعقوقى ذلك العابد . فمالى أفتح باب الماضى على مصراعيه وقد أمرنى العابد أن أوصده ؟ فسوأة لى . لقد أصبحت لصا تتعوذ منه أبالسة الشطار ، فإنهم ربما سلبوا المرء متاعه ولم يختلسوا نفسه ، فكم من سليب قد نجا بحشاشته .

" أما أنا فقد سرقت من ذلك البائس وجوده ، وابتززت حياته وسلبت راحته واغتصبت حتى مكانه تحت الشمس وما كان القاتل بدونى فى قبح الصنيع ، على أنى لم أحسن القتلة ، فهو اليوم فى سجنه ميت حى .

" ذلك لعمرى أبشع ألوان الإجرام ، فمالى لا أفتديه بنفسى فأسترد ذلك الاسم وأعود كما كنت (جان فالجان) المجرم الأثيم .

فإذا طبت بذلك نفسا بعثت بين الخلق من جديد وخرجت من هذا الجحيم خروجاً لا يعقبه رجوع . فإذا فررت منه إلى السجن، فإنما أفر من جحيم الروح إلى جحيم الجسد ، وشتان ما بين العذابين ، ولئن لم أفعل لأكونن من الخاسرين ، وليس بمغن عنى ما قدمته بين يدى آخرتى من عمل دنياى ، إذا ما عدل بى طبعى إلى الخور فحال بينى وبين ما اعتزمته .

وهذا العابد لا أفتأ أراه كأنه حى وكأنه منى أدنى [1] ظلام ينهبنى بنظره نهبًا . وكأنه يؤثر أن يرانى فى لباس (جان فالجان) وإن كان من نسج الإجرام على أن يرانى فى لباس (مادلين) وإن كان من نسج التقوى ، وإذا جاز على الناس تنكرى فلن يجوز عليه .

فما نظروا إلا إلى الوجه وما نظر إلا إلى الضمير ، فقد استحال إلا الذهاب إلى (أراس) وإنقاذ ذلك المكذوب عليه ، ولئن أقدمت على ذلك لأقدمن على ما يحجم عنه الناس- تلك هى المفاداة وإن عزت على النفس ، وذلك هو النصر وإن كان أليمًا . فلنخط هذه الخطوة فقد شاء القدر ألا أكون نقيًا فى نظر الله حتى أكون دنسًا فى نظر الناس !".

رفع عقيرته بذلك وهو لا يشعر ، ثم قام إلى كتبه فنسقها وإلى وثائق ديون كانت له على بعض المعسرين من التجار ، فألقى بها فى النار ثم كتب كتاباً وغلفه .

ولو أن أحداً كان معه فى الحجرة لاستطاع أن يقرأ هذا العنوان (مسيو لافيد بمصرفه شارع أرتو) وقام بعد ذلك إلى خزانة أسراره ، فأزعج منها درجًا التقط منه محفظة .

ولو رأيته على تلك الحال وهو يعالج هذا العمل وقد خرج به التأمل عن حد الشعور بما يحيط به لما خفى عليك ما كان يخفيه فى قرارة نفسه ، ولرأيت أنه كان يحرك شفتيه وتارة يرفع رأسه ويقف بنظره على الحائط وقفة المستطلع كمن يحاول كشف سر أو استجلاء غامض .

ضم إليه الكتاب الذى كتبه ، والمحفظة التى التقطها وعاد إلى السير فى مخدعه وفكره لم يبرح رأسه ولم ينحرف عن مجراه . فكان كلما تنقل ببصره رأى أمامه لوح المقدور وفيه سطر قد خط بأحرف من النور : اذهب فأمط عنك اللثام وانتسب .

---

(١) أقرب شىء .

وعلى الأثر تراءت له الفكرتان اللتان جعلهما ملاك حياته وقد سكنتا فى هيكلين متباينين أخذا يدنوان منه تحت الليل (وما نسى القارئ أن أولاهما لم تكن غير التنكر وأن ثانيتهما لم تكن غير التوبة والرجوع إلى الخالق) فجعل يضاهى بينهما ويقيس ويقدر حتى خلص إلى الحكم بأن الأولى إنما ركبت من الأثرة (١) وحب العاجلة (٢) فهى إذن من وحى الشيطان ، وأن الثانية إنما صورت من الاحتساب وحب الآجلة فهى إذن من وحى السماء . ورأى هذه وهى تنهض من الظلمة وتلك وهى تنبعث من النور فرزق التمييز بين نزعة الشر ونزعة الخير .

ثم اشتبكتا أمامه فى نزال فجعل يفكر فى أمرهما ، وأنه لذلك إذ نظر إليهما بعين عقله ، فإذا بهما قد أخذتا تربوان وتعظمان حتى صارتا كتماثيل العماليق ، وفى هذه اللمحة أحس فى باطنه وفى ذلك الملكوت النفسى الذى لا يعرف مداه نضالاً قد قام بين ملك من الملائكة وشيطان من الشياطين وسط كتائب من الظلمة والنور . وكان يؤتى(٣) إليه أنه فى حراسة ذلك الملك فشد (٤) منه أن رآه من الظاهرين (٣) ومرّ كأن لم يكن ذلك الجازع ، وأيقن أن السريرة والقدر أوفيا على ساعة الإبرام فى أمره.

فقال فى نفسه : لقد أوضح العابد سبيلى فى الطور الأول من حياتى الجديدة . وها هو ذا (جان ماتيو) يوضحه لى فى طورها الأخير .

وعاودته حمى الفكر بعد أن هدأت هدأة فمرت برأسه ألف فكرة وكلها تصيح به أن امض فى عزيمتك ولكنه لم ينج فى أثنائها من خلجة شك مرت بنفسه ، فقال : أرانى متعجلاً فى الأمر ، وما كان (جان ماتيو) ممن يعتد بهم ، إن هو إلا لص من السارقين.

---

(١) حب الذات .

(٢) حب الدنيا .

(٣) يخيل إليه .

(٢) قواه .

(٤) الغالبين .

ثم عاد فقال لفسه : "إذا كان هذا الرجل من السارقين كما يزعمون ، فإنه عقابه لا يتعدى عمر الشهر فى السجن . فما له كتب عليه أن يطوى فيه حياته ؟ فلولا أنهم أخذوه بى وحل به شؤم اسمى الذى لبسه كارها ، لما حشروه فى زمرة المجرمين لانتزاعه تفاحتين أو ثلاثًا من شجرة لغيره ، وما كان نائب الملك ليصنع به ما صنع ، لولا أن علم أن له سوالف غير محمودة ، وأنه يحمل ذلك الاسم الممقوت " .

ثم خطر له أن يذهب فيكشف عن نفسه لعلهم يمهرون هذه البطولة بالعفو عنه. دع تقديرهم لحسن سيرته وما خلف وراءه من الخيرات فى هذا البلد ، ولكن هذا الخاطر لم يلبث أن محته ابتسامة مرة قد خطفت على شفتيه ، فقد قال لنفسه على الأثر :

– إن قطعة الفضة التى انتزعتها من ذلك الغلام انتزاعًا ستلبسنى ثوب المجرم العائد ، وعقابى على ذلك لا يحتمل التأويل فهو سجن الأبد .

ثم نفض عنه غرور دنياه وقطع ما بينه وبين الأرض واتجه إلى السماء يستنزل المعونة والعزاء . وقال :"سبيلى أن أقوم بالواجب فلست أتوقع شرًا مما أنه فيه . فهبنى تركت الأقدار تجرى على إذلالها ، ولبثت فى القرية بين سيجان من العز والشهرة وحسن الأحدوثة التى أعلم دون غيرى أنها متبلة [1] بالجريمة ، فأى نفس زكية ترضى بأمثال تلك النعم إذا ما علقت بها اللعنة ؟ على أننى إذا طبت نفسًا بالاحتساب ، وقضيت العمر فى السجن مقيدًا مغلولاً فى لباس من العار لا يستمطر رحمة القلوب ، بلغت بذلك مرتبة الرضى ! .

" وهذا أمر قد فرغ منه القدر ، وما خلقت لأنقض فى الأرض ما أبرم فى السماء.. فأنا اليوم بين أمرين: إما فضيلة تحتها عار ، وأما عار تحته فضيلة " .

وتعاقبت عليه الأفكار وأطافت به الهواجس ، فما نهنهت من عزمه ولا كفت من غربه ، ولكنها كدت ذهنه وأفظعته بكراتها حتى وهى عن احتمالها ، فجعلت عروقه

---

(١) متبلة – بتشديد الباء – أى مخلوطة بالجريمة – من تبل الطعام – بتشديد الباء – جعل فيه التابل الذى يطيبه .

تطرق فى صفحتى وجهه كالمطارق ، وإنه لكذلك إذ آذنت ساعة البيعة (الكنيسة) بانتصاف الليل ، وأجابتها ساعة بإحدى دور المدينة ، فجعل يعد الاثنتى عشرة دقة للساعتين ، ويضاهى بين جرس [1] الجرسين فذكر على الأثر أنه رأى عند أحد باعة الفلزات [2] جرساً عتيقاً معروضاً للبيع وعليه اسم (أنطوان ألبين) .

ثم أحس البرد فزاد فى نار المدفأة ، وغاب عنه أن يغلق النافذة ، ثم وقع فى ذهوله من جديد ، وحاول جهده أن يذكر ما كان يجول فى نفسه قبل انتصاف الليل فغمره النسيان ، ولكنه لم ينشب أن خرج منه إلى الذكر فقال : " لقد ذكرت أنى عقدت النية على الذهاب وإماطة اللثام " . وخطرت له ذكرى (فانتين) فلمح بين ظلمات هذه الهواجس وميض نور لم يكن يتوقع رؤيته ، فتغيرت حوله وجوه المناظر . وصاح : "ويل لى ! لقد أعمانى حب الأثرة فلم أفكر فى غيرة نفسى ، وأرانى قد قصرت همتى على أمرين إما التنكير وفيه نجاة الجسد ، وإما الظهور وفيه نجاة الروح . ولقد خاصمت نفسى إلى نفسى فكنت قاضياً قد جمع بين العزة والهون ، وكنت مجرماً قد ضم بين النبل والخسة . وهذا لعمر الله لون من ألوان الأثرة ولو ملت إلى الايثار لبدأت بغيرى.

"فهبنى ذهبت اليوم ، وكشفت عن نفسى فساقونى إلى السجن وخلوا سبيل (جان ماتيو) ، فماذا يحل بعدى بهذا البلد الذى أغاثه الله بى ، (فأقمت فيه المصانع ، وأيقظت الصناعة وشيدت دوراً للعاملين وأخرى للعاملات ، وكفلت الأيتام وحبست الأرزاق على الزمنى ، وكنت لهم بمنزلة الوقود من التنور واللحم من القدر ... فهم يستمدون منى حياتهم ، وأنا محور تجارتهم وموئل عفاتهم ، ومثابة [3] أرزاقهم وبى أخصب عيشهم واخضرت أعوادهم ، ولم يكونوا من قبل شيئاً مذكوراً ! .

" دع تلك البائسة المضعوفة التى أصحبت هامة [4] اليوم أو غد بعد أن ابتذلت خدرها ، وهوت من سماء ظهرها ، وأنا الذى أخرجها عن أفق العفة ، وكنت أذنا للسعاية بها فطرحتها من المصنع حين لا موئل ولا عائل ، فأكلت بثدييها وكنت لها من الظالمين .

---

(١) الجرس صوت يجرس .

(٢) الخردوات أو ما ينفيه الكير من خبث الحديد .

(٣) محل .

(٤) يقال فلان أصبح هامة اليوم أى حضر أجله.

وتلك الطفلة المنبوذة وقد عاهدت الأم على نجاتها فما أصنع بعهدى معها إذا نزحت اليوم ، فماتت الأم وأصبحت الطفلة تحت رحمة الاتفاق ، يقذف بها القدر فتلقفها الغير ، فلننظر ما ينجم من الضرر فى حالتى اللبث والذهاب " !.

ثم وقف عند هذه النظرة فعراه ضرب من الحيرة أعقبته رعدة مرت كأن لم يكن ، فتمكن من نفسه وقال : ليذهب ذلك الرجل إلى السجن فقد سرق ، ومالى أحسن به الظن فأدفع عنه الإثم ، فلأمكثن هنا وأثمر هذا المال ، فإذا أحسنت عليه القيم ولد لى فى مدى عشر سنين ألفى ألف أنفقها فى وجوه البر ، وليس بى أن أعمل لنفسى ، فلست ممن يتربحون فى الجميل ، فإذا استبحر البلد وماج بأهله ولدت القرية مدينة وولدت الدسكرة [(١)] قرية وأطلع العراء ضيعة [(٢)] فتحيا الصناعة وتنمو المصانع وتكثر المناسج ، وتسعد الأسر ، فيموت البؤس وتموت بموته الآثام ، فلا قتل ولا سرقة ولا فسق ولا فجور ، وتنعم تلك البائسة بقرب طفلتها .

لقد كنت محمقًا حين قطعت بالسفر ، وما كانت آفتى فى ذلك إلا الأثرة ، لو أننى ذكرت غيرى لما هممت بركوب ذلك الخطل ، وإنها لضلة قد ثنى الله عنها عنانى .

أأستحيى نفسا أثيمة ، وأميت أنفسا زكية ، وأتوقع على هذا أجرًا ؟. بسل [(٣)] على أن تموت (فانتين) وهى على ظمأ إلى رؤية طفلتها ، وأن تهلك الطفلة ولا تعرف لها أمًا .

كل ذلك من أجل مجرم لا أراه إلا خليقًا بما حل به من العقاب ، ولا أحسب إلا أنه رب سوالف فى السوء ، فلا يضيره أن يقطع المرحلة الأخيرة من عمره سجينًا كان أو طليقًا .

---

(١) عزبة .

(٢) الأرض المزروعة أو الأفدنة .

(٤) حرام .

ولو أن لتلك الطفلة كافلا غيرى لما حزبنى الأمر ، فإذا أجرمت باللبث ههنا ، فعلى إجرامى ، وإن هى إلا غمزات من الندم أجد لها مسًا فى الفؤاد ، فلأصبرن على سعيرها ففيه نعيم لأناس ليس لهم دونى من ولى . وها أنذا وطنت النفس على عيش ظاهره الرحمة وباطنه العذاب . ذلك هو عين الاحتساب ..! " .

* * *

ثم طفق يمشى فى مخدعه وقد تبسطت فى هذه المرة نفسه ورضى عن عقباه وشحذ عزيمته على المضى فيما رسمه .

إنما تلتمس الحقائق فى دياجير أغوار الفكر ، فمثلها كحجر الماس لا يلتقط إلا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل - خيل إليه أنه هبط إلى تلك الأغوار فسلك فى أشدها حلوكة وأبعدها مدى ، ثم جعل يتحسس بيديه فى تلك الدجية [١] حتى ظفر بحجرة من ذلك الماس أو بحقيقة من تلك الحقائق ، وإنه ليقبض عليها إذ تفجر منها نور كاد يعشى بصره ، فصاح : "ها أنذا قد وجدتها ، وها هو ذا فى يدى مفتاح طلسمها .

"فأنا (مادلين) وسأكونه ما حييت ، فلا يسرنى أن أكون (جان فالجان) ، ومالى أقول جان فالجان ، وأنا لا أعرف خلقًا قد ركب عليه هذا الاسم ، فإن كان حيًا كما يزعمون فليتول أمر نفسه ولا أحسب هذا الاسم إلا طائر شؤم له سبحات تحت الليل ، فإذا عن له رأس قد انتواه القدر وقف فوقه فاضطرب ثم انقض عليه فطاح به " .

ثم نظر فى مرآة له صغيرة وقال : "لقد رفهت عنى هذه العزيمة ، فصرت بعدها غيرى قبلها " .

ثم خطا خطوات ووقف يخاطب نفسه :

---

(١) مفرد دجى .

"لتصنع العواقب صنعها فقد قضى الأمر ، واستحال غير الإقدام ، على أنى لا أزال أرى آصرة من الولد تربطنى بهذا الاسم فمن الكيس قطعها ، وأشياء فى هذا المخدع ربما وقفتهم على أثرى ومهدت السبيل للشك فى أمرى .. وهن وإن كن صوامت فإنهن أفصح عند الشهادة لسانًا من الناطقين ، فمن خطل الرأى أن أبقى عليهن " .

ثم ضرب بيده إلى جيبه فأخرج كيسًا التقط منه مفتاحًا أولجه فى ثقب قفل لا يكاد يرى لدقته فلكم خدع مكانه عين الناظر لكمونه بين خطوط دكناء رسمت متناسبة الأوضاع على ورق كسى به الحائط . فانفرج الحائط عن مخبأ كانت تواريه مرآة مضللة نصبت بين زاوية الجدار وحجاب المدفأة لتصرف عين الناظر ، وكان فى ذلك المخبأ أهدام بالية ومعطف أزرق وسراويل [1] رث وجراب عتيق وعصا غليظة مقمعة بالحديد. ذلك هو متاعه الذى كان يحمله يوم مر بمدينة (دنى) سنة ١٨١٥ وكان يخفيه عن نظره هربًا من ذكرى السجن ويظهر الشمعدانين حبًا فى ذكرى العابد .

ثم رمى الباب بنظرة عجلى كأنه يخشى الغرة برغم الوثوق من الإيصاد ، وأهوى كاللمح على ذلك المتاع دون أن يسعده بنظرة منه فاحتضنه ، وألقى به فى النار ، ذلك المتاع الذى طالما قدسه ، ولم يبال الخطر فى الإبقاء عليه .

وما هى إلا لمحة حتى تسرق المكان بنور أحمر رقصت أشعته على الجدار الذى يسامته ، فعلم أن النار قد أتت على متاعه إلا عصاه فقد بقى فيها ذماء [2] دل عليه شرر كانت لا تزال ترمى به إلى وسط الحجرة .

وسطع ريح الجراب وهو يحترق بما فيه من الخلقان ، وظهر على أثره فى الموقد شىء لماع لو دانيته لرأيت أنه لم يكن غير تلك القطعة الفضية - قطعة الغلام (سافويار) ووقع نظره على الشمعدانين وقد أضاءتهما النار فانعكس لهما على الموقد ما أدرى أى لون من ألوان الأشعة ، فصاح وهذا أيضًا لا معناة [3] للإبقاء عليهما ، ثم

(١) سراويل مفرد والجمع سراويلات .

(٢) بقية .

(٣) يقال معنى الشىء ومعناته ومعنيه .

ألحقهما بمتاعه فلم يلبثا أن صهرا وحالا إلى سبيكة منكرة - ثم خطا إلى الموقد فانحنى عليه واصطلى قليلاً وتنفس وقال : "نعم الدفء" !.

ولم يكد يحمد مغبة أمره حتى شعر كأن صوتًا فى داخله يصيح به: "جان فالجان" !" . فقفّ [١] شعر رأسه واستطير فؤاده وكان كمن يسمع صوت الويل ، ثم أخذ يتسمع وإذا به ناديه : "هنيئًا لك لقد أكملت صنعك ، أتلفت الشمعدانين - نجوت من ألم الذكرى - نسيت العابد - نسيت معه الماضى - سقت (جان ماتيو) إلى الهلاك- هنيئًا لك لقد نجوت - فكن شيخًا وقورًا ودع اسمك يحمل البلاء إلى غيرك فيمضى فداء لك - كن عريض الجاه خصب الفناء - عُل من شئت من الناس ، واكفل من شئت من الأيتام . ولا تنس وأنت مستقر فى الذروة من الجاه ومتدل فى الجزيل من النعم أن تذكر ذلك الذى يلبس فى السجن لباسك ويخطر فى قيودك وأغلالك ، فليهنئك ما قدمت يداك " .

فتفصد جبينه عرقًا ووقف ساهم الوجه سادر البصر فقد شدت أهدابه إلى بقايا الشمعدانين . كل ذلك والصوت لا ينقطع عن مناداته : "جان فالجان ! إنك لا تعدم أن ترى حولك قنابل [٢] من الناس ترتفع أصواتهم بالدعاء لك والثناء عليك ، فلا تنس وأنت فى مظهر سلطانك ذلك الصوت الخفى الذى لا يحجبه عن سمع الله حجاب ، واتق دعوة تنهض من ظلمة السجن إلى جوانب العرش فتجاب فى طريقها دعواتهم وتقطع سبيل العروج إلى السماء فتمسى وما لك غير اللعنة من خلاق [١] ولبئس عقبى الدار" .

وأخذ ذلك الصوت الذى كان يحدثه كالهامس فى أذنه يعلو ويعظم ، حتى صار له دوى كاد يفتق طبلتى مسمعيه ، وبعد أن كان يشعر أنه صوت من أصوات الضمير قام بنفسه أن الذى يكلمه يكن غير حى من الأحياء تحتويه الحجرة فرمى بصره يطلبه فى

---

(١) قفّ - بتشديد الفاء - شعر رأسه أى وقف .

(٢) جماعات.

(٣) أى نصيب .

أركانها ، وصاح وهو لا يعى : "من المتكلم ؟ " . ثم ضحك ضحكة من به مس - وقال : "لشد ما وهمت فليس هنا غيرى " .

وما كانت الحجرة خالية كما كذب نفسه ، ولكن الذى كان فيها لم يكن تقع عليه العيون - ثم عاود المشى بخطى رتيبة (١) تبعث الأسى وتثير الشجن فكانت تقطع عليك سلك التفكير ، وتقطع على ذلك النائم تحت حجرته غراره (٢) فيثب من فراشه مروعاً مذعوراً .

على أن هذا المشى كان يروح عنه ويثمله فى آن . وقد تدفع الملمات صاحبها إلى الحركة رجاء أن يصيب فى طريقه من يشد منه برأى أو ينفس عنه بنصح .

وأجازت به آنة نكر فيها نفسه ومكانه ثم نبهه فزع ملأ جوانب صدره ، فتراجع مخذولاً أمام كلتا العزيمتين اللتين اعتزمهما ، وبدا له قبح ما أضمر فأيقن أن لا خير فى الأولى ولا أجر فى الثانية . وقال : "ما أشأم هذا الاتفاق الذى رمى (بجان ماتيو) بين أيديهم فأخذوه بى وأنظرنى ههنا حتى مكنت لنفسى فملكت يومى وبلغت من الثروة ما بلغت " .

ثم التفتت نفسه التفاتة إلى حاضره وأخرى إلى ماضيه وقال : "أكشف عن نفسى" ... قالها ونفسه تكاد تسيل جزعًا - "سلام على عيش لبسته مضطراً وخلعته كارها ، فلقد آن للنفس أن تودع ما فيه ، فتستبدل (٣) الإذلال بالإجلال والضيق بالسعة والنصب بالدعة ، وللعين أن تستبدل عبوس السجان ببسمات الشكر عند الإحسان ، وللأذن أن تستبدل رنات السلاسل بتغريد البلابل عند إقبال الربيع فى وشيه البديع ، وللرجل أن تستبدل الحجل فى القيود بالتنقل بين المروج والنجود (٤)

---

(١) الشىء الرتيب الذى يقع متشابهًا على وتيرة واحدة .

(٢) الغرار النوم القليل .

(٣) يقال استبدل الطربوش بالعمامة إذا أراد ترك العمامة فالباء تدخل دائمًا على المتروك قال الله تعالى "أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير" .

فى هذه الصفحة وحدها قد أضفنا كلمات من عندنا دعانا إليها حسن المقابلة فى المعانى واطراد القول.

(٤) جمع نجد أى المرتفع من الأرض .

وللأنف أن يستبدل ريح صدأ الحديد بأريج الزهرات والورود ، وللجنب أن يستبدل خشونة المضاجع بلين فراش المخادع ، وواها من وحشة سجن الوحدة والتقلب فى ألوان الشدة ، وفى ذمة الله أيتها الدار فما كان أخصب أيامك وأقصر أعوامك ، وأنت أيها الخادم العجوز فما كان أيمن صباحك وأبرك صلاحك . وقد آن لى وأنا العاثر المجدود أن أستدبر عيشاً أخضر ، لأستقبل عيشاً أغبر ، وألبس رداء أحمر ، نسجته يد البلاء الأكبر ، وخاطه الشقاء لمن يسوقه القضاء . اللهم غفراً . أفى مثل هذه السن وقد نيفت على الخمسين أرد إلى السجن وأنا أعلم الناس بما فيه من عـذاب وهوان؟ إلا أنى لو كنت فى عهد الشباب لاضطلعت بخطبه . أما وقد أخذت منى الأيام فلا طوق على مصابرة الشدائد .

"ينهرنى الحرس ، أخاطب [١] بالكاف ، تأخذنى سياط السجانين ، دع عصا كبيرهم : أمسى عارى القدمين فى حذاء من الحديد . أمد ساقى لمطرقة القين [٢] الكشاف فى الصباح والمساء ليبلو قيودها ويمتحن أغلالها ، أصبح هدفاً لأعين الزوار، فكلما مر بى أحدهم قالوا : هذا هو جان فالجان الشهير الذى كان شيخاً (لمنترى سيرمير) .

"فإذا جاء الليل عادوا بنا إلى السجن ونحن نسبح فى غدران من العرق ، وقد كدنا الموكلون بعذابنا ، فندخل اثنين اثنين بين أيد تعمل فى أقفيتنا وسياط تقدح فى ظهورنا فما أمرها من حياة . إنى أكاد أتهم القدر . أتراه تجرد من الروحانية وانغمس فى البشرية فحل فى هيكل شرير حضرت فى استنباط الأذى قريحته وأقفر من الرحمة فؤاده ؟ ! " .

ثم رجع إلى هواجسه الأولى ووقف عند تلك العقدة التى أعياه حلها : أيقيم هنا فيصبح شيطاناً أحلته الجنة أم يذهب إلى هناك فيصبح ملكاً أحله السعير ، فتأوه وقال: "ربى كيف الخلاص ؟ " .

---

(١) علامة الاحتقار .

(٢) الحداد .

ثم اكتنف العذاب نفسه وشاع فيه الألم وأخذ فكره يختلط عليه ، فمر به ما أدرى أى صنوف البله ولعله أثر من آثار مواقع اليأس فى النفوس . وذكر وهو فيما هو فيه كلمة (رومان فيل) ، فقال : "ترى متى سمعت هذه الكلمة " ..

سمعتها منذ عهد فى أغنية صغيرة تقع فى بيتين من الشعر وإنى لأحسب (رومان فيل) اسماً لغاب صغير بضاحية من ضواحى باريس يؤمه العشاق من الشباب فى شهر أبريل ، يجنون زهرات الزنبق " .

وسرى اضطراب باطنه إلى ظاهره فجعل يترنح فى مشيته كأنه وليد قد خرج من الحبو إلى المشى ، فترك يمشى وحده فهو لا يكاد يتماسك فجعل يكافح أشد الكفاح ليثوب إليه رشده ويخرج من ذلك البله ، حتى إذا تمكن من نفسه أو كاد ، أراد أن يعزم العزمة الأخيرة ، إما الكشف عن نفسه وإما السكوت على حاله ، ولكنه لم يرزق التمييز.

وطاحت هواجسه بثمرات فكره وأخذت تصوراته المبهمة تضطرب أمامه ثم تحولت بالتعاقب إلى دخان تذهب به الرياح ، فأحس أنه أنى وقف أو وقفته الضرورة فإن بضعة منه هالكة لا محالة ، فعليه أن يشهد ، إما احتضار سعادته ، وإما احتضار فضيلته ، وعاوده التردد فعاد إلى موقفه الأول .

* * *

هكذا كانت تضطرب هذه الروح المعذبة تحت سيال من الكرب والبلاء .

قبل عهد هذا البائس بثماني عشرة مائة من السنين ، هناك عند تلك الزيتونة المباركة التى كانت تعبث بها هوج [1] رياح الأبد ، وتحت ذلك الفلك الحالى بالكواكب ، كان ذلك السر الغامض الذى أعجز العقول إدراك كنهه ، ذلك الذى حل فى صورة قد ركبت من الكمال والهدى ومن آلام هذا الورى ، يعاف هو أيضاً شرب الكأس المرهوبة التى طالما نحاها عنه بيده ، كلما خالها تفيض بكسف من ظلمات ، تسلسلت منها ظلال تجزع عند ورودها النفوس .

---

(١) جمع هوجاء وهى الرياح الشديدة .

الفصل الرابع

ألوان الألم فى النوم

أقبل السحر وهو لا يزال يمشى فى حجرته فاستشعر التعب ، فلقد مرت به خمس ساعات على التعاقب لم ينفس فيها عن نفسه فارتمى على مقعد ، وما هو إلا أن احتواه حتى غط فى النوم ، وسنحت له رؤيا شبيهة بتلك الرؤى التى تمثل للمهموم فى نومه ما كان عليه فى يقظته ، مغالية فى تلوين وجوه الألم . ولقد نال منه هذا الحلم ما لم تنله اليقظة فلم يكد يفيق حتى خط بيده ما كان مركوزاً فى نفسه من وحى ذلك الكابوس .

وليس من الأمانة أن نمر به ولا نذكره فيصبح تاريخ الليلة وهو أبتر - ونحن مثبتوه هنا لم نخرم منه حرفاً .

الرؤيـــا

رأيت كأننى فى قفر لا نبت فيه ، وكأننى كنت بحيث لا ليل ولا نهار ، وكأن أخى كان يماشينى فى ذلك القفر ، ذلك الأخ الذى طويت معه عهد الحداثة ، ثم افترقنا وطال الأمد حتى نسيته .

سرنا وقد رمانا الطريق ببعض السابلة ، ثم خضنا فى حديث جر إلى ذكر جارة كانت لنا فى ذلك العهد - كانت تعمل أمام نافذة مفتوحة تطل على الطريق ، وكأننا ونحن نتحدث فى القفر نجد مس البرد المصبوب علينا من تلك النافذة .. وهفا بنا

فارس فى لون الرماد على فرس فى لون التراب عارى الجسد أصلع الرأس جميعه ، حتى إن الناظر إلى جمجمته ليكاد يعد فيها فروع أوداجه . وبيده مخصرة فى لدونة فرع الكرم ، وفى ثقل عود الحديد - هفا بنا ولم يسلم ..!

فقال لى أخى : "اعطف بنا على هذا الطريق الأجوف . وكان طريقًا سماؤه فى لون أرضه لا يرى السالك فيه أجمة ولا خضراء ، وإنى لأحدثه وأنا لاه عنه بما أنا فيه، إذا به قد راغ روغة واختفى . ثم رفعت لى قرية فيممتها فخرصت [1] عليها أنها قرية (رومانفيل) فركبت أول طريق لقينى فإذا به قفر ، عدلت عنه إلى ثان فلما بلت الزاوية التى تربطه بأخيه إذا أنا برجل قائم عند حائط ، فسألته عن اسم القرية التى أحلتنى فلم ينعم بالجواب . وفتح باب دار ولج فيه ذلك الرجل فتعقبته فإذا أنا برجل قائم وراء الباب فسألته لمن البيت فأعرض عنى ولم يجب ، وكان للدار بستان دلفت إليه أنا برجل قائم تحت شجرة فسألته لمن البستان فأعرض عنى ولم يجب . فهمت على وجهى فى تلك القرية التى أقفرت من الإنس سبلها وفتحت أبواب دورها فما رمانى الطريق بإنسى ولا أحسست حركة فى دار من تلك الدور - غير أنى كنت أرى عند كل جدار وخلف كل باب وتحت كل شجرة رجلاً قائمًا قد أخذ نفسه بالسكوت . فانحدرت إلى المزارع ، فلم أكد أنقل فيها بعض الخطى حتى رأيت وقد نظرت خلفى زمرة تتعقبنى ، وإذا بكل أولئك الذين رأيتهم قيامًا قد ترسموا أثرى ، ورأيت كأنهم يمشون الهوينى ، ولكنهم على تريثهم كانوا أوسع منى خطى وأخف حركة ، وما هى إلا لمحة حتى لحقوا بى وتكنفونى وكانوا جميعًا فى لوان التراب ، فسألنى أحدهم وأحسبه أول رجل لقيته عند هبوطى القرية : "أين تمضى ويلك - أولست قدمت من عهد بعيد ؟ " . وبينا أتهيأ للجواب إذا بهم قد اختفوا جميعًا .

* * *

ثم هب من نومه وكأنه قطعة من الجليد وقد خمدت نار المدفأة وذابت الشمعة إلا قليلاً ، وكان الليل لا يزال ليلاً فقام إلى النافذة ونظر نظرة فى السماء ، فإذا بها لا تزال ضريرة النجم . وكانت النافذة تطل على فناء الدار والطريق .

---

(١) أى تظنيت ، خمنت ، حزرت .

وبينا هو ينظر إلى السماء إذا به قد سمع صوتًا جافيًا وضجة عنيفة على وجه الأرض . فخفض بصره فرأى نجمين أحمرين يشعان أشعة تترامى فى جوف ذلك الليل ، وكان لا يزال فى بقايا خياله – فقال : " دفعت الليلة إلى عجائب ، ترى أعافت النجوم سبحاتها فوقنا فهوت تسبح تحتنا ؟ " . ثم قامت ضجة ثانية كان من أثرها فى نفسه أن عاد إلى صوابه فنظر نظرة أخرى ، فإذا بالنجمين الأحمرين لم يكونا غير مصباحى عجلة قد شد إليها جواد أبيض ، فسأل نفسه : "لأمر ما بكرت هذه العجلة!".

وفوجئ بطرق على الباب – فأزعجته هذه الفجاءة وصاح بصوت خشن : "من الطارق؟" فكان الجواب : " تلك أنا يا سيدى الشيخ " فعرف صوت خادمه العجوز ، فقال : "وما تريدين؟ " . فقالت : "إنها الساعة الخامسة يا سيدى " . قال : "وما شأنى بذلك ؟ " قالت : "لقد حضرت العجلة " . قال : "أية عجلة ؟ " . قالت : "تلك التى تقدم سيدى بتهيئتها فى هذه الساعة وها هو ذا السائق يطلب لقاءك " . قال : "ويحك أى سائق ؟ " . قالت : "سائق السيد سكوفير " ، وما كادت تذكر هذا الاسم حتى احتوته رعدة، وكأن برقًا من الذكرى قد خطف أمام عينيه . ثم سكت سكوتًا طويلاً . لو رأته الخادم وهو على تلك الحال لتمشى قلبها فى صدرها من هول ما ترى . وعاوده البله فجعل يلهو وتعبث أنامله بتلك الشباك التى نسجتها الشمعة من دموعها . وخاطرت الخادم بتذكيره فقالت : "سيدى الشيخ ، كيف أجيب السائق ؟ " . فقال لها : "قولى له إنى سأوافيه الساعة " .

* * *

وكان البريد بين أراس ومنتراى سيرمير يحمل فى ذلك العهد على عجلات ذات ترسين مطوقين بجلد أسمر وفى كل عجلة مقعدان : مقعد للسائق ومقعد للمسافر. ولم تكن تلك العجلات التى انقرض اليوم نوعها على شىء من الرواء . وقد كان أيسر عيب بها أنها حدباء . فإذا لاحت للناظر عند مطرح البصر وهى تزحف تحت الأفق زحفًا ، حسب أنها من تلك الدواب التى دقت خصورها وثقلت أعجازها . وكان

البريد الذى يغادر أراس فى كل ليلة لا يبرحها حتى يوافيها بريد منتراى سيرمير.

وفى هذه الليلة نفسها كان البريد الهابط إلى منتراى سيرمير من طريق هيدسان قد صدم عند منعطف الطريق عجلة صغيرة قد شد إليها جواد أبيض وفيها إنسان مدثر، فرجتها الصدمة رجة أشفق معها حامل البريد على ذلك الرجل فسأله الوقوف ، ولكن الرجل قد انطلق فى طريقه وهو يركض جواده ملء فروجه [1] فقال حامل البريد : "ويل له، لقد استطرد به الشيطان " . ولم يكن الذى مرّ يعدو غير صاحبنا الذى بات على حال حقيقة بالرحمة .

فلو أنك سألته إلى أين تمضى ؟ ومالك هكذا تسرع ؟ لأجاب : لا أدرى .

إنه خرج تحت مشيئة الاتفاق . فإما إلى (أراس) وأما إلى غيرها . ومرت تهوى به العجلة فى جوف الليل وكأنها مدفوعة إلى هاوية ، وكان يشعر أنه قد بات نهبًا لقوتين متباينتين لا قبل له بهما : هذه تدفعه وتلك تجذبه ، ولا يعلم إلا الله وحده ما كان يجول فى مناحى نفسه . ومن ذا الذى سلم من أن يضل ولو مرة واحدة فى ظلمات مغاور الغيب ؟ فسار وما عزم عزمًا ولا وقف عند رأى رضيه ولا سكنت سريرته لأمر أبرمه . فكان فى أخرى هواجسه مثله فى أولاها ، مازال واقفًا حيث كان . قد عاوده ما كان يتمشى فى نفسه حين ركب العجلة ، فقال : مهما كانت العاقبة فمن العجز ألا آخذ بالحيطة ، وليس للمرء أن يقطع بوقوع أمر من الأمور ، ولكن له أن يطرحه تحت نظر فكره فيستبطنه بحثًا واستقراء ، ومن نصب نفسه للحكم على الأشياء وهو غير مكثب [2] فقد أخطأ مواقع الرأى وأطلع من الذر جبالاً ، ولعلى إذا لقيت (جان ماتيو) وجدت الأمر أيسر مما فى نفسى ، ورأيته أهلا لما نزل به . أما (جافير) فما كان ليكبد [3] لى وقد صرف الله عنى عنانه وصبه على (جان ماتيو) فصوب

(١) أى ملء ما بين أقدامه ، والمعنى أنه أسرع بجواده .

(٢) أى قريب .

(٣) أى يصعب على .

إليه الظنون والشبهات ، ونعوذ بالله من عنادها ، فإنها ما نزلت بصدر إلا تعصى على صاحبه انتزاعها . فلا خوف إذن من ذلك الداهية ، ولا أكذب نفسى فالساعة مرهوبة ، ولكن باب الرجاء لا يزال مفتوحاً ومصيرى لا يزال بحمد الله فى قبضة يدى أصرفه كيف أشاء .

واشتد به بعد ذلك القلق فكان يؤثر فى قرارة نفسه أن يعود على أن يذهب . وكان كلما انقبض صدره صب سوطه على ذلك الجواد الذى كان يحضر [١] إحضاراً يطوى فى الساعة فرسخين ونصف فرسخ . وجعل كلما اندفع فى طريقه نمت عنده شهوة الرجوع .

ولما تنفس الصبح أو كاد ، كان فى الفضاء وقد اختفت مدينة مونتراى سيرمير فنظر إلى أفق قد ابيضت ذؤابته ، وبرزت صحيفة وجه فجر ولدته ليلة من ليالى الشتاء، أصباحها أشبه الأشياء بإمسائها . لا تكاد ترى تباشريه ، ولكن أخيلة [٢] التلال والأشجار قد أضافت إلى ما كان فى نفس هذا البائس ما يعلم الله من ضروب الحزن والأسى ، وكان كلما مر بدار من تلك الدور المنعزلة على لقم [٣] الطريق قال فى نفسه: ما لهذه الدار بد من ساكن ينام ملء جفونه .

وكان لخبب الجواد وجرس جلجله ووقع العجلة على البلاط ، إيقاع حسن ونغم متماثل يدخل الأنس على نفس الخلى ويزيد فى أسى نفس الشجى .

فبلغ قرية (هيدسان) وقد أضحى ، فوقف أمام نزل رجاء أن ينفس عن الجواد ويعلفه. وكان جواداً كما قال عنه صاحبه من أصل بولونى عظيم السليل [٤] سحيراً [٥] أدك [٦] أهنع [٧] مفتوح اللبان . دقيق عظم الساق . صلب الحافر . فهو وإن لم يكن أصيلاً كان صلباً [٨] متيناً . فعل فعل كرام الخيل فطوى خمسة فراسخ فى مدى ساعتين ، وما نضح كفله بماء ، ولا رمت أعطافه بحميم .

---

(١) أى يجري جرياً سريعاً .
(٢) جمع خيال .
(٣) جوانب .
(٤) أى كبير الرأس
(٥) كبير البطن .
(٦) عريض الكفل .
(٧) قصير العنق .
(٨) أى قوى الأعصاب .

وكان لا يزال مشدوداً إلى العجلة حين حضر غلام النزل يحمل إليه العلف ، وحانت منه التفاتة إلى العجلة اليسرى ، فصاح بالرجل : "أوأنت على سفر بعيد ؟ " . قال : " مالك ولهذا ؟ " . قال : "هل قطعت شقة طويلة؟ " . قال : "خمسة فراسخ " . فأجاب الغلام وهو يدمن النظر إلى العجلة : "لئن كانت قد قطعت بك خمسة فراسخ ، لمن المحال أن تقطع بك ربع فرسخ آخر ، انظر إلى ما حل بها من العطب" فوثب الرجل ونظر حيث ينظر الغلام ، فقال الغلام وهو يحاوره : "أولى [1] لك ، فما كان أخلقها أن تطرحك وجوادك فى حفرة من حفر الطريق " . ثم أشار إلى مكان العطب . فإذا العجلة اليسرى قد اخترمها البريد حين صدمها فى منتراى سيرمير ، فقصف أصبعين من أصابعها ، وكاد محورها يفلت المحوى [2] فقال الرجل : "أبغنى نجاراً له خصيصاء بهذا العمل " . فقال : "إنه على خطوتين منا" . وكان النجار على عتبة داره ، فجىء به فجعل ينظر إلى العجلة وقد انقبضت أسارير وجـهه كأنه مطبب ينظر إلى ساق مهشمة . فقال الرجل : " أتعالج إصلاحها فى الحال ؟ " . قال "نعم" . قال : "ومتى أسافر ؟ . قال : "غدا" . فأجاب الرجل : "غدا ؟" وقد ملكه الدهش . فقال النجار : "إن إصلاحها يستوفى عمر النهار كله . فهل أنت من أمرك على عجل ؟ " . قال : "ما أحوجنى الساعة إلى السفر " . قال : "وددت لو تهيأ لك ذلك " . قال : "أصلحها ولك حكمك [3] " . قال : "ليتنى أستطيع ذلك فأفوز بوعدك " . قال " إنى مسوق إلى السفر فإذا أعياك إصلاحها فأبغنى غيرها " . ثم قال : "أهنا مركبة للكراء ؟ " قال : "عندى مركبة يقبضنى عن إكرائها ما أراه بعجلتك من العطب ويلوح لى أنك غير حريص على مال غيرك " . قال : "بعنيها" . قال : "أما البيع فلا" . قال : "إنى ندى الكف وإن اشتط البائع " . قال : "تحت يدى عجلة لأحد الفلاحين يستخدمها فى السادس [4] والثلاثين

---

(١) نجوت وما كدت تنجو ، شرحها لنا المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطى وهو من أمضغ العرب للشيح والقيصوم .

(٢) المحوى بتشديد الوار المسمار والقلاووظ.

(٣) أى ما تشاء من الأجر .

(٤) مثل يضرب عندهم للمستحيل كقولنا قيام الساعة ، يريد أنه لا يستخدمها مطلقاً .

من كل شهر ، فإن شئت اكتريتها على شريطة ألا يراك ربها وأنت منطلق بها ، ولكنها عجلة عاتية لا يستظل بها جواد واحد ، ومن لك الساعة برأسين من الجياد ؟ " . قال : "من مرابط خيل البريد " . قال الرجل . "وما وجهك ؟ " [1] . قال : "مدينة أراس" . قال : "أوحتم من الحتم أن تبلغها اليوم فى فجر هذه الليلة ؟ " . قال :(ألا يستوى عندك أن تبلغها فى فجر هذه الليلة ؟ . قال : "لا" . قال: "هل تحمل جوازاً للسفر ؟ " . قال : "نعم" . قال : إنك إذا تهيأ لك أن تحصل على جوادين من مربط خيل البريد فما أنت ببالغ أراس قبل الغد ، فإن خيول البريد فى هذه المراحل منثورة فى المزارع ، ونحن فى أبان الحرث وهم يجمعون له الخيل أنى أصابوها . فإذا لجأ سيدى إلى ذلك كان عليه أن يلبث نصف يوم عند كل مرحلة ، دع ما يعرض له من العقبات " . قال : "أسرح جوادى هذا من عجلتى وأمتطيه فأبغنى سرجًا ". قال . "وهل يصبر جوادك على صحبة السرج ؟ " . قال "لقد ذكرت منى ناسياً . أنه لا يصبر على صحبته " . قال : "هل من سبيل إلى جواد نبيل يبلغ بى أراس من غير تنفيس [2] " . وقال : "إنك لن تظفر به ، وهبك وجدته فإن ربه ليضن به ولو ملأت يده ذهبًا . فشاع السرور فى نفسه ، وقال : "إن للعناية ليدا فيما أرى ، أوليست هى التى أتلفت العجلة ، وقطعت على السبيل ؟ وقد أنذرتنى فلم يلونى إنذارها عن القصد ، والتمست المخرج مما أنا فيه ، فما ثنانى برد ولا قعد بى نصب ، ولا أرهقتنى نفقة ، فأصبحت وقد عدانى اللوم ، فإذا استحال على المضى فى طريقى فتلك مشيئة القدر " . ثم تنفس ملء رئتيه تنفس الحر الطليق ، وخيل إليه أن السهم الذى ضل نصله فى فؤاده قد انتزعه منه نازع ، فوجد لذلك روحاً لم يجده منذ رأى وجه جافير .

وقال : "لقد علم الله أنى صنعت ما يكاد يخرج عن الطوق فأخطأنى التوفيق ، فلا أملك من أمرى بعد هذا كله إلا الرجوع على هاتين النعلين " .

ولو كان حديثه مع النجار فى خلوة لما وصل إلى أذن حى وللبث مكتومًا ، ولكنه كان على الطريق المعبد ، ومن شأن مثله أن يلفت المار الذى يستهويه حب الاستطلاع

(١) الوجه القصد ، الجهة ، السبيل .

(٢) أى فى مشوار واحد كما تقول العامة .

فيقف ناشراً أذنيه لتسقط الخبر ، فلا يكاد المحدث يمر فى حديثه حتى يرى حوله حلقة من الناس ، وما منهم إلا من هو فارغ لذلك . وكذلك وقع (لجان فالجان) فبينا هو يحاور النجار وإذا بطائفة من السابلة قد التفت حوله ، وكان بينهم غلام لا تكاد تأخذه العين ، قد تسلل من الجماعة وطفق يعدو حتى اختفى وما كاد يهم (جان فالجان) بالرجوع حتى عام الغلام يصطحب امرأة عجوزاً .

قالت العجوز : "إن غلامى هذا قد نقل إلى أنك فى حاجة إلى مركبة " . وما كادت ترمى بتلك الكلمة حتى ندى بالعرق جبينه ، وشعر كأن اليد التى سرحته منذ قريب توشك أن تقبض عليه من جديد. فلبث غير بعيد ثم أجاب : "نعم أيتها المرأة الصالحة ، فأنا فى حاجة إلى مركبة أكتريها ، ولكنهم يزعمون أنى أحاول المحال " . قالت "لقد وجدتها". قال : "أين؟ " . قالت : "عندى" . فاحتوته قشعريرة وقال فى نفسه : "كان الذى خفت أن يكون " .

وكانت مركبة عتيقة من الخيزران قد علاها الوحل وأكلها الصدأ وفعل فيها الجو فعله . ولم تكن بأحسن حالاً من مركبته المعطوبة . ولكنها لم تأب على ما فيها أن تقله إلى أراس ، فلم يجد عنها مزحلاً ، فاكتراها على حكم ربتها وشد إليها جواده وانطلق فى سبيله . وبينا كانت العجلة تجرى به ، كان يجرى فى نفسه حديث غريب : "لقد أحسست منذ هنيهة سروراً بعثته تلك الحوائل التى قامت بينى وبين المضى فى طريقى وأرى الساعة أنه سرور كاذب ، الويل لى . أيسرنى الإحجام عن مقصد أنا الذى وجه إليه نفسه مختاراً والقعود عن سفر أنا الذى حمل نفسه عليه مسوقًا بإرادته ؟ " .

ولم يكد يمضى فى طريقه حتى سمع صوتًا يهيب به أنه قف ، فأوقف العربة ارتجالاً وقد عرته هزة المحموم يناديه . "أنا الذى هيأ لك الحصول على العجلة " . قال : "وما تريد ؟ " . قال : "أجرى على ذلك" . قال وقد فارقته تلك الأريحية التى طالما تهزه إلى إسداء الجميل : "اعزب ولا كرامة " ثم ساط الجواد فانطلق يعدو ، وأراد أن يعوض ما أضاعه من الزمن فى هيدسان ، فحط على جواده بالسوط . فلقى عناء من الجر

وكان قد خرج به غب [١] سماء فكابد من الوحل وثقل المركبة ما كاد يأتى على قواه ، فلم يطو غير خمسة فراسخ فى مدى ساعات أربع حتى بلغ سانت بول . وهناك نفس عنه فى نزلها وقاده إلى الإسطبل ووقف يعلفه . وأقبلت ربة النزل فقال : "ألا يأكل سيدى ؟ " فقال : "ما أحوجنى إلى الطعام " . وكانت امرأة صبوحة الوجه فارهة الجسم ، وأقبلت خادم ، فهيأت له الخوان وهو يسارقها النظر وقد وجد لها فى نفسه محلاً فأهوى إلى الخبز فمضع منه لقمة واحدة وكف يده . وكان على المائدة التى بجواره سائق عجلة يأكل . فقال له : "ما لهذا الخبز مراً ؟ وكان ألمانيا فلم يفقه قوله ولم يجبه . وانكفأ بعد ذلك إلى الإصطبل يراقب الجواد ، فلما فرغ من علفه شده ، وانطلق به إلى مدينة (تنك) وكانت على خمسة فراسخ من أراس . فسار وقد غرق فى هواجسه وجعل يتأمل وجوه الشجر وسطوح الأكواخ ومناظر الخلاء التى كانت تلوح له كأنها قد وقعت فى غشية أو سبات .

وإن لوجوه الأرض لتسلية ترفه عن النفس وتصرفها عن التفكير ، ولكنه قد مر بألف وجه منها ومازال كاسف البال وفاته قولهم : من سافر فقد تجدد ، وما يدريك لعله كان يقارن فى نفسه بين تقلب الأجواء وذلك الوجود البشرى الذى لا يستقر فيه شىء على حال فكل ما فيه قد جبل على الفرار منا . ألم تر إلى الليل والنهار كيف يتعاقبان ، وإلى الشروق والغروب كيف يتناوبان . والمرء يرى ما يمر به فيسرع باسطاً يديه ليمسكه فيفلته ، وكل حادث ينتابنا هو لية فى طريقنا لا تلبث أن تسلمنا إلى الكبر ، وكلما احسسنا تلك الهزات الخفية وقف بنا النظر على باب الغد وما وراءه غير الغامض من الغيب ، دع جواد الحياة الذى يستطرد بنا زماناً ثم يقف على غرة من راكبه ، فيأتى من جوف الغيب من يرجله عنه ثم يسرحه .

وطلع الشفق على مدينة تنك فى آن ، وكان النهار قصيراً فانطلق حتى إذا مر برصاف يرصف الحجارة قال الرصاف وهو ينظر إلى جواده : "أرى جواداً مكدوداً" ثم نظر إلى الرجل وقال : "لعلك تريد أراس؟ ". قال : "نعم ، قال : "إنك لن تبلغها على هذا

---

(١) أى عقب مطر.

الجواد " . قال : "كم بينى وبينها ؟ " . قال : "سبعة فراسخ" . قال : "إن دليل البريد لا يقول بقولك " .

قال : "إنهم يصلحون الطريق على مقربة منا فلا يتسنى لك المضى فيه ، وما أخلقك بالعروج على طريق آخر ، فعليك أن تتياسر ثم تركب طريق جارنس ثم تعبر النهر هناك، فإذا بلغت كامبلان فتتيامن واركب المحجة [١] إلى أراس " . قال : "أخشى الضلال فى هذا الليل البهيم " . قال : "أولست من أهل هذا البلد ؟ " . قال : "إنى غريب " . قال : "عد إلى تنك واقض الليلة فى نزلها واستبدل بهذا الجواد الذى نز التعب قواه جوادًا يقلك إلى أراس " . قال : "استحال غير السفر فى هذه الليلة " . قال : "استأجر جوادًا ودليلاً " . فعمل بمناصحته وقفل إلى تنك وعاد يعدو بجواد جديد يصحبه غلام من النزل .

وغاب فى أحشاء ليل قد كسر على الأرض جناحيه ، وكان الطريق ، وعرًا والعجلة تجلجل [٢] فوق نكت الأرض وهو فوقها مقلقل الشخص يهيب بالغلام : "إيه إيه ولك ضعف الأجر " . فصاح الغلام : "لقد عطب العريش ، فكيف نمضى ونحن بين طريق وعر وليل خليق أن تصد محارمه [٣] عن السرى ، فهل لك أن تعود إلى تنك وأنا الضمين أن تبلغ أراس عند منبلج الصباح "فقال : "أمعك حبل وسكين " . قال : "نعم" فأهوى إلى شجرة فاقتضب منها فرعًا أقامه مقام العريش وانطلق فى سبيله .

وكان الوادى فى ظلام دامس والضباب (دان مسف [٤] فويق الأرض هيدبه) ينبعث من التلال ، كأنه كسف من الدخان وقد شاع فى سواد السحب بياض ، وهبت ريح البحر فى جوانب الأفق فكان لهبوبها أشبه الأصوات بصوت الأثاث عبث به عابث .

---

(١) الطريق .
(٢) أى تتحرك مضعضعة .
(٣) أى مخاوفه .
(٤) مأخوذة من قول الشاعر : يصف سحابا قريبًا من الأرض : دان مسف فويق الأرض هيدبه * يكاد يدفعه من قام بالراح .

فتمخخ [1] البرد عظامه وكان طاويا منذ العشية ، فذكره القر والطوى تلك الليلة التى قضاها منذ سنين ثمان فى ضواحى مدينة (دينى) وقد ذكرها كأنه يذكر أمس الدابر . وسرى إلى سمعه جرس ساعة على بعد فقال للغلام : "ما هذه الساعة ؟ " . فقال : "إنها الساعة السابعة وسنبلغ أراس فى الثامنة ، فليس بيننا وبينها غير فراسخ ثلاثة " .

ونزلت برأسه فكرة لم يسبق لها فى النزول ، فقال : "ويل لى ما أضيع ما جشمت نفسى فى يومى هذا من التعب أما كان الأخلق بى أن أعلم علم تلك القضية وموعد النظر فيها " ثم قدر فى نفسه تقديراً لذلك الموعد وقال : "إن الجلسات لا تعقد قبل الضحى ، والنظر فى هذه القضية لا يفتقر إلى الكثير من الزمن ، إن هو إلا سؤال وجواب فشهادة أو شهادتان . فكلمة للمدافع . فحكم لا يتعدى التغريم ، ولعلى أبلغ الجلسة قبل الفوات .

كل ذلك والغلام يسوط الجواد فعبر النهر وجاز مدينة موت سان إلواى وقد سطعت غياهب الظلام .

* * *

ولنعد بالقارئ إلى " فانتين" :

فى الوقت الذى تجرى فيه هذه الحوادث كانت فانتين رضية البال، وكانت قد طوت ليلة مذكورة ، كابدت فيها من الحمى ومزعجات الأحلام ما يهد الحيل [2] .

ولما أصبحت كانت لا تزال تهذى ، وعادها الطبيب فوجدها فى فورة من النفس فطلبت إليه أن ينذرها عند قدوم مادلين .

---

(١) تمخخ أخرج مخها .

(٢) الحيل والحول ، بفتح الحاء فيهما : القوة .

ولبثت فى تلك الضحوة كاسفة البال لا تكاد تفتح فاها . وجعلت تلهو بطى غطائها طيات مقدرة ، وتحرك شفتيها كأنها تذرع [١] بفكرها مسافة من المسافات ، وقد غارت عيناها وجمد بصرها ، وانطفأ ضياؤه أو كاد . وكانت تفتح بين الفينة والفينة عينيها عن مثل لمعة الكوكب ، ولا عجب فإذا دنت ساعة الشدة فإن مدداً من السماء يملأ نفوس أولئك الذين فقدوا مدد الأرض .

وكانت كلما سألتها الراهبة : كيف أنت ؟ قالت : "أحمد الله ولا أطلب إلا رؤية مادلين " ! .

منذ بضعة أشهر وفى ذلك الحين الذى ابتذلت فيه فانتين خدرها فتمزقت عفتها ، وغاض حياؤها ، كنت ترى فانتين وكأنها ظل لفانتين . أما اليوم وقد فنى جسمها فقد كنت ترى فانتين وكأنها طيف لفانتين (والظل للجسم والطيف للروح) ولقد كان لتشويه خلقها أثر فى خلقها فانظر إلى تلك المرئية التى لم تشهد غير خمسة وعشرين ربيعاً ، كيف هبط أكثر لحمها فتجعد جبينها ورهل خدها ، وشحب لونها ، وبرز منكباها ، وتجردت عظام نحرها ، وانبرت أعضاؤها ، وأصبح جلدها وكأنما طلاه بالطين طال . ونبت شعرها الأشقر ، وقد نصل لونه وجالت فيه طلائع المشيب ، فأف من المرض فإنه يرتجل الشيخوخة وإنه لأنجب مطايا الكبر .

وعند الظهر عادها الطبيب فسأل عن مادلين ولما علم بغيابه حرك رأسه حركة أعربت عن الأسف .

وكان مادلين يأتى فى عصر كل يوم وما تخلف مرة عن ذلك الموعد . والوفاء من شمائل الطيبة ، وقد كان الرجل طيباً .

وعاودتها عند العصر فورة النفس فسألت عن ساعة زمانها عشر مرات فى مدى عشرين دقيقة ، ثم استوت فجأة فى سريرها ، تلك التى كانت لا تنبعث لها جارحة من المرض والهزال . ثم شبكت ذراعين قد أنحلهما السقم ، وأرسلت من صدرها تنهداً

---

(١) تقيس بالذراع .

خيل معه إلى الراهبة أنها رفعت به عن صدرها ثقلاً ، ورمت الباب بنظرة من يرقب قدوم إنسان .

ولكن الباب لم يرمها بأحد فلبثت برهة وهى تنظر إليه . وكأنها معلقة الأنفاس والراهبة لا تجرؤ على سؤالها . ثم ألقت برأسها على الوسادة ومرت الساعة تلو الساعة ولم يزرها زائر .

وما رآها على تلك الحال راء إلا وعلم بما يجول فى فكرها ولكنها صابرت آلامها ، فلم تشك ولم تتوجع .

وسمعتها الراهبة قبيل الغروب وهى تقول بصوت خافت : "إننى هامة اليوم أو الغد ، فما كان أخلقه اليوم بزورة الوداع " . ثم طفقت تغنى – وكأن صوتها نفحة من نفحات النسيم – أغنية عتيقة تدعى بأغنية الأرجوحة ، كانت تنغم بها فانتين لإنعاس طفلتها فى عهدها الأول ، وقد كان صوتها يقطر حزنًا ، وإيقاعها مشجيًا لا يملك السامع معه الدموع من أن تسيل ، فبكت حتى تلك الراهبة التى درجت على الزهد والتقشف .

ولما أعتمت علت وجهها آيات الذهول وأرسلت الراهبة صبية تسأل عن مادلين فعادت على الأثر وأسرت لها أن مادلين قد سافر وحيداً فى فجر هذا اليوم ولا يدرى خلق بالوجه الذى يريده .

وقد رآه قوم على طريق أراس وزعم قوم أنه قد ركب طريق باريس وكان هو هو ، لم يلمحوا على ظاهره ما ينم على باطنه . وبينما هما يتساران على مقربة من سريرها وقد استدبرتاه وإذا بفانتين وكان نافضًا من الحمى تمازجه حركة المعافى فى بدنه قد حركها فى سريرها . فهبت رغم ذلك الهزال المروع هزال الموت وجثت على ركبتيها واعتمدت على الوسادة بمرفقيها وأرهفت للسمع أذنيها وفرجت برأسها ما بين سجفى كلتها [1] وصاحت بهما : "إنكما تخوضان فى حديث وإن لمادلين فيه لشأنا " . ونادتهما

(١) الناموسية .

بصوت تخالطه البحة والخشونة ، كان من أثره فى نفسيهما أن ظننتا أن المتكلم رجل من الرجال، فالتفتتا مذعورتين فقالت لهما : "ما لكما لا تنطقان؟ " . فقالت الصبية بصوت خافت : "إن البوابة تقول إنه لا يعود الليلة " . وقالت الراهبة على أثرها : "اهدئى أنت ونامى" . فأجابتهما بصوت فيه رنة من الجلال ونبرة من الأسى : "إنه لا يعود ، أراكما تتساران فى شيء تحاولان كتمانه عنى ، ولا بد لى من الوقوف عليه " فألقت الصبية فى أذنى الراهبة كلمات فاحمر وجه الراهبة وهالها أن تكذب ، ثم ترددت بعض الشيء ، وقالت فى نفسها إن أنا صدقتها فى مثل هذا الموطن فقد قتلتها ، وإن أنا كذبتها فقد قتلت كرامتى . ثم لبثت غير بعيد ، وقالت لفانتين بصوت المتمكن من نفسه: "إن مادلين قد سافر اليوم " .

فاستوت المريضة فى سريرها وسرت بنفسها عقبة من السرور ومرت بعينها خطفة من بارقة الأمل وصاحت : "إنه سافر ليرى كوزيت " ، ثم ضمت يديها واستقبلت السماء بوجهها وأخذت تصلى . ولما فرغت من صلاتها قالت للراهبة : "الآن حلا لى النوم إمضاء لأمرك فلا تنزلى أمرى على الجرأة عليك إذا رفعت صوتى فى الحديث ، فما فاتنى أن ذلك كان خروجًا عن أفق الأدب وإنما استخفنى السرور ! ثم أخذت مضجعها بعد أن لثمت صليبها ، وقالت لها الراهبة : "اهدئى ونامى " فضمت يديها الناديتين على يدى الراهبة التى هالها وفر العرق الناضح من جسم المريضة .

وأنشأت فانتين تقول : "سافر إلى باريس وما كان أغناه عن ذلك ومنت فورمى على يسار ذلك الطريق فلعله يتحرى مفاجأتى بذلك النبأ السار ، فقد قال لى بالأمس حين جر الحديث إلى ذكر كوزيت أننى سأراها قريبًا وأخذ توقيعى على كتاب إلى أصحاب النزل ولا أحسبهم إلا فاعلين وما كانوا ليحبسوا عنى كوزيت وقد وفوا أجورهم فحبسها عنى افتيات على أولى الأمر ، فلا تومئى إلىّ بالسكوت فأنا الساعة فى عافية لا عهد لى بمثلها وسعادة لا حد لها . أو لست خليقة بعد أعوام خمسة أن أرى وجه طفلتى ولا أحسبها وقد بلغت السابعة إلا صبية حسناء ولقد صبرت على بعدها طوال السنين ، وللصبر حد ولو أن لى عمر الأبد لهان ذلك البعاد .

"فما أطيب عنصر ذلك الرجل الذى غامر بنفسه فى ذلك البرد القارس لإنقاذ طفلتى ، ولعله يعود فى الغد من مونت فورمى ، وهى بلدة قد قطعت طريقها على قدمى

منذ عهد طويل فكان بعيد الشقة عليّ وإن كان يسيرا على العجلان ، فيا ترى كم بيننا وبينها ؟

فأجابت الراهبة التى لا علم لها بتلك الشقة : "إنه سيعود بإذن الله فى الغد " . فقالت: "سأرى بنيتى فى الغد . إن الأمل بلقائها قد ألبسنى ثوت العافية ، فلست مريضة كما تزعمون ، ولكنى مفتونة ، فلو أنى دعيت الساعة إلى الرقص لأبدعت فيه " .

وكانت فى هذه الأونة وردية اللون قد ابتسمت قسمات وجهها ، فكنت ترى ذلك الوجه وكأنه قد جمع من البسمات وما أشبه سرور الأمهات بسرور الأطفال .

ثم ألقت برأسها على الوسادة وجعلت تدور بعينيها فى أرجاء الحجرة وقد بدت عليها سيما الارتياح ، فأطبقت الراهبة الستائر على كلتها رجاء أن يأخذها النعاس . وعاد عند العتمة الطبيب فلم يحس حركة فى المكان فعزا ذلك إلى نوم المريضة فخافت[1] من مشيته ودنا من سريرها وأزاح الستار فرأى على ضوء الساهرة [2] وجها هادئًا وعينين لم يرتقهما النوم ، فابتدرته قائلة : "إنهم سينيمونها هنا بجانبى على سرير صغير " . فعجب الطبيب من أمرها وظنها تهذى فانتحى بالراهبة ناحية فنفضت إليه جملة الأمر .

ثم عاد إلى سرير المريضة فقالت : "إذا تيقظت بنيتى ألقيت عليها تحية الصباح، وإذا نامت صنع بى تنفسها الهادئ ما لا يصنعه الدواء ، فأتجه إلى العافية " . فقال لها الطبيب : "يدك" فمدت يدها وهى تبتسم وتقول : "ألا ترى أنى نجوت؟ " فدهش الطبيب حين جس نبضها ورأى الحياة تجرى فيه جريانًا . فقال : "إنه من صنع السرور الذى أدخله على نفسها الأمل بلقاء بنيتها " ثم أوصى بالسكوت وأمر بدواء يلطف من حدة الحمى إذا هى عاودتها فى ليلها ، وقال للراهبة عند انصرافه : "إذا أسعدها الطالع برجوع مادلين فى الغد فقد نجت " .

---

(١) أى مشى على أطراف أصابعه .

(٢) الساهرة وجمعها سواهر كلمة قد وضعناها مكان القراية عند العامة .

وكائن من سرور مسح من مرض ، وإنه لسر من الأسرار التى سيكتشفها العلم فى مقتبل الزمان .

* * *

ولما كانت العتمة ، وقف المسافر الذى تعقبناه على باب النزل (بأراس) وسرح الجواد الذى استأجره وقاد بنفسه الجواد الأبيض إلى الإصطبل ثم عاد إلى النزل وجلس فى إحدى قاعاته وارتفق [1] على منضدة وكان قد استوفى عمر يوم وليلة فى سفر كان يقدر له نصف يوم ، وما كان ذلك من صنعه ولكنه صنع القدر .

ولو أنك قرأت ما فى نفسه لتجلت لك فيها آيات الرضى . ودخلت عليه فى هذه الأثناء ربة النزل ، وقالت : "أيرغب سيدى فى العشاء والنوم ؟ » . فأومأ إليها برأسه إيماءة الرفض ودخل على أثرها غلام الإصطبل وقال : «إن جوادك مكدود» فابتدره قائلا : «أو ليس فى طوقه السفر غدا ؟» . قال : «إنه لا يستطيع الحركة قبل يومين» . قال : «أين مكتب البريد؟» فقيد إليه ، فأخرج جواد السفر وطلب العودة إلى مونتراى سيرمير فى نفس البريد الذى قدم معه وكان المقعد المجاور لمقعد السائق لا يزال خاليا ، فأجيب إلى طلبه ودفع النفقة وأنذر بالسفر قبيل السحر .

ثم غادر النزل وجعل يمشى فى المدينة ويتنقل فى طرقاتها على غير هدى وكبر عليه أن يسأل المادة ، فعبر النهر وخلص إلى زقاق ضيق فضل السبيل ومر به فلاح يحمل فانوسا [2] فبدا له أن يسأله عن الطريق ثم نظر إلى الخلف والأمام كراهة أن يسمعه إنسان ، ولما أمن ذلك سأله : «أين دار الحكمة؟» وكان الرجل من ذوى الأسنان . فقال له : «يلوح لى أنك غريب فاتبعنى فإن طريقى عليها» . فانطلقا حتى إذا كانا على

---

(١) أعتمد بمرفقيه .

(٢) الفانوس فى الأصل النمام وقد استعمل للشمع لأنه ينم عليه .

كثب من الغرض أنشأ الفلاح يحدثه : «إن كنت رب قضية فقد جئت بعد الفوت ، على أنى لا أزال أرى ضوءا بنوافذ قاعة الجلسة ، ولعلها لم ترفع ، فإن كنت شاهدا فقد جئت فى الوقت» . قال : «إنما جئت لاستشارة محام» . فقال الفلاح : «هاك الباب فإذا دخلت فارق الدرج» .

فمضى الرجل على إرشاد صاحبه فإذا هو فى قاعة فسيحة قد غصت بالناس ، وطائفة من المحامين هنا وثم يتهامسون ، وإن رؤيتهم وهم فى ملابسهم السوداء لما تنقبض له النفس ، فقل أن تخرج كلمة من أفواههم يستروح منها السامع روائح الرفق أو يجد ريح البر ، فلا يكاد يسمع إلا نعيبا يؤذن بحلول العقاب .

فإذا مررت بهم حسبت أنك أمام خلية دونها خلايا النحل - خلية تطن فيها العقول طنينا حتى ليؤتى لك وقد أخذتك الوحشة أنك فى معبد مظلم تعمره الأرواح . وكانت القاعة على ترامى أطرافها لا يضيئها إلا سراج واحد فمشى الرجل فيها وقد شد منه ذلك الظلام الذى عجز عن تبديده السراج ، فلم يستح أن يسأل أول محام لقيه : «فيم القوم؟» . قال : «قضى الأمر» . فارتاع وقال : « قضى الأمر !» .

نطقها بمرارة لفتت إليه المحامى . فقال : «ألعلَّك قرابة [1] له» . قال : «لا شأن لى ولا قرابة ، فهل حكم بالإدانة ؟» . قال : «استحال غير ذلك» . قال : «أتراه سجن الأبد؟» . قال : «نعم» . قال بصوت لا يكاد يسمع : «لقد عرفت إذن شخصيته» . قال : «أية شخصية ؟ لقد كان الأمر جليا . امرأة قتلت ولدها فحق عليها العقاب !» . قال : « أعن امرأة تتكلم؟» . قال : «نعم» . قال : «ما لهم وقد فرغوا من أمرها لايزالون فى مقاعدهم؟» . قال : «إنهم ينظرون منذ ساعتين فى شأن آخر» . قال : «وما عسى أن يكون ؟». قال : «مجرم عائد من أرباب السوالف وأضياف السجون لا يحضرنى اسمه قد أخذوه بسرقة جديدة ، ولعلهم لا يتلومون فى الحكم عليه ، فسحنته سحنة الفاتك ، ولو كنت قاضيا لكفتنى النظرة إليه مئونة التحقيق فى أمره» . قال : « ألا يتسنى لى الدخول؟» . قال : «إن القاعة مكتظة بالناس وقد رفعت الجلسة فإذا عادوا إلى النظر

(١) أى قريب .

فربما تهيّأ لك الدخول فى غمار الناس» . قال : «ومن أين أخلص إليها ؟» . قال : «من ذلك الباب الكبير» .

ثم غادره المحامي وهو على غير استواء ، وكأن إبرًا من الثلج ونصالا من النار قد اعتورت فؤاده وخزا وطعنا ولم يدر أكان مأتاها الألم أم السرور . وجعل يقترب من الناس وهم قنابل [1] قنابل يتحدثون فسمعهم يقولون : «إن هذا الرجل قد سرق تفاحا ، فهو وإن لم تثبت عليه السرقة فقد ثبت أنه من المجرمين العائدين وقد انقضى استجوابه وشهدت الشهود ، ولم يبق إلا دفع المحامى ورد النائب وربما استوفى ذلك من الليل نصف عمره ولا نظنه يفلت من العقاب . فالمدعى فتى ذكى الفؤاد أديب ينظم الشعر ويعرف كيف يوفى الاتهام حقه» . فدنا من الباب فوجد عنده حاجبا فسأله : «متى يفتح؟» فقال :«لا يفتح» . قال : «كيف والجلسة على وشك الانعقاد بعد رفعها» . قال :«قد عقدت الجلسة والقاعة قد ضاقت بمن فيها» . قال : « ألا أجد فيها مكانا أصف فيه قدمى ؟» قال : «لا» ، ثم عطف قائلا : «إن خلف الرئيس مكانا أو مكانين لا يؤذن بحلولهما لغير الخاصة» . ثم ولاّه ظهره فنكس الرجل رأسه ومشى مشية الحائر وهبط بعض الدرج وهو من نفسه فى حرب عوان ثم أخرج من جيبه بيضاء [2] خط فيها : «مادلين شيخ مونتراى سيرمير» ثم صعد الدرج وشق الصفوف وأتى الحاجب وقال له بصوت الآمر : «احمل هذه إلى الرئيس» فأخذها الحاجب وألقى عليها نظرة عجلى ومضى طائعا .

* * *

منذ سنين سبع ومادلين نابه الذكر قد اقترن اسمه بالثناء ، وملأت شهرته جوانب الأفق فجازت حدود بلده إلى ما جاوره من البلدان فتعالم [3] الناس فضله وأخصب به الزمان والمكان فنمت فى عهده صناعة الخرز الأسود وكانت له يد على الصناعات ، فمد المصانع بالمال حتى حسد بلده عليه .

---

(١) جماعات جماعات .

(٢) أى ورقة بيضاء .

(٣) أى علم .

وكان رئيس الجلسة فى أراس ممن يعظمون مادلين ويبجلونه ، فلم يكد يحمل الحاجب إليه رقعته حتى أذن له ، فعاد الحاجب فسلم وانحنى حتى كاد يمس الأرض بجبهته وحتى تبين مادلين إعظامه فى حماليق عينيه ، وقال له : «ليدخل سيدى غير مأمور» ومشى أمامه مشية العبد القن .

ذلك الذى كان يوليه ظهره غير مكترث له ثم مد له يده برقعة الرئيس ، فتناولها واقترب من المصباح وقرأ على ضوئه : « إن رئيس المحكمة بأراس يهدى تحية يمازجها الإجلال إلى الشيخ مادلين» .

ثم تبع الحاجب فلم يلبث أن رأى نفسه وحيدا فى قاعة المداولة وكانت قاعة لا سر النظر يضيئها شمعتان قد نصبتا على منضدة أقيمت على بساط أخضر ، وذكر قول الحاجب عند انصرافه : «إنك ياسيدى فى قاعة المجلس ، فإذا أدرت ذلك الزر النحاسى الذى تراه بالباب وجدت نفسك فى قاعة الجلسة خلف كرسى» ، ففعلت فى نفسه تلك الكلمات فعلها واختلطت بما كان يدور فى رأسه من الذكريات المبهمة التى بعثها فيه ما صادقه فى ذلك المشى وما مر به فى تلك الدرج . وأوفت الساعة المرهوبة فحاول أن يجمع أشتات نفسه فلم يغن شيئا ، وتضعضع فى ساعة هو أحوج مايكون فيها إلى التماسك تلقاء تلك الحقيقة الأليمة ، وكم قطع فى مثلها سلك التفكير وملكت على المرء المذاهب ، فقد كان فى الموطن الذى يجلس فيه القضاة فيدينون ويبرئون . وجعل ينظر نظر الأبلة إلى تلك القاعة الساكنة المروعة التى يقضى بها على أرواح العباد . وكان به وهو ينظر إليها أن اسمه سوف يدوى فى جوانبها وأن المقدور عليه سوف يحلق فى سمائها .

وجعل يتنقل ببصره بين جدرانها وبين نفسه ويقول : «ترى ما هذه القاعة وترى من أنا ؟ » وكان قد طوى يوما وليلة وفعلت فيه رجات المركبة فعلها ، ولكنه لم يستشعر ألما ولم يحس جوعا ، ودنا من إطار أسود معلق على الجدار فيه رسالة عتيقة لا يعلوها زجاج ، خطها جان نيكولا (باش عمدة باريس) وأحد الوزراء ، رصد فيها أسماء

النواب والوزراء الذين اقتضبوا من دورهم اقتضابا وسيقوا إلى السجن ، ولو أن أمراً تفرس فيه لأدرك للوهلة الأولى أن الرسالة قد أخذت من نفسه محلا ، على أنه قد قرأها ثلاثاً ولم يملك الفهم ، ولا عجب فقد كان يفكر فى فانتين وكوزيت .

وانفتل وهو فى تلك الغمرة فأخذ بصره قبضة الباب الذى يفصله عن قاعة الجلسة . فأدمن إليه نظرا هادئا ثم بان فيه الخوف ، ثم أطل من محاجره الفرع ثم تلاه الجزع فندى بالعرق جبينه ، وأتى على أثر ذلك بحركة يخطئها الوصف . حركة يمازجها السلطان كأنها تناديه : «ما الذى يحملك على كل هذا؟» ثم انفتل ثانيا فوقع نظره على الباب الذى دخل منه فاندفع إليه ففتحه ، ونجا من تلك القاعة إلى ممشى طويل جم المنعطفات كثير الليات به طائفة من النوافذ تقطعه درج للهبوط ، تضيئه سرج ضئيلة النور كأنها السواهر .

فتنفس الصعداء وأصغى ، فإذا هو فى سكون الرموس فانطلق يعدو خمن بطارده مطارد ، حتى إذا غاب فى أحشاء تلك المنعرجات وقف يتسمع للمرة الثانية فلم يرعه مروع ، فجعل ينفس عن نفسه كرب العدو ، فأسند ظهره إلى الحائط فوجد مس البرد من حجارته ، فاعتدل مقفقفا .

ولما وجد نفسه قائما وحيدا فى جوف هذا الظلام نهبا للبرد والهواجس جعل يفكر . على أنه قد فكر فحمة [1] الليل وسراة النهار ، فلم يسمع غير صوت واحد يناديه : «وأسفاه!» . ومرت به فترة وهو على تلك الحال ، ثم أمال رأسه وأرسل ذراعيه وتأوه آهة الرجل الحزين ، ورجع أدراجه . وجعل يمشى مشية المتثاقل كأن لاحقا لحق به فى فراره فصده عن قصده ورده إلى حيث كان ، فدخل القاعة التى برحها وأخذ نظره قبضة الباب الذى يفصله عن قاعة الجلسة ، وكانت من النحاس المصقول ، فبدت له كأنها كوكب من كواكب النحس فجعل ينظر إليها نظره الشاة إلى عين النمر ، وأخذ يدانيها ثم اندفع وهو لا يدرى إلى الباب وأهوى بيده إلى القبضة فأدار زرها فإذا

---

(١) أى طول الليل والنهار .

بالباب وقد انغلق عنه ، وإذا به فى قاعة الجلسة فخطا خطوة وأقفل خلفه الباب ووقف ينعم النظر فيما يرى .

وكانت قاعة فسيحة تربو ظلمتها على نورها ، يملأ جوانبها الضجيج وتارة يغمرها السكون قد طرحت فيها قضية جان تحوطها خطورة تشوبها المسكنة ، ويتمشى فى أثنائها انقباض فى الصدور .

وفى الجانب الذى وقف فيه جلس قضاة لا تنم معارف وجوههم على شىء من الاكتراث ، عليهم أردية بالية ، وهم بين قارض لضفره ومغمض لعينيه .

وفى الجانب الآخر لفيف من الناس فى أخلاق (١) الثياب وقد نثر بينهم محامون فى شتى الأزياء ومختلف الأوضاع وعلى ضواحيهم (٢) أحراس تهب من أردانهم ريح القسوة ويعبق أرج الشرف . وكانوا تحت سقف قد كسته الأقذار وفوق أخشاب قد بلغ منها القدم ، أمامهم مناضد تكسوها أجواخ صفراء كانت فى ميعة صباها خضراء ، وحولهم أبواب قد طلاها تداول الأيدى بطلاء من القار ، تضىء لهم سرج من سرج الحانات قد علقت فى مسامير مرشوقة فى الحائط تبعث من الدخان فوق ما ترسل من الأضواء .

وقد نصب على كل منضدة شمعدان من النحاس أقيمت فيه شمعة .

وقد كان الظلام المخيم فوق ذلك المشهد المهيب يولد فى نفس الناظر شعورين من وقار وإكبار ، وشعوراً بعظمة المخلوق ، ومظهره القانون ، وشعورا بعظمة الخالق ، ومجلاه العدل .

* * *

---

(١) الثياب البالية .

(٢) أى بالقرب من أكتافهم ومناكبهم ، أحراس جمع حرس .

وقف مادلين ولم تأخذه عين فقد كانت العيون مصوبة إلى هدف واحد ، مقعد من الخشب بجانب باب صغير فى طول الحائط على يسار الرئيس قد جلس فيه رجل بين حارسين وشموع تزهر .

وكان هو الرجل .. !

رآه مادلين ولم يجشم عينيه مئونة البحث كأنه كان معه على ميعاد . وقد خيل إليه أنه يرى فيه نفسه ولكن فى سن عالية ، وما كان الشبه بينهما قاصرا على السحنة ، ولكنه كان فى الموقف والمنظر وذلك الشعر القاف وذلك النظر الشزر الذى لا يفارقه القلق ، وتلك الأهدام البالية التى كان يجول فى أمثالها يوم دخل مدينة دنى يحمل فى نفسه ضبا من الضغن [1] ويخفى فيها ذلك الكنز الذى اقتناه فى أعوام سجنه .

ذلك الكنز الذى جمعه على بلاط السجن من وحى الشر ، لا من يتيمات الدر . فارتعد وقال : «اللهم غفرا ، أكذا تكون العقبى ؟» وكان ذلك الرجل قد بلغ الستين أو جازها يلوح عليه ضرب من البله على حواشيه جفوة واسيتحاش .

ولما فتح مادلين الباب صر صريرا نبه القضاة ففسحوا له مكانا ، ولفت الرئيس فحياه ، وحياه على أثره المدعى العام فلم يكد يلمح تلك التحايا لأنه وقع فى ذهول قد افترس طائر حلمه .

قضاة وكتاب ، وشرط ، وجمع مشرئب الأعناق على ظماء إلى الاستطلاع . إنه شهد هذا المشهد قبل اليوم بسبع وعشرين سنة ، وها هو ذا يشهده اليوم .

وما كان ما يراه من عمل الذاكرة أو صنع الخيال ، ولكنه من صنع الحقيقة . قضاة وشرط وجمع من الأحياء قد ركبوا من لحم وعظم فهم يتحركون . وضح ذلك لعينيه وبرزت له صور الماضى فى أبشع ألوانها وأروع مظاهرها ، وأشكل عليه الأمر فأغمض عينيه وصاح فى أغوار نفسه أن هذا لن يكون .

---

(١) أى يحقد حقداً شديداً .

ولعبت به الأقدار ، وأرته من تهاويلها ما زاد فى خيال عقله حتى كاد يخالط فيه . فرأى كأن هناك رجلا قد شق منه ، وقد تواطأ الناس على أن ذلك الرجل لم يكن غير (جان فالجان) .

ثم رأى ويا هول ما رأى .

رأى شبه مسرح قد قام فيه شبحه بتمثيل أبشع أطوار حياته .

وقد أخذت لذلك التمثيل عدته ، فكان يرى نفس المشهد فى نفس ساعة الليل التى حكم فيها ، وكان القضاة هم قضاته وكأن الأحراس هم الأحراس ، والحضور هم الحضور إلا أنهم رفعوا فوق رأس الرئيس صورة المسيح ، ولم تكن تزين قاعات الجلسات فى عهد محاكمته ، فحوكم لشقوته فى يوم لم تشهده عين المسيح .

وسقط على كرسى كان خلفه سقوط الحجر ، فزعا من أن تقع عليه العيون . وأغيث بشبه عمود من الأوراق المكدسة فوق منضدة القضاء ، فاستتر به فبلغ أمنيته وجلس يرى من حيث لا يرى ثم جعل يتمكن من نفسه شيئا فشيئا حتى وضحت له الأمور على حقائقها ، وخرج من الذهول إلى الرشد .

وكان همه أن يرى جافير فرمى بصره بين الشهود فحالت منضدة الكاتب بينه وبين ما يريد ، وأعانها ذلك الظلام الذى لم ترقق من حواشيه تلك السرج .

وساعة دخل كان المحامى قد فرغ من دفعه وشحذ الأسماع إلى الإصغاء وقد مرت على مخاصمة المتهم ثلاث ساعات . والحضور يرون أمامهم رجلا ينوء شيئا فشيئا بثقل ذلك الشبه الغريب الذى أوشك أن يحل فى لباسه . ولقد كان الرجل مجهولا ، كان أحد أولئك البائسين الذين تنتشر على وجوههم طبقات من البله أو من تصنع البله ، فهو إما أن يكون من أشد الناس بلها أو من أوفاهم قسطا فى الذكاء .

كان أفقيا قد أخذوه بفرع من التفاح الناضج اقتضبه من شجرة فى بستان «بيرون» .

فيا ترى من هو هذا الرجل ؟ .

جرى التحقيق وشهدت الشهود وتألقت فجات من النور فى ظلمات ذلك الأفق ، أفق التحقيق .

وقال الاتهام إننا لم نقع على سارق هين الأمر ، يختلس الثمر ، أو أحد أبناء السبيل ، ولكننا قد ظفرنا بمجرم فار وقبضنا على شاهر عيار من قطاع السبيل وفاتك من شر الفتاك ، ذلك «جان فالجان» الذى جدت الشرطة فى تعقبه منذ عهد طويل .

ذلك الذى استوفى عمر العقاب فى سجن تولون ، وقطع يوم سرح منه السبيل على غلام من سكان سافواى اسمه «بيتى فيرجى» وقد دخلت جريمته تلك تحت طائلة المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، وإنا لنرجئ أخذه بها حتى يثبت لنا شخصه ... وقد ركب هذا الفاتك جريمة جديدة فهو إذاً ممن تعودوا الإجرام . فخذوه اليوم بجريمته الجديدة .

وكانت عوامل الدهش تنتاب المتهم أمام هذه التهمة وذلك الإجماع من الشهود .

وتبدر منه بوادر من الحركات والإشارات تأويلها النكران . فهو وإن خانه النطق ، أو تعصّى عليه الكلام فقد قام فى جسمه من فرعه إلى عقبه خطيب ينادى : إنى مأخوذ بجريمة غيرى ، وأفتى فى ذلك شبه غير ميمون .

وقد وقف وقفة الأبله بين صفوف من الذكاء كأنها جنود قد اصطفت للنزال ، وقد قبضت عليه يد لا تفلته وأنشأ القضاة ينسجون له مستقبلا من خيوط الوعيد .

وغبرت تمشى إليه التهمة على جسر من ذلك الشبه المشئوم ، وكان قلق الجمهور عليه أشد من قلقه على نفسه فلبثوا يتوقعون الحكم بالإدانة ويطالعون له الموت من ثنايا ذلك الحكم .

فياترى من كان ذلك الرجل ومن أية طينة قد ركبت تلك البلاهة ؟ أتنزل البلاهة بالناس إلى هذا الحد ، أم كان ذلك من صنع المكر والخداع ، أتراه قد جاز حدود الذكاء أم نزل إلى أحط مراتب البله ؟

تلك أسئلة قد شطرت الحضور شطرين ، وسرت عدوى ذلك إلى المحكمين ، فقد كان من أمره ما يزعج وما يشغل البال ، وما كان العجب من سوء حاله ، ولكنه كان من غموضه .

جود المحامى فى الدفاع وتأنق ما شاء فى تخير اللفظ وكان يخطب بلغة الأقاليم ، وهى لغة قد ألفتها المحاماة زمنا طويلا تزعم أنها اللغة البليغة ، وجرى المحامون عليها أجيالا فى باريز وفى ضواحيها من المدائن . وقد آلت اليوم إلى لغة دراسية ولع بها الخطباء من أرباب المناصب كرجال النيابة وأشباههم . راقهم منها لفظ يرن فى الأذن رنينا يمازجه الجد وأسلوب يمشى إلى السمع مشية تصحبها الجلالة .

فكانوا إذا ذكروا الزوج قالوا «البعل» ، والزوجة قالوا : «الخليلة» ، والملك قالوا : «رب التاج والصولجان» . وإذا ذكروا باريز قالوا : «أم الفنون ومهد المدنية» . فالمدعى العام فى لغتهم «خطيب الاتهام المصقع» ، والمرافعة «الصيحات التى تسمعها المحكمة» ، وعصر لويز الرابع عشر «عصر الكبير» ، والأسرة المالكة « دماء ملوكنا الكريمة» ، والقائد «الجندى العظيم» ، وخطأ الصحف السيارة «الكذب الذى تنفث سمه فى أنهارها» .

بدأ المحامى دفعه بتفسير سرقة التفاح وصعب عليه أن يمر فيه بذلك الأسلوب الرائع ، ولا عجب فقد وقع ذلك لـ (بوسيه) نفسه ، فقد أرتج عليه وهو يؤبن ميتا عظيما ففزع إلى الاحتماء بوصف دجاجة سنحت له وخرج من مأزقه ذلك بين التهليل والإعجاب خروج الظافر .

أثبت المحامى أنه لم يقم دليل محسوس على سرقة التفاح لأن المتهم لم تأخذه عين وهو يظهر [1] الحائط ويعالج كسر الفرع ، ولكنه فوجئ وهو يلتقط ذلك الغصين (وقال الغصين بتصغير غصن ، تهوينا للأمر) واعترف بأنه وجده مطروحا على الأرض فالتقطه ، ولم تأتونا بما غصن ذلك ، ولعل أحد السابلة قد مر بذلك البستان ، فتسور الحائط واقتضب ذلك الفرع ثم أحس خطرا فألقى به على الأرض ، ونجا بحشاشة نفسه .

لقد وقعت السرقة ولكن المتهم لم يكن بصاحبها . إنكم قد أخذتموه بسابقة أمره لأنه ممن تعودوا الإجرام ، (وفاته أن ذلك الأمر الذى سلم به فى عرض دفاعه لم يبلغ

(١) يتسور .

فى التحقيق مبلغ اليقين ، فجاء ذلك التسليم ويلا على المتهم) ثم مضى فى دفعه ، وقال : «إنه كان مقيما فى (فافرول) يرتزق من تشذيب الشجر وحقيقة اسمه (شان ماتييه) وأحسبهم قد حرفوه إلى (جان ماتييه) .

ثم مر بشهادة الشهود مرا ولم يدفعها ، وكان يتكئ فى أقواله على إنكار المتهم حتى انتهى إلى قوله : «فلو سلمنا أنه هو «جان فالجان» ، فهل يقوم هذا دليلا على أنه سارق التفاح ؟ إن هى إلا قرينة من القرائن ، وما أبين ما بينها وبين الدليل القاطع .. لقد أساء المتهم إلى نفسه بذلك الإنكار المطرد ، فأنكر كل شىء - أنكر جرائمه وشخصيته وكل ما صوب إليه فى ماضيه وحاضره ، ولو أنه اعترف بماضيه لاكتسب بذلك عطف القلوب .

نصح إليه المحامى أن يقلع عن ذلك الإنكار ، فأبى وأصر وظن أنه يخرج من تبعة كل شىء إذا هو أنكر كل شىء ولا عجب فقد كان بليد الذهن ، ومر به من صنوف البلاء فى السجن وبعد السجن ما يبلد الذهن السليم ، على أن طريقته التى جرى عليها فى الدفع عن نفسه لم تكن مبررة للحكم عليه .

ورد المدعى العام على المحامى ردا رق مبناه وخشن معناه ، شأن أمثاله من المدعين ، فأثنى على صدقه وأطرى منهجه وعرف كيف ينتفع بذلك الصدق ، وأخذ المتهم بنزول [1] محاميه عن التمسك بإنكار شخصيته ، وسجل عليه ذلك النزول ، فأضاف إلى الاتهام حجة قد دعمت من حججه ، وتدرج فى قوله بلباقة حتى وقف على منبع الإجرام وأنحى باللوم على تجرد المدرسة الروائية من روح الشرف . وكانت إذ ذاك فى فجر ظهورها وقد دعاها النقاد فى الصحف بالمدرسة الجهنمية ، وعزى - وهو على شىء من الحق - جريمة (جان ماتييه) أو (جان فالجان) إلى تأثير ذلك الأدب الخلاب الذى راع العقول .

وانتقل بعد أن قضى لبانته ونضبت مواد القول إلى «جان فالجان» نفسه ، فأفاض فى وصفه إفاضة كانت أشبه شىء بما جاء فى قصة «تيرامين»

---

(١) يقال نزل عن حقه ولا يقال تنازل عن حقه ، فإن التنازل لا يكون إلا فى ميدان القتال أو بين اثنين.

ولم يكن لذلك القول مكان فى تلك المأساة ، ولكنه أسلوب طالما لجأت إليه البلاغة القضائية .

وما زال يقرع الأسماع بتلك القوارع حتى أدخل الرعب على نفوس القضاة والحضور ، ومر المدعى فى رده بتلك الكلمات الخلابة التى استثارت فى صباح المخاصمة حماس الصحيفة الوحيدة التى كانت تظهر فى سماء تلك المقاطعة .

وكان مما قال فى «جان فالجان» : «رجل شأنه ذاك طريد جوال . لا مرتزق له . تعود الإجرام ، ولم تفلح السجون فى تقويم إعوجاجه وتنقية نفسه . فلقد جنى يوم خرج منها على الغلام «بيتى فرجى» .

وقبض عليه بعد ذلك متلبسا بالسرقة على قيد خطوات من الحائط الذى ظهره ، وفى يده ما سرق ، فأنكر التلبس والتسور والسرقة ، وأنكر حتى شخصيته وفى يدنا مائة دليل ودليل على ذلك ولانريد سردها - دع أربعة من الشهود على رأسهم جافير كبير الشرطة ولا تسألوا عن نزاهته ، وثلاثة من أخدانه فى الإجرام ، فكيف يدفع إجماعهم على معرفة شخصه ، إن هو إلا جامد الشعور ، غليظ الكبد .

وقد كان المدعى يخطب والمتهم ملق بسمعه وقد فغر الدهش فاه ونال منه العجب مما يسمع - وكان يحرك رأسه يمنة ويسرة كلما اشتدت لهجة الاتهام فى تلك المواطن التى تعجز فيها البلاغة عن إمساك سيلها ، فيترامى بموجات من سب وتحقير ، كانت تلف المتهم لف العاصفة . وكان فى حركات رأسه تلك ، ضرب من احتجاج فصيح فى صمته بليغ فى حزنه .

وقد لفت المدعى القضاة إلى ذلك الموقف موقف البله الذى أخذ المتهم نفسه بتمثيله ليخدع القضاء ويستنزل الرحمة ، فلم تجز حيلته علينا وكشفت لنا عما كان يخبئه فى غور قلبه من خبث لا أمد له ، وختم قوله بطلب الجزاء العادل . ثم وقف المحامى وهنأ المدعى ، وأطرى خطبته التى جازت حد الإعجاب ثم ألقى بكليمات حضرته وأخذ يتضعضع حتى فقد كل تكأة له ، وحتى شعر كأن الأرض تميد تحته ميدانا .

وحانت ساعة انتهاء المخاصمة فأومأ الرئيس إلى المتهم بالوقوف ، وسأله السؤال المألوب ، أعندك ما تقول ؟ فوقف وهو يلاعب قلنسوته بيديه وكأنه لم يسمع . فأعيد

السؤال وأظنه سمع فى هذه المرة ، فقد رؤى فهمه فى عينيه وكان كمن استيقظ من سبات فجعل ينفض عنه الكسل ويدور بنظره يحدق فى الحضور حتى وقفت عينه على المدعى العام ، فانفجر بالكلام انفجار البركان ، وقد كان الكلام فى فيه يكاد يقتتل اقتتالا ، يستبق الخروج بعضه البعض :

– كنت عاملا فى صناعة النحاس فى باريس لدى السيد «بالو» وكان العمل شاقا . يعمل العامل طرفى النهار فى الخشب ، ولا يتاح له أن يعمل مرة فى مصنع مقفل لايأذن للهواء . فإذا كان الشتاء ووجد العامل منا مس البرد وتخوف على أعضائه اليبس ، نزع إلى تحريكها فترة من الزمن التماسا للدفء ، فيحفظ (١) هذا أصحاب المصنع علينا ويقولون إنه وقت ضائع .. وما ظنك بعامل يصهر الحديد وهو على أرض من الثلج ؟ إن هذا إلا فناء عاجل . فترى العامل وقد أخلق كما يخلق الثوب ، ولبس فى صباه لباس الهرم .

ولا يكاد يدرك الأربعين حتى تدركه السن فتنزف قواه ويرغب عنه ويمسى سخرية لشرار العمال ، فينبزونه بأقبح الألقاب . فكانوا يدعوننى وقد طويت الثالثة والخمسين بالشيخ الأبله والعجوز العاجز .

وكانت وظيفتى فى يومى ثلاثين صلديا . وما حطَّ من أجرى فى دعواهم غير السن ، وكانت لى ابنة تكدح هى الأخرى فى طلب العيش فتعالج غسل ثياب الناس . فكان جهدنا يفىء علينا بعصارة تمسك الحياة . تبذل يومها فى الكد ما تتقى المطر بسقف يحجبها أو ثوب يسترها ، جاثمة فى مهاب الأنواء . وكان عليها أن تغسل ولو جمد الماء .. فإن من الناس من لا يجد لباسا غير جلده حين يخرج من ثوبه لغسله ، فلا يزال قائما على يديها يتنجزها فإذا أنس منها تريثا أو وجد تعللا ، عدل بالثوب إلى سواها . فما فتئت المسكينة تطوى ساعاتها مضطربة فى المغاسل بين الحار والبارد – دع ما كانت تعانى من مضارة زوجها لها ، حتى أتى على نفسها الشقاء .

---

(١) يغضب .

ثم أمسك عن الكلام وقد كان يهدر بصوت جهير أبح أجش ، وكنت تطالع فى جفوة لفظه وثورة قوله ، سلامة الضمير ونقاء الجنان .

وقد انتابه فواق [١] كان يحبس أنفاسه ، فجعل يستعين على تأدية ما فى نفسه بحركات كنت تخاله معها حطابا يشق جذعا من الجذوع . وما كاد ينتهى حتى أغرب الجمهور فى الضحك ، فلبث ينظر إليهم وهو يجهل مثار ذلك – وما نشب أن فعل شرواهم [٢] وشاركهم فى ضحكهم ، فكان مشهدا مؤثرا تعلوه الكآبة . فصاح الرئيس وكان يقظا رحيما ، فذكر المحكمين أن السيد (بالو) الذى فرغ المتهم إلى شهادته لا يعلم له مقر منذ أفلس واختفى . ثم التفت إلى المتهم وقال له : «أعرنى سمعك واعلم أنك فى موطن أنت فيه أحوج ما تكون إلى التفكير ، فقد انصبت عليك الشبهات ، وقامت حولك دلائل لا تلبث أن تجرك إلى سوء المصير . فأجب إجابة صريحة عن أمرين : هل ظهرت حائط البستان واقتضبت فرع التفاح ؟ هل أنت جان فالجان ؟» .

فحرك رأسه حركة تعرب عن فهم ما ألقى عليه ، واتجه إلى الرئيس وقال :

«أما عن الأمر الأول» ثم سكت وألقى بنظرة على قلنسوته ، وأخرى على السقف ، فحمى المدعى العام وقال له : «ويل لك ! ما لك لاتجيب على ما يلقى عليك ؟ إن اضطرابك ليدينك فلست بجان ماتييه كما تحاول أن تكون ، وإنما أنت ذلك المجرم الفار جان فالجان . فقد ذهبت إلى (أفرون) وولدت فى (فافرول) وكنت بها مشذبا للشجر ، وظهرت حائط بستان ، واقتضبت منه فرعا من التفاح ، وللمحكمة تقرير مصيرك» .

وكان المتهم قد أهوى على مقعده تخاذلا ، والمدعى يخطب حتى إذا انتهى من خطابه استوى قائما وصاح به :

«ما أخبثك أيها الرجل ! وهذا كل ما أريد أن أقوله لك ، وقد كان يعوزنى القول .

---

(١) الزغطة .

(٢) أى مثلهم .

«لست من السوقة ولا أنا بذلك الرجل الذى يصيب ما يتبلغ به فى كل يوم .. إننى أتيت من (إلى) فخرجت أضرب فى البلاد غب سماء [(١)] وقد كسا الغيث وجوه الأرض ببساط من الرمل الأصفر ، هاجه إلحاح السيل من بطون المناقع [(٢)] وطمر به الزرع حتى ما تقع العين على غير أعواد دقيقة من الحشائش على عطفى الطريق . وكنت التقطت من الأرض فرعا مهشوما به تفاح – التقطته وما كنت أدرى أننى ألتقط الشقاء . وقد لبثت فى السجن ثلاثة أشهر ، وأنا أنقل من مكان إلى مكان ، وهذا مبلغ ما عندى من القول .

إنهم يرموننى بالتهم ويطلبون منى دفعها ، ويدفعنى الحارس على طيبة فيه إلى الكلام ، يغرينى بذلك هما ، وأنا لا أدرى كيف أفصح عما فى نفسى ، إننى لم أصب من العلم ولم يثقفنى مثقف ، فأنا فقير الإدراك ، ولكنهم قد أغمضوا العيون عن ذلك فأخطأوا حقيقة أمرى .

أف لكم ! لقد ذهب بكم المكر إلى حد انقطع بمعرفة المكان الذى ولدت فيه . على أنى لا أزال أجهل مولدى وليس لكل من يهبط إلى هذه الدنيا بيت يولد فيه ، ولو تهيأ ذلك للان العيش ، وطابت الحياة ، وأكبر ظنى أن والدىَّ قد كانا من أولئك الذين يعيشون فى الطرقات والمسالك .

وجل ما أذكره أننى كنت أدعى وأنا حدث (بالصغير) واليوم أدعى (بالشيخ) ولا أعرف لى اسما غير هذين ، فأولوا قولى ما بدا لكم أن تؤولوا .

ولا أكذب الله فقد كنت فى (الأفرون) وكنت فى (فارول) وليس من الختم أن من كان فيهما يكون من أهل السجون . لقد أعنتمونى بترهاتكم ، فعلام يتعقبنى الناس كما يتعقب الموتور واتره؟! .

فاتجه المدعى العام إلى الرئيس وقال :

---

(١) أى عقب مطر .

(٢) المستنقعات.

«لقد أحكم المتهم تمثيل ما أخذ نفسه به من التبلُّه ، يحاول إيهامنا أنه أبله ، ولكنه يعالج المحال بذلك الإنكار ، وأظن أن المحكمة لا ترى بأسا فى مواجهته بالشهود مرة أخرى ، وسؤالهم على مسمع منه» .

فقال الرئيس : «إنى أذكر المدعى العام أن جافير وهو كبير الشرطة قد دعاه عمل من أعماله فى المقاطعة المجاورة فأذنا له بعد الشهادة ، وكان ذلك بين سمع المدعى وبصره والمحامى عن المتهم شاهد غير غائب ، وما ارتفع منهما صوت بالاعتراض» .

فقال المدعى : «لم يغب عنى ذلك ولكنى أذكر المحكمين أن جافير قد شهد قبل ذهابه شهادة لا يزال أثرها فى النفوس وجافير رجل قد تعالم الناس صدقه ونزاهته وإنى لملق عليكم بما قال :

«لست فى حاجة إلى إقامة البراهين المحسوسة أو الإدلاء بالحجج الملمومة ، فإنى أعرف هذا الرجل حق العرفان ، فما هو (بجان ماتييه) كما يزعم وإنما هو (جان فالجان) ذلك الفتاك العيار ، والمجرم الأثيم – سرح من السجن بعد أن انطوى أجل عقابه ، فخرج منه والعدل فى أسف على خروجه .

«لقد قطع فى السجن تسعة عشر عاما عالج فى مداها الهروب مرارا . وسطا بعد ذلك على غلام صغير ثم ظهر حائط بستان ، وأكبر ظنى أنه سرق آنية ذلك العابد الكريم ليلة أواه فى مدينة «دنى» وأذكر أننى رأيته فى سجن تولون أيام كنت أقوم بعمل الشرطة هناك . فإنا به أعرف من أمه التى ولدته» .

وفعلت تلك الشهادة فى نفوس الحضور فعلها ، وألح المدعى على أثرها بطلب الشهود فألقى الرئيس كلمة على أحد الحجاب فانطلق يعدو . وما هو إلا أن غاب حتى فتح باب قاعة الشهود ورمى الحضور برجل بين رجلين . وإذا الحاجب ومعه حرسى من الأحراس يقودان (بريفيه) أحد الشهود الثلاثة وكان من عتاة الأشرار وقد كره الحاجب أن يصحبه وحيدا فاستظهر [1] عليه بأحد الأحراس . فدخلوا وقلوب الحضور تخفق خفقة قلب واحد .

---

(١) أى استعان .

وكان (بريفيه) مجرما عريقا قد جاز الستين تلوح عليه سيما الأنذال وترد عليك منه سحنة المتهالكين على ذات [1] اليد . وهما خلتان قد تكون بينهما رحم ، وقد غير منه ما كابده فى السجن من الأذى حتى قال الموكلون به إنه يريغ [2] أن يكون رجلا نافعا ، وأثنى المتصدقون على خلال تعبده ولكن يجب أن نذكر أن ماظهر من الانقلاب فى طباع هذا المجرم إنما وقع فى عهد العودة ، عودة البربون .

فقال له الرئيس "بريفيه ، إنك رجل قد ركبت من المنديات ما سجله عليك القضاء ، فأصبحت غير أهل للحلف غير أنك وإن جردتك من ذلك يد العدل ، فقد أبت رحمة الله أن تقفر نفسك من الشرف والإنصاف ، فحبتها مزقة منهما ، فأنا أستحلفك بما بقى فى نفسك من ذلك الحياء إن كان له كما أرجو بقية ، وأريدك على أن تتبصر قبل الجواب فى هذه الساعة الحاسمة . فكلمة منك تطيح بحياة هذا الرجل وأخرى منك تنير لنا منهج العدل ولا يضيرك أن تخرج من موقفك هذا إذا بدا لك أنك تكون على الحق » .

ثم صاح بالمتهم أن قف وقال لبريفيه : «انظر إليه واجمع أشتات ذكرياتك وانطق برحى نفسك إذا كنت لا تزال مصراً على أن هذا الرجل لم يكن غير (جان فالجان) رفيقك فى سجن تولون» .

فأجاب (بريفيه) وقد ألقى نظرة على الجمهور : « إنى أول من عرفه فهو (جان فالجان) رفيقى فى سجن تولون .

«دخل فيه سنة ١٧٩٦ وخرج سنة ١٨١٥ . وقد سرحت بعده بعام واحد ، وإنى أراه يتباله منذ اليوم . ولعل ذلك من فعل السن ، ولقد كان فى السجن ساهى الطرف كثير الإطراق » .

فأومأ الرئيس إليه بالجلوس ولبث المتهم واقفا .

وجىء بالشاهد الثانى (شنيل ديفيه) وكان لا يزال فى لباس المجرمين ، وقد أشخص من السجن للشهادة .

وكان قصيرا خفيف الحركة ، ضئيلا ، كثير تجاعيد الجبهة ، أصفر اللون ، حاد الوجه إذا رأيته رأيت شبه محموم ، نحيل الأعضاء ، مضعوف الجسم قد ركبت فى رأسه عينان تقرأ فيهما آيات القوة ، وكان رفاقه فى السجن يلقبونه بـ (أنكر الله) .

---

(١) المادة .

(٢) أى يحاول.

فألقى عليه الرئيس تلك الكلمات التى ألقاها على سابقه حين ذكره بما كان من ماضيه الذى سلبه حتى حق الحلف رفع رأسه وحدق فى وجوه الحضور .

فقال له الرئيس : "ألا تزال مصرا على معرفة هذا الرجل؟" فقهقه الشاهد وقال : "كيف لا أعرف رجلاً سلكت معه فى سلسلة واحدة بضع سنين؟" .

وجىء بالشاهد الثالث "كوش باى" وكان مجرما قد حكم عليه بسجن الأبد وهو فلاح من (لورد) كان يدعى القطعان فى رءوس الجبال، ثم حال إلى قاطع سبيل، وكان فى معارف وجهه ما ينطق بأنه يفوق المتهم بلها، وهو من أولئك الذين بنيت طبيعتهم بناءة الضوارى فنبذهم المجتمع وقذف بهم فى بحور السجون . فحرك منه الرئيس بكلمات قاسية، وألقى عليه قولا ثقيلاً، ثم سأله السؤال المعهود . فأجاب المتهم : "هذا هو جان فالجان وكنا ندعوه لفرط منّته[1] بجان لجريك" .

ففعلت تلك الشهادة فعلها فى الحضور وزاد فى أثرها ذلك الوضوح الذى ألبسها لباس اليقين .

فضاقت القاعة بأهلها وسرت فيها همسات الأسف على المتهم، ثم جعلت تشتد وتمتد كلما ألقيت شهادة من تلك الشهادات .

وكل هذا والمتهم ملق بسمعه وهو ساهم الوجه سادر النظر، وكان مبلغ احتجاجه على ما يسمع أن كان يحرك عند انتهاء الشهادة رأسه، ويقول على مسمع الحرس : "شىء حسن" . فقال له الرئيس : "ما قولك؟" قال : "شىء حسن!" .

فعلا الضجيج فى القاعة وضج حتى المحكمون وقالوا : "هلك واللّه الرجل!" .

فصاح الرئيس بالحاجب أن ادع الناس إلى السكينة . وعلى أثر ذلك سرت حركة بقرب الرئيس وارتفع صوت ينادى : "انظروا هنا أيها الشهود" .

---

(١) المنة القوة .

فملك السامعين الروع وهالهم ذلك الصوت الجهير الذى كان ينبعث من ذلك الحلق الحزين .

فالتفتوا إلى مصدره فإذا بهم يرون رجلاً قد خرج من صفوف الخاصة الجالسين خلف القضاة ووثب إلى وسط القاعة . وما هو إلا أن تراءى حتى صاح الرئيس والمدعى العام وصاح اصياحهما عشرون صوتاً "السيد مادلين!" .

وما كان إلا هو وقد أضاء وجهه المصباح المنصوب على منضدة الكاتب، فوقف وقلنسوته فى يده . وهو فى لباس لم يتطرق إليه العبث .

وكان أصفر اللون قد سرت به هزة وحال لون شعره فقد دخل مدينة آراس وشعر رأسه أرمد[1] فلم يكد يطوى بها ساعة حتى صاح به المشيب، فشاب الرجل فى مدى ساعة واحدة .

فاشرأبت الأعناق وتطلعت النفوس وشحذ الشعور ومرت بأهل القاعة فترة من الحيرة، وحق لهم أن يحاروا، فقد سمعوا صرخة نفس ثائرة، ورأوا أمامهم رجلا هادئ الطبع ساكن الجأش، فلم يقع فى نفوسهم أن هذا الواقف المتمكن من نفسه هو صاحب تلك الصرخة المروعة .

ولم يكن أجل حيرتهم طويلاً فقد اتجه الرجل إلى الشهود وناداهم بأسمائهم وصاح بهم : "أتنكرون هذا الوجه؟" .

فعل ذلك قبل أن ينبس الرئيس بكلمة، أو يتمكن الرئيس من الحركة .

فبهت الذين شهدوا وأنكروه بإيماءة من الرءوس . ثم التفت الرجل إلى المحكمين، وقال : "سرحوا هذا المتهم وخذونى فأنا جان فالجان" .

---

(١) أى بلون الرماد .

فعلقت الأنفاس وأخذت القوم رجفات الدهش ثم علاهم خشوع البلى، وكأنهم عوجلوا بقارعة سماوية فملكهم الفزع الأكبر، وكذلك تفعل جلائل الخطوب وعظائم الأمور .

وانتشرت على وجه الرئيس طبقة من العطف والحزن معًا، فرمى المدعى بنظرة عجلي وهمس فى آذان الجالسين معه للقضاء، ثم رفع رأسه يخاطب الجمهور : "أبغونى طبيبًا" وقال المدعى : "هذا السيد مادلين قد نزل به ما نزل وإنا لنجد[1] له وجدا شديداً، ونعلم أنه نبيل القدر زكى المشاعر، فإذا رأى الرئيس أن يأمر بحمله إلى داره" .

فابتدر مادلين الكلام وقاطع المدعى بصوت يمازجه السلطان، ونطق بكلمات نثبتها هنا ولا نخرم منها حرفًا، فقد وعاها أحد من شهدوا الحادث ودونها على أثر انطوائه، وقد مر بها أربعون عامًا وهى لا تزال فى آذان من بقى حيًا من أولئك الشاهدين :

"أشكر لك أيها المدعى، فما أنا بمجنون كما تزعمون . إنكم على وشك أن تضلوا، سرحوا هذا المتهم وخذونى فأنا المجرم الذى تنشدون .

"وليس هنا سواى من ينظر بغير غطاء، فهاكم الحقيقة خالصة غير مشوبة .

"إنى وقفت هذا الموقف لذات الله العلى، وهو حسبى فخذونى . فقد طبت بذلك نفسًا .

"إنى أردت الحسنى فتنكرت حتى أثريت، وأصبحت شيخًا لمنتراى سيرمير، وألقيت بنفسى بين الأخيار، فلم يفسح لى الحظ بينهم مكانًا، فجئت وفى النفس أشياء لا يسعنى سردها، فلا أثقل عليكم ببسط ما صنعت فى أيام توبتى فإن الغد يبسطه كفيل .

(١) أى نحزن .

"إنى سرقت مولاى العابد وسطوت على ذلك الغلام الصغير، فحق لهم أن يصموا جان فالجان بأنه فاتك أثيم، وما كان له الخطأ[1] كله وإن كان من الخاطئين - وليس لحقير مثلى أن يعترض على العناية أو ينصب نفسه لمناصحة الناس، ولا أكذب الله، فإن العار الذى عالجت نضحه عن نفسى كان أمرًا إدًا .

"ولا يفوتنكم فى هذا الموطن أن السجن قد كان لى شر أستاذ، فهو يخبث النفس، ويمزق شمل الفضيلة، ولقد صدق من قال : "إن السجون تخلق الأشرار" .

"فلقد كنت قبلاً فلاحًا فدمًا[2] فأطلع منى السجن شريرًا، وكنت عودًا من الحطب، فصيرنى شعلة، ثم ردت إلى الرحمة ما سلبتنيه القسوة، فنجوت بنفسى، ولكن بعد الفوت . فإذا دق عن أفهامكم ما ألقيه الساعة عليكم، فهناك فى رماد المدفأة تجدون القطعة الفضية التى سلبتها من ذلك الغلام .

"وإليك أيها المدعى أسوق الكلام، إنى ليعرض لى أنك غير مصدقى، وأقرأ ذلك فى حركات رأسك، فأناشدك الله ألا تأخذ هذا المتهم . الويل لى ! أليس هنا من يعرفنى؟ إنى ليحزننى غياب جافير ولو كان حاضرًا لوضح الحق" .

***

ليس فى طوق كاتب أن يصور ما كان فى كلمات هذا الرجل من نبرات الكآبة ورنات الأسى التى كانت تصحبها عبقة من الحسنى . ثم انفتل إلى الشهود الثلاثة، وقال : "بريفيه ألا تزال تنكرنى؟" .

---

(١) الذنب .

(٢) الفدم الساذج .

فاعترت بريفيه الرعدة وجعل يصعد فيه بصره ويصوبه، ومر الرجل فى كلامه فقال : "يا شانيلديوه، ألست كنت تدعى فى السجن بـ (أنكر اللّه)؟ ولى فيك آية ... حرق بكتفك اليمنى، حاولت أن تمحو به الثلاثة الأحرف التى وسمت بها، فلم يغن عنك شيئًا، وثبتت الأحرف فى مكانها . أرأيتك ؟ ألم أقل حقًا؟" ... قال : "بلى!" .

ثم تحول ذلك المسكين إلى القضاة والحضور وعلى فمه بسمة ما ذكرها رائيها إلا وجد لها غمزًا على قلبه، بسمة قد جمعت بين حلاوة الظفر ومرارة القنوط .

فذهب بأهل القاعة وحالوا إلى عيون تنظر، وأفئدة تخفق . فلم تعد ترى فيها قضاة ولا مدعين ، ولا تلمح أشراطًا ولا مدافعين، وقد أنسى كل غرضه : نسى الرئيس أنه جاء للرياسة، والمدعى أنه قام للاتهام، والمحامى أنه مثل للدفع، والحرس أنهم أقيموا للحراسة، فلم ينبس خلق بكلمة، ولم يفزع ذو سلطان إلى سلطانه .

ولا عجب فإن للمشاهد السامية خواص تملك على رائيها المشاعر وتحيل شهودها إلى نظارة[1] يخرج بهم فرط ما هم فيه عن حد الشعور، فلا يكادون يتساءلون حتى فى أنفسهم عن مأتى ذلك اللألاء الذى يذهب سناه بأبصارهم، فهم فى داخلهم مأخوذهم برائع ما يشاهدون فى خارجهم .

وضح الصبح وتكشفت ظلمة الشك عن جان فالجان فأنار ظهوره السبيل، وكشف عن ذلك الحادث، وأدرك ذلك الحفل الحاشد ما كان من حقيقة الأمر – أدركه بأسرع من خطفة البارق أو نبضة الكهرباء .

رجل يفتدى بنفسه رجلاً آخر – للّه ما أنبل هذه النفس ثم قال الرجل : "إننى لا أريد أن أطيل عليكم أمد ما أنتم فيه فقد عزمت على الذهاب لأنهم يأبون أن يأخذونى، وعندى ما يدعونى إلى الرجوع، والمدعى العام يعرف من أنا، ويعرف أين يجدنى متى حلا له ذلك" .

---

(١) المتفرجون .

قال ذلك وغبر يمشى إلى الباب بقدم مطمئنة، فما رفع صوت ولا امتدت ذراع لسد سبيله – مشى وقد حل فيه خفى من العناية ما حل فى إنسان إلا تراجعت أمامه الصفوف واصطف الوقوف .

فلما بلغ الباب وجده مفتوحًا، فالتفت إلى المدعى وقال : "أنا رهن أمرك" . وعطف قائلاً :

"أيها الحضور ألا ترون أنى جدير بالرحمة، ولعلى كلما فكرت فى أنى كنت على وشك القيام بهذا الصنيع وجدتنى حقيقًا بالغبطة" .

ثم خرج فصفق[1] الباب كما فتح – ولا يعدم صاحب العمل الجليل أن يجد له فى المجتمع نصيرًا .

وعاد القوم بعد فترة إلى أنفسهم، فأمر المحكمون بتسريح "جان ماتيو" فخرج وهو يقول فى نفسه : "ما أشد جنون هذا الناس ! فأنا لا أكاد أفقه شيئًا من جميع ما مّر بى فى هذا الحادث ..." .

عود إلى فانتين :

تنفس الصبح فقامت فانتين، وكانت قد سهرت الليل كله، ولزمتها الحمى فحمة ذلك الليل، وكانت تلم من خلال آلامها صورًا من وجوه السعادة بقرب طفلتها – فانتهزت الراهبة نهزة نومها وكانت قد ساهرتها وخرجت تهيئ لها جرعة من الكينا . وبينا هى عاكفة على عقاقيرها وقواريرها وقد ألقى الشفق على الأرض ضبابا يقصر فيه قاب العين، وإذا بها قد التفتت التفاتة أوشكت معها أن تصيح .

(١) صفق الباب أى رده .

رأت مادلين وهو منها أدنى شيء، فصاحت : "أسيدى الشيخ أرى؟" .

فقال : "نعم، وكيف حال المريضة" قالت : "ليس بها الساعة من بأس وقد كنا نتوقع لها بالأمس شراً" ، ثم أعلمته علمها وقالت : "ولولا أن فكرة رفهت عنها لما طلع عليها هذا الصباح، فقد ملت غيابك على الذهاب لتفقد طفلتها" .

ولم تجرأ الراهبة على سؤاله أين كان ؟ ولكنها لم يغب عنها أن ملامحه لم تكن تنطق بأنه قادم من ذلك الوجه .

فقال لها : "أحسنت فى تركها على زعمها"، فقالت : "وما عسى أن تقول لها إذا رأتك وحيداً؟" قال : "إن الله يلهمنا الجواب" .

وكان الصبح قد وضح نوره، فرأت الراهبة فى مادلين ما راعها – رأت شعره الأرمد، قد حال كله إلى شعر أبيض . فصاحت به : "أى خطب نزل بك فشيَّبك؟!" .

ثم وافته بمرآة صغيرة كان الأطباء يستخدمونها فى التحقق من الموت، يضعونها على فم المريض فتكدرها أنفاسه إن كان لا يزال حيا . فأخذها مادلين ونظر فيها نظرة، وقال : "حسن ..!" .

فجمدت الراهبة فى مكانها وعطف مادلين قائلاً : "أليس من الميسور أن أراها الساعة ؟" فقالت : "إنك لم تأت بطفلتها فخير لها ألا تعلم بقدومك، ومتى جئت بها علمت من نفسها بأن غيابك إنما كان لذلك، فتنجو المريضة من آلامها وننجو نحن من نسج الكذب" .

فلبث غير بعيد ثم قال بلهجة الجاد الساكن : "أريد أن أراها الساعة فربما كنت عجلاً"، فلم تفطن الراهبة لما كان فى كلمة "ربما" من المعنى الغامض الغريب فغضت من بصرها وقالت محتشمة : "ليدخل سيدى وليعلم أنها نائمة" .

فتقدم إلى[1] الخادم بإصلاح باب لم يكن مطمئنًا فى مكانه، كراهة أن تتأذى المريضة بصريره . ثم دخل مخدعها وهو يخافت من مشيته ودنا من سريرها وفرج عنها الستائر فإذا هى نائمة . وكان نفسها يشخص من صدرها شخوصًا يبعث الأسى . وتلك آية ذلك المرض العضال التى طالما فجعت نفوس الأمهات السواهر على أولادهن الذين أبرم فيهم حكم الموت .

وكان هذا التنفس الشاق يكدر ذلك الصفاء العجيب المنبسط على وجهها – ذلك الصفاء الذى كان يبدل فى نومها من مرأى ذلك الوجه – وكان اصفرارها قد بلغ حد البياض وأمست خدودها قرمزية ، وكانت أهدابها الطويلة (وهى البقية التى بقيت من جمال البكارة والشباب) لا تزال تختلج فوق ذلك الطرف الساجى . وقد اهتز جسمها من فرعها إلى قدمها، كأن أجنحة خفية قد ركبت فيه وأوشكت أن تنشر للطيران . تى ليخيل للناظر إليها أنه يحس ترويحها وإن لم تقع عليها عينه .

فلا يقوم بنفسه أنه يرى مريضة قد يئس منها – فهى إلى من يصوع[2] للطيران أقرب منها إلى من يتهيأ للنزول إلى القبر .

ألم تر إلى الغصن كيف يضطرب كلما امتدت يد لقطف زهــــره – ألا يلـوح لك أن ذلك الغصن كأنه يجود بنفسه وكأنه يختلسها فى آن ، فهـو يعطـى ويمـنع فى وقت معًا ؟

كذلك الجسم البشرى فقد تنتابه تلك الهزات حتى تحين الساعة التى تمتد فيها يد الموت الخفية لاقتطاف[3] الروح .

---

(١) تقدم إلى أى أمر .

(٢) صوع أى تهيأ للطيران .

(٣) اقتطف مثل قطف وقد أنكرها بعضهم حتى وجدناها فى شعر الأعشى فى الجاهلية وفى شعر جرير فى الإسلام فهى عربية بدوية، قال الأعشى : لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ملنا ببيض فظل الهمام يقتطف .

وقف مادلين بجانب سريرها وهو كأنه بعض الأنصاب وجعل يتنقل ببصره بين المريضة والصليب كما كان يفعل منذ شهرين ، ليلة زارها للمرة الأولى . وكان المنظر واحداً في جميع وجوهه إلا أن شعره في هذه المرة كان قد عمه الشيب .

دخل وحده ولم تصحبه الراهبة ووقف بجانب سريرها كما ذكرنا وأصبعه على فمه كأنه يأمر أحداً بالسكوت . ففتحت المريضة عينيها وسألته سؤال العطيف وهي تبتسم : "أين كوزيت؟" .

قالت ذلك وما أخذها دهش ولا استخفها فرح، فقد كانت هي الفرح بعينه، وعجيب أن يفر الفرح .

ألقت هذا السؤال : "أين كوزيت" وليس في نفسها ظل للشك ولا في خاطرها جولة للقلق، فألجم اليقين المتجلي في ذلك السؤال، لسان مادلين فلم يحر جوابا .

ثم مرت في حديثها : "لقد كنت عالمة بوجودك رغم سلطان النوم، وكانت عيناي تتعقبانك أني سرت – رأيت كأنك كنت ملقا في سماء من المجد يطيف بك نور سماوي . على أني أعاودك السؤال : "أين كوزيت؟" لِمَ لَمْ تنمها بجانبي حتى إذا ما فتحت عيني فتحتها على تلك الطلعة البهية؟" .

فأجابها بكلام لا يرتاح له العقل ثم لم يلبث أن نسيه على أثر إلقائه . وأغاثه حضور الطبيب الذي ابتدرها عند دخوله بقوله : "اهدئي فإن ابنتك هنا" . فبرقت عيناها بريقًا أضاء وجهها وضمت يديها ضمة تمثل فيها أجلي معاني التضرع إلى اللّه وأحلاها . ثم صاحت : "إليّ بها" وكانت تظن أنها لا تزال طفلة تحمل – وهم من أوهام الأمهات مبعثه العطف والحنان .

قال الطبيب : "لم يحن الوقت فإنك لا تزالين في بقايا علتك، فلا آمن عليك صدمة اللقاء . فمتى أبللت جئناك بها" . فقاطعته بحماسة : "لقد شفيت وأعيد عليك القول إني شفيت، فيا اللّه ما أحمق هذا الطبيب فإنه يريد أن يحول بيني وبين ابنتي!" .

فقال الطبيب : "أرأيت كيف غلب عليك الغضب؟ وما دام هذا شأنك، فلا سبيل إلى رؤيتها أو تملكى صوابك" .

فطأطأت رأسها وقالت وفى صوتها رنة من الأسف : "إنها حمقة أرجو أن تغتفرها لى، ولا تنزل أمرى على الجرأة عليك، فتأخذنى بما سبق به لسانى . فلقد خرج بى ما أنا فيه عن حد الرشد . فإن كنت تخشى علىّ مغبة اللقاء فأنا صادعة بأمرك، صابرة مع الرضى، مرتقة ذلك الوقت الذى يؤذن لى فيه برؤيتها ... على أن رؤية ابنتى لن تحدث فى نفسى ما تتوقع أنت حدوثه، وغايتى أن أحدثها الساعة بعض الحديث . لقد رأيت الليلة صوراً بيضاء ولمحت أناسا يبتسمون لى – وها أنا ذا أستشعر العافية وأمد الله فقد مسح ما بى من الألم . ولكنى سألبث مكانى كأنى مريضة إمضاء لأمرك وإرضاء لهؤلياء الأخوات المقيمات هنا، حتى إذا آنسوا منى السكينة وتيقنوا من إبلالى جاءونى بابنتى" .

جلس مادلين على كرسى بجانب السرير فحولت وجهها إليه وهى تغالب كيد الألم ويغالبها لتظهر بمظهر السكينة وتدعو القوم إلى تذليل المصاعب التى يقيمونها فى طريقها لرؤية طفلتها . ولكنها على تجلدها لم تقو على الإمساك عن سؤال مادلين، فألقت عليه ألف سؤال وسؤال :

"لعلها سفرة ميمونة" .

"لله ما أنبل نفسك فقد أنقذت طفلتى" .

"خبرنى بربك أكانت جلدة على المسير" .

"أتراها تنكرنى عند اللقاء، فقد طال عهدها بى" .

"إن الأطفال كالأطيار لا يكادون يذكرون فى يومهم ما رأوه بالأمس" .

"ترى كيف كان لباسها وغذاؤها فى ذلك النزل" .

"لقد كانت تؤلمنى ذكرى ذلك فى أيام بؤسى، أما اليوم فقد أصبت بفضل حدبك[١] عليها قريرة العين رخية البال" .

"ألا يتسنى لى أن أراها الساعة" .

"ألا ترى أنها جميلة" .

"ألا تأذن لى برؤيتها ؟ وإن لم تفعل فمن ذا الذى يأذن لى سواك" .

فأخذ مادلين يدها بين يديه وقال لها : "إن كوزيت مثال للصحة والجمال وسترينها بعد قليل فأهدئى واسترى ذراعيك بغطائك عسى أن تخف وطأة السعال" .

وكان سعالها يزحم دفاعه فى حلقها كل كلمة من كلماتها فلم تبد فانتين شيئًا من التململ خشية أن تزلزل كل آهة من آهاتها تلك الثقة التى تحاول بثها فى نفوسهم ، فجعلت تفوه بأقوال لا تنم على الألم .

كل ذلك ومادلين ممسك بيدها، ونفسه تكاد تسيل جزعًا .

خرج الطبيب وبقيت الراهبة فى مكانها وقد خيم عليهم السكوت، فمزقته فانتين بصيحة : "إنى أسمعها ... إنى أسمعها" . ثم بسطت ذراعها تأمرهم بالإصغاء، وعلقت أنفاسها وجعلت تتسمع .

كان فى الفناء ولد يلعب - ولد البوابة أو ولد من شئت من العاملات .

تلك إحدى المصادفات التى ما زال الإنسان يجدها فى ثنايا الحوادث المحزنة، كأنما هى جزء مما تهيئه يد الغيب من عدد التمثيل على مسارح تلك الحوادث .

وكان هذا الولد صبية تذهب وتجىء وتجرى دفعا لغائلة البرد وتلمسا للدفء، وهى تضحك وتارة تغنى - وكذلك كان .

---

(١) الحدب الحنان .

وأى شىء من الأشياء قد خلا من أن تشوبه شائبة من لعب الأطفال .

تلك هى الصبية التى سمعتها فانتين وظنتها "كوزيت" وصاحت : "تلك هى بنيتى وذلك هو صوتها" !

وانقلبت الصبية من حيث أتت وغاب صوتها، فلبثت فانتين فترة وهى ملقية بسمعها، ثم فارق وجها الإشراق، وقالت بصوت سمعه مادلين : "قاتل الله الطبيب فقد حال بينى وبينك" .

وبعد قليل عاودها أملها البسام، فأنشأت تحدث نفسها ورأسها مطروح على الوسادة :

"سنصبح من السعداء، ويكون لنا بستان جميل، تمرح فيه كوزيت وتجرى على الأعشاب تطارد الفراش فإذا شبت وبلغت سن التناول ...[1] ولكن متى تبلغ هذه السن؟" ثم جعلت تعد على أصابعها، وتقول : "إنها اليوم فى السابعة من عمرها، وبعد خمس سنين يكون لها قناع أبيض، وتبدو فى هندام الفتاة !

للّه ما أحمقنى فإنى أفكر فى الشىء قبل أوانه" ثم أخذت تضحك ... وكان مادلين يصغى إلى تلك الكلمات وكأنه يصغى إلى هبات النسيم، وقد غض بصره وغاص فكره فى تأملات لا قرار لها .

وانقطعت فانتين بغتة عن الكلام فنبه ذلك مادلين فرفع رأسه فإذا بها فى صورة مروعة . وكانت لا تتكلم ولا تتنفس، وقد قامت فى سريرها نصف قومة وبرزت كتفها النحيلة من قميصها وأصفار وجهها، ووقفت بنظرها على مشهد مروع فى الجانب الآخر من المخدع، واتسعت من الرعب حدقتاها .

---

(١) التناول المقدس أول حفل دينى تشهده الفتاة المسيحية لتنصيرها .

فصاح مادلين : "ويلك ، ما بك؟" فلم تجب ولم تحول بصرها، ولكنها مست ذراعه بإحدى يديها وأشارت إليه بالثانية أن ينظر وراءه فالتفت، فإذا به يرى جافير .

***

وإليك ما مر من الحوادث قبل ذلك :

خرج مادلين من قاعة الجلسة وقد انطوى النصف الأول من الليل، وانقلب إلى النزل فى الساعة التى تهيأ فيها البريد للسفر، فأخذ مقعده فيه وبلغ منتراى سيرمير قبل الصباح . وما هى إلا أن احتوته حتى أودع صندوق البريد كتابًا إلى لافيد الصراف ثم انطلق يعود فانتين .

ولما غادر قاعة الجلسة فى أراس وعاد الحضور إلى أنفسهم، وقف المدعى العام وجعل يتوجع لمادلين على ما أصابه من ذلك المس، وأصر على طلبه، وقال إن هذا الحادث الغريب الذى ستكشف الأيام عن سره لم يزلزل من عقيدته ولم يغير وجه التهمة المصوبة إلى (جان ماتييه) . ولكن أقواله لم تنزل من نفوس السامعين منزلتها . وسقطت الحجة من يده فتلقفها المحامى واطرد له القول فقال :

– لقد انقلب الأمر رأسا على عقب، وأصبح المحكمون لا يرون أمامهم إلا رجلا بريئًا .

وأخذ الرئيس جانب المحامي، وانحاز له المحكمون فسرحوا (جان ماتييه) .

ولم يكن للمدعى بد من أحد الرجلين : فطلب القبض على مادلين حين أفلته (جان ماتييه) ثم كتب على المكان[1] أمر القبض، وخلا بالرئيس لتوقيعه، فتردد الرئيس بعض

---

(١) أى فى الحال .

الشيء، وكان على طيبة نفسه وحدة ذهنه يتعصب للملكية وقد كان مادلين ذكر أمامه يوما كلمة (الإمبراطور) ولم يذكر بجانبها كلمة (بونابرت) فغاظه ذلك وحقدها عليه . وذكر له لشقوته تلك السالفة، فهان عليه توقيع الأمر .

وأبرد المدعي به بريداً خصيصاً إلى جافير بمنتراى سيرمير وتقدم إليه بالإسراع، وكان البريد فرساً فذهب يعدو مرسل العنان .

وكان جافير قد غادر قاعة الجلسة حين فرغ من شهادته كما قدمنا، وعاد إلى منتراى سيرمير واتفق أن هب من نومه ساعة وصل البريد . وكان البريد شرطياً من حذاق الشرطة فأنهى إليه الأمر، ووقفه بكلمتين على جملة ما مر من الحوادث . فقام جافير إلى إمضاء هذا الأمر ساعة استولى عليه . ولو أن أحدا رآه وهو يلج باب الدار التى فيها فانتين ومادلين وكان ممن يجهلون نبأ هذا الرجل، لما قام بنفسه أن أمراً خطيراً قد حركّه، ولما تبين من وجهه غير لمحته المألوفة[١] فلقد كان هادئ السعى ساكن النفس بادى الجد وهو يرقى الدرج .

ولكن لو رآه فى هذه الساعة أحد ملابسيه الواقفين على غريب طباعه، لذعر من رؤيته . فقد كان زر بنيقته[٢] منحرفاً إلى جهة الأذن اليسرى بدلا من أن يكون منحرفاً إلى القفا .

وكانت تلك آية على هياج غريب فى نفسه . فقد كان الرجل نظامياً فى واجبه ولباسه الرسمى . فهو لا يترخص مع المجرم كائنا من كان، ولا فى أحكام لباسه الرسمى وتفقد أزراره من جميع ضواحيه . فانزعاج الزر من مكانه حادث لا تأذن له بالوقوع إلا فورة فى النفس، كانت أشبه الأشياء بالزلزال فى الأرض .

---

(١) لمحة الوجه وجمعها ملامح ولا يقال ملمح الوجه ولن ملمح النظر أى ممل سقوطه .

(٢) ياقة القميص .

وكان قد اصطحب أربعــة من الجنـد وكبـيرا لهـم، وأمر سـائرهـم بالتربـص فى الفناء .

ولما سأل البوابة عن مادلين لم تتردد فى أن تدل عليه، فقد ألفت أن يسألها عنه الجنود وهم شاكو السلاح . ولما بلغ مخدع فانتين أدار المفتاح ودفع الباب دفعًا لينا كأنه ممرضة تحرص على راحة مريضها أو مسترق للسمع . ثم دخل ولو أحسنا القول لقلنا لم يدخل ... فقد وقف فى حرم الباب، وقلنسوته على رأسه وأزرار لباسه الرسمى مطمئنة فى عراها، وقد علق فى أثنائها يده اليسرى، وكان رأس عصاه مطلا من خلف مرفقه . فلبث كذلك دقيقة أو بعض دقيقة ولم يشعر به أحد، واتفق أن رفعت فانتين عينيها فلمحته وأنذرت به مادلين .

وفى اللحظة التى التقى فيها النظران، حال جافير وهو جامد فى مكانه إلى صورة مفزعة !

وما من شعور بشرى فى نفس هذا الرجل هو أقدر على التمثل فى صورة الفزع من شعور الفرح، وقد طغى عليه فقد قلب سحنته إلى سحناء مارد يريد أن ينقض على طريدته . وكان يقينه من القبض على جان فالجان بعد لأى، قد فضح ما كان كامنا فى نفسه وبسط على ظاهره ما كان يضطرب فى زوايا باطنه . وأصبحت الغضاضة التى كان يجدها فى نفسه حين أخطأ ترسم الأثر، ولم يصب الشاكلة فى أمر "جان ماتييه" وقد محاها زهو دخل فى نفسه حين علم أن فراسته لم تخطئ وأن شعوره لم يخنه فى تعقب جان فالجان . وتجلت فى جبهته الكزة[1] دمامة منظره عند ظفره، فكان ذلك أبين ما يقرأ من آيات الشناعة فى سحنة بلغت مناها .

وفى هذه الآونة كان جافير، وقد رفعه الفلك وناجاه الملك، لا يشعر بحقيقة موقفه حق الشعور، لكنه لم يخل من شعور مبهم بنجحه وضرورة الحاجة إليه .

---

(١) الكزة بتشديد الزاى الضيقة .

فقد كان يمثل فى ذات نفسه تلك القوات العلوية من العدل والحقيقة والنور، وهى تعمل متساندة على سحق قوة الشر .

فكان كأنه يحس أن حواليه مدى لا حد له من السلطان والعقل ونفاذ الرأى والإيمان بإكبار حرمة القانون والقضاء المبرم والقصاص الاجتماعى، وكل ما فى ذلك الفلك من قوة .

ولا عجب فقد كان يحمى النظام ويستنزل صواعق القانون، وينتقم للمجتمع وينفذ المشيئة، ويمضى القدر وينهض فى المجد نهوضًا . ولم يخل نصره وإن كان مبينا من بقية للتحدى والكفاح .

وقف فى أوج السماء مشرق الوجه مزهوا وقفة جبار من طواويس الملائكة تجلت فيه بهيمية[1] دونها بهيمية البشر .

وما أخذته عين وهو يزاول أعماله المخيفة، إلا أخذها من خلال ظلالها بريق سيف الاجتماع وهو يلمع فى قبضته .

وكان يشعر بسعادة فى استنكار ما يرى، وقد وطئ بأخمصيه هام الجرائم، وقيد بعقبيه العصيان والفساد والشرور، وكان يتفجج نوراً وهو يستأصل من الفساد والشر ... وقد تجلت فى تلك النفس الطاهرة العنصر، البشعة المنظر، عظمة لا يختلف فيها اثنان . ولم يعلق بهذا الرجل المخيف دنس، ولا طارت حوله دنية .

فإجلال تلك الصفات طبيعة من طبائع النفس البشرية .

إن لكل شىء آفة، وآفة الفضيلة العدول بها عن القصد للمتعصب فى دينه وهو فى عنفوان فورته فرح شريف النزعة وإن لم يعرف الرحمة، يلازمه ما أدرى أى لألاء ، لألاء فيه جلال ولكن تمازجه الفجيعة .

---

(١) لم نقل بهمية وقلنا بهيمية إتباعا لأئمة الكتاب فى الفلسفة والأخلاق والأدب كابن جنى وابن مسكويه والجاحظ فقد نفرت أذواقهم منها كما نفرت من طبعية فقالوا بهيمية حتى إن سيبويه رأس النحاة قد قال إن فيهما لغية وأرجو أن تصبح لغة بإذن الله .

وكان جافير وقد بلغ مناه على حال يرثى لها - وكذلك الجاهل إذا فاز - فما كان لعين أن تستريح إلى ذلك الوجه الذى يجلى فيه كل ما يمكن أن يكون فى طيب من خبيث .

***

لم تكن فانتين قد لمحت جافير منذ اليوم الذى انتزعها فيه مادلين من يديه انتزاعا، ولم يقوَ عقلها المضعوف على إدراك شىء. غير أنها لم تخل من الشك فى أمره لغشيانه مخدعها. وكان أكبر ظنها أنه إنما يريدها. فخانها العزم ولم يستطع نظرها القرار على ذلك الوجه المنكر، وأحست الحين، فسترت وجهها بيديها وصاحت بمادلين صيحة اليأس : "نجنى منه" . فأجابها بصوت يقطر سكينة ورقة : "اهدئى أنت فإنه إنما جاء يريدنى" ثم التفت إلى جافير، وقال له : "إنى لأعلم ما تريد" !

وصاح به جافير : "إذن فهيا"

نطقها بوحشية زحمت فى حلقه مخارج الأحرف وطمست على معالمها، فخرجت وهى بالزئير أشبه منها بالكلام. ولم يجر جافير على الطريقة المألوفة فلم يفض معه فى حديث، ولم يعمد إلى إبراز أمر الاستدعاء. فقد كان يعد جان فالجان محاربا خفيا يفلت كل من يطارده !

قامت بينهما حرب تحت أروقة الظلام، فلبث خمس سنين يجالده ويصارعه، فلم يقو على صرعه، ولم يكن أمر القبض بدء ذلك العراك، ولكنه كان الختام - فما زاد على أن قال له : "إذن فهيا" !

قالها ولم يخط خطوة ولكنه ألقى على جان فالجان نظرة كالمحجن(١) - تلك النظرة التى اعتاد أن يجذب بها إليه جذب العنف أولئك المنكودين من البائسين - تلك النظرة

(١) المحجن آلة يجذب بها لا شىء كالخاطوف وغيره .

التى نفذت إلى نخاع فانتين قبل اليوم بشهرين كاملين وعند تلك الصيحة فتحت فانتين عينيها، فرأت مادلين بحيث كان، فشد ذلك منها بعض الشيء، ثم أجالت تلك المسكينة نظرا حائرا، فلم ترَ فى المخدع غير مادلين وغير الراهبة، فقام بنفسها أنه لا يريد بتلك الصيحة سواها رأت فى تلك اللحظة شيئًا غريبا لم تكن لتراه حتى فى عنفوان هذيانها، رأت عينا[1] من الشرطة يلبب[2] شريفا من سروات الناس، والعين شامخ الأنف والشريف منكس الرأس. فخيل إليها أن الدنيا قد شمرت للزوال .

وكان جافير قد أخذ فى الحقيقة بتلابيب جان فالجان فصرخت فانتين : "سيدى الشيخ". فضحك جافير حتى بدت نواجذه، وقال : "ليس هنا من ينادى بسيدى الشيخ". فلم يعالج جان فالجان أو يزحزح عن خناقه يد جافير، ولكنه قال له : "جافير"، فقاطعه جافير قائلاً "قل سيدى المفتش"، فقال له : "سيدى إن لى معك كلاما" .

فقال له : "ارفع به صوتك، فكذلك أكلم". قال : "إنه رجاء". قال له : "اجهر بصوتك كما أمرتك" .

قال : "إنه رجاء يحسن أن لا يسمعه سواك" .

ثم داناه وألقى فى أذنه : "أرجئنى ثلاثا أبحث فيها عن بنية هذه المسكينة وأدفع لأصحاب النزل نفقة إيوائها ولك أن تصحبنى إذا شئت" .

فقال جافير : "أراك تمزح وما عهدتك قبل اليوم محقا" وسقطت تلك الكلمات إلى أذن فانتين، فاضطربت فى سريرها وصاحت : " ويلاه أليست بنيتى هنا كما يزعمون؟". ثم صاحت : "أيتها الأخت أين بنيتى، وأنت أيها السيد مادلين؟" . فضرب جافير برجله وصاح بها : "إياك أن تنبسى أيتها الشقية . أرانى اليوم فى بلد ينادى فيه المجرم بألقاب التسويد وتكرم فيه البغى كأنها من فضليات الحرائر" .

---

(١) جاسوس .

(٢) يأخذ بتلابيبه أو بخناقه أى يجمع ثيابه عند صدره ونحره ويجره منها جرا .

ثم نظر إلى فانتين، ويده تزيد فى تضييق الخناق على جان فالجان، وقال لها : "ألم أقل أن ليس هنا شيخ ولا سيد، وإنما هنا لص مجرم وفاتك أثيم يدعى جان فالجان؟" .

فاستوت فانتين فى سريرها وتنقلت بنظرها من جان فالجان، إلى الراهبة، إلى جافير، ثم فتحت فاها تريغ الكلام فلم يرم حلقها بغير الشخير، ثم اصطكت أسنانها وانبسط ذراعاها كأنها غريق يبحث عن شيء حوله، ثم هوت على الوسادة، فصدم رأسها سناد الوساد – وأسلمت على أثر تلك الصدمة الروح .

فوضع جان فالجان يده على يد جافير، وهى ممسكة بطوقه، وبسط قبضتها، وكأنها يد طفل ثم قال له : "لك الويل، لقد قتلتها" .

فصاح به جافير : "دع عنك هذا فما جئنا لنسمع ذلك المنطق، فإن لم تنطلق معى فليس إلا القيد، وإلا دعوة الجند" .

وكان فى إحدى زوايا المخدع سرير عتيق من الحديد تستريح إليه الراهبات فى السهر، فاندفع إليه جان فالجان وانتزع فى أقل من رجع البصر سناد الوساد رغم رسوخه فى مكانه، وأى شيء يتعصى على تلك الساعد ؟ ثم اتخذ منه جنة وسلاحًا ولوح به فى وجه جافير، فتراجع مذعورًا إلى الباب . ثم مشى به مشية المطمئن إلى سرير فانتين ولما بلغه التفت إلى جافير، وقال له : "أنصح لك ألا تدانينى"

فأوجس جافير خيفة، وبدا له أن يذهب لدعوة الجند لكنه خشى أن يجد جان فالجان نهزة للفرار فأسند ظهره إلى عضادة الباب، ونظره مصوب إلى غريمه . فارتفق جان فالجان على قمة السناد، وجعل يتأمل فانتين وهى هامدة ولبث غارقًا فى تأملاته . وما كان ليفكر فى شيء من أشياء هذه الحياة، غير أنك كنت تقرأ فى معارف وجهه أبلغ آيات الرحمة . ثم انحنى فوقها وجعل يسارها – ترى أى كلام كان يلقيه عليها ؟ وما عسى أن يقول ذلك الرجل الممتحن لتلك المرأة الميتة .

لم يقع ما قال فى أذن الحى فهل وقع فى أذن الميت . وما يدريك لعل فى الأوهام المؤثرة شيئًا من الحقائق السامية .

روت الراهبة سمبليس، تلك التى شهدت وحدها ذلك المشهد ولا مغمز فيما تروى - أنها قد رأت رأى العين أثناء تلك المسارة بسمة قد خطفت على فم الميتة وبريقا قد لمع فى تلك الأحداق، التى غمرتها دهشة أهل القبور . ثم أخذ فى يديه رأس طفلها وأغمض بعد ذلك عينيها، وقد علا وجهها إشراق سماوى - الموت انتقال من عالم الظلمة إلى عالم النور .

ولما فرغ من شأنها ركع أمام سريرها وتناول يدها فقبلها ثم التفت إلى جافير وقال له : "دونك ما تريد" ! ..

***

سيق مادلين إلى سجن المدينة وفشا نبأ اعتقاله فى أنحائها، فأقام الناس وأقعدهم ومشى بعضهم إلى بعض يتساءلون . وانحازوا عنه حين علموا أنه مجرم عتيق ولم ينشبوا أن نسوا حتى عوارفه، وقطعوا بإجرامه قبل أن يقع إليهم تفصيل ذلك الحادث بأراس . فمضى النهار وما تكاد تسمع فى مناحى المدينة إلا هذا اللغط :

ألا تدرى ؟ - أنه مجرم سرح بعد العقاب - من هو ؟ - شيخ البلد - ويحك ما تقول ؟ السيد مادلين ؟ - نعم - لا تقل هذا - إنه لم يكن يدعى مادلين - إن له اسما آخر، للَّه ما أشنعه، لقد كان يدعى ما أدرى (بيجان) ! (جووان) !

- وهل اعتقل ؟

- نعم .

- أفى السجن ؟

– فى سجن المدينة ويتوقع نقله وأشخاصه إلى دار المحكمة ليسأل عن سرقة قد ركبها على الطريق المعبد فى عهده الأول .

– إنى لا أسكن إلى هذا النبأ، فقد كان الرجل طيبا كاملاً، وكان من الزاهدين، ألم تر كيف تأبى على وسام الشرف يوم أنعم به عليه ؟ ألم تقع عليه عينك وهو يوالى إسداء الحسنات؟ . فما سأله سائل إلا أعطاه، ولا مر بمعدم إلا نفحه ولا بمحزون إلا واساه .

– لقد كنت ألمح من وراء تلك الأعمال ماضيا غير محمود وقالت عجوز من المشتركين[١] فى "علم السلام[٢]" : "لم يثر هذا النبأ فى نفسى حزنًا على ذلك الرجل – إن فى هذا لبلاغًا لأولئك "البونابارتيين"[٣] .

وهكذا قد انمحى بين عشية وضحاها شبح مادلين من الأذهان ولم يبق على عهده فى المدينة كلها إلا ثلاثة أو أربعة منهم بوابته القديمة .

وكانت قد دخلت عند دخول الليل غرفتها وقبعت فيها كاسفة البال تفكر فيما نزل بذلك الرجل الكريم .

وقد أقفل المصنع على أثر ذلك الحادث وأقفر طريقه ولم يبق فى الدار غير الراهبة (بربيتى) وأختها (سامبليس) كانت تتناوبان السهر على تلك الميتة .

وعند الساعة التى اعتاد فيها مادلين العودة إلى داره قامت البوابة وأخرجت من درج لها مفتاح باب مخدعه وعلقته فى مسمار مرشوق بالحائط، ونصبت الشمعدان فى مكانه المعهود، كما كانت تفعل فى كل مساء، ثم أخذت فى التفكير .

---

(١) قلنا من المشتركين ولم نقل من المشتركات اتباعًا للأفصح قال الله تعالى "وكانت من القانتين" .

(٢) "علم السلام" جريدة يومية كانت تظهر فى ذلك العهد .

(٣) نسبة إلى نابليون بونابرت .

فعلت كل ذلك بدافع العادة لا بدافع الإرادة . ومر بها ساعتان وهى على تلك الحال، ثم عادت إلى نفسها ولم تنشب أن صاحت :

"إلهى من ذا الذى علق هنا هذا المفتاح؟" .

ووقع فى نفس هذه اللحظة أن فتح زجاج النافذة . وامتدت يد من فرجته، فالتقطت المفتاح وأنارت الشمعدان . فرفعت عينيها وهى مفتوحة الفم وقد وقفت فى حلقها صيحة ... إنها تعرف تلك اليد، ولا تنكر الذراع، ولم يكن كم ذلك الرداء عنها بالغريب .

إنه السيد مادلين – فمر بها بضع ثوان وهى معقودة اللسان – كما حكت عن نفسها وهى تروى ذلك الحادث – ثم انحلت عقدته فصاحت : "سيدى الشيخ ! لقد ظننتك ..." ثم أمسكت عن الكلام كراهة أن يبدر منها ما يكون فيه تحقير لذلك الرجل الذى كان لا يزال عظيماً فى نفسها .

فأسرع مادلين وأتم لها جملتها فقال : "فى السجن ... نعم كنت فيه فكسرت إحدى عوارض النافذة وهبطت من على سطح هناك، وها أنذا كما ترين أعود مخدعى، فاذهبى أنت إلى الراهبة "سامبليس" وقولى لها إنى فى حاجة إليها !" فانطلقت العجوز تعدو، ولم يوصها بشىء، فقد كان يعلم أنها عليه أحرص منه على نفسه .

ولا يعلم خلق كيف خلص هذا الرجل إلى ذلك الفناء، وهو لم يعمل فى الباب الكبير مفتاحاً .

لقد كان يكون معه المفتاح (القلابة[١]) الذى يستخدم لفتح أبواب الجوانب . لكن من الحتم أن يفتش السجين عند دخوله فى السجن وينزع منه ما يحمل من أداة . فهل عمى الموكلون بسجنه عن ذلك المفتاح – لقد لبث هذا الأمر غامضاً .

---

(١) القلابة كلمة عامية يعبرون بها عن المفتاح الصغير الذى يفتح جميع الأبواب واخترت هذه الكلمة لانطباقها على المعنى المراد . فكلمة قلابة تفيد أنها تقلب ألسنة جميع الأقفال .

صعد فى الدرج إلى مخدعه ثم ترك الشمعدان على الدرجة العليا، وفتح المخدع بلا تحرج فصر الباب صريراً، ولكنه لم يباله، وولج فى الظلام .

وجعل يتقرى بيديه ويتلمس النافذة حتى أصابها فأغلقها وأحكم إغلاقها . ثم عاد فحمل الشمعدان وأنار المخدع .

وكان من الحزم أن يأخذ بتلك الحيطة فقد كانت النافذة مطلة على الطريق . ثم ألقى نظرة عجلى على ما فى ذلك المخدع من متاع فكان على غاية من النظام، ولم يبق فيه ما يدل على أثر تلك الليلة غير قطعة الغلام وقد اسودت من النار وغير بقايا عصاه .

فأخذ وريقة بيضاء فيها هذه الكلمات :

– هاكم بقية عصاى وقطعة الغلام الفضية التى ذكرتها أمام المحكمة .

ثم لفهما فى تلك الوريقة ووضعها بحيث تأخذها عين الداخل .

ولف بقايا الشمعدانين في خرقة وجعل يحزمها وهو أهدأ ما يكون نفسا . وكان يمضغ كسرة من الخبز الأسود ولعله حملها معه حين فر من السجن . وقد وجد منها فتاة على بلاط المخدع، وجده المحققون حين حضروا لمعاينة داره بعد اختفائه .

طرق عليه الباب فأذن للطارق، فدخلت الراهبة "سامبليس" وهى صفراء اللون محمرة الحدق .

ولا يسلم المرء وإن كان جلدا صبوراً من أن يتسرب إليه الوهن أمام بأس الأقضية والمقادير .

وكانت حوادث ذلك اليوم المشهود قد ردت الراهبة إلى طبعها من الضعف والخور فجزعت وبكت، وكذلك تبكى النساء .

فمد لها جان فالجان يده بورقة، وقال لها : "أيتها الأخت أرجو أن تحملي هذه الورقة إلى القس" وكانت الورقة مطوية، فألقت عليها الراهبة نظرة، فقال لها : "لك أن تقرئي ما فيها" .

فقرأت : "أرجو سيدي القس أن يقوم على ما خلفته هنا من المال، وأن ينفق على دفن المرأة التي قضت في هذا اليوم، وأن يرصد ما تبقى للفقراء والمساكين .

حاولت الراهبة أن تنطق فخانها النطق ثم تمكنت بعد الجهد من أن تقول :

"ألا يريد سيدي الشيخ أن يتزود من تلك البائسة بنظرة الوداع ؟" .

فأجاب مادلين : "إنهم على أثري وربما أدركوني هناك فعكروا عليها صفو نومها الأبدي !" .

وما هو إلا أن قالها حتى سمعوا ضجة ووقع أقدام على الدرج . وسرى إليهم صوت البوابة وهي تقول :

"أقسم بالله إن أحداً لم يدخل، وإنني لم أرم مكاني من الباب بياض النهار وسواد الليل" وسمعوا صوت رجل يقول : "وما هذا النور بالمخدع؟"، فعرفوا منها صوت جافير .

وكان باب المخدع يواري عند فتحه الزاوية اليمنى من ذلك المكان فأطفأ جان فالجان شمعته واختبأ في تلك الزاوية .

وسقطت الراهبة على ركبتيها بجوار المنضدة ، وفتح الباب وظهر جافير على العتبة، وجعلت الراهبة تصلي وكانت قد نصبت شمعتها على المدفأة، فلمح جافير على ضوئها الضئيل تلك المصلية، فسمر في مكانه .

وجافير كما تعهد، بما بني عليه طبعه وبما كسبه من البيئة التي يعيش فيها والمضطرب الذي يتقلب فيه، كان على جانب عظيم من إكبار السلطة في شتى

مظاهرها . فهو يعظم سلطان الدين كما يعظم سلطان القوانين، وينزل الراهب منزلة المعصوم من الخطأ، والراهبة منزلة المعصومة من الخطيئة .

تلك أرواح مسورة فى هذه الدنيا بسور له باب واحد، لا يفتح إلا لتخرج منه كلمة حق .

ولما لمح جافير الراهبة، هم عند الوهلة الأولى بالانصراف ثم ذكر واجب مهنته فوقف وتجاسر على سؤالها وهو يعلم أنها امرأة صدق، ومكانها من نفسه مكانها : "أيتها الأخت، هل أنت وحدك فى هذا المخدع؟ " .

فرفعت عينها، وقالت : "نعم" . فقال جافير : "أعذرينى على هذا الإلحاح ... ألم ترى رجلاً فى هذه الليلة، فإنى أتعقب مجرماً يدعى جان فالجان قد فر من السجن" . قالت : "لا !" .

فانحنى جافير وسلم، وعاد من حيث أتى وهو بها أوثق ما يكون .

كذبت الراهبة ثم كذبت : كذبت مرتين على التعاقب .

إيه أيتها العذراء الطاهرة . إنك لم تكونى من أبناء دنيانا ... وقد مر بك سنون وأنت تلابسين الطواهر من أخواتك العذارى. والأطهار من إخوتك الملائك، ولسوف تسألين عما جرى على لسانك من الكذب، ولكن فى دار النعيم .

وبعد هذا الحادث بساعة أو شيعها[1] رؤى رجل يهرول بين الشجر، وقد ركب طريق باريس ولم يكن غير جان فالجان .

وقد ارتدى رداء عامل ولم ندر من أين أتى به، ولعله رداء العامل الذى مات فى المصنع منذ أيام .

---

(١) قريباً منها .

وقد آن لنا أن نشيع فانتين بكلمة :

"إن لنا أما واحدة .

"هى الأرض .

"وقد رجعوا فانتين إلى أمها ..." .

وقال القس :

"ليس من البر أن أنفق من مال هذا المجرم على دفن تلك البغى، ولكن البر أن أرصده للنفقة على الفقراء والمساكين" .

ثم تجوز[1] فى دفن تلك البائسة وألقى بها فى مقابر الصدقة، فاختلطت عظامها بذلك الرفات : رفات من سبقها ومن يلحقها من الأموات .

وغابت فى غياهب تلك الحفرة التى لم تكن لأحد وهى لكل أحد .

وذهبت روحها إلى مقرها ومستودعها . وسبحان من يعلم وحده أين ذلك المستقر .

وهكذا أنيمت فانتين فى ظلمة تلك الحفرة، وانطوت فى رماد تلك الأمشاج، فكان لحدها أشبه شىء بسريرها .

---

(١) تساهل .

سؤال ... و ... جواب

وضعه شاعر النيل : حافظ إبراهيم

تقديم وإعداد : عبد التواب يوسف

المحتويات

حكاية فى البداية (عبد التواب يوسف) 451

سؤال وجواب (حافظ إبراهيم) 459

الفصل الأول : كيف يكون الطفل بارا 461

الفصل الثانى : واجب النفس 467

الفصل الثالث : واجب الجسم 469

الفصل الرابع : كيف تكون رجلاً فاضلاً 471

الفصل الخامس : الصفات التى يجب أن يتحلى بها الإنسان 473

الفصل السادس : سجايا القلب وصفاته 479

الفصل السابع : سجايا الطبائع أو شمائلها وصفاتهما 481

الفصل الثامن : صفات خصوصية فى أحوال مختلفة 485

الفصل التاسع : النقائص التى يجب اجتنابها 489

الفصل العاشر : حكم العادة أو تأثيرها 495

الفصل الحادى عشر : الغرض من الحياة 499

حكاية فى البداية

عبد التواب يوسف

ذات يوم ، وجدت ابنى عصام يفتش فى كتبى .. وسألته فى هدوء .. وكان عمره نحو تسع سنوات .

- عمّ تبحث ؟

- عن كتاب ..

- أعرف

- سمعت أن لك كتابا يحمل عنوان «دليل الآباء الأذكياء إلى تربية الأبناء» ..

ضحكت ضحكة خفيفة ، وقلت له :

- هذا الكتاب للكبار .. للآباء ..

قلدنى باسما : أعرف

- ما حاجتك به ؟

سكت قليلا قبل أن يقول ضاحكا :

- أريد أن أعرف إذا ما كنت قد أحسنت تربيتى ..

وهنا ضحكت بصوت عال - لقد حاولت ، وأرجو أن أكون قد نجحت وأنا فى هذا الكتاب أقدم خبراتى وما قرأت فى هذا المجال .

- أعرف أنك تقرأ كثيرا ، ماذا قرأت فى التربية ؟

تذكرت كتابا ، كانت أمى تحتفظ به ، وقد وضعته فى مغلف جلدى أنيق بين ثيابها ، وما كانت تسمح لنا بأن تمتد أيدينا إليه ، ونحن صغار ، وكان الأمر يدهشنا ، فهى أمية ، لا تحسن القراءة أو الكتابة ، وعندما كبرنا حدثتنا عن هذا الكتاب ، قائلة إن أبى أتى به إليها ، وكان يقرأ عليها منه .. وإنه كتاب فى «التربية» ، لأنه يريد لأبنائه أن يشبوا على درجة عالية من الخلق والأدب والعلم ..

وأضافت أمى :

- ولم يكن هذا هو الكتاب الوحيد عندنا ، بل كان أبوك يحتفظ بكتاب آخر ، قرأه وهو طفل ، وأظنه سمح لكم بقراءته ..

قلت لابنى :

- نحن عائلة ، أبًا عن جد ، نحاول أن نربى أبناءنا بشكل علمى متطور .. والكتاب الذى تحدثت عنه جدتك ، وقالت إن أبى ورثه عن جده كتاب قديم ، عريق ، مازلت أحتفظ به ..

سأل : من مؤلفه ؟

- كتبه شاعر النيل حافظ إبراهيم .. وقد حافظت عليه ، كما حافظت أمى على كتابها ..

قال : أريد أن أراه .. أم أنه من الصعب عليك أن تخرجه من وسط هذه الآلاف من الكتب ؟

لم أبادر بالرد عليه ، وإنما ذهبت إلى ركن من المكتبة والتقطت الكتاب ، وقلت له :

- هذا الكتاب ، قرأه جد جدك ، من أجل أن يتدرب على تربية ابنه ، ولم يكن الناس فيما مضى يقرأون كتبا من هذا النوع ، وإنما كانوا يربون أولادهم كما رباهم آباؤهم .. ورويدا ، رويدا أدركوا أن التربية علم واسع وخبرة كبيرة يجب أن يتعلموها ، ومن أجل هذا بدأت تظهر كتب ، وتوجد كليات ومعاهد فى الجامعات تحمل اسم «التربية» ، وأصبحت لها مناهجها وأساتذتها وعلماؤها وكتبها ومراجعها ، لأن كل أب كان يريد لابنه أن يكون أحسن منه وأفضل .. وقد تدرس التربية يومًا لتعمل فى مجالها معلما وأستاذا وأبا ناجحا لابنك ، وكثيرون يقرأون عنها من أجل تربية أنفسهم أو أبنائهم ..

قلب ابنى الكتاب بين يديه ، وقال ..

- من الصعب على جيلي أن يقرأ هذا الكم الكبير من النصائح المرهقة المزعجة ..

سألته : لماذا لا تجرب ؟ حاول .. وحافظ عليه .. ضحك وقال : هذا كتاب قراءته تعلم الصبر على المكاره . ضحكت .. لقد وجد فيه بعض الخير من زاوية أخرى !

أعاد إلىّ عصام الكتاب بعد أيام وهو يقول ..

إنه طريف .. لا بأس به ..

- هل استطعت قراءته ؟

- نعم ..

- ما الذى أعجبك فيه ؟

- مجرد أن جد جدى قرأه .. وأرجو ألا يكون قد ضاق بهذا الحشد من النصائح ..

وبعد سنوات طويلة خطر فى بالى أن كثيرين مثل ابنى فى تلك السن يحبون أن يطالعوا شيئا تاريخيا ، طريفا ، كتبه من أجل الأبناء شاعر كبير هو حافظ إبراهيم .. هو لم يكتب شعرا للأطفال مثل شوقى ، وكانا صديقين ، وأحبا الأطفال .. شوقى كتب لهم قصائد عديدة ظهرت فى الديوان الذى أصدرناه ونشرناه أكثر من مرة ، وحافظ حاول من خلال النشر أن يعين الأطفال ويساعدهم على أن يحبوا حياة سليمة سعيدة ، وقال فى مقدمة كتابه :

اهتم وزير المعارف المصرية أحمد حشمت باشا بأمر التربية والتعليم اهتمامًا دعاه إلى النظر فى كل ما وُضع من الكتب العربية فى هذا السبيل . ولما لم يجد فيما يتداولُ الناس منها كتبًا خصيصة بالتربية عمد إلى انتخاب طائفة من الكتب الغربية التى وضعها جماعة من علماء الفرنسيس لأبناء أمتهم .

ثم تقدّم إلىّ بتعريبها للناشئين من الأحداث فى مدارس الحكومة . فصدعت بأمره وعرّبتها وتوخيتُ فى تعريبها أسهل التراكيب وأبسط الأساليب وقرّبتها ما استطعت إلى أفهام الناشئين ولم أنزل بها إلى منزلة الساقط المرذول ولم أرتق إلى ذروة البلاغة ولكن جعلت لى سبيلاً قصدًا بين الغايتين .

ربما ابتسمتم لكلمة «الفرنسيس» . إنها الكلمة التى كانوا يطلقونها أيامها عن الفرنسيين ، وقد أنجبت بلادهم كثيرين ممن كتبوا فى التربية ، ومن بينهم كاتبهم الأشهر «جان جاك روسو» .

ولابد أنكم ستسألون :

– متى كان أحمد باشا حشمت وزيرا للمعارف ، أى التربية والتعليم ؟

لقد كان ذلك فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى ، الذى حكم مصر ما بين عامى ١٨٩٢ و ١٩١٤ وخلعه الإنجليز ، ومات عام ١٩١٧ ..

هل عرفتم أننا أمام كتاب قديم ، يقترب عمره من مائة عام إذا لم يكن قد تجاوزها ؟

أرجو أن تستمتعوا به كما استمتع جد جدكم !

حافظ إبراهيم

سؤال ... و ... جواب

الفصل الأول

كيف يكون الطفل بارا

س : من أنت ومن عسى أن تكون ؟

ج : لم أكن غير طفل ..

س : أى طفل تريد أن تكون ؟

ج : أريد أن أكون طفلا بارا .

س : كيف تكون طفلا بارا ؟

ج : أكون طفلا بارا إذا سعدت بى أمى ولم يشق بى أبى .

س : لماذا تريد أن يسعد بك والداك ؟

ج : لأنهما باران بى .

س : كيف تعرف أن أباك بارٌ بك ؟

ج : أعرف أن أبى بارٌ بى بأنه يكد[1] ويكدح[2] ليطعمنى ويكسونى ولأنه يهتم بأمر تربيتى فلا ينقصنى شىء .

---

(١) يتعب .

(٢) يسعى .

س : ألا يهتم أبوك بغير طعامك وكسائك ؟

ج : أبى يمحضنى[١] فوق ذاك النصيحة الصادقة ، ويعلمنى القدوة الحسنة .

س : ما هى القدوة الحسنة التى يعلمها لك أبوك ؟

ج : إن أبى يحبب إلىّ العمل والاستقامة ، والطيبة والصدق ، والقناعة ، والتبصر .

س : كيف يحبك والدك فى العمل ؟

ج : عند الهبوب[٢] من النوم أرى أبى مبكرا إلى عمله وهو يستقبله بارتياح ونشاط ، فإذا عاد فى المساء وعليه آثار التعب من عمله الشاق فى يومه لا أراه يشكو ولا يتضجر .

س : كيف يعلمك أبوك الاستقامة ؟

ج : أبى يعلمنى الاستقامة بحرصه على أن لا يخطئ فى حق غيره وطالما سمعت الناس يذكرونه بالخير ويقولون إنه رجل مستقيم .

س : كيف يعلمك أبوك الطيبة ؟

ج : يعلمنى أبى الطيبة باهتمامه بشئون والدتى واحترامها وبعطفه علىّ وعلى إخوتى وأخواتى واعتنائه بالجميع .

س : ألا يصنع أبوك هذا الصنع مع غير من ذكرت ؟

---

(١) أخلص النصح .

(٢) القيام من النوم .

ج : إنه يصنع ذلك حتى مع الغير فلم أسمعه مرة يغتاب جارًا له ، وطالما رأيته يسرع إلى نجدة[1] من هم أشد منه فقرا .

س : كيف يعلمك والدك الصدق ؟

ج : أبى يعلمنى الصدق لأنه يمقت الكذب وكم علمنى أن أقول الحقيقة مهما كانت مغبّتها[2] .

س : كيف يعلمك أبوك القناعة ؟

ج : أبى يعلمنى القناعة لأنه يعطى والدتى أجره فى كل أسبوع لا يؤثر نفسه بشىء منه .

س : كيف يعلّمك أبوك التبصر[3] .

ج : يعلّمنى أبى التبصر لأنه يقتصد فى كل أسبوع جانبا من كسبه ويدفع فى كل شهر قسطه لجمعية التعاون .

س : ما هى النصائح التى تتلقاها من أبيك فى ما يختص بأسرتك[4] التى تعيش فيها ؟

ج : إن أبى يقول لى دائما : أحبب أمك واحترمها وكن على وفاق مع إخوتك ، وكن الحارس لأخواتك والعضد لإخوتك الصغار .

---

(١) إسعاف .

(٢) عاقبتها .

(٣) النظر فى العواقب .

(٤) الأهل والأقارب .

س : ما هـى النصــائح التى تتلـقـاها من أبيــك فى مــا يختــص بسلــوكك فى المدرسة .

ج : إن أبى يقول لى : احتكم فى المدرسة أستاذك وأخلص له الولاء واجتهد فى درسك فإنه واجبك الذى ينفعك .

س : ما هى النصائح التى تتلقاها من أبيك فى ما يختص بالاستقامة ؟

ج : إن أبى يقول لى دائما : اجتهد فى أن تكون رجلا فاضلا فكن شريفا ، وكن كريما ، وكن شجاعا ، ولا تخش فى حياتك إلا من واحدة : من أن تكون نذلا ساقطا .

س : ما هى النصائح التى تتلقاها من أبيك فى ما يختص بوطنك ؟

ج : إن أبى يقول دائما : رُض نفسك[1] على أن تكون وطنيا صادقا فى خدمة بلدك وأن تكون جنديا شجاعا للذود عنه .

س : كيف تعرف أن أمك بارة بك ؟

ج : منذ خرجت إلى الدنيا وأنا أرى أمى تسهر على راحتى ، وهى التى تغذونى وتكتنفنى بالعناية وإنى أذكر أننى مرضت فى العام الماضى مرضة فلم أرها فارقت سريرى بياض يومها ولا سواد ليلها .

س : ألا تفعل أمك شيئا غير السهر عليك والعناية بك ؟

(١) عود نفسك .

ج : بلى فإنها رفيقة بإخوتى وأخواتى بارة بهم برّها بى وهى التى تتولى فى الدار شئون النظام والنظافة ، وهى التى تنشر فيها الغبطة والسرور ، فمنها نستمد السعادة وعليها مدار الراحة .

س : ألا تشتغل أمك بغيرك وغير إخوتك وأخواتك ؟

ج : بلى فإنها تشتغل بالعطف على والدى وتشجيعه على تحمل التعب والآلام بما تنفثه[1] فى أذنه من الكلام الطيب .

فإذا رأته مشتغل البال بالغت فى محاسنته حتى تسرى عنه[2] ما هو فيه .

س : ألا تهتم أمك بغير من ذكرت ؟

ج : بلى فإن أمى محسنة إلى الغير غير متباطئة فى خدمتهم حتى إنى لأرى الناس كلهم يحبونها ويجلّونها .

س : أى شىء تعلمك أمك ؟

ج : إن أمى توصينى كل يوم أن أكون عاقلا وألا أكون سببا فى شقاء والدى ، وأن أشتغل بجد ونشاط لأجل أن أعوله فى شيخوخته كما عالنى فى طفولتى وهى التى تذكرتى بالخالق جل شأنه وتعلمنى كيف أحبه وأعبده .

س : فكيف تريد إذن أن تكون ؟

ج : أريد أن أكون رجلا فاضلا .

س : من هو الرجل الفاضل ؟

ج : الرجل الفاضل هو الذى يقوم بالواجب لنفسه وأهله .

---

(١) تلقيه .

(٢) تخفف عنه .

الفصل الثانى

واجب النفْس

س : كيف تعرف أن لك نَفْسا .

ج : أعرف أن لى نفسا لأنى أفهم ، وأحس ، وأريد .

س : كيف تعلم أنك تفهم وما هو مظهر فهمك أو ذكائك ؟

ج : إن مظهر ذكائى يتجلى لى كلما حفظت درسا أو حللت مسألة ، والفضل كل الفضل فى ذلك للإيضاحات التى أتلقاها عن أستاذى وأقاربى فهى التى ترشدنى إلى كل ما هو حق وعدل ومحمود .

س : ما هو مظهر شعورك أو إحساسك ؟

ج : إن مظهر إحساسى يتجلى لى كلما رأيت نفسى محمولا على حب أشباهى ومواساتهم ، فإذا تراءى لى منظر جميل أو قص على نبأ عمل جليل تحركت نفسى وتنبهت عواطفى .

س : ما هو مظهر إرادتك ؟

ج : إن مظهر إرادتى يتجلى لى كلما رأيت فى نفسى ميلا إلى اللهو واللعب فخالفتها ونزعت إلى العمل ، وكلما هممت بارتكاب أمر ملوم فقاومتها

حتى أصرفها ، عنه ، وكلما وقفت موقف الخيار بين شيئين فوطنتها على اختيار أشرفهما وإن كان مرا وصرفتها عن أجملهما وإن كان حلوا .

س : ما الذى يأذن لك بتحقيق تلك المظاهر - مظاهر الفهم ، والإحساس ، والإرادة ؟

ج : سريرتى أو ضميرى .

س : ما هى السريرة أو الضمير ؟

ج : هى ذلك الصوت الداخلى الذى يلهمنى التفريق بين الخير والشر ؛ هى الدليل الذى يقودنى فى الحياة ، والقاضى الذى يقاضينى على عمل الشر ، والذى أرتاح لوقوفى بين يديه عند صنع الخير .

س : أيجب على المرء أن يطيع نداء السريرة ؟

ج : نعم يجب على المرء أن يطبع ذلك النداء وأن يعمل بما يوحيه إليه ، فلا يحجم فى سبيله أمام الصعوبات ولا يجمد[١] أمام المشاق .

---

(١) يتوقف .

الفصل الثالث

واجب الجسم

س : لماذا يجب عليك أن تحافظ على صحة الجسم ؟

ج : يجب عليَّ أن أحافظ على صحة الجسم لأجل تلك الصلة المتينة التى بينه وبين الروح ، فإذا مرض الجسم اضطربت الروح .

س : أأنت إذًا على يقين تام من أن حالة الجسم تؤثر فى حالة الروح ؟

ج : نعم لأنى أذكر عندما مرضت فى العام الماضى أننى كنت غير قادر على العمل ولم أكن ذلك الطفل الذى كنت أعهده قبل المرض .

س : كيف تشعر أنك فى صحة جيدة ؟

ج : أشعر أننى فى صحة جيدة كلما وجدت نفسى مسرورا ، نشطا تنبعث فيَّ قابلية القيام بالواجب .

س : كيف تحافظ على صحة جسمك ؟

ج : أحافظ على صحة جسمى بتعهده كل يوم بالنظافة والاعتناء ومعالجة تمرينه فى الهواء الطلق ، وباجتناب الإفراط فى كل شىء ، وخصوصا اجتناب المحرمات ، والاختصار أحافظ على جسمى باتباع قانون الصحة .

س : أيحتاج الجسم إلى كل هذه العناية ؟

ج : نعم فإنه آلة عجيبة التركيب ، دقيقة الصنع ، لطيفة المزاج .

الفصل الرابع

كيف تكون رجلا فاضلا

س : لقد قلت إنك تود أن تكون رجلا فاضلا ، فكيف تستطيع ذلك ؟

ج : أستطيع ذلك :

أولا : أنمي وأغذى قوى النفس ، أعنى أننى أجاهد فى توسيع مدارك الذكاء ، والإحساس والإرادة .

ثانيا : أقوى فى نفسى صفاتها التى تتجمل بها وأسعى وراء ما أجده فيها من النقص حتى تشرف على الكمال .

ثالثا : أعالج وأداوى كل ما أراه فى نفسى من العيوب وأروض نفسى على مخالفة الهوى .

رابعًا : أعود نفسى حب الفضائل وتنمية قوى النفس .

س : كيف تنمّى ذكاءك ؟

ج : أنمّى ذكائى أولاً بالاجتهاد فى المدرسة . ثانيًا بصحبة المتعلمين والتحدث إليهم . ثالثا بقراءة الكتب النافعة ، حتى أشعر أننى فى يومى خير منى فى أمسى .

س : كيف تنمّى شعورك ؟

ج : أنمى شعورى بأن أهتم بكل ما يقع حولى لا أقتصر فى ذلك على ما يقع لى ، بل أتناول كل ما يقع لأصحابى ؛ فأفرح لفرحهم وأحزن لحزنهم وأعينهم بالنصيحة والعطف وكل ما تصل إليه طاقتى . وأنمّى أيضًا شعورى بإرسال نفسى على سجيتها تستحسن كل ما هو جميل من صنع الطبيعة وعظيم من صنع الإنسان .

س : كيف تنمّى إرادتك ؟

ج : أنمّى إرادتى بأن أضع لى فى كل صباح خطةً لا أنحرف عن صراطها .

وأقول لنفسى دائمًا : ، إنى أريد أن أكـون تلميذًا مجتهدًا وولدًا بارًا ، ووطنيًا نافعًا ، ورجلاً كاملاً .

الفصل الخامس

الصفات التى يجب أن يتحلى بها الإنسان

س : ما هى الصفات التى يجب أن تتحلى بها ؟

ج : يجب أن آخذ نفسى بأن تكون متحلية بالسجايا المميّزة للعقل ، والقلب ، والخلق .

س : ما هى سجايا العقل التى يجب أن تتحلى بها ؟

ج : إن سجايا العقل التى أتمنى أن أصحبها هى : مرونة الطبع ، والتمييز بين الأشياء ، والحكم عليها ، والحكمة ، والاعتدال فى الرغبات ، وروح العدل ، والتبصر فى العواقب ، والنظام ، والدقة ، وبديهة الابتداء ، وهى أن تبتكر الشىء وأن تبتدئ فيه .

س : كيف تكون مرن الطبع أو ليّن العريكة ؟

ج : أكون لين الطبع إذا أخذت بنصيحة العقلاء راضيًا غير كاره .

س : كيف تقيم الدليل على التمييز بين الأشياء والحكم عليها ؟

ج : أقيم الدليل على ذلك بأن أقدّر الرجال حق أقدارها وأقوّم الأشياء حق قيمها ؛ وبالتفريق من طريق اليقين بين الحق والباطل ، والطيب والخبيث .

س : كيف تقيم الدليل على الحكمة والتعقل ؟

ج : أقيم الدليل على التعقل بمقاومتى كل قبيح من الأمثلة وطرحى كل ضار من النصائح .

س : كيف تقيم الدليل على الاعتدال فى الرغبات ؟

ج : أقيم الدليل على الاعتدال فى الرغبات إذا غبطت نفسى بما أمتلك ولم أتطلع إلى ما فى أيدى الغير .

س : كيف تقيم الدليل على روح العدل ؟

ج : أقيم الدليل على روح العدل إذا وفيت كل إنسان حقه وقمت بما يجب له من توقير وثناء .

س : ألا يتناول روح العدل غير الأفراد ؟

ج : بلى فإنه يتناول الجماعة لأن الناس كلهم إخوان عليهم الواجب المحتم فى عمل الخير المطلق ؛ وعليهم أن يعملوا بقدر الممكن على التسوية بينهم ، فلا بدع إذا سمينا روح العدل بين الناس بالتضامن .

س : متى يسمى المرء بصيراً بالعواقب متداركًا للأمور قبل وقوعها ؟

ج : يسمى المرء بصيراً بالعواقب إذا اقتصد جزءاً من كسبه فى كل يوم وأودعه صندوق التوفير على نظام تام ؛ وكان من ذلك عضواً فى جمعية من جمعيات التعاون ثم هيأ لأيام شيخوخته ما يقوم فيها بأوده[١] .

---

(١) يصلح شأنه .

س : كيف يكون النظام ؟

ج : يكون النظام فى وضع الأشياء فى مواضعها .

س : كيف تكون المحافظة على المواعيد أو الدقة فى الأمور ؟

ج : تكون فى مباشرة العمل فى وقته وإتيان الموعد فى حينه .

س : ألم تكن تلك الصفات التى ذكرتها من أصل واحد ؟

ج : بلى فإن مصدر جميعها الإدراك وهو العقل المميز للرجل .

الفصل السادس

سجايا القلب وصفاته

س : ما هي سجايا القلب التي تود أن تتحلى بها ؟

ج : إن السجايا القلبية التي أود أن أتحلى بها هي : الرحمة البنوية ، وحب الأسرة ، وحب الأقران والنظائر ، وحب الوطن ، والولاء ، والرأفة ، والإخلاص .

س : ما هو مظهر الشفقة البنوية ؟

ج : مظهرها العطف على الوالدين واحترامهما والعناية بهما في أيام الشيخوخة .

س : ما هو مظهر حب الأسرة ؟

ج : مظهره الاحترام الممزوج بالعطف لجميع الأقارب والأسلاف ؛ أو في الرابطة المتينة بين الإخوة والأخوات . وفي تبادل المعاونة والمساعدة في وقت الحاجات . فالأسرة المرتبط بعضها ببعض تكون في مأمن من غوائل القدر .

س : ما هو مظهر حب الأقران والنظراء ؟

ج : مظهره في أيام الدراسة في حسن الصحبة ، والمعاشرة ، ومظهره بعد ذلك في مشاطرتهم أفراحهم وأحزانهم وفي المبادرة إلى إعانتهم . حب النظراء خليق بأن يسمى بالإحسان .

س : ما هو مظهر حب الوطن ؟

ج : مظهر حب الوطن فى الطفل أن يتعلم حتى يصير وطنيًا نافعًا ، وجنديًا باسلاً . ومظهره فى الرجل أن يخدم بلده ولو كان فى سبيل خدمته ذهاب حياته . فالوطن هو الأم .

س : ما هو الولاء ؟ وما هو الانتماء ؟

ج : هو أن يذكر المرء بخير كل من أسدى إليه نعمة أو أولاه جميلاً . فأنا أحفظ الولاء لأقاربى وأساتذتى وكل من يصنع معى الجميل ؛ فلا محل لنكران الجميع فى القلب الطيب والسريرة الصافية .

س : ما هو روح الخير ؟

ج : هو تلك العاطفة الشريفة التى تسوقنا إلى عمل الخير لكل إنسان ، فصديقى فلان هو من الخيرين لأنه يثنى دائمًا على أقرانه ويبادر إلى خدمتهم ، فإن روح الشر يسمم الحياة ويقتل روح المحبة .

س : ما هى الشفقة أو المحبة ؟

ج : هى ذلك الأثر الذى نشعر به فى نفوسنا عند نزول المصاب بغيرنا . وتلك الرغبة التى نجدها فى المبادرة إلى مساعدتهم وإسعافهم . فالرأفة هى الزهرة التى تعطر النفس ، والرأفة التى لا تتحرك فى النفس هى بمثابة الزهرة التى لا ثمر لها .

س : ما هو التفانى فى الإخلاص أو بذل الذات ؟

ج : التفانى فى الإخلاص هو الحب الذى يمتزج بنفوسنا لأقاربنا ، ونظرائنا ، وأوطاننا ، ولكل ما هو حق وعدل ، وهو الحب الذى يدفعنا حتى إلى تضحية النفوس .

ومثل ذلك أن خالتى وقفت حياتها على خدمة جدى العاجز فهى إذن مخلصة ، باذلة لذاتها . وجارُنا فلان ، تعقب كلْبًا كلِبًا[1] حتى قتله وعرض بذلك حياته للخطر ، فهو إذن مخلص باذل لذاته . والفارس (أساس) نجّى الجيش الفرنساوى بتضحية حياته . فهو إذن مخلص باذل لذاته . والمجد الأثيل يكون فى بذل الذات لكل عمل نبيل .

س : كيف تكون متواضعًا ؟

ج : أكون متواضعًا إذا أنا لم أبالغ فى تقدير مواهبى الضعيفة وكنت مجتهداً فى تعظيم مواهب الغير وتكبيرها .

س : كيف تكون رحيمًا ؟

ج : أكون رحيمًا إذا نسيت عيوب الغير وهفواته ولم أفكر فى غير صفاتهم الحميدة وأعمالهم الجليلة .

---

(١) الكلِب : بكسر اللام ، هو المسعور .

س : كيف تكون متساهلاً ؟

ج : أكون متساهلاً إذا عرفت لغيرى حق التفكير والإرادة ، كما أعرفه لنفسى .

س : كيف تكون محترمًا للغير موقَّرا له ؟

ج : أكون محترمًا (دون أن أنزل بنفسى إلى منزلة الذل والعبودية) وإذا أنا عرفت حق الإجلال والإكبار لكل من فاتنى فى السن وفاقنى فى العلم والعقل .

س : كيف تعلم أنك رقيق الشعور ؟

ج : أعلم أنى رقيق الشعور لأنى أشاطر الناس فى أفراحهم وأحزانهم ولأنى أشعر بهزة فى النفس وحركة فى العواطف كلما شهدت منظرًا جميلاً ، أو رأيت عملاً جليلاً .

س : أترى تكون هذه الصفات القلبية من أصل واحد ؟

ج : نعم إنها من أصل واحد وهو ذلك الشعور ويمكننا التعبير عنها بكلمة واحدة ، وهى الطيبة . كن طيبًا ، فإن الطيبة تتناول جميع الفضائل . كذلك قال ڤيكتور هيجو[1] .

---

(١) هو الشاعر الفرنساوى الشهير .

الفصل السابع

سجايا الطبائع أو شمائلها وصفاتهما

س : ما هى سجايا الطبائع التى تود أن تتحلى بها ؟

ج : سجايا الطبائع التى أود أن أتحلى بها هى :

الحزم ، الاستقامة ، ، النبل ، الاستقلال ، الأمانة ، الحرية ، الشجاعة ، الثبات ، الحكم على العواطف ، العزم ، الإقدام ، المثابرة على العمل ، الصبر ، التصلب ، الخضوع أو الاسترسال ، الذمة ، الاعتدال .

س : كيف يكون الرجل ؟

ج : يكون الرجل حازمًا ومستقيما إذا لم يصده شىء عن طريق الشرف والفضيلة .

س : كيف يكون الرجل نبيلا ؟

ج : يكون الرجل نبيلا إذا كان مرمى عقله وقلبه لا ينزل إلى مستوى مرامى العامة . وكان مع ذلك يصفح عن الإساءة .

س : من هو الرجل المستقل ؟

ج : الرجل المستقل هو الذى يصنع ما يعتقد أنه خير وعدل ، ولا يبالى كلام غيره .

س : كيف يكون الرجل صادقا أمينا ؟

ج : يكون الرجل صادقا أمينا إذا وفى بوعده ؛ ولم يخفر ذمة عهده مهما جشمه ذلك من المشاق .

س : كيف يكون الرجل شجاعا ؟

ج : يكون الرجل شجاعا إذا كان لا يحجم أمام الصعوبات عند تأدية الواجب ؛ ولا أمام الهلاك عند إنقاذ حياة الغير .

س : كيف يكون الرجل ثابتا ؟

ج : يكون الرجل ثابتا إذا كان لا يضطرب أمام الخطر ولا يجزع في مواطن الهلاك .

س : كيف يكون الرجل مالكا لزمام عواطفه ؟

ج : يكون الرجل مالكا لزمام عواطفه إذا لم ينزل به الجدال إلى مرتبة الفحش في القول أو الطيش في العمل .

س : كيف يكون المرء مقداما ؟

ج : يكون المرء مقداما إذا انبرى لخدمة ما يعتقد أنه خير ونافع ؛ بهمة تفوق الهمم .

س : كيف يكون المرء مثابرا ؟

ج : يكون المرء مثابرا إذا اختاط له خطة وسعى وراء تحقيقها رغم ما يلاقيه من الصعوبات .

س : كيف يكون المرء صبورا ؟

ج : يكون المرء صبورا إذا راض نفسه على تحمل الألم والمكاره بلا شكوى ولا ثورة فى النفس .

س : كيف يكون المرء مستسلما ؟

ج : يكون المرء مستسلما إذا قابل القضاء بالرضاء .

س : كيف يكون المرء صاحب ذمة ؟

ج : يكون المرء صاحب ذمة إذا استخدم مواهبه من فطنة وذكاء ، وقواه من حمية ونشاط ، وصفاته من صدق وأمانة ، فى إتقان كل ما يعهد إليه من الأعمال .

س : كيف يكون المرء معتدلا ؟

ج : يكون المرء معتدلا إذا قنع من المشرب بما ينفع الغليل ومن المأكل بما يحفظ الرمق .

س : ألا تشتق سجايا الطبائع المذكورة من أصل واحد ؟

ج : بلى ، تشتق هذه السجايا من أصل واحد وهو : الإرادة .

س : إلى أى السجايا تميل بطبعك - سجايا العقل ، أم سجايا القلب ، أم سجايا الطبائع ؟

ج : إنى أرانى أميل بطبعى إلى اختيار سجايا القلب لأن بها تَسعد نفوسنا وبها نُسعد نفوس الغير .

الفصل الثامن

صفات خصوصية فى أحوال مختلفة

س : ما هى الصفات التى تبنى التلميذ الناجح ؟

ج : الصفات التى تؤهل التلميذ لأن يكون ناجحا ومحمودا هى :

أن يكون طائعا ، وأن يكون محترما لأستاذه مخلصا له ؛ وأن ينكب على العمل باجتهاد ؛ وأن يعلم أن التعليم هو أساس التقدم المادى والأدبى .

س : ما هى الصفات التى تبنى الطفل البار ؟

ج : أن يحب والديه ، وأن يحترمهما ويثق بهما ويأخذ بنصيحتهما ، ولهما عليه حق الشكر على كل ما يسديان إليه من الجميل ؛ حتى إذا أدركتهما الشيخوخة وبلغا الكبر حاطهما بعنايته ووقف نفسه على خدمتهما .

س : ما هى الصفات التى يجب أن يتحلى بها طالب الصنعة ؟

ج : هى أن يكون دقيقا صالحا ، ظريف الطبع ، وأن يأخذ بنصائح معلمه ويبالغ فى إتقان حرفته ويتجنب قرناء السوء .

س : ما هي الصفات التي تكوّن العامل المجد ؟

ج : هي أن يجعل الذمة نصب عينيه في جميع أعماله ، وأن يحب حرفته ويبذل جهده في السير بها إلى الكمال وألا يتخذ له في كل يوم معلما جديدا أو يختلف [١] إلى الحانات .

س : ما هي الصفات التي تكوّن الجندي الشريف ؟

ج : هي أن يدقق في القيام بواجب الخدمة العسكرية ، وأن لا يخفض بصره وهو في لباسه الرسمي ، وأن لا يشهد موقعة إلا خرج منها متحليا برتبة متجملا بوسام وأن يعيش ما عاش محافظا على ناموس شرفه وصيانة وطنه .

س : ما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها صاحب المصنع ؟

ج : هي أن يعدل بين عماله ، وأن يحسن معاملتهم ويعينهم على العيش في فترات العطلة الوقتية وأيام المرض .

س : ما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها التاجر الموفق ؟

ج : هي أن يكون صالحا شريفا فلا يشتط [٢] في الثمن ولا يغش الناس في بضاعته ، فإذا أضاف إلى ذلك بشاشة اللقاء والدقة في العمل ، واستولى على حانوته النظام وحسن التنسيق ، ولزمت الدقة حساباته : كان خليقا بالنجاح في عمله .

---

(١) يكثر التردد على الحانات .

(٢) يبالغ .

س : ما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها رب الأسرة ؟

ج : هي أن يحب زوجته وأن يحترمها ، وأن يحب أولاده وينبتهم نباتا حسنا بفضل العضد الوحيد والقدوة الحسنة .

س : ما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها الوطني الصادق ؟

ج : هي أن يكون أقصى همّه السعي وراء ما يرفع قدر بلاده وينمي ثروتها ويزيد في سعادتها وأن لا يفرط في حق التصويت [1] : وأن لا يتوانى عن دفع الضرائب ، وأن يعلم أن ما يعمل لم يكن من قبيل الحقوق التي يطالب بها ، ولكنه من قبيل الواجب الذي يجب عليه أن يؤديه .

(١) حق انتخاب النواب عن الأمة .

الفصل التاسع

النقائص التى يجب اجتنابها

س : ماذا ترى فى الرجل السكير ؟

ج : أرى أنى أمقته لأنه يعمل على تسميم نفسه ، وسوء مصيره ، وهو يجهل ماذا يعمل .

وأرى أنه مسىء إلى نفسه ، جان عليها لأنه يطرح عنها رداء الشرف .

وأراه جانيا على أسرته لأنه يحرمها من ضروريات القوت ليرضى شهواته .

س : ماذا ترى فى الرجل الذى يملك الغضب عنانه ؟

ج : إنى أرى الرجل الذى لا يملك أمر نفسه ويكبح جماح غضبه يتعرض لركوب الزلل ؛ حتى إذا ثاب إلى رشده حل منه الندم محل الغضب .

س : ماذا ترى فى الرجل الذى يضرب زوجته ؟

ج : أرى أنه يفعل فعل الجبان لأنه يهاجم من هو أضعف منه حولا .

إن عمله ممقوت لأنه يقصر فى واجب الاحترام لرفيقة حياته ، وأم أولاده .

س : ماذا ترى فى الرجل الذى لا يحسن معاملة أولاده ؟

ج : أرى أنه يقصّر فى واجب الإصلاح ، وينزع من نفوس أولاده احترامهم لذاته وميلهم إليه ، ويغرس فيها مكان ذلك خوفهم منه فإذا أطاعوه : أطاعوه رهبة لا رغبة .

س : ماذا ترى فى السائق الذى لا يرفق بخيوله ؟

ج : أرى أنه يفعل فعل الجبان لأنه يضرب حيوانا لا يملك أمر الدفاع عن نفسه وأرى أنه فوق ذلك يبالغ فى نكران الجميل لأنه يتناسى الأعمال الجليلة التى تقوم بها خيوله فى كل يوم : إن الذى يكون فظا غليظ القلب مع الحيوانات لا يبعد أن يكون كذلك مع الناس .

س : ماذا تصنع إذا نزلت برأسك فكرة البغض أو زار صدرك ضيف الحقد ؟

ج : أجلس إلى نفسى وأناديها أيتها النفس ، إن الناس قد خلقوا إخوانا فيجب عليهم أن يتحابوا ؛ وأقول لها إن لك من الذنوب ما تحتاجين معه إلى طلب الصفح عنه فيجب عليك أن تتعودى الصفح عن غيرك .

فلتخط السيئات على الرمال ، ولتنقش الحسنات على الصخور .

س : كيف يكون المرء متسامحا ؟

ج : يكون متسامحا إذا تحمل فى الجدال غضاضة المعارضة ، وخصوصا إذا كان محور الجدال يدور على السياسة والدين .

فإنا ننشد [١] الحرية لأنفسنا فلماذا لا نترك لغيرنا حق التمتع بها ؟

---

(١) نطلب .

س : ماذا تصنع إذا خطر بك خاطر الغيرة أو الحسد ؟

ج : أقول بينى وبين نفسى : إن الغيرة أو الحسد خلقان ذميمان يصدران عن حب الأثرة وغلظ القلب .

على أنى كلما أحسست بنزوة من نزوات الحسد تلفت حولى وقلت لنفسى : إنى أرانى بحمد الله فى حالة يتمناها الكثير .

س : كيف يكون المرء محبا لذاته (أو صاحب أثرة) ؟

ج : إن المحبّ لذاته هو الذى لا تتأثر نفسه ولا تتحرك عواطفه لمصاب غيره ، فتراه يبالغ فى العزلة والهروب من المجتمعات النبيلة المقصد كجمعيات التعاون والجمعيات الخيرية .

س : متى يكون المرء ناكرا للجميل كافرا بالنعمة ؟

ج : يكون المرء ناكرا للجميل إذا نسى أو تناسى مصادر المعروف .

ويكون الطفل ناكرا للجميل إذا سخر لسوء سلوكه من عناية أقاربه ونصائح معلميه . فناكر الجميل على كل حال هو ذلك الذى لا يقابل الإحسان بمثله ، فما عسى أن تسمى من يقابل الإحسان بالسيئة ؟

س : ماذا ترى فى الكذب ؟

ج : أرى أنه رأس النقائص التى يجب أن نفر منها . من كذب فقد غش . من كذب فقد جبن . من كذب فقد انتقص كرامة النفس البشرية .

س : ماذا تصنع إذا اتفق لك أنك كذبت مرة ؟

ج : إذا اتفق لى ذلك أبادر إلى لقاء من غششته بالكذب وأنفض إليه جملة الأمر على حقيقتها مهما كانت المغبة [1] .

س : ماذا ترى فى النفاق ؟

ج : أرى أنه أقبح ضروب الكذب : لأن المنافق المداجى يبلغ من الكيد للناس ما لا يبلغه الكذوب ، ويخفى خلف ستار الفضيلة ما يخفى من سوء المقصد حتى ينخدع به من يحدثه .

س : متى يكون المرء جبانا ؟

ج : يكون المرء جبانا إذا هاجم من هو أضعف منه حولا ، وتقهقر أمام الأخطار عند تأدية الواجب ، وفر من المسئولية وصاح به صائح الرغبة أو الرهبة فتخون من كان له مؤتمنا .

س : متى يكون المرء متكبرا ؟

ج : يكون المرء متكبرا إذا بالغ فى تقدير قيمة نفسه ، وثروته ، ومركزه فرأى فى نفسه ما لا يراه غيره فيها حتى يسوقه ذلك إلى احتقار الناس . . فالمتكبرون ينسون أن الفضيلة وحدها هى التى تقوم بأقدار الرجال ، ويجهلون أن التواضع أحد أركان الفضيلة .

---

(١) العاقبة .

س : ماذا ترى فى الطمع ؟

ج : أرى أن الطمع خلة [1] محمودة إذا رمى به صاحبه إلى غاية حميدة من تكميله نفسه أو تحسين حاله ؛ ولكنه يخرج بصاحبه عن دائرة الحمد إذا نزع به إلى طلاب ما يصعب تحققه ؛ فساقه ذلك إلى استعمال الوسائط المذمومة التى يزعم أنها تقف به على نيل مآربه .

س : ماذا ترى فى الرجل البخيل ؟

ج : أرى أنه يحرم نفسه ليجمع مالا لا ينتفع به فهو إذًا تعس وأحمق ؛ فإن الذى يجمع المال ولا ينفقه فى وجوه البر خليق أن يكون محبا لذاته جانيا على نفسه : فلا قيمة للمال المحبوس .

س : ماذا ترى فى العامل الذى لا يبالى الذمة فى عمله ؟

ج : أرى أنه ينتقص الأمانة والشرف ، فإن من أخذ على نفسه القيام بعمل ما : لأجر ما ؛ كان خليقا أن يكون مطالبا بإتقان ذلك العمل كما لو كان يعمل لنفسه .

س : ماذا ترى فى رب المصنع الذى لا يؤجر عماله حق الأجر ؟

ج : أرى أنه يعق الشرف والاستقامة لأن من أتقن عمله كان خليقا أن يوفى قسطه [2] من الأجر .

---

(١) الخلة : الخصلة .

(٢) يعطى حقه .

س : ماذا ترى فى التاجر يغش عماله ؟

ج : أرى أنه يرتكب سرقة لأنهم يخلصون له فى العمل ولا يخلص لهم فى الأجر .

س : ماذا ترى فى من يسرق المكوس (١) ؟

ج : أرى أنه يسرق المجتمع البشرى ، وعندى أن سارق الجماعة شر من سارق الفرد .

س : ماذا ترى فى الرجل الذى لا يفى بوعده ؟

ج : أرى أنه يعق الشرف وينصر الجبن : فكلمة الحر دين .

س : ماذا ترى فى من ينتقد كل شىء ويعترض على كل شىء ؟

ج : أرى أنه فى ضلال ، فإن من الأعمال البشرية ما هو محمود ونافع . فلطالما كان رقيق الشعور قليل الراحة ؛ فإنك لا تكاد تجد ما يرضيه .

س : ماذا ترى فى من لا يرى السرور فى شىء من الأشياء ؟

ج : إنى أرى فى نفسه حزنا كامنا ، وسبيله فى ذلك أن ينظر الشىء من وجهه السار ويغض طرفه عن الوجه الآخر .

---

(١) يمتنع عن دفع الضرائب والحقوق العامة .

الفصل العاشر

حكم العادة أو تأثيرها

س : ما هو حكم العادة ؟

ج : حكم العادة هو الذى يسهل علينا تنجيز الأعمال والعادة وحدها هى التى تؤثر فى حياتنا الأثرين من طيب وخبيث ؛ وعلى ذلك فقد تعين علينا الأخذ بخير العادات وأشرفها .

س : كيف يعد المرء نفسه لأن يكون مكذَّابًا [١] ؟

ج : إذا استهان المرء بالكذب فى الأمر الصغير لا يلبث أن يرى لسانه منطلقا بالكذب فى كل شىء ، فيكذب لوجه الكذب وينتهى بانتقاص كرامته وعدم تصديق الناس لكل ما يقول . فعلينا إذن بالصدق .

س : كيف يستسلم المرء للكسل ؟

ج : أعرف رفيقا لى كان لا يحب العمل فى أيام الدراسة ، فلما شب والتمس وجوه الرزق لم يجد نفسه قادرا على اكتساب قوته ، وها هو اليوم عالة على غيره ويا ويله من أيام شيخوخته فعلينا أن نعوّد نفوسنا حب العمل المنظم .

---

(١) كثير الكذب .

س : كيف يكون المرء ناقص التربية ؟

ج : إنى أعرف رفيقا لى فى المدرسة كان لا يفتح فاه إلا بشتم أو بقذف ؛ وقد أضاف إلى ذلك غلظ القلب ، وخشونة الطبع فلم يزل به سوء خلقه حتى جرّه إلى نفور الناس منه واجتنابهم طريقه . فعلينا أن نعود نفوسنا الأدب وأن نروضها على الأخلاق المطمئنة .

س : كيف يعوّد المرء نفسه أن لا يراعى الذمة فى كل ما يعهد إليه من العمل ؟

ج : أعرف رفيقا لى فى المدرسة كان لا يبالى الذمة فى عمله ولا أظنه إذا شب أن ينزع عن هذا الخلق . فهو لا يصلح أن يكون ربا لمصنع أو حانوت . ولا تلبث تلك العادة أن تذهب بملكة الصلاح فيه فيصبح رجلا مسلوب الشرف منزوع الأمانة . فيجب علينا أن نجعل الذمة نصب أعيننا فى كل أعمالنا .

س : كيف يتعودون إهمال النظام فى الحياة ؟

ج : أعرف رفيقا لى فى المدرسة مولعا بوضع الأشياء فى غير مواضعها ، فترى قمطره فى حالة من الفوضى لا يشبهها غير عقله وحياته ، فما أظن أنه يخضع فى يوم من الأيام لقانون النظام . فلنُرض أنفسنا فى مدة الراسة على نظام تام .

س : كيف يقع المرء فى التبذير والإسراف ؟

ج : أعرف رفيقا فى المدرسة لا تكاد تصل يده إلى قرش حتى يبادر إلى تبديده فلا يعرف طريق صندوق التوفير ولا يدرك للمال قيمة . فهو يبعثره هنا وهناك فى غير وجوهه ، فلا أظنه يخرج عن طباعه التى لا تلبث أن ترمى به فى أحضان الحيرة والضيق . لعلينا أن نعوّد أنفسنا الاقتصاد .

س : كيف يكون الرجل شكس الطباع غليظ القلب ؟

ج : أعرف رفيقا لى فى المدرسة لا تفتأ يده مشروعة لضرب غيره ولا أحسبه إن دام على ذلك إلا سيعتاد الشراسة وسوء الخلق فى الدار ؛ فى الطريق ، فى الحانوت .

فلنعود أنفسنا اللطف ومرونة الطبع ؟

س : كيف يقع المرء فى نقيصة الغيبة والنميمة ؟

ج : أعرف رفيقا لى فى المدرسة لا يكاد يقع أمامه أحد فى هفوة إلا بادر بنشرها بين الناس ؛ فلا يفلت منه شهرة بدون أن ينتقصها ، ولا شرفا بدون أن يهدمه ، ولا يلبث الناس إن دام على ذلك أن يسموه بناهش الأعراض ، ويتحاموا صحبته فلا يجد له من يتخذه صديقا .

الفصل الحادى عشر

الغرض من الحياة

س : ما هو الغرض من الحياة ؟

ج : الغرض من الحياة أن يتقلب الحى فى أحوال جميلة فيكون يومه أرفه منه حالا في أمسه ويقترب من السعادة ما وجد إلى ذلك سبيلا .

س : أين تجد السعادة ؟

ج : أجد السعادة فى تأدية الواجب ، فى حب العمل ، فى حب الأسرة ، فى حب الوطن والأقران ، فى التأمل فى عجائب الطبيعة ، فى استحسان جلائل الأعمال من العلم والأدب والصناعة .

س : أرنى كيف تجد السعادة فى تأدية الواجب ؟

ج : رفيقى فلان يستحق غالبا أن يكون الأول فى فرقته وذلك لنشاطه وحسن سلوكه : فهو إذن سعيد . ابن عمى ذلك الجندى الشريف أراه لم يعاقب مرة في حياته وهو يحب حرفته ويسترعي التفات رؤسائه : فهو إذن سعيد .

وأنت أيها الأستاذ أراك تكد نفسك وتتعبها فى تعليمنا وترفيه حالنا فنجاحنا وحسن سلوكنا يجعلانك سعيدا . وكذلك أنا : فإنى كلما قمت

بالواجب شعرت بنوع من السرور والارتياح ينبعث من سريرتي فأعلم في تلك الفترة أني سعيد . فلذلك أرى السعادة في تأدية الواجب .

س : أرني كيف تجد السعادة في حب العمل ؟

ج : إن جارنا ذلك البيطار [١] النشيط لا أفتأ أسمع رنين سنداله من الصبح إلى المساء ، ومع ذلك فداره مهبط الهناء . وحديقته مثال الاعتناء . وما رؤى في حانوت خمر قط ولا قابل الناس بغير البشاشة . وكم سمعته يغنى وما أظنه يعرف السأم ؛ ولذلك تراه ينتظر أيام الكبر رضى البال ويستقبلها مثلوج الصدر ساكن الخاطر .

س : أرني كيف تجد السعادة في حب الأسرة ؟

ج : إني أعرف أسرة من الأسر قد ساكنتها السعادة ، وصاحبها الهناء وذلك بفضل تربية الأولاد فيها وحسن عناية الوالدين . فإن جميع أولاد هذه الأسرة يعيشون في قرية واحدة ويتعاونون فيما بينهم ولا يقصرون في العطف على أقاربهم واحترامهم ؛ ولقد رأيتهم مرة قد دخلوا جميعا إلى منزل جدهم وكان ذلك في يوم عيده وفي يد كل منهم طاقة [٢] من الزهر ، ولما حان وقت الغداء التفوا حول مائدة خفيفة المئونة ؛ وقد أشرقت أسارير وجوههم فما أسعدني إذا وفقت إلى بناء أسرة كهذه الأسرة .

---

(١) الطبيب البيطرى .

(٢) طائفة من الزهر وتسميها العامة بالصحبة .

س : أرنى كيف تجد السعادة فى حب الوطن ؟

ج : إنى كلما فكرت فى أنه سيجىء يوم أقوم فيه بواجب الوطن والذود عنه : امتلأت نفسى غبطة وسرورا .

س : أرنى كيف تجد السعادة فى حب أمثالك ؟

ج : فى قريتى رجل وقف حياته على فعل الخير ومواساة الناس ، فما طرق بابه طارق ورد بالخيبة . فهو يبالغ فى محاسنة الناس ومناصحتهم ومعاونتهم ، وهو يجد فى خدمة الصالح العام فتراه عضوا فى كل جمعية خيرية . وكم زار مدرستنا فكان موضع احترام الكبير والصغير . ذلك هو الرجل السعيد ، وإنى لأرجو أن أوفق إلى أن أفعل فعله وأحذو حذوه حتى أصبح سعيدا مثله .

س : أرنى كيف تجد السعادة فى التأمل فى عجائب الطبيعة ؟

ج : أشعر بالسعادة كلما مر بى يوم صحو : تشرق شمسه الزاهية فى سمائه الصافية . وكلما سمعت تغريد الطيور ، أو رأيت الزرع مستويا على سوقه وقد أخرج شطأه ؛ أو شهدت الأزهار وقد ابتسمت بين الحشائش . كذلك كلما مر بى مساء رُصّعت سماؤه بالكواكب فأنعمت فى التأمل فيها . وأرى السعادة كل السعادة إذا رجعت إلى نفسى ، وتأملت فى صنع جسمى البديع ، ولطف تلك الروح العلوية . فلا أكاد أمر بمنظر من تلك المناظر حتى أقف أمامه لحة أحس فيها بالسعادة .

س : كيف تجد السعادة فى براعة الأدب ، ودقائق الصناعة ، وعجائب العلم ؟

ج : إن كل ما يرفع النفس ويهذبها يسبب سرورا داخليا فيها . وهذا السرور مصدره السعادة . وإنهم ليشعرون به كلما قرءوا كتابا بليغا ، أو شهدوا بناء عجيبا ، أو تمثالا بديعا ، أو رسما متقنا ؛ وكلما سمعوا غناء الموسيقى ، أو نظروا عجائب الاختراع ، التى تظهرها قدرة العلم .

أما أنا فإنى سأرصد وقتا من أوقات فراغى لإتمام علمى وتثقيف ذهنى .

س : كيف تهيئ نفسك لأن تكون سعيدا ؟

ج : أن لا أفعل ما أخجل من فعله ، وأن أربأ بنفسى عن مواقف الاعتذار ، وأن أنتزع من نفسى عوامل الحقد ، والانتقام ، وأن أرضى بقسمتى من حظى ، وأن أكون قاسيا على نفسى رحيما بغيرى ، وأن لا أستكين للمصائب ولا ألين لصعوبات الحياة ، وأن لا أحسد غيرى على سعادته ، وأن أكون فى كل حال متساهلا عادلا موفقا صادقا ، وأن لا أتعرض لكل ضار بصحتى .

س : ما هى إذن قواعد الحياة الأساسية ؟

ج : أن تكون طيبا ، وعادلا ، وأن تحب الحقيقة : ذلك هو ناموس الحياة .

التصحيح اللغوى : آمـــــال الـديـب
الإشـراف الفنى : إنـــچـــى چـــورج